الجزائر
وزارة الثقافة

عبد المجيد حنون

صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية



دار بهاء الدين للنشر والتوزيع





صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية



صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية

تأليف: عبد المجيد حنون

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة الجزائرية
بمناسبة الذكرى الخمسين لعيد الاستقلال



دار بهاء الدين للنشر والتوزيع
2013

عنوان الكتاب: صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية

تأليف: عبد المجيد حنون
الطبعة الأولى: 1986
الناشر: ديوان المطبوعات الجامعية
الطبعة الثانية: 2013
الناشر: دار بهاء الدين للنشر والتوزيع
ردمك: 1-48-322-9931-978
الإيداع القانوني: 3905-2013
غلاف: قسم أنفوغرافيا -دار بهاء الدين للنشر والتوزيع.
الحجم: 16 × 24
عدد الصفحات: 474

المعلومات الخاصة بالناشر: دار بهاء الدين للنشر والتوزيع
العنوان: 02 وج 2 مشروع 256 مسكن عمارة 20 المدينة الجديدة
علي منجلي الخروب قسنطينة
هاتف/ فاكس: 39.23.97.31. 213 00
هاتف/ فاكس: 00213.31.75.11.11
المحمول: 00213. 770. 96.64.46
البريد الإلكتروني: bahaedition@yahoo.fr



إهـــداء

إلى المعلّمين الذين غرسوا فيّ حبّ القراءة والكتابة في المراحل التّعليمية الأولى، وأخصّ بالذّكر:

- أحمد أبو العبّاس الطّاهر ومطرف الطّاهر في المرحلة الابتدائية، وإبراهيم حديبي وزكي الفقّي في مدرسة المعلّمين.

وإلى أساتذتي في الجامعة الذين علّموني التّفكير المنهجي والبحث، وأخصّ بالذّكر الأساتذة الدّكاترة:

- عمر الدّسوقي، وعبد الفتّاح شلبي، وبهيّ الدّين زيان ، ومحمّد إبراهيم حوّر في جامعة قسنطينة؛ وعطية نصر عامر ونبيلة إبراهيم في جامعة القاهرة، وعلى رأسهم أستاذتي سهير القلماوي.

فإليهم جميعا، أقدّم باكورة ما زرعوا، شاكرا فضلهم عليّ.

عبد المجيد

مقدمة الطبعة الثانية

عُدّت دراسة صور الشّعوب في آداب بعضها فتحا جديدا في مجال الدّرس الأدبي المقارن، الأمر الذي جعل المقارنين الأوروبّيين على وجه العموم، والفرنسيّين منهم على وجه الخصوص، يولون دراسة صور الشّعوب عناية خاصّة طيلة عقود عديدة، خلال القرن العشرين لأسباب أدبية ومعرفية أوّلا، ثمّ لأسباب حضارية وإنسانية ثانيا، تماشيا مع طبيعة الأدب ووظيفته.

ونظرا إلى ثراء الأدب العربي الحديث والمعاصر، بصور العديد من الشّعوب (الفرنسيون، الإنجليز، اليهود، الأمريكان..)، وافتقار المكتبة العربية إلى هذا الصنّف من الدّراسة، رأيتُ أن أدرس "صورة الفرنسي والفرنسية في الرّواية المغاربية"، نظرا إلى أهمّية الدّور الذي قام به هذا العنصر الأجنبي في وقائع العديد من النّصوص الرّوائية المغاربية وأحداثها وبنائها، معتقدا ومتمنّيا أن تكون هذه الدّراسة (المنجزة منذ أكثر من ثلاثين سنة) منطلق العديد من الدّراسات المماثلة أو الشّبيهة.

صدرت طبعة هذا الكتاب الأولى سنة 1986م، عن ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، في طبعة مشوية بالعديد من الهنات التّقنية والطّباعية.. إلخ. ونظرا إلى أسباب متعدّدة، لم يتخطّ الكتاب حدود الوطن؛ ومع ذلك، نفذت نُسخُه في سنوات قليلة، وتزايدت -مع مرور الزّمن - طلباتُ الباحثين للحصول على نسخة أو صورة من الكتاب، سواء من داخل الوطن وحتّى من خارجه؛ الأمر الذي جعلني أفكّر مرارا في إعادة طباعته، ولكنّ ظروفا شخصيّة أعاقت تحقيق ذلك، إلى أن عرض عليّ صاحب دار النّشر والتوزيع "بهاء الدّين" السّيد بحري عبد الحكيم، فكرة إعادة نشر الكتاب.

وهكذا، انطلقنا في إعداد طبعة ثانية لهذا الكتاب، وكان المفروض أن تصدر منذ فترة، ولكنّ الرّياح تجري -غالبا- بما لا تشتهي السّفن.

وبعد قراءات عديدة، وتصويبات وتدقيقات، تضاءلت هنات الكتاب -بمختلف أنواعها- وأصبح في شكل مقبول للقراءة قد يفيد الطّالب أو الباحث بمعلومات دقيقة؛ ويرجع الفضل الأكبر في ذلك إلى زوجتي الدّكتورة ''سامية عليوي'' التي بذلت معي جهدا مضنيا وأنفقت وقتا طويلا في مراجعة الصّيغة النّهائية، وتصحيح هنات الطّبعة الأولى، وهفواتها التّقنية والطّباعية...؛ ثمّ تصحيح هنات مسوّدة هذه الطّبعة وهفواتها المختلفة، فإليها أقدّم جزيل الشّكر والامتنان؛ كما أقدّم شكري إلى دار بهاء الدّين للنشر والتوزيع - وعلى رأسها السّيد بحري حكيم- الذي شجّعني على إصدار هذه الطّبعة، وأصرّ على ذلك.

وأملي أن يجد القارئ -طالبا كان أم باحثا - في هذه الطّبعة المصحّحة شيئا يفيده، كما أتمنّى أن يكون هذا الضّرب من البحث سبيلا يسلكه البعض من طلبة اللّغة العربية وآدابها في دراسة الأدب العربي الحديث والمعاصر - بما في ذلك الأدب العربي الهامشي - وبمختلف لغاته التّعبيرية، والكشف عن صور الشّعوب التي شغلت مخيال الأدباء العرب وأثرت نتاجهم الأدبي.

عنّابة/ الجزائر، في 20/10/ 2013

عبد المجيد حنون

المقدمــة

سُمِّي الإنسان إنسانا لأنسه بالناس كما يقال، فهو لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن الآخرين، إذ من طبعه الأخذ والعطاء للمحافظة على النفس واستمرار الجنس.

وأثناء عملية التفاعل هذه يُكَوّن الإنسان فكرة او وجهة نظر عن الآخرين، كما يُكَوّن الآخرون عنه فكرة أو وجهة نظر. وتسري تلك الفكرة من فرد إلى آخر، ومن فرد آخر إلى غيره؛ وهكذا تنتشر الفكرة أو وجهة النظر. وبالتالي تصبح لكل جماعة فكرة أو أفكار عن جماعات اخرى، كما يصبح لكل شعب فكرة أو أفكار عن بعض الشعوب.

وقد تكون فكرة الشعب عن غيره من الشعوب واقعية إلى حد ما أو بعيدة عن الواقع، وقد تكون خيالية جدا أو مناقضة للواقع. وبالرغم من ذلك لم تهتم الدراسات الإنسانية بهذه القضية حتى القرن التاسع عشر (19)، حيث بدات الأسوار الفكرية المحيطة بالشعوب تتهاوى، وصار المفكرون ينظرون في مختلف الاتجاهات، وبذلك نمت نزعة المقارنة في العلوم، ثم وصل تأثيرها إلى الآداب في النصف الثاني من القرن، وشرع دارسو الأدب في مقارنة الآداب بَعضُها بِبَعض أو مقابلتها، ثم اهتدوا إلى المحور الذي يمثل أساس المقارنة وهو البحث عن عملية "التأثير والتأثر" بين الآداب.

ومن هنا تعددت أوجه التأثير والتأثر نتيجة لتعدد وجهات النظر. وكان أحد تلك الأوجه تأثير شعب في شعب آخر، أو تأثر شعب بشعب آخر، وظهور صورة الشعب المؤثر في أدب الشعب المتأثر نتيجة لتلك العملية.

وللباحث - مثل كل الناس- أفكار أو صور حول بعض الناس، أو المجموعات، أو الشعوب، وكان الفرنسي -الإنسان الفرنسي- أحد الناس الذين كوّنتُ لهم صورة منذ الصغر نتيجة لما سمعته وللظروف التي عشتها - ظروف

الحرب التحريرية- ولم تهتز تلك الصورة إلا في مرحلة الدراسة الثانوية حيث أدركت أن الفرنسيين يختلفون عن بعضهم في الكثير من الأمور، وذلك نتيجة للاحتكاك بالبعض منهم وللقراءات العامة وقراءة مجموعة من روايات المغاربة ولبعض النضج في التفكير.

ورغم ذلك لم أفهم: لماذا يرسم الروائيون المغاربة صورا حسنة للبعض من الفرنسيين وهم أعداؤهم، وبقيت تلك القضية تشغل ذهني مدة من الزمن. وأثناء الدراسة الجامعية والاحتكاك بالعديد من الأفكار المنتشرة في الجامعة، وقراءة الروايات المغاربية قراءة أخرى ضمن المقرر الدراسي وخارجه، عادت قضية "صورة الفرنسي في الرواية المغاربية" تشغل ذهني، بعدما أخذت أبعادا أخرى.

فقد أدركت أن مثل هذا البحث يندرج في إطار الدراسات الأدبية المقارنة، وكنت أتمنى أن أتخصص في الأدب المقارن لما أدركت أن الأدب العربي في المغرب لم يتعرض لمثل هذه الدراسة، بل والأدب العربي بصفة عامة، بينما عرفت الآداب الغربية العديد من تلك الدراسات وقطعت فيها أشواطا بعيدة.

وهكذا عقد الباحث العزم على دراسة هذا الموضوع، أي دراسة صورة الإنسان الفرنسي كما رسمها الروائي المغاربي في رواياته نتيجة لبيئته الثقافية وملاحظاته اليومية والميراث الثقافي الاجتماعي الذي ورثه عن أسرته ومجتمعه وهكذا بدأت المشكلة الأولى: من سندرس من الروائيين المغاربة؟

لقد تعرضت أقطار المغرب العربي الثلاثة إلى تجربة الاستعمار الفرنسي، وظهرت في كل منها الازدواجية الثقافية أو المسخ الثقافي، وسألت نفسي: هل ندرس الروائيين الجزائريين باعتبارهم نموذجا؟ لكنّ المعربين منهم قلة والمفرنسين كثرة، فلا توازن بينهم. أم ندرس المغاربة؟ ولكنّ المعربين منهم ما زالوا قلة - كما وكيفا- وكذلك المفرنسين إذا ما قيسوا بالجزائريين.

إذن فلندرس المعربين جميعا، ولكننا سنعرض نصف الصورة فقط وسننفي بذلك صفة "المغاربية" عن المفرنسين، والقضية نفسها تصادفنا إذا درسنا

المفرنسين وحدهم، إضافة إلى التناقض الذي سيحدث بين المادة المدروسة والقسم الذي ستدرس فيه.

ولكي نعرض التجربة لم نجد مفرا من دراسة الروائيين المغاربة أجمعين، ونحدد فترة الدراسة بما بعد الحرب العالمية الثانية، وهنا ظهرت مشكلة ثانية، فقد وجدت نفسي أمام ما يزيد عن المائة رواية، نصفها بالعربية والنصف الآخر بالفرنسية، وهالني العدد، غير أن القراءة الأولى لكل الروايات المغاربية، اختصرت العدد إلى أقل من النصف، حيث استبعدت كل الروايات الخالية من النماذج الفرنسية مثل "جيل الظمأ" و"إكسير الحياة" لعبد العزيز الحبابي و"السد" و"حدث أبو هريرة قال": للمسعدي، و"الزلزال" و"عرس بغل" و"الحوات والقصر" للطاهر وطار، و"الغربة" لعبد الله العروي... إلخ.

ثم استبعدت الروايات التي لم ترد فيها سوى إشارات خفيفة جدا لبعض الشخصيات الفرنسية ولا ترسم صورة لها، مثل: "أرصفة وجدران" لمحمد زفزاف و"رفقة السلاح والقمر" و"الطيبون" لمبارك ربيع، و"بوتقة الحياة" للبكري أحمد السباعي، و"ضحايا حب" لابن التوهامي محمد، و"ريح الجنوب" و"نهاية الأمس" لعبد الحميد بن هدوقة و"طيور في الظهيرة" لمرزاق بقطاش، و"نصيببي من الأفق" لعبد القادر بن الشيخ، و"التوت المر" لمحمد العروسي المطوي، و"أرجوان" لمحمد المختار جنات، و"بودودة مات" لمحمد رشاد الحمزاوي، و"في البحث عن الأوراق" لمحمد بن عاشور، و"المُنبتّ" لعبد المجيد عطية، و"الرماد" لمحي الدين بن خليفة، و"في بيت العنكبوت" لمحمد الهادي بن صالح... إلخ.

وأجريت نفس العملية على الروايات الفرنسية المغاربية حيث استبعدت الروايات الخالية من النماذج مثل "علبة العجائب"[1] لمحمد صفريوي، و"الدروب

---

[1] La boite à merveilles

الوعرة[2]" لمولود فرعون، و"القلقون"[3] لآسيا جبار، و"سعي فوق الشاطئ الوحشي"[4]، و"من يتذكر البحر[5]" و"صيف إفريقي"[6] لمحمد ديب... إلخ.

كما استبعدت الروايات التي لم تتضمن سوى إشارات خفيفة جدا - لا تمكن من رسم الصورة- إلى بعض الشخصيات الفرنسية مثل روايات مراد بوربون "جبل الوزال"[7]، و"المؤذن"[8]، وروايات محمد خير الدين "أجساد سلبية"[9]، و"أنا الحامض"[10]، و"أغادير"[11]،... إلخ، وروايات إدريس الشرايبي "الحضارة، يا أمي[12]"، ومحمد ديب "الدار الكبيرة"[13]، و"النول"[14]، وآسيا جبار "القبرات الساذجة"[15]، وعبد الكريم الخطيبي "الذاكرة الموشمة"[16]، ومولود معمري "الربوة المنسية"[17]، وجليلة حفصية "رماد في الفجر"[18] ... إلخ.

وأخيرا، بقيت خمس عشرة رواية بالعربية تسع من تونس: "سوق الكلاب" لمحي الدين بن خليفة و"وناس" لمحمد الحبيب بن سالم، و"التحدي" لمحسن بن ضياف، و"يوم من أيام زمرا" لمحمد الصالح الجابري، "الدقلة في عراجينها" للبشير خريف، "حليمة" لمحمد العروسي المطوي، "حب وثورة" و"عندما ينهال المطر" لعبد

---

[2] Les chemins qui montent
[3] Les impatients
[4] Cours sur la rive sauvage
[5] Qui se souvient de la mer
[6] Un été africain
[7] Le mont des genets
[8] Le muezzen
[9] Corps négatifs
[10] Moi l'aigre
[11] Agadir
[12] La civilisation, ma mère
[13] La grande maison
[14] Le métier de tisser
[15] Les alouettes naïves
[16] La mémoire tatouée
[17] La colline oubliée
[18] Cendre à l'aube

الرحمن عمار، و"نوافذ الزمن" لمحمد المختار جنات، وأربع من المغرب الأقصى ("بامو" لأحمد زياد، "سبعة أبواب" و"دفنا الماضي" و"المعلم علي" لعبد الكريم غلاب)، واثنتان من الجزائر ("ما لا تذروه الرياح" لعرعار محمد العالي، و"اللاز" للطاهر وطار).

وبقيت ست عشرة رواية بالفرنسية - بما فيها واحدة مترجمة إلى العربية هي "ساهديك غزالة" لمالك حداد-، اثنتا عشرة منها جزائرية ("الطلاق" لرشيد بوجدرة، "الحريق" و"الرب في بلاد البربر" لمحمد الديب، "أبناء العالم الجديد" لآسيا جبار، "يحيى، لاحظّ لك" لنبيل فارس، "ابن الفقير" و"الأرض والدم" لمولود فرعون، "التلميذ والدرس" و"رصيف الأزهار لا يجيب" لمالك حداد، "نجمة" لكاتب ياسين، "سبات العادل" و"الأفيون والعصا" لمولود معمري)، واثنتان من المغرب الأقصى ("الماضي البسيط" و"التيوس" لإدريس الشرايبي)، وواحدة من تونس ("السمار في الأحشاء" لمصطفى التليلي).

وبعد انتقاء الروايات التي ستكون محور الدراسة، تساءلنا: ماذا سندرس في صورة الفرنسي؟ هل ندرس الأسباب التاريخية التي كونتها؟ أم الدوافع النفسية التي دفعت بالروائي إلى رسم الصورة على ما هي عليه؟ أم الدوافع الاجتماعية؟ أم كلها مجتمعة؟

لا شك أن لمحة تاريخية تعطي وضوحا وتمكن من فهم أعمق لخلفيات الصورة وكذلك الدوافع النفسية والاجتماعية، إلا أن ذلك لا يمثل هدفا أساسيا من أهداف الدراسة الأدبية المقارنة، حيث يتركز هدف الدراسة الأدبية المقارنة في إبراز مدى تأثر الروائيين المغاربة بالفرنسيين، وتجسيمهم ذلك التأثر في صورة مرسومة للفرنسي، أي عرض صورة الفرنسي من خلال رواياتهم بعد تحليلها وإبراز كيفية رسمها.

وهنا نتساءل: كيف سنستخلص الصورة من ذلك المزيج من الروايات وعلام سنعتمد؟ والجواب الطبيعي لهذا السؤال هو الاعتماد على الدراسات السابقة.

ولكن فهارس الرسائل المقدمة في أهم الجامعات العربية خالية من الدراسات الأدبية المقارنة بصفة عامة ومن دراسة صور الشعوب في آداب غيرها من الشعوب بصفة خاصة، مثل فهارس المكتبة العربية، التي لا تحوي سوى عناوين قليلة جدا لكتب تعليمية في الأدب المقارن، وهكذا لا مفر من اعتماد الباحث على الروايات والدارسات الغربية، كتبا ورسائل جامعية وحدها.

والمنهج الذي يسلكه الباحث لاستخلاص صورة الفرنسي هو المنهج التحليلي التركيبي بمعنى أن الباحث سيحلل النص لفرز مكونات كل شخصية ثم ترتيبها جسميا ومعنويا وفعليا - حسب أفعالها- في كل رواية، ثم جمع الشخصيات التي تكون نموذجا واحدا - في الرواية العربية المغاربية، ثم في الرواية الفرنسية المغاربية- وهكذا مع بقية النماذج. ثم وضع جدول لنماذج الفرنسي ومكوّناتها في الرّواية العربية المغاربية، ثم الرّواية الفرنسية المغاربية والاستعانة ببعض العمليات الإحصائية البسيطة لتحديد مدى حضور كلّ نموذج واستخلاص أهمّية كلّ نموذج في عالم الرّوائي المغاربي من خلال كثرة الحضور أو قلّته... إلخ

وليس المقصود بذلك علمنة الأدب، بل المقصود بذلك إعطاء صورة مضبوطة محددة، معبرة عن عملية التأثير والتأثر بين الفرنسي والمغاربي بمختلف جوانبها، ثم مقارنة كل نموذج فرنسي في الرواية العربية المغاربية بمثيله في الرواية الفرنسية المغاربية وإبراز مدى التشابه والاختلاف بينهما ومحاولة تعليل ذلك بالاعتماد على الصّور المرسومة والبيانات الواردة في كلّ جدول.

وهكذا تكون العملية قد بدأت بتحليل الشخصية إلى عناصر أولية-جسميا ومعنويا وفعليا- ثم ترتيب تلك العناصر وتركيبها ثم ترتيب النماذج وأخيرا

مقارنتها أي تبدأ العملية بعرض مجموعة من الشخصيات، ثم ترتيب تلك الشخصيات حتى نصل في النهاية إلى الشخصية العامة التي تمثل الشخصيات الفرنسية جمعاء.

ويبقى السؤال مطروحا: ما الهدف المتوخى من هذه الدراسة؟ إننا نعتقد أن هذه الدراسة ستنبه كثيرا من الدارسين العرب إلى العديد من الجوانب المهملة في أدبنا العربي. فأين هي الدراسات التي تعرضت للمرأة الإنجليزية أو الأوروبية في الرواية العربية؟ ولليهود في الأدب العربي القديم أو الحديث؟ وللأجنبي؟ ولفرنسا في الرواية العربية؟ وللرومية في الأدب العربي القديم؟ وللأوروبية في الشعر العربي الحديث؟... إلخ. وتوضح رأى المغاربة في الفرنسيين، وبالتالي توضح ما يحبون وما يكرهون في غيرهم، أي توضح شخصيتهم من خلال رأيهم في الفرنسيين. كما أن هذا النوع من الدراسة يعطى للشعب المتأثر -عندما يكثر ويزداد عمقا- تحليلا لشخصيته، وبذلك سيدرك جوانب النقص في نظرته، وإدراك ذلك النقص بدايةً لإصلاحه.

كما يقدم للشعب المؤثر المساوئ التي تؤخذ عليه، ووجهة نظر الغير فيه، أو يعلل للمتأثر أسبابها، ونتيجة لهذه العملية التي تتكوّن: من إدراك المتأثر لجوانب النقص في نظرته نحو المؤثرة فيه، وإدراك المؤثر المساوئ التي تُعاب عليه، تحدث عملية تفاهم أوضح وأعمق بين الشعوب.

ولا شك أن تفاهم الشعوب نتيجة لهذا النوع من الدراسات الأدبية المقارنة يصعب تصوره، إلا أنه ممكن رغم غموض أثره، والغموض بداية التفكير ودوام الدراسة، يوضح هذا التفكير.

ويبقى هدف آخر يُتوخى من هذه الدراسة، وهو التمعن في المادة الأدبية التي تكوّن صورة الفرنسي، وملاحظة فنيات الروائيين في رسم صورهم المختلفة، وإدراك أثر اللغة والثقافة في الروائي ثم على إنتاجه ومقارنة وسائل التعبير المختلفة لإدراك الجمال في كل صنف منها.

الفصل الأول

الفرنسي في المغرب العربي
ومنهج دراسة صورته في الرواية المغاربية

قبل دراسة الفرنسي في الرواية المغاربية، لا بد من لمحة تاريخية عن الوجود الفرنسي في المغرب العربي، تكون خلفية تاريخية تنير الكثير من زوايا الدراسة وتعلل الكثير من نظرات وآراء المغاربة حول الفرنسيين، ثم تلي اللمحة التاريخية، لمحة منهجية توضح كيفية دراسة صورة الفرنسي في الرواية المغاربية أو الإطار المنهجي الذي سيحتضن الدراسة، وبذلك سنقسم هذا الفصل إلى قسمين:

الأول: مدخل تاريخي للوجود الفرنسي في المغرب العربي.

الثاني: مدخل منهجي لدراسة صورة شعب في أدب شعب آخر.

أولا

الوجود الفرنسي في المغرب العربي

-لمحة تاريخية-

1- المغرب العربي قبل الاحتلال
2- دخول فرنسا إلى المغرب العربي
3- يقظة المغرب العربي وأسبابها

1-المغرب العربي قبل الاحتلال الفرنسي

المغرب الكبير جزء من شمال إفريقيا، لم يعرف الانقسام الواضح في الحكم إلا منذ زمن قصير، ووحدة المغرب الكبير تعتمد على عوامل مشتركة بين أقطاره وشعوبه، أهمها:

أ- العامل الجغرافي

عندما يتمعن المرء في خريطة المغرب الكبير يلاحظ السهل الساحلي الممتد من تونس حتى مراكش، تليه مباشرة سلسلة جبال الأطلس التلي ثم الهضاب، ثم سلسلة الأطلس الصحراوي فالصحراء الكبرى. كل هذه المناطق تمتد من تونس إلى المغرب الأقصى، وبالإضافة إلى ذلك تشابه الأجواء الطبيعية بمختلف أنواعها في ربوع المغرب.

ب- العامل البشري

تذكر كتب التاريخ أن سكان المغرب الأوائل "الأمازيغ" سموا فيما بعد "البربر" من قبل الرومان، ثم المغاربة بعد دخول العرب حاملين الدين الإسلامي، واعتنق المغاربة كلهم الإسلام، وتعرب القسم الأكبر منهم أما القلة فحافظت على طابعها "البربري" مع تمسكها بالدين الإسلامي، وبذلك أصبح سكان المغرب مسلمين عربا وعاش سكان المغرب العربي كله في وئام حتى دخول الاستعمار الفرنسي.

جـ- العامل الديني

قبل ورود المسيحية - مع الرومان- عبد الأمازيغيون آلهة شتى مثل بقية الشعوب الوثنية، ثم اعتنقوا المسيحية تحت السيطرة الرومانية ونبغ منهم رجال دين خلّد التاريخ ذكرهم منهم القديس "أوغسطين"[1] ثم جاء الإسلام فاعتنقه

---

[1] القديس أوغسطين من مواليد ولاية عنابة قديما وولاية سوق أهراس حاليا بالشرق الجزائري 354م-430م.

المغاربة على مضض في البداية، ثم أسلموا جميعا فيما بعد وبذلك تعرب المغرب الكبير، وصار المغرب العربي، بدخول العرب والاندماج الذي حدث بين المغاربة والعرب.

د- العامل اللغوي

اشترك المغاربة في اللغة أيضا منذ القدم فقد كانت لغتهم اللغة "التيفناغية" - البربرية- بكتابتها البدائية ثم جاء الرومان بلاتينيّتهم وفرضوها على المغاربة - البرابرة- فاحتلت المجال الرسمي وتقهقرت اللغة البربرية، ثم جاءت اللغة العربية مع الإسلام وتمكنت من ألسنة الكثير من المغاربة؛ وبذلك تقلّصت البربرية إلى لهجات، وفي مناطق محدودة مع فقدانها الكتابة التي لم يتبقّ منها إلا عينات في بعض الكهوف وعلى الصخور أو الفخار في المناطق الأثرية، ولما فرضت فرنسا لغتها تمسك المغاربة بعربيتهم.

هـ- العامل التاريخي

مر المغرب بمراحل تاريخية مشتركة، فقد عرف المغرب الكبير وبلاد البربر الوجود الفينيقي في الثغور الساحلية، ثم الاستعمار الروماني من تونس إلى مراكش، فالبيزنطي، ثم الروماني ثانية، ثم جاء الإسلام وضم المغرب إلى الدولة الإسلامية، وبذلك صار المغرب جزءا من الدولة الإسلامية الكبرى وقاعدة أساسية لفتح أوروبا.

ولما ضعفت سلطة الدولة الإسلامية المركزية ببغداد، بدأت الانقسامات في المغرب العربي، ولم يعرف دولا مستقلة ثابتة، وإنما مرت عليه دول أو إمارات مختلفة، سلطاتها الفعلية محصورة دوما في العاصمة والمدن الكبرى؛ أما حدود هذه الإمارات فلم تكن واضحة المعالم، مرة تمتد ومرة تتقلص، لذلك لم يشعر المغاربة بحدود تفصل بعضهم عن البعض.

ولما جاءت فرنسا، وضعت الحدود بين الجزائر وتونس من جهة، وبين الجزائر والمغرب الأقصى من جهة ثانية، دون تحديد مضبوط حتى يبقى المجال امامها مفتوحا لمناوشة من تشاء، بدعوى الحفاظ على الحدود أو حمايتها، وغير ذلك من التعلات حول الخلافات على الحدود بين الدول.

عرف المغرب الكبير قديما الوجود الفينيقي - بصفته التجارية فحسب- ثم الروماني والبيزنطي، والوندالي ثم الروماني ثانية بصفته غزوا واستعمارا، ثم الوجود العربي، وتلاحم المغاربة مع العرب دينيا ولغويا ومعيشيا، واختلطت الدماء بالمصاهرة. ثم عرف المغرب العربي الوجود الفرنسي في الجزائر ثم تونس ثم المغرب الأقصى استعمارا في الجزائر وحماية في تونس والمغرب الأقصى ولكن تحت سياسة واحدة في مختلف المجالات اقتصاديا وثقافيا.

كل هذه العوامل وغيرها كونت من المغرب العربي قطعة واحدة وشعبا واحدا —وإن قسمته الظروف حديثا إلى دول ثلاث: تونس، الجزائر، المغرب الأقصى - متشابه السمات لا يشعر المرء باختلافات بين أرجائه المتعددة إلا إذا كان دقيق الملاحظة، وذلك في أمور بسيطة جدا، توجد في مختلف الشعوب، كالفرق بين لهجات المناطق البعيدة عن بعضها جغرافيا، وكالأطعمة أو اللباس.

اما الأمور الجوهرية كالسمات الجسمية - على الخصوص - أو اللغة أو الدين، أو التقاليد العامة أو نمط الحياة اليومية، فلا خلاف فيها بين مختلف أنحاء المغرب العربي: (خلال هذا التاريخ لا يمكننا القول بوجود ثلاث دول: مغربية، جزائرية، تونسية، حسب المعنى الحديث للكلمة. فضمن كل دولة مناطق الخلاف ممتدة (...) وعرقل نموَّ الضمير الوطني، الإحساسُ بالانتماء للمجموعة الإسلامية أو العربية على الأقل ... وكذلك البربرية المشتركة في المنطقة كلها)[2].

---

[2] Samir Amin: Le Maghreb Moderne, p90.

ملاحظة: إذا ورد نص من مرجع فرنسي ولم يذكر المترجم فالمترجم هو الدارس نفسه.

والمقصود بالضمير الوطني، المفهوم الحديث للوطنية، وهكذا يرى سمير أمين أن الإحساس بالانتماء للأمة الإسلامية أو العربية على الأقل مع الاشتراك في الأصول البربرية حول نظر المغاربة عن التفكير في تكوين دويلات مستقلة لأنهم لا يشعرون بالحاجة إلى الانقسام فهم شعب واحد.

بعد دخول العربية والإسلام إلى المغرب الكبير استعمل المغاربة كلمة "رومي" - نسبة إلى الروم المستعملة في المشرق العربي- للدلالة على الأوروبيين بصفة عامة وخصوا بها الفرنسيين. وإلى جانب هذا المصطلح، ظهر فيما بعد مصطلح آخر تغلب عليه الروح الدينية وهو "كافر"، فكل أوروبي عندهم "كافر" لأنه غير مسلم، ونجدهم يخصون المسيحيين بهذه الصفة، أما اليهود فيسمونهم يهودا؛ فهم يعتبرون المسيحيين كفارا لأنهم لم يعتنقوا الإسلام كما فعل المغاربة، ولذلك فهُم "كفار". وكلمة "كافر" أو "رومي" أو "فرنسي" أو "طلياني"[3]، إذن مسميات لمسمى واحد لدى المغاربة.

ومن العوامل التي ساعدت على رسوخ هذه المصطلحات - وبخاصة مصطلح كافر- الحملات المسيحية على مسلمي الأندلس والمجازر التي ذهب ضحيتها عشرات الآلاف من المسلمين؛ وتذكر المراجع التاريخية أن سبب نشوء القرصنة يعود إلى حملات المغاربة الجهادية على إسبانيا وما جاورها من المدن الساحلية - فرنسية كانت أم برتغالية- لنجدة إخوانهم المسلمين، ثم للانتقام فيما بعد، ثم بحثا عن الغنائم أي قرصنة عادية هدفها الحصول على المال والعبيد والمغامرة.

وهذا يعني أن المغاربة لم تكن لهم علاقات طيبة مع فرنسا، وبذلك فالمغاربة كانوا يجهلون الكثير عن فرنسا والعكس صحيح أيضا، حيث كان

---

[3] يعني إيطالي.

الفرنسيون يتصورون المغاربة زنوجا غلاظا متوحشين يعيشون على الطبيعة في الغابات، لذتهم الوحيدة القفز والرقص[4].

ولم يكن المغرب العربي يحظى بأي حضور في أذهان الفرنسيين إلا ابتداء من النصف الأول للقرن التاسع عشر: (حقيقة، لم تقم فرنسا بصراع سياسي وعسكري من أجل السيطرة على شمال إفريقيا إلا ابتداء من التوسع الاستعماري الأوروبي، وبخاصة منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر عند ملاحظتها ثروات وإمكانيات بعض الأقطار.

1830م كان التاريخ الذي أعلن فيه للعالم بواسطة احتلال الجزائر الاهتمام الذي توليه فرنسا للمغرب)[5]. وإلى غاية دخول الفرنسيين إلى الجزائر كان الرأي العام الفرنسي يجهل الجزائر وطبيعتها، ويعتقد أنها شبيهة بالمستعمرات الحارة. لقد كان الفرنسيون يعتقدون أن الجزائر ما دامت بلدا إفريقيا فهي لا بد أن تكون بلدا حارا يصلح لزراعة القطن والأرز وقصب السكر وما يلي ذلك من الزرع الصالح في البلدان الحارة.

إذا كانت معرفة الفرنسيين بالجزائر - وهي الهدف الأول- على هذا الشكل، فمن الطبيعي أن يكون جهلهم بتونس والمغرب الأقصى مماثلا لجهلهم بالجزائر، إن لم يكن أكثر. ونستنتج من كل ما سبق أن معرفة المغاربة بالفرنسيين والفرنسيين بالمغاربة كانت ضئيلة جدا ومشوّهة نتيجة للمراحل التاريخية التي مرت بها من حروب فينيقية إلى صليبية إلى سقوط الأندلس وقتل المسلمين، ثم إلى عمليات القرصنة، ثم رد الفعل الأوروبي فيما بعد، بحيث هاجمت الأساطيل الإسبانية والبرتغالية والفرنسية وحتى الإنجليزية الشواطئ المغاربية عدة مرات، وهكذا كانت العلاقات المغاربية الأوروبية عامة والفرنسية بخاصة

---

(4) Lahjomri A.: L'image du Maroc dans la littérature française, Alger, SNED, 1973.

(5) Lahjomri A.: L'image du Maroc dans la littérature française, p17.

علاقات حرب وعداوة منذ القدم. ومعروف أن الحرب لا تتيح مجالا للتعاون، بل تتيح مجالا للحقد والكراهية.

لعبت المكتشفات الجغرافية أوائل النهضة الأوروبية دورا هاما في دفع الأوروبيين إلى التطلع إلى خارج أوروبا كلها، فاتجهت الأنظار إلى أمريكا - وكانت قد اكتشفت حديثا- ثم إلى الشرق الأقصى ثم إلى إفريقيا، وتحولت عملية الاكتشافات من عمليات فردية أو خاصة بمجموعة من المغامرين أو هداة التجار إلى عمليات تهتم بها الدول الأوروبية بحثا عن الثروات بمختلف أنواعها - المعادن الثمينة، المحاصيل الزراعية النادرة كالفلفل الأسود والبهارات، ثم البشر أدوات للعمل أيضا-. وبعد تلك العمليات مباشرة تجلت الثورة الصناعية في كثير من الدول الأوروبية، طالبة المواد الخام، والأسواق للتسويق، وكانت البلدان الضعيفة مصدر المواد، والأسواق المطلوبة؛ وبذلك بدأت الاتصالات بين فرنسا ودول المغرب العربي، على شكل إرساليات لافتداء أسرى عمليات القرصنة، ثم بدأت المبادلات التجارية بشراء فرنسا الحبوب والكثير من المحاصيل الزراعية من المغرب العربي، وهكذا بدأت فرنسا تحصل على الامتيازات التجارية في الجزائر ومراكش وتونس حيث وجدت الفرصة سانحة لأن الحكام المغاربة لم يكونوا في مستوى السياسة العالمية آنذاك، ويكفي أنهم جزء من الدولة العثمانية التي كانت تسمى "الرجل المريض"، وكانت الدول الأوروبية تتناقش في اقتسام التركة بينما الدولة العثمانية عاجزة عن التحرك.

وسجلت المراجع التاريخية اهتمام فرنسا باحتلال المغرب العربي قبل دخولها الجزائر بفترة لا بأس بها (وقد نضجت مشاريع الفتح الفرنسي للجزائر منذ وقت طويل قبل "ضربة المروحة" الشهيرة إذ قد اعتبر نابليون الأول الجزائر سوقًا خارجية ضرورية لتطور الصناعة الفرنسية.

وفي حديث له مع الكسندر الأول في تيلسيت "عام 1707م" وأفورت "عام 1808م" كان نابليون الأول يضيف دوما الجزائر إلى ممتلكاته المقبلة عندما تثار

مسألة تجزئة الإمبراطورية العثمانية. واستعدادا للاستيلاء على هذه البلاد، أوفد نابليون إلى الجزائر وتونس عام 1808 المهندس الحربي الماجور "بوتين" لإجراء مسح طوبوغرافي فيهما ولإعداد مخطط الحملة عليهما)[6].

ففرنسا لم تحتل الجزائر لأن كرامتها أهينت عندما ضرب داي الجزائر السفير الفرنسي بالمروحة، وإنما كانت العملية مدبرة منذ زمن، فبحث فرنسا عن أسواق لتسويق منتجاتها وبحثها أيضا عن مصادر للمواد الخام هي الأسباب التي دفعت فرنسا للتفكير في احتلال الجزائر وبقية أجزاء المغرب العربي.

فالمهندس الحربي الفرنسي مسح طوبوغرافيا تونس والجزائر - كما سبق الذكر- وكانت الامتيازات القنصلية الوسيلة الأولى لتواجد الفرنسيين بتونس:

بدأت الامتيازات القنصلية في تونس إذن قبل احتلال الجزائر، وعندما تم احتلال الجزائر ضاعفت فرنسا من جهودها للسيطرة على تونس: (ومنذ أن احتلت فرنسا الجزائر، قررت سياستها الاستعمارية وجوب السعي لإضافة المملكة التونسية إلى أختها. فسارت على اعتبارها "منطقة نفوذ" تهيئة لما يراد من الاستيلاء عليها وابتدأت تجد في العمل على قطع صلتها بالسلطنة العثمانية وتسلسلت المشاكل السياسية والتهديدات العسكرية البحرية، لمنع تركيا من تعهد صلاتها بالأيالة التونسية)[7].

ورغم مساعي فرنسا وجهودها قبل احتلال الجزائر وبعده لتثبيت الوجود الفرنسي، فإن التونسيين بذلوا مجهودات كبيرة للإفلات من قبضة هذا الدخيل الذي بدأ يحشر أنفه في تونس، حيث رأوا الخطر محدقا من الشركات الأوروبية

---

[6] لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة د. عفيفة البستاني، دار التقدم، موسكو 1975، ص202 - 203.

[7] محمد الفاضل بن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية في تونس، الدار التونسية للنشر، ط1، ص23 -24.

بعامة والفرنسية بخاصة نتيجة للامتيازات التي حصلت عليها، وبذلك بدت آثار النعمة على أصحاب الشركات وآثار البؤس والشقاء على التونسيين.

ورغم ذلك، وقع التونسيون فيما وقع فيه إخوانهم الجزائريون: (وقد كان شأن الجالية الفرنسية يزداد حتى أصبح لمصالح الفرنسيين الصدارة على مصالح بقية الجاليات الأخرى. وبدأ الفرنسيون يستولون على الامتيازات والأراضي بغير وجه حق، واستولوا على الديار واحتكروا الكثير من الميادين الاقتصادية، وأذاقوا أهل البلاد العسف والاستغلال. وتكون من جراء ذلك العسف والاستغلال لدى الشعب العربي في تونس إحساس بأن حياة البلاد التونسية قد أصبحت مهددة بمزاحمة طاغية عليها لا تقوى على مناهضتها، وأن تلك المزاحمة ترمي إلى غاية معلومة، وقد شاهد التونسيون مثلها في الحالة التي عليها المهاجرون الجزائريون الذين وفدوا عليهم. وقد خلفوا عزتهم وثروتهم بعد أن عانوا ألوانا من الإرهاق وانتهاك الحرمات)[8].

فإذا انتقلنا إلى المغرب الأقصى، نجد بدايات الوجود الفرنسي هناك قد تحققت بالطريقة نفسها، غير أن التغلغل التجاري الفرنسي في مراكش كان أقدم من الجزائر وتونس، ولا شك أن السبب هو استقلال مراكش عن الباب العالي أي الدولة العثمانية بحيث كانت الاتفاقيات بين فرنسا ومراكش مباشرة أما تونس والجزائر، فكانت الاتفاقيات تتم بعد مشورة الباب العالي -ولو صوريا- فلقد كانتا إيالتين عثمانيتين ومع ذلك فالأسلوب - كما سبق القول- واحد (كما وقع في الجزائر وتونس استخدم شعار الحرية "في التجارة والملكية الفردية" لتلغيم الدولة المراكشية من الداخل وتهيئة المجال لتنمية الجهاز الرأسمالي الوافد من الخارج)[9].

---

[8] الطاهر عبد الله: الحركة الوطنية التونسية، مكتبة الجماهير، ط1، بيروت 76، ص 12.

[9] Abdallah Laraoui: L'histoire du Maghreb, p208.

كان أسلوب فرنسا في النفاذ إلى أقطار المغرب العربي واحدا، وكان المغرب الأقصى الميدان الأول للتجربة، فقد ظهر فيه الوجود الفرنسي مبكرا على بقية دول المغرب: (وفي 1767 وقّعت فرنسا وسلطان مراكش اتفاقية أصبحت بموجبها صلاحية دائرة المحاكم القنصلية خلافا لاتفاقية 1631 وحيدة الطرف، أي ينتفع منها الرعايا الفرنسيون المقيمون في مراكش دون أن تشمل الرعايا المراكشيين المقيمين في فرنسا. واستنادا لاتفاقية 1767، توسعت أيضا امتيازات التجار والمقيمين الفرنسيين والمستوطنين توسعا كبيرا. إذ أنهم أصبحوا لا يتمتعون بالحصانة القضائية فحسب بل وأيضا - بالإعفاءات الضرائبية أي بالحصانة الضرائبية كما تحرر من دفع الضرائب (المحميون) وهم الجماعة التي لم يعرفها نظام الامتيازات في تركيا.

والمحميون هم السكان الأصليون، رعايا مراكش، الذين كانوا يخدمون المقيمين الفرنسيين)[10]. بهذه الطريقة استطاعت فرنسا أن تتغلغل في اقتصاد مراكش وفي الإدارة وحتى في القضاء.

وصارت مراكش شبه مستعمرة ولولا صراع الدول الأوروبية على المغرب الأقصى، لتم استعماره من قبل فرنسا منذ مدة طويلة جدا: (إلا أن فرنسا لم تستطع في غمرة ظروف الصراع الأمبريالي الحاد الاستيلاء على مراكش بسهولة بل ترتب عليها الحصول على موافقة الدول الكبرى بهذا الخصوص)[11].

وليس معنى هذا الكلام أن المغاربة وقفوا مكتوفي الأيدي أمام التسرب الفرنسي ومحاولاته للسيطرة على المغرب، بل دافعت دول المغرب -الثلاث- عن نفسها: "(...) وحينما بدأ الاستعمار الغربي يدق أبواب المغرب بمحاولة السيطرة على شواطئه، دافع المغرب عن نفسه، ولكنه أخذ ينعزل عن العالم الخارجي ولو أن

---

[10] لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث: ترجمة د. عفيفة البستاني، دار التقدم، موسكو 1975، ص344.

[11] المرجع نفسه: 1975، ص348.

انعزاله لن يعفيَه من القيام بواجبه في مساعدة الجزائر حينما هاجمها الاستعمار الفرنسي، وكانت حصيلة هذه المساعدة هزيمة إيسلي"[12].

يتضح مما سبق أن الاتصال الفرنسي بدأ منذ بداية القرن السابع عشر في شكل اتفاقيات تجارية بسيطة، ثم ازداد حجم الاتفاقيات. وبنمو الصناعة والحضارة في فرنسا بدأت تفكر في شمال إفريقيا لجعلها سوقا لمنتجاتها ومصدر خامات لمصانعها، إضافة إلى رغبة التوسع وتكوين الإمبراطوريات وهي رغبة عمت أوروبا آنذاك.

ونتيجة لبساطة الحكام وسذاجة إدارتهم في مختلف أقطار المغرب استطاعت فرنسا أن تحصل على امتيازات قنصلية لترويج تجارتها، وبارتكازها على تلك النقطة بدأ نفوذها يتغلغل في المغرب؛ وبذلك عرف المغاربة "الفرنسي" واستطاعت فرنسا أن تحتال على بقية الدول الأوروبية المنافسة لها - وبخاصة بريطانيا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا-، واتخذت قضية "المروحة" ذريعة واحتلت الجزائر، وبذلك وضعت رجلها في الحمام - كما يقال-، ووجد المغاربة أنفسهم وجها لوجه أمام قوم يختلفون عنهم شكلا ولغة ودينا...

2ـ دخول فرنسا إلى المغرب العربي

خططت فرنسا للاستيلاء على المغرب العربي فأرسلت الجواسيس وكونت الشركات، وبالدسائس حصلت على امتيازات قنصلية هامة، حتى صار الجو صالحا لإنجاز مخططاتها؛ وكانت الجزائر أول قطر مغاربي تستعمره فرنسا بقوة السلاح (في 30 جانفي 1830 قررت الحكومة الفرنسية التي كانت تحت رئاسة دي بولينياك أن تبعث حملة ضد الجزائر وقد بررت هذه الحركة بعدة أسباب منها الانتقام من الجزائر التي أهان الداي حاكمها، الشرف الفرنسي حين

---

[12] عبد الكريم غلاب: تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب: الشركة المغربية للطبع والنشر، الدار البيضاء 1976، ص15 -16.

ضرب القنصل الفرنسي بمروحة أمام جمهور ديبلوماسي، ومنها وقف القرصنة وتخليص أوروبا من مصدر القلق والاضطراب. ولكي تقدم فرنسا حجتها بصفة نافذة ومؤثرة عمدت إلى التركيز على السبب الأول بالنسبة إلى الراي العام الفرنسي، بينما ركزت على السبب الثاني بالنسبة إلى الراي العام الأوروبي)[13]، إلا أن هذين السببين المذكورين لا يكونان الدافعين الحقيقيين أو الوحيدين بل هناك دوافع وأسباب أخرى لم تصرح بها فرنسا آنذاك: فأهداف الحملة التي لم يذكرها الفرنسيون هي زيادة شعبية الملك شارل العاشر غير المحبوب، والفرار من دفع دين كانت الجزائر قد أعطته إلى فرنسا بدون فائدة عام 1797، بينما كانت فرنسا تعاني من الحصار الإنجليزي. وأخيرا مزاحمة الدول الأوروبية الأخرى وخصوصا بريطانيا على خلق إمبراطورية جديدة.

وما إن دخل الفرنسيون الجزائر حتى اتجهت أنظارهم شرقا -إلى تونس- وغربا إلى المغرب الأقصى وبدأت دعوى حماية الحدود والأمن، ومتابعة المتمردين - الجزائريين، وكانت تونس أول القطرين تدخله فرنسا بصفة رسمية؛ ويذكر "جورج هاردي" أن سبب دخول فرنسا إلى تونس وضع حد لأعمال قبائل الحدود: (عندما ارسلت فرنسا سنة 1881 فرقا لوضع حد لنشاطات قبائل الحدود لم تجد نفسها أمام حكومة حقيقية مسؤولة على أعمال الشغب)[14].

ثم يذكر مؤرخ الاستعمار الفرنسي بعد هذا الكلام قولا مناقضا للسابق حيث يرجع سبب دخول فرنسا إلى تونس المنافسة الإيطالية لفرنسا، كما يصرح بالوجود الفرنسي في تونس منذ مدة طويلة، اي أن التخطيط لاحتلال تونس قديم (أكثر تعريبا من بقية شمال إفريقيا، ومع ذلك فإن تونس انفتحت أكثر للوجود الأوروبي: ففرنسا كانت ممثلة منذ مدة بالمؤسسات التجارية والخدمات

---

[13] د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، دار الآداب، ط1، بيروت 69، ص12.

[14] Georges Hardy: Histoire Sociale de la Colonisation Française, pp160-161

التعليمية وكانت الهجرة الإيطالية الشعبية ضخمة جدا، ومعلوم أن محاولات إيطالية للإحراز على الاعتراف بأهميتها؛ نجم عنها بسط الحماية الفرنسية)[15].

ورغم تصريحه بأن الحماية الفرنسية نجمت عن محاولة إيطاليا الفوز بتونس، فإنه يعود مرة ثانية إلى ذكر حماية الحدود وما إلى ذلك.

والسبب معروف، ففرنسا خططت منذ دخولها الجزائر لاحتلال تونس أيضا لميزاتها العديدة: (جعل استيلاء الفرنسيين على الجزائر 1830 تقرير مصير تونس المقبل أمرا محتوما. في الواقع، وبالطبع، استرعت تونس انتباه المستعمرين الفرنسيين الذين شرعوا في تكوين إمبراطورية استعمارية لهم في شمال إفريقيا (...) فهجمت القوات الفرنسية عام 1837 على الأراضي التونسية وخربت بعض القرى وأحرقت المحاصيل واستخدم النزاع الذي كان قد نشب أثناء تخطيط الحدود الجزائرية التونسية ذريعة لهذا الهجوم الوحشي، وكذلك مسألة الخراج، الذي كان يقوم بدفعهِ باي تونس إلى الجزائر في وقت من الأوقات وتحت ضغط إنجلترا اضطرت القوات الفرنسية في آخر المطاف إلى الجلاء عن الأرض التونسية)[16].

ورغم خروج القوات الفرنسية من تونس سنة 1837م فإنها لم تيأس، بل كثّفت مجهوداتها حتى كانت الحماية سنة 1881.

لقد خططت فرنسا لاحتلال تونس، ومهدت السبيل إلى ذلك بالشركات التجارية والإرساليات التعليمية فهيأت المناخ النفسي، وما بقي إلا السبب الذي سيتخذ ذريعة، وجاءت قضية حماية الحدود سببا مناسبا (في شهر ماي "أيار" من سنة 1881م، احتلت الجيوش تونس (...) وقد نصّت هذه المعاهدة على أن الاحتلال مؤقت وأن القوات الفرنسية سوف تحتل جهات على الحدود والشواطئ تراها لازمة

---

[15] Georges Hardy: Histoire Sociale de la Colonisation Française, p161

[16] لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث: (ترجمة د. عفيفة البستاني)، ص220 -221.

لتوطيد الأمن وأن هذه القوات سوف ترحل عندما تكون الإدارة التونسية قادرة على حفظ الراحة والأمن والنظام (...) وأن على حكومة الباي أن تتعهد بمنع إدخال الأسلحة والمهمات الحربية من جزيرة جربة ومرسى قابس وغيرها من المراسي بجنوب المملكة وذلك وقاية لبلدان الجزائر التي تملكها فرنسا)[17].

وباتخاذ حماية الحدود ذريعة استطاعت فرنسا أن تحقق مطامعها في تونس كما اتخذت نفس الذريعة في المغرب الأقصى - مراكش- فكانت قضية الحدود وأمنها السبب المباشر لهجوم فرنسا المتكرر (كما اقتحمت فرنسا مرارا البلاد المراكشية في غضون القرن التاسع عشر ففي 1844م تغلغل الفرنسيون فيها وهم يتعقبون أثر عبد القادر، وساند الأسطول الفرنسي المارشال بيجو بقصفه طنجة والصويرة "موغادور".

وتحت ضغط إنجلترا لم يكن بوسع فرنسا الاستفادة من ظفرها للاستيلاء على الأراضي المراكشية، إلا أنها تعمدت عدم تثبيت حدود دقيقة بين ممتلكاتها الجزائرية المراكشية)[18].

واستمرت المناوشات بين فرنسا والمغرب الأقصى مع تغلغل الشركات الفرنسية والإرساليات في الوسط المغربي مع استمرار حصولها على الامتيازات، حتى كانت الحماية سنة 1912. وهكذا دخلت فرنسا أقطار المغرب العربي - الجزائر، تونس، المغرب الأقصى- محققة أطماعها، فحققت الأسواق لسلعها والمواد الخام لمصانعها والأراضي لمعمريها، والشركات لأصحاب الأموال واليد العاملة للمصانع كما صرفت أنظار الشعب الفرنسي عن مشاكل الحكم.

فما هي السياسة التي اتبعتها فرنسا في كل قطر من هذه الأقطار وكيف عاملت المغاربة عندما آلت الأمور إليها؟

---

[17] الطاهر عبد الله: الحركة الوطنية التونسية، ص23 -24.

[18] لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث: (ترجمة د. عفيفة البستاني)، ص347.

دخلت فرنسا المغرب العربي بالقوة، فلا عجب إذا ما وجدنا سياستها تكملة للأسلوب الذي دخلت به، ويحلل الفيلسوف الفرنسي "جان بول سارتر" سياسة فرنسا في المغرب العربي فيقول: (تم الاحتلال بالعنف والاستغلال والضغط يتطلبان التمسك بالعنف، أي الحضور العسكري. وهكذا فلا عجب إذا عم الرعب فوق التراب المغربي: ولكن المعمر يتمتع هناك في الوطن الأم بالحقوق الديمقراطية، التي يرفضها الجهاز الاستعماري للمستعمرين)[19] فالسياسة الفرنسية في المغرب العربي اتسمت عموما بالعنف والاستغلال وحرمان المغاربة مما يتمتع به الفرنسيون بقوة السلاح.

ويفصّل المؤرخ المصري -سمير أمين- هذه النقطة، فيقول: (الوسائل والسياسات) المتبعة من قبل فرنسا متشابهة من قطر لآخر (...) إدارة مباشرة ثقيلة الوطء، محاولة استيعاب ثقافي، دعم الاستعمار يعتمد على "البيض الصغار" المتجمعين في مدن فرنسية، رفض الحقوق السياسية للأهالي حتى الثانوية منها)[20].

لقد بدأت سياسة العنف والقوة هذه منذ احتلال الجزائر ومحاولة قوات الاحتلال التسلط على أمور البلاد: (ورغم تجربتهم فقد وجد الفرنسيون أنفسهم وجها لوجه أمام شعب يختلف عنهم تماما في اللغة والدين والتقاليد ودرجة الحضارة وهكذا بدأوا يحكمون بطريقة مباشرة نظرا لانعدام ظل أية واسطة بينهم وبين الشعب، وبالإضافة إلى ذلك فإنهم قد وجدوا أنفسهم أمام مقاومة شديدة عسكريا وسياسيا من جميع أطراف الجزائر، والنتيجة كما كان متوقعا هي الاضطراب والفوضى)[21].

---

[19] مقدمة كتاب: Albert Memmi: Portrait du colonisé, Payot, Paris, éd. 1973, p25.

[20] Samir Amine: Le Maghreb Moderne, p97.

[21] د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ص74.

وعمدت فرنسا في الجزائر إلى سياسة التجهيل حتى يسهل عليها توجيه الجزائريين وكأنهم قطيع أغنام لا يعي ولا يدرك إلى أين يساق: إن من بين الملامح الصارخة للاحتلال الفرنسي في الجزائر هذا الإهمال المتعمد لتعليم الجزائريين، وهي الحقيقة يجب أن نؤكد عليها لأن هناك من لا يزال يعتقد بأن فرنسا كانت تقوم "ببعثة حضارية" في الجزائر وأن الجزائريين قد استفادوا من هذه البعثة.

في سنة 1913م اعترف الفرنسي "أرنول فان جيناب" بأننا قد حضرنا الجزائر جزئيا من الوجهة المادية ولكننا لم نفعل شيئا تقريبا بخصوص الناحية العقلية التي هي أكثر أهمية "كان الكولون يحتجون بأن الجزائري غير قابل للتصحيح وغير قابل للتعليم"[22] وأحسن ما توصف به السياسة الفرنسية في الجزائر ومعاملتها للأهالي قول المارشال "بيجو" الذي قهر الشعب الجزائري: (لا بد من منع العرب من الحرث، من الحصاد، من الرعي هكذا أمر بيجو.. وطبقت هذه السياسة التخريبية بطريقة منهجية)[23].

إذن وجد الفرد الجزائري نفسه وحيدا أمام حكامه الجدد أعزل من كل سلاح، وكان ذلك هدف السياسة الفرنسية.

وللوصول إلى هذه النتيجة طبقت فرنسا سياستها الاستعمارية على مراحل واضحة المعالم (في سنة 1830 لم تكن المشكلة مشكلة تخريب الدولة الجزائرية، ولكن استبدال حاكم بآخر لا غير، وفي سنة 1847 لم يكن الهدف تحطيم المجتمع، وفي سنة 1870 لم يكن الاهتمام منصبا على تزييف الشخصية التقليدية: إلا أن كل ذلك حدث بالفعل، ونتيجة لكون الحياة الاقتصادية التي

---

[22] د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ص164 -165.

[23] Abdallah Laraoui: L'histoire du Maghreb, p280.

تسببت وفرضت تلك العمليات ما زالت ضعيفة، فقد التجأت إلى قوة السلاح والقوانين)[24].

ونلاحظ أن سياسة فرنسا في الجزائر ارتكزت على القهر، قهر الأهالي وتجويعهم وتشريدهم بقوة السلاح، ولما تم لها ذلك انتقلت إلى الشخصية الوطنية وعملت على تشويهها بسلخها عن جذورها الحضارية كلها، وبعزلها عن سائر أجزاء الوطن العربي، وبمنع تدريس اللغة العربية ومحاربة الدين الإسلامي وتشجيع الشعوذة، مع تكوين طبقة من أشباه المتعلمين بالفرنسية، وكونت لهم مدارس خاصة بالجزائر: (إنها لم تكتف بالأهداف التي طلبتها السلطة الاستعمارية وهي: تكوين معلمين مثقفين نوعا ما غير منسلخين عن الإسلام. ولكنها كانت تغييرا جذريا للأشخاص المعهود بهم إليها ليصيروا أعوانا لها)[25].

إن تغيير الفرد الجزائري هو الهدف النهائي للسياسة الفرنسية، فإذا ما تغيرت شخصيته تمت لفرنسا السيطرة على الجزائر أرضا وشعبا؛ ولتحقيق ذلك اتبعت السبل التي ذكرناها.

أما سياسة فرنسا في تونس، فرغم أن وجودها كان حماية لا غير، فإن السياسة المتبعة هناك لم تختلف في الجوهر عنها في الجزائر، إن لم نقل إنها طبقت السياسة نفسها، بل بحذافيرها، مع الاستفادة من الأخطاء التي حدثت في الجزائر، لذلك كانت السيطرة سريعة، والثورات قليلة: (وهكذا فعمل فرنسا في تونس كان قريبا من عملها في الجزائر رغم اختلاف الأوضاع السياسية.

فقد تمكنت من احتواء كل النشاطات المحلية واستولت على تجهيز واقتصاد البلاد من غير واسطة، وحشت البلاد بالمؤسسات الخيرية، وأقامت جنب المدارس الإسلامية جهاز تدريس مشابه تماما للتعليم في الجزائر، ونتيجة لضعف الموارد المحلية، فقد كانت كل هذه الأعمال تتم بصورة مصغرة، وبشيء من

---

[24] Abdallah Laraoui: L'histoire du Maghreb, p285.

[25] Fanny Colonna: Instituteurs Algériens (1883-1939), p139.

الصعوبة)[26] ونفس الكلام تقريبا يقوله المؤرخ التونسي "الطاهر عبد الله" عندما يتحدث عن السياسة الفرنسية في تونس، فيذكر كيف صار "الباي" صورة همها الوحيد قبض مخصصاتها من المقيم العام وإمضاء الأوراق التي يطلب منه إمضاؤها، وافق على مضمونها أم لم يوافق، وكيف استولت الشركات الفرنسية على كل الأعمال كما استولى المعمرون على الأراضي، مع المعاملة السيئة للأهالي[27].

وتلقى الاقتصاد التونسي ضربة قاصمة عندما غمرت الأسواق التونسية بالبضائع الفرنسية، فاحتضر الإنتاج الحرفي، وبذلك حرم الكثير من التونسيين من العمل[28] وصار المستعمرون ينظرون إلى التونسيين وكأنهم ليسوا بشرا، كما حطمت فرنسا اللغة العربية في تونس، وبذلك صار الطالب التونسي يعرف دقائق الفرنسية ويجهل لغته[29].

وما سبق قوله عن الجزائر وتونس ينطبق أيضا على المغرب الأقصى، مع بعض الاختلافات، حيث نجد الوجود الفرنسي قديما هناك، بالإضافة إلى ذكاء الجنرال "ليوتي*" الحاكم العام وخبرته وحنكته، ويصف جورج هاردي "سياسة ليوتي بالذكاء، إذ لم يشعر المغاربة بالغربة في بلدهم، ففي عهده لقيت المواسم الإسلامية اهتماما كبيرا[30].

ويوضح سياسته أكثر: (إن الفكرة التي أراد غرسها هي أنّ وجود فرنسا في المغرب يهدف إلى غاية تربوية بالمعنى الواسع -زيادة عن التنمية الاقتصادية-أي

---

(26) Georges Hardy: Histoire Sociale de la Colonisation Française, p162.

(27) الطاهر عبد الله: الحركة الوطنية التونسية، ص ص28 -29.

(28) لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص329.

(29) الطاهر عبد الله: الحركة الوطنية التونسية، ص29.

(*) ليوتي: Lyautey.

(30) Georges Hardy: Histoire Sociale de la Colonisation Française, p171.

تهيئة المغاربة لتسيير شؤونهم. إنه يجابه مباشرة مشكلة تكوين الصفوة، ويمهد بتلك العملية لمؤسسات تعليمية جديدة، وهي المعاهد الإسلامية التي تختار تلاميذها من الأوساط الإسلامية المرفهة وبأعداد محدودة، وذات المناهج المزدوجة الثقافة: ثقافة حديثة وأخرى إسلامية ولا يهدف بهذه العملية إلى تكوين مجموعات من الموظفين ورجال القضاء على طريقة المدارس في الجزائر، بل، تغيير الصفوة التقليدية بشبان يخلفونهم)[31].

لقد أراد "ليوتي" أن يخلق جيلا من الحكام المغاربة يلبسون ويأكلون ويتكلمون مثل بقية المغاربة، ولكنهم يفكرون لفرنسا ويخدمون مصالحها، إنه كان يريد استمرار الاستعمار في المغرب الأقصى حتى بعد خروج الفرنسيين. وزيادة على هذه الأعمال، فقد تسلل الفرنسيون إلى السلطة، وأصبح وراء كل مسؤول مغربي فرنسي يوجهه ويعمل باسمه، ولذلك كان المغاربة يحسون بآثار الاستعمار وأضراره ولكنهم لا يرونه مباشرة.

وخلاصة القول، أن فرنسا اتبعت سياسة متشابهة في أقطار المغرب العربي، ارتكزت على دعامتين أساسيتين: التفقير والتجويع وسلب الأراضي وتحطيم الاقتصاد حتى يعم الفقر والجوع والذل، ثم محاربة الدين الإسلامي، واللغة العربية، وتشجيع الفساد الأخلاقي، واستطاعت أن تنفذ هذه السياسة بحدّ السلاح أولا، ثم بسن القوانين المختلفة ثانيا، ثم بالدسائس والحيل ودراسة عقلية الشعب المغربي وأخذه من مواطن ضعفه، وبذلك وجد المغربي نفسه أمام فرنسي شديد القبضة عليه رغم لطافة شكله ودماثة معاملته في الظاهر.

كانت عملية التفقير والتجويع تعتمد على ورود المعمرين من فرنسا أولا، ثم قبول فرنسا لخليط من الأوروبيين: إيطاليين وإسبان ومالطيين وأصبحوا هم ا لآخرون معمرين.

---

[31] Georges Hardy: Histoire Sociale de la Colonisation Française, p17.

ونتساءل: لماذا يترك الفرنسي أو الأوروبي بلده ويغامر بالمجيء إلى بلد لا يعرفه؟ يجيب "ألبير ميمي" عن هذا السؤال: (لأنه يقبض كثيرا ويصرف قليلا. يذهب للمستعمرة لأن الظروف مهياة، الأجور مرتفعة، الثراء سريع، المشاريع مثمرة أكثر، للخريج الشاب تعطى وظيفة، للموظف درجة زائدة، للتاجر تسهيلات هامة، ولرجل الصناعة المادة الخام، وأيد عاملة بأثمان بخسة)[32].

ولكي يصير فرنسي أو أوروبي معمرا، لا بد من إحرازه على أرض زراعية شاسعة، ولن يتمكن من ذلك إلا بالاغتصاب أو الشراء بأثمان زهيدة، تحميه قوانين لصالحه، أو بالحيل كإغراق أصحاب الأراضي الأصليين في الديون وعمليات الرهن وألاعيب البنوك، نتيجة لانغماسهم في الخمر ومعاشرة الفرنسيات واليهوديات، كل ذلك بمساعدة السلطات الاستعمارية وتشجيعها ماديا ومعنويا وقانونيا مع الضغط على الأهالي ماديا ومعنويا وقانونيا.

ويصف "جورج هاردي" عملية استيطان المعمرين في الجزائر، تحت حماية السلطة الاستعمارية والوطن الأم، فيقول: (مع بيجو صار الاستعمار رسميا يتمتع بإدارة حازمة: كل معمر يستطيع الاستفادة من منحة (...) في المركز الذي عين له، كما يستطيع الاستفادة من قطعة أرض للبناء وأخرى للفلاحة (...) ومصاريف بداية الإقامة مغطاة.

إن الاستيطان مُعان ومحمي من قبل الجيش، الذي يعبد الطرق ويبنى القرى، ويكون أحيانا بمساعدة العساكر المسرحين، "مستعمرات عسكرية" (...) ويعد بيجو رات الجمهورية الثانية استعمار الجزائر علاجا للبطالة المنتشرة في الوطن الأم)[33].

هكذا تمت عملية استيطان المعمرين الفرنسيين أو المتفرنسين في الجزائر، بمساعدة الجيش والإدارة والوطن الأم وحمايتها لهم، وتوفير كل التسهيلات

---

(32) Albert Memmi: Portrait du Colonisé, p34.

(33) Georges Hardy: Histoire Sociale de la Colonisation Française, p177-118.

وبذلك صار المعمر مهيمنا على الحياة المحلية، وصار كل فرنسي مهما كانت وظيفته معمرا أو يحلم بأن يكون معمرا، بل صار المعمر يقف حتى في وجه السلطة الاستعمارية نفسها لأنه أصبح يعتقد أنه صار قوة واجب على السلطة حمايتها ومساعدتها[34].

أما إذا انتقلنا إلى تونس، فنجد العملية نفسها ولكن بطرق أنجع وأفيد وأذكى لأن فرنسا استفادت من تجربتها في الجزائر.

وبعد توزيع الأراضي البور واستئجار الأوقاف، أتى دور أراضي الأهالي فانتزع بعضها بالقوة، والبعض بالحيل، والباقي اشتري بالثمن البخس تحت حماية القانون: (إن توطيد الحماية الفرنسية مهد السبيل لاستغلال الشعب التونسي استغلالاً تاما (...) وعلى غرار ما حصل في الجزائر، جرى نهب الأراضي في تونس على نطاق واسع إلا أنه سار بوتائر أسرع، وعملت السلطات الاستعمارية كل ما في وسعها لتشجيع وحتى لتنظيم الاستيطان الفرنسي (...)، واستحوذ الفرنسيون على معظم الأراضي بطريقة خاصة وبدون معونة مباشرة من السلطات أي "استعمار خاص")[35].

إن عملية الاستحواذ على الأراضي واحدة إذن في الجزائر أو في تونس، فكيف كانت في المغرب الأقصى؟

يصفها "جورج هاردي" بأنها -أي الهجرة وعملية الاستيطان- كانت سريعة؛ أما الجنرال "ليوتي" الحاكم العام في المغرب الأقصى، فيصفها بأنها عملية "ارتماء" من قبل المعمرين.

فالمعمرون الجدد يسرعون إلى البناية، والسُّلمُ والسقف لما يتما بعد. ولا شك أن بعض هؤلاء كانوا مجرد مغامرين يبحثون عن المكسب السهل، ولكنهم

---

[34] Georges Hardy: Histoire Sociale de la Colonisation Française, p155.

[35] لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث: ص 336 -337.

سرعان ما يدركون أن المغرب غير أمريكا، فيتحولون من مغامرين إلى معمرين، مثل أولئك الذين قدموا من الجزائر وتونس وتكونوا هناك[36].

ونجد المعنى نفسه عند عبد الكريم غلاب، عندما يتحدث عن استيطان الفرنسيين في المغرب الأقصى: (في العشرينات قويت ثقة الفرنسيين في المستعمرة الجديدة بالظروف الاقتصادية التي أوجدتها الحماية، فقد أنشأت قوانين لاقتطاع الأراضي من المغاربة باسم الاستعمار ومنحها للمعمرين الأوروبيين كما سنرى، وأخذت الدولة تشجع هؤلاء المعمرين باقتطاع الأراضي وبالقروض والعطاءات والإصلاحات العمرانية التي تجعل حياتهم في رفاه، وكل ذلك على حساب المواطن المغربي الذي كان يزداد بؤسا كلما تمكن الأجنبي القادم من فرنسا من تنظيم حياته الاقتصادية ليزداد غنى)[37].

والنتيجة، أن عملية استيطان المعمرين في المغرب العربي تمت بصورة متشابهة مع بعض الحدة في الجزائر نتيجة قلة خبرة سلطات الاستعمار، أما في تونس والمغرب الأقصى، فقد تمت بطريقة أسرع وأنجع بعد خبرة السلطات بطرق الاغتصاب والاحتيال على أصحاب الأراضي، وفهما للروح المغربية ومعرفة جوانب الضعف فيها.

وبسبب عمليات الاستيطان واستحواذ الفرنسيين على الحركة الاقتصادية، تدهورت حالة المغاربة عموما، وصاروا عمالا مأجورين في أراضيهم، وفي المصانع والمشاريع التي جاءت بها السلطة الاستعمارية لخدمة أهدافها، وزادت قبضة الفرنسي قوة وشدة. ولا شك أن المغربي صار لا يرى في الفرنسي إلا أسباب فقره وذله، فهو سبب كل المآسي التي يعاني منها في حياته.

---

(36) Georges Hardy: Histoire Sociale de la Colonisation Française, p169.

(37) عبد الكريم غلاب: تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، ص31.

ونتيجة للأسبقية وطول المدة خلف الاستيطان الفرنسي في الشعب الجزائري آثارًا بيّنة لم يستطع المجتمع الجزائري مسايرة التطور الاستعماري، فتحطمت إطاراته وتهشمت كما تدهورت حالة الأسر العريقة وزادت بعد 1870م حتى صارت فقيرة.

وتلاشت الطبقة الممتازة في غضون 1900م (...) كما تلاشت الطبقة الوسطى المكونة من المتعلمين ورجال القضاء والتجار (...) أما الصناعات التقليدية فقد تطايرت أشلاء، ولم يتبق منها إلا بقايا في بعض الأحياء الشعبية (...) أما الفلاحون العرب، ضحايا السلب وبيع الأراضي فقد أصيبوا هم أيضا[38].

لقد تضرر الجزائري من الاستعمار وأصاب الضرر المغاربة كلهم، وفي تحليل للمستعمر يصفه ألبير ميمي قائلا: "لقد انتزع من ماضيه وأوقف في مستقبله، تقاليده تحتضر، وضاع أمله في تكوين ثقافة جديدة، إنه لا يمتلك لغة ولا علما، ولا فنا، ولا وجودًا وطنيًا أو عالميًا، لا حقوقًا ولا واجبات: إنه لا يمتلك شيئا ولم يعد شيئا يذكر، ولا يأمل شيئا"[39].

أصبح المغربي لا شيء بعد ما حل به الاستعمار الذي جاء لتمدينه وتحضيره، ولكن ربما لا ينطبق ذلك على الأطفال الصغار، إذ ربما تنجيهم من ذلك المصير نعمة التعليم التي جاءت بها فرنسا، فما هي وضعية الطفل في المدرسة الفرنسية؟: (النسبة العظمى من الأطفال المستعمرين في الشارع، والذي يحالفه الحظ ويدخل مدرسة لن ينجو تماما. فالذاكرة التي تكون له ليست ذاكرة شعبه، والتاريخ الذي يتعلمه ليس تاريخه، إنه يعرف من هو كولبير أو "كرومويل" ولكنه لا يعرف من هو "خزندار"، يعرف من هي "جان دارك" ولا يعرف من هي "الكاهنة" (...) الكتب تحدثه عن عالم لا يشبه عالمه البتة.

---

[38] Ch. Robert Ageron: Histoire de l'Algérie Contemporaine, pp57-58.

[39] Albert Memmi: Portrait du Colonisé, pp155-156.

فالطفل سمي "طوطو" والبنت "ماري" وفي أماسي الشتاء "ماري" و"طوطو" يعودان إلى بيتهما من الطرق المغطاة بالثلج ويتوقفان أمام بائع القسطل)[40]، إنها عملية تشويه لعقلية الطفل المغربي الذي حظي بدخول المدرسة، أما الذي لم يحظ بذلك فقد كان علم الشارع بالنسبة إليه غزيرا.

هذه بعض آثار الاستعمار في الشعب المغربي، ولم نجد من بينها أي أثر حميد حيث حطم مادياته ومعنوياته، وبذلك لم يترك له متنفسا.

عندما دخلت فرنسا الجزائر وعدت الجزائريين بحرية الدين، واحترام المرأة والممتلكات والتقاليد التي لا شك أنها شملت اللغة والشعارات الوطنية للبلاد باستثناء السيادة. لقد صرحوا بأن حركتهم كانت تقصد إلى القضاء على الداي "الطاغية" ليس غير (...) وأن الفرنسيين "سيحررون" الجزائريين من الطغيان التركي[41].

ولكن تاريخ الجزائر يقول غير ذلك، فأعمال الفرنسيين في الجزائر - كما سبق الذكر- تختلف تماما عن وعودهم. ويقول عبد الله العروي حول هذه النقطة: (إن تاريخ الجزائر من 1830 إلى 1871 مجموعة مغالطات: فالمعمرون الذين جاؤوا لتحويل الجزائريين فيصيروا مثلهم كما قيل لنا، لم يحولوا إلا الأرض الجزائرية إلى فرنسية، والعسكريون الذين وعدوا باحترام العادات وطرق الحياة المحلية لا هم لهم إلا التحكم في كل شيء، ونابليون الثالث الذي ادعى تكوين إمارة عربية، كان غرضه إعطاء الصيغة الأمريكية لاقتصاد البلاد أي الاستعمار الفرنسي)[42].

لم تنجز فرنسا أي وعد، لأنها كانت تريد تحقيق أهدافها، ومن العبث أن تلام على عدم الوفاء بوعودها، فليس من المعقول أن تتحرك دولة بجيوشها،

---

[40] Albert Memmi: Portrait du Colonisé, pp133-134.

[41] د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ص22 -23.

[42] Abdallah Laraoui: L'histoire du Maghreb, p284.

وتصرف الملايين لأجل مصلحة دولة أخرى، ولا بد أن وراء عملها ذاك أغراضا تريد تحقيقها.

وفي تونس، نجد السياسة نفسها، حيث ادعت فرنسا أنها تريد تنظيم الدولة وإصلاح وضع البلاد الاقتصادي المتدهور، ولكن لم يحدث شيء من ذلك إذ تسلطت على الاقتصاد وغيرت كل شيء فيه وفق مصلحتها.

والأمر نفسه ينطبق على المغرب الأقصى، فقد ادعت سلطات الاحتلال أنها تريد تكوين سلطة مغربية قادرة على تسيير البلاد، لكن تكوينها ذاك كان كارثة على المغرب، ولم تخرّج خلال عشرين عاما سوى طبيب واحد وثلاثة محامين ومهندسيْن فلاحييْن، كما ذكر عبد الكريم غلاب[43].

كل وعود فرنسا ذهبت أدراج الرياح، فلا هي حسنت الاقتصاد ولا هي علمت الناس، ولا هي احترمت العادات والتقاليد واللغة والدين، ولا حافظت على النفوس البشرية.

لقد اتضحت نوايا فرنسا، وظهر عدم وفائها بوعودها، فكان ذلك من العوامل الهامة التي أغضبت المغاربة ودفعتهم إلى المقاومة ورد الفعل.

لقد قاوم الأهالي المحتل منذ بداية الاحتلال للجزائر، ولما سقطت المدن تقهقرت المقاومة إلى الجبال والأرياف.

وزادت مقاومة الشعب عندما لاحظ قسوة الجيش الفرنسي وأعماله الفظيعة مثل قطع الأشجار وحرق المنازل وقتل النساء والأطفال والشيوخ، مع سلب النساء حليهنّ من آذانهنّ وأيديهنّ وقطعها أحيانا، وتحويل المساجد إلى كنائس، وإبطال المواسم الإسلامية وسلب الأراضي وحرق البقية بأمر من الجنرال بيجو[44] فكتل الشعب صفوفه، وشرع يقاوم المحتل، وتنوعت أساليب المقاومة:

---

[43] أنظر: عبد الكريم غلاب: تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، ص117.

[44] د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ص36 -37.

1- مقاومة المعمرين

2- المقاومة المسلحة

3- المقاومة السلبية أو الرفض

يذكر "جورج هاردي" في كتابه "التاريخ الاجتماعي للاستعمار الفرنسي" أن -الحكومة الفرنسية أوقفت حركة المعمرين لمدة عشر سنوات، نتيجة لما أصابهم من أمراض - وللهجومات المتكررة عليهم من قبل الأهالي[45] وليس من المعقول أن يتصور إنسان إيقاف الحكومة لهجرة المعمرين خوفا عليهم من المرض، وحتى إذا كان ذلك صحيحا، فلماذا لم تخف على عساكرها وإدارييها الموجودين في الجزائر؟

فالجزائر لم تكن مركز أوبئة، والسبب الأرجح إذن هو عمليات الاغتيال التي كان المعمرون يتعرضون لها، إضافة إلى ذلك عمليات التخريب التي كان الشعب يقوم بها والتي استمرت حتى خروجهم نهائيا من الجزائر. وكانت المقاومة المسلحة موجهة إلى الجيش الفرنسي وإدارته والتاريخ يذكر لنا ثورات قامت في الجزائر أشهرها ثورة الأمير عبد القادر والشيخ الحاج المقراني وثورة الزعاطشة... إلخ.

ويذكر المؤرخ الفرنسي "شارل روبير أجيرون" أن الجزائر عاشت أربعين سنة من 1830 إلى 1870 وهي ساحة حرب[46].

ولما وجد الجزائريون أن المحتل فرض نفسه وبدأ في تنفيذ مشاريعه، انطووا على أنفسهم ورفضوا لغته ومدارسه: (كانوا يرون أن التعليم الفرنسي يعني الفرنسية أي فقدان الشخصية، ورغم الحث الذي كان يحدث في كل حي عربي، فإن القلة القليلة من الأولياء هم الذين قبلوا إرسال أبنائهم عند الرومي)[47].

---

(45) Georges Hardy: Histoire Sociale de la Colonisation Française, p117.

(46) Ch. Robert Ageron: Histoire de l'Algérie Contemporaine, p10.

(47) Ghani Merad: La littérature Algérienne d'expression française, pp13-18.

إذن رفض الأهالي الوجود الفرنسي وبخاصة عندما وجدوه يسلب اراضيهم ويسيطر على كل شيء، بل إنه يريد محو شخصيتهم محوا، أما في تونس، فإن "لوتسكي" يذكر أن الشعب التونسي انتفض على إثر إبرام معاهدة باردو، واضطر الفرنسيون إلى الاستيلاء على البلاد شبرا شبرا[48].

ثم التجأ الشعب التونسي إلى المقاومة السلبية كما لجأوا ايضا إلى الاغتيالات وعمليات التخريب والمظاهرات. وعندما دخل الفرنسيون المغرب الأقصى لم يجابهوا بحد السيف نتيجة للتحضيرات السابقة، فقد عرفنا سابقا ان الاتفاقيات القنصلية بدأت بين المغرب الأقصى وفرنسا منذ سنة 1631م، فلما فرضت الحماية كانت الظروف ملائمة تماما، زيادة عن استفادة فرنسا من تجربتها في الجزائر ثم تونس، ورغم كل ذلك، لم يلبث أن انفجرت المقاومة في الريف بقيادة الأمير الخطابي، وكادت تخرج المحتل. ثم قويت الحركة السياسية في المغرب، وبذلك لم يسكت الأهالي على حقهم واستمرت المقاومة السياسية إلى أن خرج المحتل.

ومجمل القول، أن المغاربة عموما رفضوا الوجود الفرنسي وبخاصة عندما لاحظوا ما حل بهم من جراء وجوده بينهم، ونتيجة لما قام به، ولقد تعاونت سلطات الاحتلال في الجزائر وتونس ومراكش مع الوطن الأم - باريس-على امتصاص دم المغاربة، وذلك هو السبب الذي ولد الغضب والرفض ثم الثورة لدى المغاربة.

ويحلل "جان بول سارتر" هذه القضية فيقول: (تبيع المستعمرة بأسعار بخسة مواد غذائية، مواد أساسية، وتشتري بأثمان مرتفعة جدا من الوطن الأم سلعا مصنعة. وهذه التجارة الغربية لا يستفيد منها الطرفان إلا إذا عمل الأهالي دون مقابل أو كاد؛ هذه الطبقة التي لم تصل حتى لمرحلة البروليتاريا الفلاحية

---

[48] لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص333.

لا تستطيع الاعتماد على التحالف مع الأوروبيين الأقل حظا: فالكل يعيش عليها بما فيهم هؤلاء "المعمرين الصغار" المستغلين من قبل "المعمرين الكبار"، ولكن إذا ما قورنوا بالجزائريين فهم محظوظون: فمتوسط الدخل لفرنسي الجزائر أعلى عشرات المرات من دخل مسلم، ومن هنا يرتفع الضغط)[49]. ومهما يكن سبب ارتفاع الضغط أو سبب الثورة، فالمغاربة رفضوا الوجود الفرنسي وثاروا عليه بشتى الوسائل، إلا أن عوامل عديدة جعلتهم لا يستطيعون إخراجه إذ ذاك فبقيت المقاومة مشتتة فترة طويلة.

دخلت فرنسا الجزائر فقتلت الوطنيين وحطمت التجارة وسلبت الأراضي، وأحرقت الغابات واستبدلت اللغة الوطنية بلغتها، وشوهت الدين الإسلامي، ثم استغلت عرق العمال- الفلاحين، بل أرغمت أبناء البلاد على الدفاع عنها[50].

وكررت العملية نفسها في تونس، ثم في المغرب الأقصى، فماذا كان موقف مثقفي فرنسا من كل ذلك؟ وهم الذين عرفوا بحبهم للحرية، ومهدوا بآرائهم الجريئة للثورة الفرنسية ودافعوا عن المظلومين. ولبعضهم مواقف مشهورة جدا في قضايا معروفة مثل قضية "دريفوس"[51] المعروفة.

تتبع الباحث "جان ديجو" نظرة المثقفين الفرنسيين للجزائر فقال: (من 1830 إلى 1900 كانت النظرة للجزائر على أنها أرض مغامرات ومصدر أحاسيس جديدة، أرض مغامرات من خلال مشاهدات العسكريين ومذكرات الجنرالات وتقارير مراسلي الحرب، أرض أحاسيس جديدة لدى الأدباء السياح الذين جاؤوا

---

[49] من مقدمة كتاب:

.Albert Memmi: Portrait du Colonisé, p25

[50] المقصود بذلك قانون التجنيد الإجباري الذي فرض على شباب الجزائر في بداية القرن الحاضر رغم معارضة الأهالي.

[51] ضابط فرنسي يهودي حكم عليه بالموت بتهمة الخيانة العظمى ولكن "أميل زولا" وقف مدافعا عنه بمقالاته الشهيرة "أني أتهم" ولما ظهرت براءته سقطت الحكومة بسبب ذلك.

للبحث عن إيطاليا جديدة أو عن شرق جديد وتجديد فكرهم الرومانتيكي (...) ومن 1900 إلى 1935 كانت النظرة للجزائر أنها مزرعة سخية)[52].

وهذا موقف سلبي لحد الآن إذا لم نقل أنه استغلالي، فلا همّ للمثقفين الفرنسيين سوى التمتع بالمناظر والأحاسيس الجديدة، وأية أحاسيس والأنات تصعد من هنا وهناك. أما بعد 1935 فيضيف الكاتب قائلا: (ومنذ 1935 تركزت الموضوعات حول جزائر البحر المتوسط المتوجهة نحو البحر، مع إحياء بعض الروائيين لذكريات الماضي، واهتمت البقية بوصف الأوساط الشعبية وبعض العائلات الكبيرة)[53].

ويحدد "غاني مراد" موقف الفرنسيين، فيقول متحدثا عنهم: (ورغم ذلك لم يرفع أي واحد منهم، ولو الإصبع الصغير من أجل الجزائر، لم يسمع أي واحد منهم صراخ شعب يحتضر. لمؤلف "البؤساء" مداح الحرية والحقوق، ولمؤلف "إني أتهم" مشاغلهما الخاصة، برودون يحلم "بتوازي الأوضاع" و"جوريس" يهتم بصراع الطبقات قبل مسألة الاستعمار)[54].

إذا كان هؤلاء لم يرفعوا حتى الإصبع الصغير من أجل الجزائر، فغيرهم أيد الاحتلال ورأى فيه مكاسب جمة مثل "لامارتين" الذي كان من رجال الساسة آنذاك، وبلزاك كان ينتظر من الجزائر الخير العميم - كما فعل في روايته La Cousine Bette، وكذلك جورج صاند" لم يكن يهمها من الجزائر إلا الفوائد المادية. ومع ذلك فقد أشار البعض منهم إلى ما أصاب الجزائر من جراء الاحتلال مثل الفونس دوديه الذي صور بؤس الجزائريين وشقاءهم - كما فعل في روايته تارتاران- وكذلك "موباسان" الذي رأى في الجزائر كل شيء جميلا عدا الوجود

[52] Jean Dejeux: Littérature Maghrébine de langue française, p4.
[53] Jean Dejeux: Littérature Maghrébine de langue française, p17.
[54] Ghani Merad: La Littérature Algérienne d'expression française, p26.

الفرنسي[55] وربما يكون "هوغو" أجراهم عندما قال أن احتلال الجزائر وصمة عار لفرنسا.

فالملاحظ أن المثقفين الذين لم يرضوا باحتلال الجزائر، ثم بقية أقطار المغرب، لم يفعلوا ذلك، إيمانا منهم بحرية هذه الشعوب أو بظلم فرنسا، وإنما لأنهم كانوا يرون أن هذه الأقطار الإفريقية ينبغي أن تبقى على طبيعتها لتكون مصدر أحاسيس لهم لتبقى حديقة يغيرون فيها الجو، والبعض الآخر، ثار من أجل فرنسا التي دنست شهرتها وشرفها باحتلال هذه الأقطار، فهناك فرق بين الثورة من أجل الشعوب المستعمرة من قبل دولته، والثورة من أجل دولته التي دنست باحتلال تلك الشعوب.

فمصلحتهم الخاصة ومصلحة فرنسا - ولو معنويا وأدبيا لا غير- أهم من شقاء هذه الشعوب، فسمعة فرنسا أهم من حرية المغاربة، وزار كثير من أدباء فرنسا ومفكريها الجزائر وبقية أقطار المغرب منهم: شاتوبريان، موباسان، فلوبير، الفونس دوديه، بيير لوتي تيوفيل غوتي، جان كوكتو، أندريه جيد، مونترلان ...إلخ.

واستمر موقف المثقفين الفرنسيين هذا اتجاه احتلال المغرب العربي على تلك الصورة، حتى ظهر الانقسام في صفوفهم وصاروا يساريين ويمينيين، وتذكر الكتب التاريخية أن اليسار الفرنسي وقف مع الحركات التحررية، أي أن المثقفين اليساريين الفرنسيين وقفوا مع الجزائريين والمغاربة في نضالهم، فما مدى صحة هذا القول؟

---

[55] وبسبب ذلك أن كان يبحث عن جو جديد فوجد ذلك في الجزائر حيث كل شيء جديد عليه إلا الوجود الفرنسي فهو هارب منه.

يقول "غاني مراد" حول هذه النقطة: (لقد وجد اليسار الفرنسي المحتضر بعد نهاية العدوان على الهند الصينية في ثورة الجزائر حصانا جديدا للمعركة)[56].

إذن، فاليسار الفرنسي استغل حركات التحرر ليضرب بها الحكومة الفرنسية، عاملا بالمثل القائل: "عدو العدو صديق... فهو متعاطف مع الجزائر لتحطيم الحكومة الفرنسية الرأسمالية، لا لمساعدة الجزائريين؛ ويصل الباحث المغربي عبد الكبير الخطيبي إلى النتيجة نفسها تقريبا، حيث يذكر أن اليسار الفرنسي وجد في حركات التحرر ضالته، حتى أن مساعدة هذا اليسار للمثقفين المغاربة بعد الحرب العالمية الثانية كانت بمثابة طوق نجاة له -أي لليسار الفرنسي- ليجابه الحكومة الرأسمالية[57].

فحتى اليسار صديق الشعوب لم يساعد المغاربة حبا في الحرية، بل ساعدهم لأنه يتمتع بإمكانيات لا يتمتعون بها، وبمساعدته تلك ينخر جسم عدوه، وبذلك يبقى المغاربة مستغلين من هنا أو من هناك وإن اختلف نوع الاستغلال والهدف منه.

3- يقظة المغرب العربي وأسبابها

أخضع الفرنسيون شعوب المغرب العربي، سلبوا الأراضي واستولوا على الحياة الاقتصادية كلها وتحكموا في الإدارة، وأفسدوا الحياة الروحية، واستبدلوا اللغة العربية بالفرنسية حتى وصلت شعوب المغرب العربي إلى حالة سيئة، ولقد ثار المغاربة عدة مرات وفشلت ثوراتهم وقاوموا المحتل بوسائل شتى ولم يخرج. لقد نجحت عمليات الاستيطان وتعددت القوانين المقيدة للمغربي فانطوى المغاربة على

---

[56] Ghani Merad: La littérature Algérienne d'expression française, p75.

[57] عبد الكبير الخطيبي: الرواية المغربية (ترجمة محمد براده)، ص ص13 -14.

أنفسهم وعم اليأس نتيجة التحكم الشديد الذي فرض، وصار المغربي لا يبحث إلا عن لقمة العيش، فتثبت البعض ببقايا الأراضي الزراعية وعمل البعض عند المعمرين في مواسم الحرث أو الحصاد، وعمل البعض الآخر في المصانع أو المؤسسات الخاصة وهاجرت البقية إلى فرنسا لدفن نفسها في مناجم الشمال أو لتقوم بالأعمال المتروكة من الأوروبيين والقلة القليلة هاجرت إلى المشرق العربي لتستوطن هناك.

وجد المغاربي نفسه أمام محتل غير إنساني: ويوضح "سارتر" ذلك فيذكر أن المستعمِر يرى المستعمَر أدنى من الإنسان فيبتعد عنه حتى لا يتشابهان وبذلك تصير صفة الإنسانية عدوة له -أي للمستعمر- وبما أن المستعمَر إنسان ولا يمكن أن يكون أدنى إنسان مهما فعل المستعمر، عليه إذن أن يبتعد اي يتمعدن ويتصلب ويتحجر، وبمعنى آخر "يفقد إنسانيته"[58]. وبذلك أغلقت الأبواب أمام المغربي ولم يبق أمامه إلا اليأس، وكيف لا ييأس والقمع مسلط عليه؟، وكأنه دابة، ليس له أي حق وظروفه تتدهور يوما بعد يوم عندما لا يملك شعب إلا اختيار نوع الموت الذي يريده، لأنه لم يحصّل من مستعمره إلا اليأس، عند ذلك لن يبقى لديه شيء يخشى ضياعه، اللهم إلا يأسه الذي سيتحول إلى شجاعة، إلى رفض دائم للاستعمار[59].

وانقلب يأس المغاربة إلى شجاعة، فعلام يخافون؟، لقد أضاعوا كل شيء ولم يبق لديهم ما يخافون عليه، وتجردهم من الخوف هو بداية تيقظ الوعي لديهم. فكيف استيقظ وعي المغاربة؟

---

(58) أنظر: مقدمة كتاب: Albert Memmi: Portrait du Colonisé, p29.

(59) أنظر: مقدمة كتاب: Albert Memmi: Portrait du Colonisé, pp29-30.

لقد أسهمت عوامل كثيرة في تنبيه(*) المغاربة إلى ما هم عليه، منها:

أ -الهجرة إلى فرنسا ومشاهدتهم لحياة الآخرين، ثم اختلاطهم بالعمال الفرنسيين وانخراط البعض منهم في النقابات: (وقد بدأ الجزائريون في فرنسا يقارنون حياتهم التعيسة تحت قانون الأهالي، بالحرية التي وجدوها في مرسيليا، وبا دي- كالي، وباريس، ولم يشعروا، كعمال أنهم كانوا يختلفون كثيرا عن زملائهم عمال فرنسا، وقد أدى بهم الإسهام في الأحزاب السياسية والصحافة، وحرية الاجتماعات وتبادل الأفكار إلى أن يضيفوا ذخيرة جديدة لم يسبق لهم أن مارسوها؛ وبالإضافة إلى الفرص المادية والمعنوية التي اقتنوها لوجودهم في فرنسا نفسها، كانت هناك فوائد عقلية ووطنية، ذلك أنه إذا كانت طريقة الحياة في الشرق الأدنى ليست غريبة جدا عن طريقة الحياة في الجزائر، فإنها في فرنسا كانت تختلف تماما)[60].

ورغم ما لحق الجزائريين والتونسيين والمغاربة من غبن نتيجة الهجرة إلى فرنسا بحثا عن لقمة العيش التي افتقدوها في بلادهم، فلقد استفادوا، وبالأخص من الناحية العقلية حيث احتكوا بعقليات تختلف عنهم؛ ومعروف أن الاحتكاك يولد الحرارة، والحرارة تولد النار.

ب -التأثر بالنهضة الروحية في المشرق العربي، حيث كان لحركة جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده أثر كبير في المغرب العربي: في بداية القرن العشرين كان لمرور الشيخ محمد عبده بالجزائر أثر مشجع على بعض الأوساط وبعض الطبقات الشعبية.

(*) عندما نقول تنبيه المغاربة، لا نعني بذلك أنهم كانوا غافلين تماما عن وضعهم وإنما مرت عليهما الفترة الممتدة من أواخر القرن التاسع عشر حتى بداية القرن العشرين وكأنهم غافلون إلا أن المراجع التاريخية تحدثنا عن استمرار نشاطهم ولو بشيء من الضعف.

(60) د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ص151.

جـ -وزيادة عن العاملين السالف ذكرهما، ثمة عوامل متداخلة عمت أجزاء واسعة من العالم في بداية القرن العشرين، وكان لها بالغ الأثر في المغرب العربي.

وهي مشاركة جيل كامل في تحرير فرنسا إبان 1914- 1918 (تصريحات ويلسون)، وثورة أكتوبر، واليقظة العربية في الشرق الأوسط، وقفزة تركيا المسلمة بقيادة مصطفى كمال، عدة عوامل خارجية أدت إلى انبثاق أحزاب جزائرية؛ كما لا ننسى أن إقبال بعض المغاربة على تعلم الفرنسية وتخرج بعض الأطباء والصيادلة والمحامين كان عاملا من عوامل بداية الوعي المغاربي، فرغم حرص فرنسا على تحطيم الشخصية المغاربية، فإن بلوغ المغاربة مستويات لا بأس بها مكنتهم من إدراك بعض الحقائق، وفهم بعض الأمور التي تخفى على الدهماء من الناس، ولذلك فالمتتبع لتاريخ المغرب العربي سيجد معظم رجال الأحزاب الأولى إما محامين أو أطباء أو صيادلة.

وإقبال القلة من المغاربة على تعلم الفرنسية يرجع إلى إدراكهم مدى الفوائد التي سيجنونها بتعلمهم أو تعلم أولادهم، وبمرور الزمن، وانتشار الوعي، لم تعد الفرنسية وسيلة للفوائد المادية وحسب، بل وسيلة للدفاع عن الحقوق أيضا.

والعوامل السالف ذكرها لا تنطبق على الجزائر وحدها بل تنطبق على سائر أقطار المغرب العربي ايضا، لأن التونسيين والمغاربة هاجروا هم أيضا لفرنسا وتأثروا بالنّهضة الروحية، وكان أثرها بالغا في تونس والمغرب الأقصى لبقاء جامع الزيتونة في تونس وجامع القرويين في فاس، كما تأثروا أيضا بالحرب العالمية الأولى وثورة تركيا والنهضة العربية في المشرق، والدليل أن أول حزب

كوّن في المغرب العربي كان من العمال الجزائريين والتونسيين والمراكشيين اي المغاربة، ولم تأت الانقسامات في صفوف المغاربة إلا بعد فترة متأخرة[61].

إن اهم الأسباب التي أسهمت بنصيب كبير في تعجيل تنمية الوعي المغربي، الحربان العالميتان، واثرهما في تنوير عقلية المغاربة، فالمعروف أن الحرب العالمية الأولى أدت إلى هجرة جماعية مغاربية من العمال والجنود إلى فرنسا، وهناك احتك هؤلاء المغاربة بالقيادات السياسية الجديدة وبأنماط الحياة، وتأثروا بالغ الأثر بما رأوا وما سمعوا. ورغم محاولة "جورج هاردي" مؤرخ الاستعمار الفرنسي تخفيف الأثر الذي تركته الحرب العالمية الأولى في المغاربة، فإنه لم يستطع إخفاءه تماما، فهو يقول: (حتى سنة 1914 لا نستطيع القول بوجود خلاف بين الأمة الوصية والأمم القاصرة، فالقضية لم تتعد أزمة تلاؤم بينها، مع كونها ليست عامة وغير عصية العلاج، ولكن حربين عالميتين أسرعتا بالأحداث وألهبتا العقول، وزادتا المشاكل حدة، وخرجت مطالب الأهالي عن النطاق المعقول، نطاق المطالبة بالإصلاحات المستمرة، لتختلط بشيء من الخيال: خيال الوطنية والمقصود بذلك ظاهرة انفعالية معدية، عمت أوروبا ثم أصابت مستعمراتها فانقلبت عليها)[62].

رغم التلاؤم الذي زعم "جورج هاردي" وجوده بين فرنسا ومستعمراتها، إلا أن الحربين العالميتين غيرتا الأوضاع تماما ولو لم يكن المناخ مناسبا، لما استطاعت أن تؤثر الحرب العالمية بهذه السرعة والقوة في شعوب المغرب، ويصف "أبو القاسم سعد الله" اثر الحرب الأولى في الجزائريين، فيقول: (وقد اشرنا من قبل إلى أن عدد الجزائريين الذين شاركوا في الحرب كان هائلا وسواء كانوا جنودا على الجبهة الأوروبية، أو عمالا في المصانع الفرنسية، أو اقرباء في الوطن، فإن الجزائريين كانوا مندمجين في الحرب ومتأثرين بها بعمق.

---

[61] فصل الطاهر عبد الله: هذه النقطة في كتابه "الحركة الوطنية التونسية"، مكتبة الجماهير، بيروت، 1976.

[62] Georges Hardy: Histoire Sociale de la Colonisation Française, p253.

ونتيجة لذلك، شاعت بينهم أفكار جديدة وتعلموا لغات مختلفة ومارسوا عادات لم تكن معروفة لديهم، واستفادوا من تجارب أخرى، بل أن فكرة الحياة نفسها تمر بمرحلة تغيير أساسي عندهم. وإذا كانت هذه الدروس الجديدة لم تعرف قيمتها خلال الحرب، فإنها ستكون ذات قيمة كبيرة في العشرينات من هذا القرن)[63].

استفاد الجزائريون وبقية المغاربة أيضا من مشاركتهم في الحرب العالمية الأولى أفكارا جديدة، واطلعوا على لغات أخرى، ومارسوا عادات كانت مجهولة لديهم وتجارب جديدة، ورأوا أنماطا من الحياة لا يعرفونها، فساعدهم كل ذلك على تنمية وعيهم وتعميق إدراكهم.

ورغم استفاداتهم الكثيرة من مشاركتهم في الحرب الأولى، فإن وعيهم بقي محصورا، عموما في النطاق المادي الآني، فتركوا أنماط الحياة التقليدية وأقبلوا على العمل في أوروبا، وأرادوا التشبه بالمستعمر في حياته المادية؛ ولذلك عرفت فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى وحتى الحرب الثانية دعوات عديدة للمساواة مع الفرنسيين وللاندماج، وأقبل الكثير على اللغة الفرنسية، لكن الحرب العالمية الثانية جاءت لتكشف الستار عما بقي مستورا، ولتضع المغاربة أمام الحقيقة وبخاصة عندما دخل الأمريكيون المغرب العربي ولاحظ المغاربة أن فرنسا ليست سيدة العالم: فانكسار فرنسا أمام ألمانيا بعث الأمل في قلوب المغاربة، ونزول الحلفاء بالمغرب العربي، أسقط قيمتها من الأعين.

فقد لاحظ المغاربة ضعف فرنسا التي لم تستطع حماية نفسها أمام ألمانيا، كما لم تستطع حماية مستعمراتها، وكم كانت فرحة المغاربة عظيمة عندما رأوا الفرنسيين مقهورين أمام الألمان:

---

[63] د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ص ص322 -323.

(وبخروج الفرنسيين من تونس منهزمين، انتشر في أوساط الشعب شعور بالفرحة العارمة والنخوة القومية، خاصة وقد رأوا المعمرين الفرنسيين والجالية الفرنسية بتونس مطأطئي الرؤوس بعد أن كانوا في أوج تطاولهم وصلفهم في معاملتهم لأبناء البلاد الحقيقيين)[64].

ونجد الإحساس نفسه في المغرب الأقصى (... ثم أن الهزيمة زعزعت ثقة المواطنين في قوة فرنسا، ورفعت من روحهم المعنوية(...) فهزيمة فرنسا في الحرب العالمية الثانية إذن من شأنها أن تحرر المواطنين من عقدة الهزيمة والخوف وأن ترد عليهم ثقتهم في المستقبل)[65].

وعادت فرنسا للمغرب العربي مع حلفائها، وجندت المغاربة من جديد بعدما لمت شملها، ولاحظ المغاربة لهفة الفرنسيين على حريتهم، ومع ذلك فلم يتغير شيء، بل زادت سطوة الفرنسيين، وخاب أمل المغاربة نهائيا في فرنسا التي شرعت في سياسة جديدة دعامتها الأساسية التنكيل بالأهالي: (وعند دخول القوات الفرنسية ضمن قوات الحلفاء المنتصرة شرعت بدافع الحقد على العرب والكره لهم، في تطبيق سياسة استعمارية جديدة تستهدف تصفية الوطنيين وتعميق الشعور بالخيبة واليأس لدى الشعب (...) وقاد الفرنسيون حملة واسعة من التقتيل ضد المواطنين عن طريق الأحكام العرفية والعسكرية الصارمة (...) وبالرغم من الإرهاب والتقتيل الجماعي، فإن الشعب لم يستسلم بل تكون لديه كرد فعل على الكره والعداء للاستعمار بوادر التمرد والثورة على المستعمرين الدخلاء فقامت انتفاضات مسلحة في الجنوب التونسي)[66].

---

(64) الطاهر عبد الله: الحركة الوطنية التونسية، ص 78 -79.

(65) عبد الكريم غلاب: تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، ص 263 -264.

(66) الطاهر عبد الله: الحركة الوطنية الفرنسية، ص79 -80.

هذه هي نتيجة سذاجة المغاربة، مزيد من الظلم ومزيد من القوانين الجائرة، ورغم أن رد الفعل الفرنسي كان شديدا في تونس والمغرب الأقصى: عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، فإنه كان أشد وأقسى وأفظع في الجزائر، واعني بذلك حوادث 8 ماي 1945 في كامل القطر الجزائري بصفة عامة وفي مدينة "سطيف" و"خراطة" و"قالمة" بصفة خاصة.

كان بعض الجزائريين يعتقد أن فرنسا ستمنحهم الاستقلال فور انتهاء الحرب العالمية الثانية، وبعد إعلان وقف القتال خرج الفرنسيون فرحين بالأمن والحرية وخرج الجزائريون يطالبون بحريتهم أيضا، فكانت دهشة المستعمر عظيمة جدا إزاء هؤلاء الجزائريين وبذلك كانت مجازر 8 ماي 1945.

(وفي ماي 1945 انفجرت فتن في بلاد القبائل ومنطقتي سطيف وقالمة ،اغتيل بوحشية بعض الفرنسيين المنعزلين، وكادت تحدث كوارث إلا أن عملية ردع عنيفة وضعت حدا للفتنة)[67]، "فجورج هاردي" يرى أن مطالبة الجزائريين بحقوقهم مجرد فتنة، فليس من حقهم أن يطالبوا بما طالب به الفرنسيون المانيا، ولما فعلوا سميت عمليتهم فتنة أو هيجانا، ثم يسمي عمليات التقتيل بالآلاف "ردعا" ومع تفسيراته هذه إلا أنه يذكر شيئين: الأول عمليات المطالبة بالحقوق من قبل الجزائريين، والثاني رد الفعل بقسوة شديدة، حتى أن بعض المؤرخين يذكرون أن عدد الضحايا قد تجاوز الخمسة والأربعين ألفا.

أما "غاني مراد" فيصف حوادث ماي 1945 وأثرها في النفوس فيقول: (8 ماي 1945 التاريخ المقدر، لقد حدث الطلاق: فلا شيء ينتظر من فرنسا بعد الآن.

اقترفت مجازر ضد شعب شارك بكل مجهوداته في تحرير فرنسا، وطبعت هذه المجازر الجيل الذي تربى في المدرسة الفرنسية بطابع لا يمحى أثره، هذه الحوادث عاشها الكثير من أدباء المستقبل وتوجد في العديد من أعمالهم)[68].

---

(67) Georges Hardy: Histoire Sociale de la Colonisation Française, p239.

(68) Ghani Merad: La littérature Algérienne d'expression française, pp50-51.

لقد اتضح كل شيء وانكشفت الشعارات واتضحت التمويهات، ورأى الجزائريون الحقيقة عارية، كل وعود فرنسا كاذبة، لقد وعدتهم برد حقوقهم إذا ما ساعدوها ولم تفعل، لقد كانت تهاجم الفاشية والنازية والاستعمار، ولم تنزع عنها صفة المستعمر، لقد خابت كل الآمال وحتى أولئك الذين أحسنوا الظن ببعض الأحزاب الفرنسية وبعض التيارات الفلسفية، وجدوا أن الكلام شيء والفعل شيء آخر.

والنتيجة النهائية أن الجزائري أو المغاربي عموما بقي مستعمرا لا يتمتع بأي حق والفرنسي بقي مستعمِرا يتمتع بكل ما يريد، فإذا لم يحصل عليه باللين حصل عليه بقوة السلاح، أي بقيت دار لقمان على حالها، ولذلك فعلى المغاربة أن يبحثوا عن الوسيلة الناجعة التي ستخلصهم من هذا المستعمر المتشبث.

لقد فكروا ودبروا ووجدوا الحل وهو الثورة على المستعمر، وفعلا بدأت حركات التمرد في المغرب العربي أواخر الأربعينيات وتطورت حتى صارت ثورات، واشترك معظم المغاربة في هذه الثورات فحمل البعض منهم السلاح، والبعض ساعد ماديا، أما الفريق الثالث فحمل القلم.

حمل القلم ليعبر عن المغاربي بصفة عامة وعن الجزائري إن كان جزائريا والتونسي إن كان تونسيا والمراكشي إن كان مراكشيا بصفة خاصة، ليصيح أمام مستعمره الذي نفى وجوده، وأمام الناس كلهم: أنا هنا، أنا موجود، أنا لم أتلاش، لقد استيقظ الضمير المغاربي فكان سؤاله: "من أنا"؟

كان تلاميذ المدارس الابتدائية الفرنسية يجدون أول درس في التاريخ تحت هذا العنوان: "أجدادنا الغاليون"[69]، ثم تتوالى دروس التاريخ ذاكرة "يوليوس قيصر" و"فيرسان جيتوريكس" و"شارلمان" و"شارل مارتيل" و"جان دارك"... إلخ.

---

[69] نسبة إلى بلاد "الغال" أي فرنسا وقرأت هذا الدرس في السنة الثالثة أو الرابعة من المرحلة الابتدائية.

كان يقال للأطفال المغاربة إن أجدادكم هم الفرنسيون الذين يرجعون بدورهم إلى الرومان، ثم تقفز دروس التاريخ إلى 1830م - بعد مسخها لمحمد الراعي وأصحابه الجياع الذين نشروا الهلع في الدنيا- وتتحدث عن الأعمال البطولية التي قام بها ضباط فرنسا في إعادة الأمور إلى نصابها: (معلوم أن الاستعمار أراد نفي الوجود العربي الإسلامي خلال أربعة عشر قرنا في الجزائر، ولذلك فدروس تاريخ الجزائر تبتدئ من 1830 ويحاول "لويس برتراند" أن يربط الجزائر الفرنسية بالجزائر الرومانية، وزيادة عن ذلك فلتبرير عملية الاحتلال كان لا بد من إبراز عقم المستعمر، وذلك هو السبب الذي جعل الكتاب الجزائريين يحاولون إبراز الشخصيات الشهيرة في تاريخ الجزائر، أبطال المقاومة أو حاملي مشعل الثقافة في الجزائر)[70].

عمليات كلها تهدف إلى إفقاد الشخصية الوطنية زيادة عن منع دراسة اللغة العربية أو تدريسها، وفرض حصار على دخول الكتاب العربي مع تشجيع الطرق الصوفية لتنشر الخزعبلات والشعوذة، مع مراقبة المساجد وتقييد الأئمة ورجال الإفتاء وتركيز المدرسة الفرنسية على ربط المغاربي بالرومان ثم الفرنسيين، ولم يعرف المغاربة أن شخصيتهم تكاد تضيع إلا بعد الحرب العالمية الثانية، عندما لاحظوا انعزالهم عن العرب والمسلمين واكتشفوا كذبة مساواتهم بالفرنسيين، فهم ليسوا فرنسيين، ولا يساوونهم في شيء رغم دعوة البعض إلى التجنس بالفرنسية ومحاولة آخرين التشبه بالفرنسيين بإتقان لغتهم إتقانا تاما، والإقبال على الثقافة الفرنسية وعادات الشعب الفرنسي والتزوج بالفرنسيات. فلن يكونوا سوى مغاربة أي تونسيين أو جزائريين أو مغاربة.

وشرعوا يبحثون عن شخصيتهم ويربطون أنفسهم بأصولهم الحقيقية، فبدأ كل مثقف يتساءل "من أنا"؟ و"من نحن"؟ بعد ما هزته الأحداث.

---

[70] Ghani Merad: La littérature Algérienne d'expression française, pp51-52.

وبدات كتب التاريخ تظهر بأقلام مغاربية "كتاريخ المغرب العربي" لعلي دبوز و"تاريخ الجزائر" لتوفيق المدني و"تاريخ الجزائر في القديم والحديث" لمبارك الميلي ثم كتابات عثمان الكعاك "عن تونس"، وغيرهم، وبذلك عرف المغاربة أن لهم تاريخًا غير التاريخ الذي تذكره الكتب الفرنسية: (ظهرت أزمات ضمير في أوساط المثقفين نتيجة للحرب العالمية الثانية ومجازر ماي 1945 والبؤس، وظهور قوميات في أماكن عديدة، وحركة الأحزاب الوطنية من أجل الاستقلال.

تساءل المفكرون والأدباء والكتاب والروائيون عن المشكل الأساسي، مشكل الشخصية "من أنا"؟ مستعمر. واتضح لهم أن كرامتهم غير محترمة، وسيكشفون هذه المأساة مع صراع الحضارات، فالمسألة لم تعد إذن المحافظة على البقاء بل المطالبة باسم، بوطن أي الاعتراف به على حدة)[71].

لم تعد إذن مطالب الجزائري أو المغاربي بعامة المساواة مع الفرنسي أو حصوله على الجنسية الفرنسية أو تشبهه بالفرنسي، فلقد اكتشف أن ذلك كله مجرد حيلة، وأنه سيبقى أبدا المغربي المستعمر، فلماذا لا ينزع عنه صفة المستعمر ويرجع إلى أصوله العربية الإسلامية، ويكون له وجوده الخاص؟ ليس حقا ما يقال له عن ضياع أصله، فله أصل بربري معروف امتزج بالدم العربي وسقي بالدين الإسلامي، ولغته حية، وأجداده لهم وجود كبير في الحضارة البشرية.

غير صحيح إذن ما يوصم به، ولذلك نجد قضية إثبات الذات أهم مشكلة تطرق لها الأدباء والكتاب المغاربة المفرنسو اللسان، ونسبة كبيرة من الأعمال الأدبية الفرنسية اللسان ركزت على "إنية" و"أصالة" المغرب العربي: (ظهرت الرواية المغربية الفرنسية اللغة "تحت" و"داخل" نظر الآخر، في جو جديد. هذا

---

[71] Jean Dejeux: La Littérature Algérienne Contemporaine, p62.

النظر الموجه إلى عمق شخصية المثقف المغربي نافيا هويته، جعله يحس بضرورة التعريف بنفسه)[72].

ضرورة التعريف بالنفس أولا ثم ربط حاضر الشخصية المغاربية بماضيها عنصران من العناصر الأساسية التي جعلت فئة من المغاربة يحملون القلم ليشاركوا في طرد المستعمر: (وقد ناضلت النخبة التقليدية الجزائرية الفرنسيين بواسطة الأدب الشعبي والقصص الوطنية والنداءات الغامضة إلى الماضي، ولكن قبل كل شيء، بواسطة تحميس "الفخر الوطني")[73].

فتحدثوا عن الأجداد وبطولاتهم وأمجادهم، وتحدثوا عن شجاعة المغاربي، ثم تقدموا خطوة أخرى فلمّحوا للمصائب التي لحقت بالبلاد، وصوروا البؤس والفقر والجوع وتركوا علامة استفهام ضخمة: من المسؤول عن كل هذا البؤس والفقر؟ - كما في رواية "الدار الكبيرة" لمحمد ديب- ثم بدأوا يتحدثون عن المسؤول وسمّوه باسمه ووجهوا له أصبع الاتهام.

وباندلاع الثورات المغاربية، أصبح الحديث صريحا وبدأت الأعمال الأدبية تكشف فرنسا، وكان للرواية النصيب الأوفر في هذه العملية، فتحدث الروائيون المغاربة عن الفرنسيين، كيف عاملوا الأهالي؟ أشار البعض إلى أعمال العسكريين كما سمعها عن والديه، ثم تحدثوا عن المعمرين وعن الشرطة والدرك والمسؤولين الإداريين ورجال التعليم ورجال الكنيسة والمرأة الفرنسية، ثم أعمال الجيش الفرنسي إبان الثورات المغاربية الثلاث وتحدثوا أيضا عن معاملة الفرنسيين للمغاربة في فرنسا نفسها، وتصوير الروائيين المغاربة للفرنسيين هو موضوع هذا البحث "صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية"...

---

[72] Charles Bonn: La Littérature Algérienne de langue française et ses lecteurs, p77.

[73] د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ص ص80 -81.

ثانيــا

الصورة ومنهج دراستها في المنهج

1- الصورة في الأدب المقارن

2- الفرنسي المستعمر وتمثيله لفرنسا

3- الرواية المغاربية الفرنسية ومدى تمثيلها للمغرب



1-الصورة

قبل الحديث عن "صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية" لا بد من الحديث عن الصورة بصفة عامة، ووضعها في إطارها ضمن الدراسات الأدبية.

فإلى أي ميدان من ميادين الدراسات الأدبية يرجع هذا النوع من الدراسات، أي دراسة صورة شعب لدى شعب آخر أو لدى أدباء الشعب الآخر؟

تنقسم صور الشعوب إلى نوعين: صورة شعب في أدبه: مثل صورة الفرنسيين في أدبهم أو صورة المرأة الألمانية لدى أديب ألماني، أو صورة المرأة المصرية في روايات نجيب محفوظ أو في الأدب المصري عموما؛ وهذا النوع من الدراسات لا يتعدى إطاره القومي واللغوي، فهو إذن يبحث فنيات الأديب في طَرق موضوعة أو فنيات الأدباء في تناول الموضوع بالوصف والتحليل.

إنها دراسات نقدية لمواضيع في أدب معين أو لدى أديب بالذات، فصورة المرأة المصرية أو الفلاح المصري أو الفرنسية أو الطالب الإنجليزي في أدب شعبهم، موضوعات خاصة بتلك الآداب الوطنية، تدرس مثل دراسة أي موضوع نقدي آخر كالصورة الفنية "في شعر المتنبي" أو "البؤس" لدى الرومانتيكيين الفرنسيين أو "المزرعة" في الأدب الإنجليزي، إنها دراسات نقدية، تدرس تلك الموضوعات من خلال المناهج النقدية المتعددة، فتدرس إما فنيا أو اجتماعيا أو نفسيا... إلخ.

وهناك صورة أخرى هي صورة شعب في أدب شعب آخر: والمقصود بذلك تلك الموضوعات التي كثر طرقها في الغرب منذ زمن ليس ببعيد: "صورة فرنسا في بريطانيا العظمى"، "صورة روسيا في الحياة الثقافية الفرنسية"، "صورة إيطاليا في الأدب الفرنسي"، "صورة اليهودي في الرواية الفرنسية"، "صورة المغرب في الأدب الفرنسي"، "صورة الجزائري في الأدب الفرنسي"... إلخ.

والملاحظ في الموضوعات السالفة الذكر أنها تتكون من شقين: الشق الأول صورة بلد أو شعب أو شخص يمثل شعبه أو بلده.

والشق الثاني يتكون من انعكاس صورة ذلك البلد أو الشعب أو الشخص في أدب شعب آخر أو في أدب أديب من ذلك الشعب الآخر.

بمعنى آخر، هذا النوع من الموضوعات يعتمد على اختلاف الإطار اللغوي والمكاني بين موضوع الصورة والإطار الآخر الذي تنعكس فيه، وهذه الموضوعات توضح لنا ما يلي:

فصورة فرنسا تكونت في بريطانيا العظمى، أي أنها انتقلت من الفرنسية إلى الإنجليزية؛ وصورة روسيا تكونت في الحياة الثقافية الفرنسية، أي أنها انتقلت من الروسية إلى الفرنسية؛ وصورة إيطاليا في الأدب الفرنسي انتقلت من الإيطالية إلى الفرنسية، وبالتمعن الجيد في هذه الموضوعات ندرك اعتمادها على عملية:

التأثير والتأثر

ومعروف أن التأثير والتأثر قاعدة أساسية من قواعد الأدب المقارن، بل إنها عموده الفقري.

فروسيا أثرت في فرنسا، حتى تكونت في الحياة الثقافية الفرنسية صورة لروسيا. وإيطاليا أثرت في فرنسا، ولما تأثر أدباء فرنسا بها كونوا لها صورة في أدبهم؛ واليهودي أثر في فرنسا، وبتأثر أدبائها به، تكونت له صورة في إنتاجهم، وهكذا...

وتجمع كتب الأدب المقارن على صحة انتماء "صور الشعوب في آداب الشعوب الأخرى" إلى الأدب المقارن، فمحمد غنيمي هلال يتحدث عن هذا الصنف من الدراسات الأدبية قائلا: (هذا أحدث ميدان من ميادين البحث في الأدب المقارن، لا ترجع أقدم البحوث فيه إلى أكثر من ثلاثين عاما ولكنه -مع حداثة نشأته-

غني بالبحوث التي تبشر بأنه سيكون من أوسع ميادين الأدب المقارن وأكثرها روادا في المستقبل)[74].

"وغي ميشو"[75] الذي أشرف على العديد من الرسائل في هذا الموضوع يسميها "علم الصورة"[76] وينسبها إلى الأدب المقارن أيضا: (ليس من المبالغة التركيز على هذا الفرع من الأدب المقارن الذي يسمى علم الصورة والذي يدرس من خلال الوثائق المكتوبة تقديم الشعوب لبعضها البعض)[77].

والرأي نفسه نجده عند "كلود بيشوا"[78] وأندري روسو[79]: (دراسة الصور فرع حديث من الأدب المقارن)[80]. أما سيمون جون[81] فيوضح علاقة صور الشعوب بالأدب المقارن أكثر من سابقيه فيقول :(التأثير الذي سنتحدث عنه مختل، ورغم وقوعه دوما في الأدباء فقط فإنه ليس من نفس النوع، فلم يعد ثمة عمل أدبي يحدث تأثيرا، بل شعب بأكمله، البلد كله يحدث التأثير، وأدباء شعب آخر يتلقون الصورة أو الظل)[82].

صور الشعوب في آداب الشعوب ميدان من ميادين الأدب المقارن، يعتمد أساسا على حقيقة معروفة هي "التأثير والتأثر" الحاصلة بين شقي الموضوع شريطة ألا يكون الموضوع في إطار لغوي واحد.

---

[74] د. محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، ط3، ص419.

[75] Guy Michaud

[76] Imagologie

[77] Léon Fanoudh-Siffer: Le Mythe من مقدمة كتاب /Guymichand du Nègre et de l'Afrique Noire dans la literature française, p9.

[78] Claude Pichois

[79] André Rousseau

[80] Claude Pichois et A.M. Rouseau: La Littérature Comparée, p88.

[81] Simon Jeune

[82] Simon Jeune: La Littérature Générale et Littérature Comparée, p49.

في سنة 1930 قدم في فرنسا "جورج أسكولي"[أ] رسالة بعنوان "بريطانيا العظمى أمام الرأي العام الفرنسي في القرن السابع عشر"، ثم أعطى "جان ماري كاري"[ب]، دفعة قوية لهذا الميدان سنة 1947 برسالة عنوانها "الكتّاب الفرنسيون والسراب الألماني 1800 -1940"؛ وجاء "ميشال كادو" برسالة عنوانها "صورة روسيا في الحياة الثقافية الفرنسية" (1839 -1856)؛ ثم جاء بعده البير لورتولاري[د] سنة 1951م، وقدم رسالة بعنوان "السراب الروسي في فرنسا في القرن الثامن عشر".

وزاد "ماريوس فرانصوا غويار"[هـ]1953م، هذا الميدان توسيعا وتركيزا برسالته (صورة بريطانيا العظمى في الرواية الفرنسية من 1914 إلى 1940م)؛ وأخيرا جاء "فرانصوا جوست" برسالته (سويسرا في الآداب الفرنسية عبر العصور سنة 1956م).

وتعددت الرسائل الجامعية في هذا الميدان بعد ذلك، واختلفت العناوين، وبدأت الأرقام تتصاعد، حتى صارت الرسائل الجامعية في هذا الباب تعد بالعشرات في فرنسا وحدها.

ومنذ بداية الستينيات، صارت معظم جامعات فرنسا تسجل لطلابها هذا الموضوع في الرسائل، ومن أشهر الرسائل التي أجيزت منذ بداية الستينيات رسالة ليون فانودح سيفر، وعنوانها "أسطورة الزنجي وإفريقيا السوداء في الأدب الفرنسي"[83]، ورسالة سيلفان ماراندون: (صورة فرنسا في إنجلترا الفكتورية من 1878 إلى 1900م)[84]، رسالة شارلوت وردى: (اليهودي في الرواية الفرنسية)[85].

(أ) Georges Ascoli

(ب) J.M. Carré

(د) Albert Lortholary

(هـ) M.F. Guyard

(83) طبع هذه الرسالة الناشر: C. Klinck sieck, Paris, 1968.

(84) طبع هذه الرسالة الناشر: Armand Collin, Paris, 1967.

رسالة لهجومري عبد الجليل: (صورة المغرب الأقصى في الأدب الفرنسي)[86]، رسالة اليس شرارا: (صورة الاستعمار الإسباني في الرواية الأمريكية من 1898 إلى 1950م)[87]، بالإضافة إلى العديد من الرسائل الجامعية الأخرى التي يصعب حصرها.

ونتيجة لوفرة هذه الرسائل الجامعية المقدمة في فرنسا حول هذا الميدان، استطاع "سيمون جون" تحديد مسار نظرة الشعب الفرنسي إلى بعض الشعوب الأخرى من خلال الأدب الفرنسي، مع تتبع تطور تلك النظرة: (يقبل القرن الثامن عشر الأوروبي بصفة عامة أسطورة "المتوحش الطيب" في غانا أو في الجزر، وأسطورة "السيد المهذب"[88] الوفي لكلمته، وضحية الكآبة.

وفي بداية القرن التاسع عشر، وُصف الألماني بالعاطفي ورجل العائلة، والتركي بالشرير الملحد القاسي المدنس، وفي نهاية القرن نفسه تحول الاهتمام إلى الولايات المتحدة مع نمطين جديدين:

ليست التجارة الكبيرة بالنسبة لرجل الأعمال (...) حرمانا من أوقات الفراغ، بل إنها النشاط الذي يضفي على حياة الرجل معنى (...) وأمام الإنسان الذي يعمل، الفتاة التي تقرأ وتخرج وتلهو وتعاشر بحرية شبان جيلها ثم تختار خطيبها)[89].

إن هذه الدراسات السابق ذكرها قدمت كلها في فرنسا، فهل معنى ذلك أن هذا الميدان من الدراسة لا يوجد إلا في فرنسا؟

---

[85] طبع هذه الرسالة الناشر: A.G Nizet, Paris, 1973.

[86] طبع هذه الرسالة الناشر: SNED, Alger, 1973.

[87] طبع هذه الرسالة الناشر: Marcel Didier, Paris, 1975.

[88] Gentleman

[89] Simon Jeune: Littérature Générale et Littérature Comparée, p53.

بالطبع لا، ففي جامعات أمريكا وكندا قدمت رسائل في هذا الموضوع وتشير "جانيت لايلو صافونا" في كتابها: "صورة اليهودي في الرواية الأمريكية المعاصرة" إلى بعض الرسائل التي قدمت للجامعات الأمريكية[90] وكتابها مؤلّف ومطبوع في كندا مما يدل على أن الجامعات الكندية والأمريكية تهتم هي الأخرى بهذا الميدان من ميادين الأدب المقارن.

ولا شك أن جامعات أوروبا تهتم بدراسة "صور الشعب" بدليل أن معظم الجامعات الأوروبية تدرس مادة الأدب المقارن منذ زمن طويل، وأساتذة هذه المادة يتسابقون في مختلف ميادينها.

أما في الأدب العربي، فأمامنا سجلات جامعات مصر - جامعة القاهرة، عين شمس، الإسكندرية- وهي أكبر الجامعات العربية وأقدرها من حيث عدد الأساتذة، وكثرة الرسائل المقدمة فيها، وتعدد ميادين الدراسة، إضافة إلى اعتماد أغلب الجامعات العربية على الأساتذة المصريين، ونتيجة لذلك يستطيع المرء أن يكون رأيا حول الجامعات العربية من خلال الجامعات المصرية، وعلى الأخص في ميدان الدراسات الأدبية التي تتشابه كثيرا بين مختلف الجامعات العربية.

ونبحث عن دراسات حول "صور الشعوب" في آداب الشعوب العربية فلا نجد لها ذكرا؛ لقد فحصنا فهارس الرسائل المقدمة إلى جامعة القاهرة وكلية دار العلوم وجامعة عين شمس، وجامعة الإسكندرية، فلم نجد هذا النوع من الدراسات الأدبية المقارنة.

وكل ما وجدناه تحت عنوان "الصورة" عبارة عن موضوعات نقدية لا تتعدى إطار اللغة العربية، ولا وجود بتاتا لقضية "التأثير والتأثر فيها"، إن أغلبها يدور حول "الصورة الفنية" أو "الصورة الشعرية" وأحيانا "صورة المرأة".

---

[90] Jeannette Laillou Savona: Le Juif dans le roman Américain contemporain, Didier Ottawa, Canada, p336.

فإذا كانت الجامعات المصرية تفتقر إلى هذا النوع من الدراسات الأدبية المقارنة مع ظهور مادة الأدب المقارن منذ الخمسينيات بين مواد الدراسة، فما بالك بسائر الجامعات العربية والنسبة الكبيرة منها لم تفتح باب الدراسات العليا إلا منذ سنوات قليلة جدا؟.

لم تعرف الجامعات العربية هذا الميدان من الدراسات الأدبية المقارنة رغم ثراء الأدب العربي في هذا الموضوع وبخاصة في القرن العشرين، عندما بلغ احتكاك العرب بالأمم الأخرى حده الأقصى، وعندما فرضت ظروف الحياة تعايشا أو تعاملا على الأقل بين العرب وكثير من الشعوب الأخرى في شتى الميادين السياسية والاجتماعية.

صورة الشعوب في آداب بعضها البعض ميدان في الدراسة الأدبية حديث، فهل معنى ذلك، أن الشعوب لم تكون لبعضها البعض صورا إلا حديثا أيضا؟ كلا.

فقد كونت الشعوب لنفسها - منذ العصور القديمة- هذه الصور. وأثناء قراءة مختلف أغراض الأدب العربي القديم نجد إشارات إلى أقطار مختلفة كفارس وبيزنطة والهند والحبشة والصين، مع بعض الآراء حول طبيعة هذه الأقطار وصفات سكانها، و الشأن نفسه نجده في آداب الشعوب الأخرى.

ولكن لماذا تكون الشعوب صورا لشعوب دون أخرى؟

لا يستطيع المرء الاهتمام بكل الناس، وإنما يحصر جهده في الاهتمام بالأشخاص الذين يتعامل معهم كالأقارب ثم الجيران ثم رفاق العمل أو الدراسة، ثم بعض الذين يرجو منهم نفعا أو يخشى منهم ضررا. إنه يهتم بالذين تربطه بهم مصالح على اختلاف أنواعها. وكذلك الشعوب، فهي لا تهتم إلا بالشعوب المجاورة لها أو التي تشترك معها في مسألة، أو أن يكون لها معها مصالح اقتصادية، أو تريد كسب ودها أو تخشى بأسها.

وتلخص "سيلفان ماراندون" هذه القضية في ضرورة وجود "نسبة من الاهتمام" بين شعبين ليكون لأحدهما صورة عند الآخر[91].

واهتمام شعب بآخر - مهما كان السبب- يجعل الشعب المهتم يلتقط معلومات عن الشعب المهتم به، وتلك المعلومات هي التي تكون صورة ذلك الشعب؛ (ترسخ في عقلية شعب معلومات عن شعب آخر قد تكون صحيحة أو خاطئة وتظهر هذه المعلومات في الأدب الذي يعتبر سجلا صادقا لشعور شعب معين، وصورة ثابتة للعلاقات التي تربطه بغيره، وقد تتجلى هذه الصورة في أدب الرحلة وفي مجمل الإنتاج الأدبي فتظهر فيهما نماذج بشرية غريبة وألوان محلية "couleur locale" غير مألوفة)[92].

وبعد دراسة صور الشعوب لدى بعضها البعض من قبل العديد من طلاب الدراسات العليا في مختلف الجامعات الأوروبية، اتضح أن صور الشعوب تنقسم إلى أنواع هي: صورة شعب في أدب شعب وذلك بتأثر أدباء شعب بشعب آخر، ثم يترجمون ذلك التأثر إلى آراء في إنتاجهم الأدبي، فتكون تلك الآراء صورة لذلك الشعب المؤثر في أدب الشعب المتأثر مثل "سويسرا في الأدب الفرنسي" و"صورة الجزائر في الأدب الفرنسي" و"صورة المغرب في الأدب الفرنسي" و"السراب الروسي في فرنسا في القرن الثامن عشر" و"بريطانيا العظمى أمام الرأي العام الفرنسي في القرن السابع عشر"... إلخ.

ونوع آخر من صور شعب في أدب شعب آخر، هو صورة شعب ما في أدب أديب بعينه بتأثر أديب معين من شعب بشعب آخر، ونتيجة لتأثره ذاك (سلبا أو إيجابا أو بين بين)، يرسم صورة للشعب الذي تأثر به في أعماله الأدبية مثل: "إسبانيا في أدب همنغواي" أو "بريطانيا في أدب فولتير" أو "صورة الشرق في أدب فيكتور هوغو" أو "إيطاليا في أدب ستاندال" وغير ذلك من أبحاث مماثلة).

---

[91] S. Marandon: L'image de la France dans l'Angleterre Victorienne, p129.

[92] ريمون طحان: الأدب المقارن والأدب العام، ص61.

صورة شعب في شكل أدبي معين لدى شعب آخر؛ في الشكل نفسه أو في غيره وذلك بتأثير شعب في آخر، وتركيز أدباء الشعب المتأثر على تصوير الشعب المؤثر في فن أدبي معين كالرواية أو القصة القصيرة أو المسرحية أو الشعر.

وتعتبر الرواية الشكل الأدبي الجامع للكثير من التأثيرات، نتيجة لحجمها أولا، ولتمتعها بإمكانيات كثيرة- كالسرد والوصف والتحليل- مما يمكنها من عرض أوضح للصور، وليس معنى ذلك ان سائر الأشكال الأدبية خالية من صور الشعوب، بل إننا نجد في بعض الأحيان أشكالا أدبية - غير الرواية- زاخرة بالصور، كالشعر. والأمثلة على "صور الشعوب" في الفنون الأدبية كثيرة نذكر منها: "صورة بريطانيا العظمى في الرواية الفرنسية" أو "اليهودي في الرواية الأمريكية المعاصرة" أو "صورة الفرنسي في الرواية المغربية" أو "الزنجي في المسرح الأمريكي"....

وتقسيم الصور إلى أنواع لا يعني اختلافها، فهي كلها تعتمد أساسا على ظاهرة "التأثير والتأثر" المتبادلة بين شعبين مختلفين، مهما كانت أسباب تلك الظاهرة. ومن الممكن تقسيم صور الشعوب لدى بعضها البعض حسب اتجاه عملية "التأثير والتأثر".

ذكرنا فيما سبق بعض عناوين رسائل وكتب في مجال دراسة صور الشعوب لدى شعوب أخرى، والمتمعن في تلك العناوين سيلاحظ أن عملية "التأثير والتأثر" بين مختلف الشعوب التي ذكرت تسير في ثلاثة اتجاهات. الأول يمكن أن نسميه بالاتجاه الأفقي أو النظرة الأفقية. ففرنسا تتصور بريطانيا أو ألمانيا أو روسيا أو إيطاليا، وبريطانيا تتصور فرنسا أو روسيا أو إيطاليا، وألمانيا تتصور إسبانيا أو سويسرا أو بريطانيا، وأمريكا تتصور إسبانيا أو بريطانيا. إنها مجموعة دول أوروبية - بالإضافة إلى أمريكا- تتصور بعضها البعض: فعملية التأثير والتأثر متبادلة بين شعبين في مستوى حضاري واحد أو متقارب على الأقل، فالفروق بسيطة بين دول أوروبا وبين أوروبا وأمريكا.

ويمكن تسمية الاتجاه الثاني بالاتجاه الرأسي أو النظرة الرأسية، ففرنسا تتصور المغرب أو الجزائر أو تونس أو إفريقيا السوداء أو الزنجي أو اليهودي أو التركي أو الصيني، وأمريكا تتصور اليهودي والزنجي، وبريطانيا تتصور العربي أو الهندي وكذلك ألمانيا وإيطاليا. مجموعة دول متقدمة تتصور دولا متخلفة ضعيفة - كانت مستعمرة من قبل الشعوب المتأثرة، أو متخلفة بغير استعمار- وكأنها تنظر إليها من أعلى.

أما الاتجاه الثالث، فيمكن تسميته بالاتجاه العكسي أو النظرة العكسية، وهذا الاتجاه غير متوفر إلى الآن في دراسات صور الشعوب "لأنه يدرس صور الدول القوية أو المتقدمة في آداب الدول الضعيفة أو المتخلفة، ولحد الآن لم أعثر إلا على رسالة واحدة تدرس موضوعا في هذا الاتجاه وهي رسالة "أليس شرارا" وعنوانها (صورة الاستعمار الإسباني في الرواية الأمريكية من 1898 إلى 1950)[93].

وبعد تصفح الرسالة اتضح أنها دراسة: نفسية اجتماعية[94]، فهي بعيدة عن الأدب المقارن، وبذلك يبقى هذا الاتجاه خاليا من دراسات نحتاج إليها.

وبديهي أن يتبادر إلى الأذهان سؤال عن سبب خلو هذا الاتجاه من الدراسات لحد الآن.

إن الأدب المقارن ولد بالغرب وتعددت فروعه هناك أيضا، وفي بداية النهضة كانت الدراسات مركزة على الآداب اليونانية واللاتينية والعلاقات فيما بينهما، ثم انتقل الاهتمام إلى الآداب الأوروبية الحديثة وبقي محصورا في إطارها[95]، وبخاصة بعدما انتشرت الروح الاستعمارية في أوروبا وصارت الدول الأوروبية تحاول طمس ثقافة الأمم المستضعفة لتسيطر عليها، فكيف يراد منها أن تبحث عن العلاقات بين آدابها وآداب تلك الأمم المستضعفة.

---

[93] المقصود بالرواية الأمريكية هنا، رواية أمريكا الجنوبية.

[94] Alice Chararra: L'image du Colonialisme Espagnol dans le roman Américain

[95] Paul-Van Tieghem: La Littérature Comparée, p57.

وبعد انحسار موجة الاستعمار، تركزت الدراسات على شعوب الدول المتقدمة من قبل أبنائها، فلما أراد طلاب الدول الضعيفة أن يقدموا دراسات عليا، بادروا إلى الموضوعات ذات الاتجاه الرأسي أو النظرة من فوق إلى تحت لأنها شهادة اتهام بين أيدي أبناء الدول الضعيفة يوجهونها إلى الدول القوية ليقولوا لتلك الشعوب القوية: انظروا إلى أفكاركم المشوهة حولنا، انظروا إلى معتقداتكم التي كنتم تؤمنون بها وهي محضُ ادّعاء.

تمكّن تلك الموضوعات الطلبة من مجابهة مستورة، أو لوم عنيف، وبذلك لم يحظ الاتجاه الثالث أو النظرة العكسية بأي اهتمام لأنه يحتاج إلى ظروف وشروط مدرسية معينة، فمن المستبعد أن تقبل جامعة غربية موضوعات من هذا القبيل، وحتى إذا قبلت فلا شك أن البحث سيكون محدودا، وستقضي عليه دعوة "روح النزاهة" بينما يعتمد على العواطف بشكل واضح.

وسوف يزدهر هذا الاتجاه ازدهارا كبيرا عندما ترسخ جامعات الدول الضعيفة، معتمدة على أساتذة من شعبها يومذاك سيسجل الكثير من الطلبة مواضيع من ذلك القبيل، ليقولوا للدول المتقدمة: اسمعوا رأينا فيكم انظروا كيف نراكم.

وهذه الرسالة تسير في ذلك الاتجاه، اتجاه النظرة العكسية، فهي تتناول "صورة الفرنسي في الرواية المغاربية" وتبحث عن رؤية المغاربة للإنسان الفرنسي، رجلا كان أو امرأة، مدنيا أو عسكريا، شريرا أو خيرا؛ وبذلك تكون بداية لهذه الدراسات التي نحتاج إلى توافرها، لنفتح آفاق الدراسات المقارنة بين أدبنا والآداب التي التقينا بها في عصرنا الحديث خاصة.

يشترك الأدب المقارن مع علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ والإعلام في دراسة صور الشعوب بعضها عن بعض.

ففي كل مادة من هذه المواد صور لبعض الشعوب من قبل شعوب أخرى: (مثل تلك الدراسات التي لا يستهان بقيمتها الأدبية، والتي كانت لها أهمية كبرى في تاريخ الأخلاق والأفكار).

إنها تؤدي من ناحية إلى علم الاجتماع، ومن ناحية أخرى إلى علم نفس الشعوب[96] ويقرر "سيمون جون" أن الصورة في الأدب المقارن تؤدي إلى سائر هذه العلوم، فكيف يكون ذلك؟

ترتكز الصورة في الأدب المقارن أساسا على أداة الاستفهام: "كيف"؟.

كيف تصور الفرنسيون روسيا؟وكيف تصور الإنجليز فرنسا؟، وكيف تصور الأمريكيون اليهود؟، وكيف تصور المغاربة الفرنسي؟، وكيف تصور العرب اليهود؟؟

فالمهم هنا إبراز صور الشعوب بعضها عن بعض، مهما كانت نوعية تلك الصور التي قد تكون جميلة، وقد تكون قبيحة، وقد تكون واقعية، وقد تكون خيالية. فالذي يعنينا هو وصول الدارس إلى تحديد صورة الشعب المؤثر في أدب الشعب المتأثر مع توضيح كيفية رسمها.

أما علم النفس أو الاجتماع أو غيرهما من العلوم الأخرى، فالصورة ترتكز فيها أساسا على أداة الاستفهام: "لماذا؟".

لماذا تصور الطفلُ الكنغولي الفرنسيَّ على ذلك النحو؟ لماذا تصور الفرنسيون الإنجليز كما تصوروهم؟ فهذه العلوم تبحث عن الأسباب التي أدت إلى تكوين الصورة كما يراها الشعب المتأثر.

لا يخرج الدارس في الأدب المقارن عن الإطار الأدبي، أي يعتمد أساسا في تحديد معالم الصورة على الإنتاج الأدبي وحده. أما العلوم الأخرى فتلجأ إلى الاستعانة بأية وثيقة تنير لها الطريق، فتستعين بالوثائق الرسمية والاستجوابات

---

(96) S. Jeune: Littérature Générale et Littérature Comparée, p57.

والإحصائيات، وكل ما يتصل بالموضوع، لأن هدفها الوصول إلى الحقيقة -ما أمكن- والإبانة عن الأسباب والدوافع لاستخلاص النظريات.

أما دارس الأدب، فليس هدفه الوصول إلى الحقيقة، وإنما هدفه الكشف عن جمال الصور أو قبحها أي عن قيمتها الأدبية، لذلك فهو لا يهتم إلا بالإنتاج الأدبي الجيد، وإذا استعان بوثائق تاريخية أو اجتماعية أو أية وثائق أخرى، فيجب عليه أن يحذر الانزلاق وراء البحث عن الأسباب حتى لا يخلط بين الأدب والعلوم الأخرى، إلا إذا كان يقصد ذلك لسبب أو لآخر.

فالأدب المقارن يهتم بتوضيح صور نجمت عن علاقات معينة، بينما تهتم العلوم الأخرى بالبحث عن الأسباب التي نجمت عنها تلك العلاقات وتمحيص محتواها: (يعترف "هوز"[97] في عرضه لكتاب المبادئ "لماريوس فرانصوا غويار" بالروابط الموحدة والمفرقة أيضا بين الأدب المقارن وعلم نفس الشعوب.

فالأدب المقارن يسعى إلى إيضاح العلاقات دون البحث عن أصولها النفسية "إنه يقدم وسائله لعلم نفس الشعوب الذي يهتم بنقد المحتوى وإيضاح حقيقة نفسية الشعوب")[98].

ويخدم الأدب المقارن العلوم الأخرى بتحديده صور الشعوب بعضها لبعض، لتقوم هذه العلوم بعد ذلك بالبحث عن الأسباب والدوافع التي أدت إلى تكوين "الصور" على تلك الشاكلة، فالعلوم الأخرى تستعين بالأدب المقارن، لتنطلق منه في دراستها للصور، ولتكمل ما وصل إليه، لذلك يمكن اعتبار دراسات الأدب المقارن تمهيدا أو مدخلا إلى دراسات سائر العلوم، والاختلافات بين "صور الشعوب" في الأدب المقارن وهذه العلوم دقيقة جدا"، بحيث كثيرا ما يبدأ بعض الدارسين عملهم في الأدب ثم يجدون أنفسهم قد وقعوا في ميدان علم النفس أو الاجتماع أو التاريخ، يبحثون ويدققون في مسائل بعيدة كل البعد عن الأدب، فالفرق بين

---

(97) G.A. Hduse

(98) Claude Pichois et A.M. Rouseau: Littérature Comparée, p91.

الصورة في الأدب المقارن وبينها في العلوم كالفرق بين صورة الأشعة للمريض وتقرير الطبيب عن تلك الصورة إن جاز لنا مثل هذا التشبيه.

إن البحث عن الغرض من دراسة "صور الشعوب" في الأدب المقارن كالبحث عن الغرض من الدراسات الأدبية عموما، لأن الأدب المقارن جزء من الدراسات الأدبية.

ولقد سبق لنا القول بأن الغرض من دراسة "صور الشعوب" في الأدب المقارن هو محاولة توضيح تلك الصور وإبراز جمالها أو قبحها والبحث عن قيمتها الأدبية.

ولكن ثمة أغراض أخرى زيادة عن ذلك منها معرفة الشعوب بعضها لبعض بإدراك أوهامها كما يقول "غويار": (إنها تعلم الشعوب التعارف أكثر بمعرفة أوهامها حول بعضها البعض)[99].

وتوضح "سيلفان ماراندون" ذلك الغرض، حيث تقول أن الهدف من دراسة صور الشعوب هو تطهير عقلية جماعية من بعض الأحكام[100].

و نجد الرأي نفسه عند "كلود بيشوا" و"أندري روسو" (مثل تلك الدراسات -إذا درست بعقل نقدي متسامح- يمكن أن تساعد شعبين على تحليل نفسيتيهما بمعرفة مصدر أحكامهما المسبقة نحو بعضهما البعض، وبذلك سيتعرف كل واحد على نفسيته أكثر، وسيحتاط أكثر في الحكم على الآخر)[101].

بتتبع آراء أساتذة الأدب المقارن السالف ذكرهم، نلاحظ أن الغرض الذي تحدثوا عنه قد تطور، فهو عند "غويار" تعارف الشعوب ثم عند "ماراندون" تطهير

---

(99) M.F. Guyard: La Littérature Comparée, p119

(100) S. Marandon: L'image de la France dans l'Angleterre Victorienne, p125.

(101) Claude Pichois et A.M. Rouseau: La Littérature Comparée, p92.

عقلية الشعوب، بعد التعارف بالطبع، ثم يوضح كل من "بيشوا" و"روسو" المسألة أكثر عندما ذكرا أن الغرض هو عملية تحليل نفسي متبادل بين شعبين.

فمن التعارف، إلى التطهير، إلى التحليل؛ والنتيجة هي الاحتياط في الحكم على الآخرين.

ويزيد "لهجومري عبد الجليل" هذه القضية إيضاحا حيث يذكر أن: (دراسة الصور تؤدي إلى توعية الشعب المتصور بما يحمل من أوهام، تشوب معرفته بحاضره المعاش وبأحداث الآخر الذي يتصوره)[102].

إن دراسة صور الشعوب تساعدها على فهم بعضها لبعض، وتُقرب الهوّة بينها، وتطهر كل شعب من أوهامه، وبذلك يستطيع مجابهة حاضره ومستقبله بطريقة أفضل، ونلاحظ أنها تساعده لا أكثر.

والنتيجة، أن دراسة "صور الشعوب" في الأدب المقارن تهدف إلى غرضين أساسين: الأول تحديد صور الشعوب بعضها لدى بعض، وتبيان قيمتها الأدبية. والثاني إدراك الشعوب للأوهام التي يكونها بعضها حول بعض، فتطهر عقلياتها من تلك الأوهام ما أمكن.

وبذلك يساعد الأدب المقارن الشعوب على التقارب والتفاهم مهما تكن هذه المساعدة قليلة أو ضعيفة، ولعل هذا يعود بالأكثر إلى أن هذه الدراسات لا تتجه إلى الشعوب عامة، وإنما تتجه إلى الصفوة أو الطبقة المثقفة، ويمكن لتلك الطبقة أن تعمق هذه المساعدة وأن تقويها وتنشرها عن طريق الأدب المحلي ووسائل الإعلام المختلفة.

أثناء التعرض لأنواع الصور في الأدب المقارن، ذكرنا أن الشعوب يكوّن بعضها صورا لبعض نتيجة للاهتمام المتبادل بينها -بغض النظر عن نوعية هذا

---

[102] Lahjomri A.: L'image du Maroc dans la Littérature française, pp14-15.

الاهتمام-، فما هي الوسائل التي تساعد شعبا ما أو أدباء على تكوين صورة لشعب آخر؟

إن الوسائل المساعدة على تكوين صور الشعوب بعضها البعض كثيرة أهمها: الرحلات، فالذين يسافرون خارج بلادهم، يعودون ومعهم أخبار ونوادر وحكايات وانطباعات يحكونها لمعارفهم، وأحيانا يسجلون مذكراتهم أو وصفا لمشاهداتهم.

تُعدّ رحلات الأدباء من أهم هذه الوسائل، لأنهم عادة يحبون التجوال في الأقطار والبلدان المختلفة، ويشاهدون عادات تلك الشعوب وتقاليدها مع المناظر الطبيعية المختلفة. ومن الأدباء الذين زاروا العديد من البلدان: أندري جيد[103] الذي زار بلدان شمال إفريقيا والعديد من البلدان الغربية، ولذلك يعتبر كتابه "الأغذية الأرضية" دعوة إلى السياحة عبر الأقطار المختلفة.

"ارتور رامبو"[104] الذي سافر في دول أوروبا، ثم إفريقيا والشرق الأوسط وإفريقيا الشرقية، وتأتي أيضا "بيرل باك"[105] الأمريكية التي عاشت زمنا في الشرق الأقصى، وكتبت معظم كتبها حول دول الشرق الأقصى كالصين واليابان وكوريا، وكذلك أرنست همنغواي الروائي المعروف الذي زار العديد من دول العالم، بل زار أدغال إفريقيا.

ومن الوسائل الهامة أيضا الكتب؛ حيث يقرأ الناس عن البلدان التي تجذب انتباههم، وكثير من المؤلفين اشتهروا بكتبهم حول مختلف الأقطار مثل: الدكتور حسين فوزي في كتبه السندبادية، وانيس منصور في العديد من كتبه التي سجل فيها مشاهداته لمختلف البلدان مثل "200 يوم حول العالم".

---

(103) André Gide

(104) Arthur Rimbeau

(105) Pearl Buck

وثمة سلاسل كتب في العديد من الدول هدفها إعطاء صورة عن دول العالم. يضاف إلى هذه الوسائل ايضا الصحف والمجلات والمنشورات والإذاعات والمراكز الثقافية، ثم السينما، وقد أصبحت وسيلة هامة من وسائل الاتصال بين الشعوب؛ فالأفلام الأمريكية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والمصرية والهندية، تعرض في الكثير من الدول، وفيها مناظر طبيعية ونماذج حية من حياة الدول التي أنتجتها، ونماذج بشرية مؤثرة بأدوارها.

وتأتي الحروب وسيلة أخرى، وقد كانت قديما من أهم الوسائل - رغم بشاعتها- فكم حكى الجزائريون الذين شاركوا في الحربين العالميتين عن فرنسا وإيطاليا وألمانيا. وكم حكى الجزائريون عن الهند الصينية وأدغالها، عندما جندتهم فرنسا لمحاربة الفيتناميين. وكم سيحكي الأمريكيون عن الشرق الأقصى والشّرق الأوسط، وكم سيحكي هؤلاء عن الأمريكيّين؟؟

هذه بعض الوسائل التي تساعد الشعوب على تكوين الصور بعضها لبعض، ولكن هناك وسيلة أخرى دامغة قوية هي أقوى من كل هذه الوسائل وهي: "فرض الوجود" كما فعلت فرنسا في المغرب العربي، حيث كان المغاربة منكمشين على أنفسهم، وإذ بفرنسا تفرض نفسها عليهم، وبذلك لم يكوّنوا صورة لها حسب العوامل السالف ذكرها، بل تكونت نتيجة الاحتكاك اليومي والمعايشة والتجربة والممارسة في ظروف قاهرة معينة.

وأغلب الظن، أن الصور المبينة على المعايشة اليومية والتجربة والممارسة، أشمل وأوضح وأقرب إلى الواقع، لأن الشعب المتأثر يتحدث عن تجربة معيشة، مارسها زمنا مهما تكن الظروف الخاصة بها.

ومعنى ذلك "صورة" الآخر تختلف عن الصور الأخرى لأنها تكونت بواسطة المعايشة والاحتكاك اليومي. وبالتالي فالمرجح أنها ستكون واضحة، لأن الفرنسيين عايشوا المغاربة، وتعاملوا معهم في الإدارة والتجارة، وفي كل الأمور، بل جاوروهم في المسكن واختلطوا بهم اختلاطا مباشرا كان كاختلاط الأسرة

الواحدة. مثل اختلاط طلاب فرنسيين ومغاربة في النظام الداخلي في المدارس الثانوية. كان الفرنسيون يعتبرون المغرب جزءا من فرنسا ذاتها لذلك عاشوا فيها على أنها أرضهم واعتبروا سكانها الأصليين جنسا أدنى لا بد أن يرتفع إذا أراد أن تكون له الحقوق نفسها.

تعتمد صورة كل شعب على نماذج بشرية تمثل الشعب وطريقة حياته.[106] وتنقسم النّماذج البشرية الممثلة للشعوب إلى أنواع: النموذج "الوطني" الذي يمثل الشعب بصفة عامة مثل: التركي أو اليهودي أو العربي، وتشمل تلك التسمية الشعب كله بمختلف أصنافه وطبقاته.

وهناك نموذجان آخران هما: النموذج التاريخي المشهور في ذلك الشعب المتصور، مثل: هتلر أو نابليون...إلخ. والنموذج الاجتماعي والمهني[107] الذي نجده في كل الشعوب أيضا، مثل العسكري الفرنسي، أو المدرس أو رجل الدين أو العاهرة...إلخ

وتظهر هذه النماذج الممثلة لشعب، والمؤثرة في شعب آخر في أدب الشعب المتأثر، وتكون صورة الشعب المؤثر. فما مدى صدق "الصورة" في تمثيل ذلك الشعب المؤثر وقربها أو بعدها عن الواقع؟.

يبقى صدق الصورة أو تمثيلها للواقع، كما هو، أي مطابقتها للواقع في كل شيء أمرا مستحيلا والبحث عن مطابقة صورة شعب للواقع، ضرب من العبث، وأسباب عدم مطابقة الصورة للواقع كثيرة. منها أن الصورة غير ثابتة، فالشخص يتغير دائما، يتغير في شكله، كما يتغير في باطنه. يتغير في شكله، لأنه يتطور مع نمط الحياة، فهو يغير ملابسه وطريقته في الحياة اليومية، ويتغير كذلك في باطنه، فيتخلى عن أفكار، ويؤمن بأفكار أخرى جديدة أو قديمة لم

---

[106] S. Jeune: Littérature Générale et Littérature Comparée, p53

[107] S. Jeune: Littérature Générale et Littérature Comparée, p63

يكن يؤمن بها، إنه يعيش وينمو ويتطور، فالإنسان غير جامد، وعدم الجمود يعني الحركة والتطور، أي التغير، وقد يكون التغير سريعا وقد يكون بطيئا.

فإذا كان الشخص الواحد يتغير، فالشعب بأكمله يتغير أيضا، ونسبة التغير فيه أكبر منها عند الفرد الواحد، لأن تغير الواحد جزء من التغير الكلي.

ومن أسباب عدم مطابقة الصورة للواقع أن المتطور غير ثابت أيضا، فإذا نظر فردان إلى شيء واحد، فلا بد من وجود بعض الاختلافات والفروق بينهما حسب مزاج كل منهما ومستواه الفكري، ومذهبه في الحياة، ومستواه المادي والاجتماعي، فمن المستبعد جدا أن نجد شخصين يتحدان في المزاج والفكر والمستوى المادي والاجتماعي والنظرة إلى الحياة، بالإضافة إلى التطورات الطارئة على الفرد الواحد نفسه في حياته اليومية.

فإذا كانت الاختلافات بين فردين في النظرة إلى شيء واحد حقيقة لا مهرب منها، فلسوف تكون أوسع وأعمق بين مجموعة أشخاص تنظر إلى شعب بأكمله...

ومعنى ذلك أن البحث عن مطابقة "صورة شعب ما" لواقع ذلك الشعب وحقيقته أمر مستحيل: (فلا وجود لألمانيا، وإنما ألمانيا ميشلي[108] ألمانيا الفلاسفة، ألمانيا الفرنسيين، وكلما اتسعت المجموعة زاد خطر التجريد لدى من يحاول ضبط صورة)[109]. وإذا كان الوصول إلى حقيقة شعب مستحيلا، من خلال الصورة المكونة له، فليس معنى ذلك أن الصورة خالية تماما من أي عنصر حقيقي، ولا صلة لها البتة بواقع ذلك الشعب، لأن الخيال ينطلق من واقع ما، وكل صورة خيالية لا بد لها من بعض الواقعية، فالعقل البشري يلتقط أشياء من واقعه المعيش أو المسموع أو المرئي، ثم يحلل ذلك الواقع إلى جزئيات؛ تلك

---

[108] ميشلي: 1798م -1874م، أشهر مؤرخ فرنسي: Michelet.

[109] M.F. Guyard: La Littérature Comparée, p111.

الجزئيات يستطيع إعادة بنائها وتركيبها من خلال نظرة معينة، وبذلك يأتي بشيء جديد، شيء غير مطابق للواقع، وغير منفصل عنه تماما[110].

وإذا ما استبعدنا الصور الخيالية التي تعود إلى عهود ما قبل الاكتشافات الكبرى - مثل بلاد "الواق واق" و"الجزر المسحورة" و"مدينة النحاس" و"مملكة الموتى" و"بلاد الجن"- فلن نحصل على أية صورة تناقض الواقع مناقضة كاملة تامة، ولذلك ينبغي الا تنطلق دراسات "صور الشعوب" من مبدأ البحث عن "الزيف التام" أو "الحقيقة التامة"، إنما الحقيقة تكمن في دقة الصورة[111]، والنجاح في رسمها.

فالبحث عن مطابقة الصورة للواقع لا أهمية له، إنما المهم هو البحث عن جوهر الصورة المكونة لشعب من طرف شعب آخر، فلو كانت الصورة تطابق الواقع لما كانت هناك حاجة لدراستها ما دامت تطابق الواقع: (تدرس الصورة لأنها غير أمينة، خيالية، فالصورة الأمينة غير موجودة وغير مهمّة؛ إن للصورة قوة محرفة، وتحديد تلك القوة هو الغرض من هذا النوع من الدراسة...

ويعني إيجاد شيء من الحقيقة في الصورة الاعترافَ للأدباء (...) ببعض الموضوعية التي ليست لهم وهم لم يبحثوا عنها)[112].

ليس صدق الصورة في مطابقتها للواقع أو نقلها كما هي، بل في دقتها في تعبير الأديب عن أحاسيسه وتصوراته نحو موضوع الصورة، بأسلوب أدبي مؤثر، بإخلاص وصدق لمشاعره، بغض النظر عن مطابقة ذلك التصور للواقع أو عدم مطابقته، وأن تكون الصورة صادقة في تعبيرها عن أحاسيس الأديب وأن تمثل الواقع النفسي الذي انطلق منه الأديب في تصوراته، هذا هو الأساس. فالصدق في

---

[110] د. سهير القلماوي: نظرية الرواية، مطبوعة ألقيت على طلبة معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1973م.

[111] انظر: S. Marandon: L'image de la France dans l'Angleterre victorienne, pp124-125.

[112] Lahjomri A: L'image du Maroc dans la Littérature française, pp21-22.

الصورة، صدق التعبير عن الأحاسيس لا المطابقة للواقع الفج، لأن الواقع أمام كل إنسان، ولا يحتاج إلى أن يصوره لنا آخر، إننا في حاجة إلى تسليط الأضواء على أجزاء من ذلك الواقع وتلوينها من طرف من يتمتعون بالقدرة على ذلك...

بعد الإحاطة ببعض جوانب دراسة الصورة في الأدب المقارن، نحاول استخلاص مفهوم لـ "صورة الشعب".

فكلمة "صورة" في مفهومها العادي تعني تمثيلا معقولا أو أمينا. لكن الذين تحدثوا عن "صور الشعوب" يحددون بأنهم يقصدون "بصورة الشعب" (كل ما في الذهن حول ذلك الشعب)[113] إلا أن المشكلة تكمن في تحديد ذلك الكل "الذي بقي مبهما، لا نستطيع وضع حد لبدايته أو لنهايته، مع احتوائه على الخطأ والصواب واشتماله على الحقيقة والخيال، وتلك هي مشكلة دراسة صور الشعوب".

إلا أن كثرة الدراسات في هذا الميدان - في الغرب- استطاعت أن تحدد بعض الأجزاء من ذلك "الكل"، وأن تكشف بعض مكوناته، أو مكونات (صور الشعوب)؛ فهي تتكون عادة من: الأنماط البشرية والأحكام المسبقة والإشاعات والطرائف والآراء والمشاهدات في إطار من السذاجة[114].

(الصورة إذن تمثيل يعتمد على معلومات شبه ثابتة ذات طابع عام ومعقول، ولها شيء من الواقع الملموس)[115].

"الصورة تصور فردي أو جماعي تدخل فيه عوامل ثقافية وشعورية، موضوعية وذاتية)[116].

---

[113] S. Marandon: L'image de la France dans l'Angleterre Victorienne, p125.
[114] S. Marandon: L'image de la France dans l'Angleterre Victorienne, pp125-126.
[115] S. Marandon: L'image de la France dans l'Angleterre Victorienne, p129.
[116] A. Pichois et A.M. Rouseau: La Littérature Comparée, p88.

فالصورة لا تطابق الواقع الحقيقي، وليست شديدة القرب منه، ولكنها ليست مختلفة عنه تمام الاختلاف، إنها رؤية معقولة لشعب عند شعب آخر، تعتمد على عوامل عقلية وأخرى مادية، موضوعية وذاتية.

إنها تصوُّر، والتصور لا يطابق موضوعه بل يطابق مصدره، ولذلك فاصدق تعبير هو: (تصور شعب بعينه لشعب آخر بذاته) تصور روائيين معينين لشعب آخر معين. لذلك فكلمة "تصور" هي أدق في الدلالة على ما أردنا من كلمة صورة.

وتحديد "صورة شعب" في الموضوعات ذات النظرة الأفقية (في مستوى واحد) أو ذات النظرة الرأسية (من فوق إلى تحت) يعتمد على بعض العناصر المرشدة، التي لا بد من مراعاتها من قبل الدارس، نتيجة للطريقة التي حصل بها التأثير والتأثر؛ وبذلك يراعي أوّلا بيان الطريقة التي تكونت بها أفكار أمة عن الشعب المؤثر، فيتحدث عن كل وسائل الاتصال التي تمت بها عملية التأثير والتأثر. ويذكر الحروب التي قامت بين الشعبين أو الرحلات التي قامت بها عناصر من الشعبين أو إحداهما على الأقل، أو الجوار والتبادل التجاري ويذكر كذلك المفكرين والأدباء الذين زاروا البلد المؤثر... إلخ.

كذلك لا بد أن يدرس تاريخ حياة الأدباء بالذات الذين صوروا ذلك البلد المؤثر، والبحث عن طريقة معرفتهم للبلد المؤثر هل بالزيارة أم بالمشاهدة أم بالرحلة؟ أم بالقراءة والتقاط المعلومات؟ أم بالمشاركة في الحروب أم بأية وسيلة أخرى من وسائل الاتصال السابق ذكرها.

ومن أهم الوسائل التي تعين الدارس؛ القيام بزيارة البلد المؤثر، إن أمكن وسيره على خطى الكتاب الذين زاروا البلد والوقوف جيدا أمام الظواهر التي أثرت فيهم، حتى يستطيع إدراك قدرة الكتاب على التصوير والخلق بعد احتكاكه هو بالواقع، وتأتي دراسة النتاج الأدبي جيدا أساسا لكل جهد ثم تحليل الآثار الأدبية

ذات المستوى الجيد، والابتعاد عن الأعمال الفجة. كذلك لا بد من ترتيب المعلومات واستخلاص السمات المكونة للصورة المراد تحديدها ودراستها.

اما في الموضوعات ذات النظرة العكسية (من تحت إلى فوق)، فالمسالة تختلف بعض الشيء، فالطريقة التي نتجت عنها عملية التأثير والتأثر واضحة وهي (فرض الوجود) من قبل الشعب المؤثر، والأدباء الذين صوروا البلد أو الشعب المؤثر لم يزوروا أو يرحلوا أو يقراوا البلد الذي أثر فيهم بل جاء إليهم العنصر المؤثر بنفسه، وعايشهم في دارهم.

بذلك تكون زيارة المقارن أو الدارس للبلد المؤثر، قليلة الفائدة ولا يبقى امام الدارس إلا الهجوم على الإنتاج الأدبي مع الإلمام بعض الشيء بالظروف التاريخية التي مرت بها قضية "التأثير والتأثر" بين الشعبين، إنّ لمحة تاريخية عن فترة "فرض الوجود" تمكّن الدارس من فهم النتائج المترتبة عليها والتي سيجد الدارس آثارها في الأدب الذي سيدرسه.

وأهم شيء ينبغي للدارس ملاحظته هو معايشة الأدباء لفترة فرض الوجود" أو عدم معايشتهم لها حتى لا يضع آراء من رأى كآراء من سمع وليس من رأى كمن سمع كما يقال.

ويعتمد تحديد "صورة الفرنسي في الرواية المغاربية" على دراسة الشخصيات الفرنسية وكيفية رسمها في تلك الروايات، وللوصول إلى ذلك لا بد من أن نمهد بلمحة تاريخية عن المدة الزمنية التي مر بها الوجود الفرنسي في المغرب العربي، ثم تجميع الروايات المغاربية، وانتقاء الروايات التي ترسم شخصيات فرنسية بغض النظر عن موقف الكتاب من ذلك.

ثمّ استخلاص الصفات المادية والمعنوية المبثوثة في كل رواية، وتجميعها لتتخذ كل شخصية سماتها وملامحها العامة.

كذلك تجميع الشخصيات الفرنسية المتكاملة في الروايات المغاربية العربية، واستخلاص السمات العامة بينها مع تبيان الفنيات التي استعملت في رسمها ومواقف الأدباء منها.

وأخيرا، لا بد من المقارنة بين الشخصية الفرنسية في الرواية المغاربية العربية والرواية المغاربية الفرنسية، والبحث عن أسباب أوجه الاختلاف أو الاتفاق في تحديد سمات الشخصية الفرنسية بين المجموعتين من الروائيين، وموقف كل منهما وأصول هذه الاختلافات والاتفاقات.

وهذه هي أهم الخطوات التي سيتبعها هذا البحث في تحديد الشخصيات الفرنسية في الروايات المغاربية...

وهنا لا بد من وقفة لتحديد مفهوم الشخصية الروائية، ذلك أن صور الشعوب في آداب الشعوب الأخرى تعتمد على الشخصيات الواردة في الإنتاج الأدبي، فهي النماذج التي يمكن حصرها واستخلاص سماتها العامة للخروج بتصور حول الشعب "المؤثر" والشعب "المتأثر".

ولما كان موضوع الرسالة مبنيا على الرواية المغاربية وحدها، فلا بد من الإشارة إلى أن الرواية تعتمد على شخصيات -بغض النظر عن العدد - تقوم بأحداث أو تقع لها في زمان أو ازمنة، ومكان أو أمكنة، ويعبر عن ذلك بأسلوب أدبي. ولقد اهتم منظرو الرواية -في الغرب - بدراسة الشخصية الروائية، واستطاعوا تحديد الكثير من ظواهرها، ووضعوها في قوالب معينة وإن رأى بعضهم أن هذا التنظير يسيء إلى الرواية وفنها.

ترتبط كلّ شخصية روائية بوسط اجتماعي معين، تتحرك فيه حتى وإن تكون من عناصر غير بشرية، لأن عقل الإنسان ما زال لا يستطيع تصور شخصية منعزلة عن كل شيء: (لا يمكن عزل الشخصية الروائية عن العالم الخيالي - بأناسه وأشيائه - الذي تنتمي إليه فليس من الممكن أن توجد في الأذهان وجود

كوكب منعزل: إنها مرتبطة بمجموعة: تعيش فينا بواسطتها وبكل ابعادها)[117].

ففي داخل الوسط الخيالي تعيش الشخصية الرواية مرتبطة بشخصيات اخرى، وتنقسم العلاقات الرابطة بين الشخصيات الروائية إلى محاور تدور حولها تلك الشخصيات: (تبدو هذه العلاقات من النظرة الأولى متنوعة جدا بسبب تعدد الشخصيات ولكن سريعا ما تتضح إمكانية ضبطها في ثلاث: الرغبة والاتصال والمشاركة)[118].

وتتمثل الرغبة في أبسط صورة لها: وهي: الحب بصفة عامة.

أما الاتصال، فيتمثل في الاعترافات أو البوح، بمعنى الاتصال الروحي أو الوجداني أو النفسي.

والمشاركة تتمثل في عمليات المساعدة، اي مشاركة الآخرين في التغلب على مشاكلهم أو المساعدة بمختلف أنواعها.

ومن هذه المحاور الثلاثة تتفرع مشتقات وفروع كثيرة مثل المشتقات المضادة، فالحب تقابله الكراهية وما يتصل بها من دوافع وأسباب. والاعتراف بالسر يقابله إشهار ذلك السر والإعلان عنه للملأ حتى لا يبقى ثمة اتصال بين الشخصيتيْن حول ذلك السّر. وكذلك المساعدة يقابلها المنع أو الامتناع، فإمّا أن تمتنع الشخصية عن مساعدة غيرها، وإما أن تمنع الآخرين عن المساعدة[119].

ولكل شخصية روائية وظيفة تقوم بها -بغض النظر عن قيمة الوظيفة ونوعيتها - فلا وجود لشخصية مجردة من اي معنى، لأن الروائي لا يحتاج إلى الشخصية المجردة أو التي لا تعبر عن شيء، لأنه يريد ان يقول شيئا: (تستطيع الشخصية الروائية (...) القيام بعدة أعمال في المحيط الخيالي (...) إنها تستطيع

[117] R. Bourneuf et R. Ouellet: L'Univers du Roman, p143.
[118] Tzvetan Todorov: Littérature et Signification, p59.
[119] Tzvetan Todorov: Littérature et Signification, pp59-60.

أن تكون عاملا زخرفيا أو عاملا حركيا أو متحدثا باسم الخالق أو إنسانا خياليا مع تبيان طريقته في العيش وفي الإحساس، وفي فهم الآخرين وإدراك معنى الحياة)[120].

لكل شخصية وظيفة أو عدة وظائف تقوم بها، وأثناء قيامها بوظيفتها أو وظائفها تعبر عن نفسها أو تكشف عن مكنونها، لأن قيام الشخصية بعمل يعني الاحتكاك بالغير حسب "محاور" علاقات الشخصيات. والاحتكاك بالغير هو الوسيلة الأولى والفضلى إلى معرفتهم، وبالتالي التعريف بالنفس أو الكشف عنها أيضا، لأن الآخرين يعرفون كذلك بالاحتكاك: (تدفع الشخصية الروائية الآخرين للكشف عن بعض الزوايا المجهولة فيهم وبالتالي تكشف لكل واحد عن مظهر من مظاهرها التي لا تتضح إلا في وضعيات معينة)[121].

تعيش الشخصية الروائية في وسط خيالي مرتبطة بمجموعة شخصيات ضمن علاقات معينة، تنتج عن وظائف تقوم بها الشخصيات تكون أساس وجودها في الرواية. وأثناء قيام الشخصية بوظيفتها، واحتكاكها بالآخرين تكشف عن محتواها تبعا لمعاملاتها.

والشخصية الروائية تقدم للقارئ بعدة طرق يوجزها كتاب "عالم الرواية" كالآتي:

(تقدم الشخصية الروائية بأربعة طرق: تقدم نفسها، أو تقدمها شخصية أخرى، أو يقدمها راوٍ لا يشارك في الأحداث، أو تقدم نفسها وتقدمها الشخصية الأخرى ويقدمها الراوي البعيد عن الأحداث)[122].

وتقديم الشخصية لنفسها قضية شائكة، لأن تقديم النفس يعني الحكم عليها، وبذلك تظهر مشكلة الموضوعية والذاتية في الحكم على النفس، فإما أن

---

(120) R. Bourneuf et R. Ouellet: L'Univers du Roman, p125.
(121) R. Bourneuf et R. Ouellet: L'Univers du Roman, p143-144.
(122) R. Bourneuf et R. Ouellet: L'Univers du Roman, p172.

يكون الإنسان راضيا عن نفسه فيتحمس لها ويحاول تبرير كل شيء وتحليل ما لا يرضيه ليجد له الأعذار، وإما أن يكون ساخطا، فيتشاءم ويجرد نفسه من أية قدرة، وبذلك تكون الشخصية المقدمة لنفسها معتمدة على لونين لا ثالث لهما هما الأبيض أو الأسود.

وتقديم الشخصية من طرف شخصية أخرى مشكلة أيضا لأن الإنسان لا يستطيع الحكم على نفسه وهو العليم بخباياها، فكيف يستطيع الحكم على غيره وهو لا يعلم عن خبايا غيره إلا أقل القليل، مما يزيد قضية الموضوعية والذاتية في الحكم تعقيدا وصعوبة، ومع ذلك فثمة "شيء" يساعد الدارس على استشفاف رأي الآخرين وحكمهم على شخصية من الشخصيات.

فالكلام قد يكون كاذبا، والآراء قد تكون منافقة، والمناجاة مفتعلة لكن التعامل العادي لا يستطيع تغطية الحقيقة كلها إلا نادرا، فمن معاملة الشخص لغيره يتضح رأيه فيه وحكمه عليه، لأن المعاملة العادية سلوك، والسلوك لا يخضع إلى العقل وحده، بل يخضع إلى العقل والعاطفة والغريزة، والعاطفة غالبا ما تكون صادقة وإن كانت خطأ. أما الغريزة فمن الصعب جدا التغلب عليها، وحتى إذا تم ذلك لمدة قصيرة وبعد مجهودات واضحة. والحوار من أهم الوسائل المبرزة للآراء، وبخاصة إذا كان الروائي ذكيا في توظيف الحوار لتعبر الشخصيات عن نفسها، فتوجيه الأسئلة بذكاء، فن، يوضح رأي السائل في المجيب من خلال تركيزه على نقاط معينة، أو الإيحاء بهدف يريد الوصول إليه بينما السؤال يدل مظهريا على شيء آخر يريده السائل.

والاستجواب كذلك من وسائل إبراز حكم شخصية عن أخرى، حيث يعتمد على فنيات تكشف للسائل عن خبايا المجيب، كما نجد في الاستجوابات البوليسية أو الاستجوابات النفسية وغير ذلك.

وهذه الوسائل وغيرها، تجعل تقديم الشخصية من قبل شخصية اخرى تتمتع بنسبة عالية من النجاح، كما تعطي للأديب مجالا أوسع للتعبير عن بعض الأمور.

أما تقديم الشخصية من قبل "راو غير مشارك" في الأحداث، فيختلف الأسلوب فيها عن سابقيْه، حيث لا يتدخل القاص بتاتا، فلا يحكم على الشخصية ولا يلخص موقفا، ولا يعمم حكما، إنه يجلس بعيدا عن ساحة الأحداث، وبكل هدوء وبرود وحياد، يسرد ما حدث وكأن الأمر لا يهمه، معتمدا على السرد والوصف.

وقد لاقى هذا الأسلوب انتشارا لدى الكثير من الأدباء وبخاصة في البدايات الأولى للروائيين، إلا أن هذه الطريقة تطورت من مجرد "السرد" لأحداث وقعت، ووصف لمشاهد وشخصيات وأماكن، بالاعتماد على التشبيهات العديدة إلى طريقة فنية، حيث أصبحت شخصية الراوي "إطارا عاما" يلم بالجو العام للرواية أو مصدرا تنطلق منه الأحداث، بمعنى أن شخصية الراوي تطورت من "شاشة" أو "صندوق الدنيا" إلى "آلة عرض" تنطلق منها الأشعة وتنعكس على الشاشة الكبيرة، فيندمج القارئ مع الأحداث والشخصيات المتصارعة والتطور، وينسى المصدر الذي ينطلق منه كل ذلك. وأوضح مثال على ذلك رواية الطاهر وطار "اللاز".

وأما التقديم المختلط للشخصية اي من قبل نفسها والآخرين والراوي معا، فذلك هو الأسلوب السائد، حيث تسلط الأضواء على الشخصية من الداخل والخارج، وبذلك تكون الإمكانيات أوفر والمجالات أوسع لدى الروائي، فلا يحتاج إلى التركيز الشديد أو المجهودات الضخمة لتكوين الخيوط الرفيعة المبرزة للشخصية.

فالأساليب أمامه عديدة يستعين بها كلها وينوع في استخداماته، وبذلك تكون الشروط لديه أوفر وتقديم الشخصية من زوايا مختلفة أشمل، فتخرج الرسم أوضح وأجمل وأكثر تأثيرا.

تبقى العناصر التي ذكرناها حول الشخصية الروائية مجردَ لمحات عامة للمساعدة على كشف تصور الروائيين المغاربة للإنسان الفرنسي أو للفرنسيين: ما أوصافهم الجسمية وكيف وصفت، وما هي الأعمال التي يقومون بها حسب أقوالهم، أو أقوال المغاربة أو كما توصف، ما آراؤهم في المغاربة؟ وما آراء المغاربة فيهم؟ ثم لماذا هم كذلك، وكيف قيل كل ذلك؟ أ بالوصف أم بالحوار أم من خلال الأحداث؟

سيوضح لنا الرد على هذا العدد الكبير من الأسئلة، كيف رسم الروائيون المغاربة صورة الفرنسي، ولسنا بحاجة إلى معرفة كل الآراء المختلفة التي يتجادل حولها المنظرون فيما يتعلق بتقنية الشخصية الروائية عامة.

2 -الفرنسي المستعمر وتمثيله لفرنسا

ستطرح دراسة "صورة الفرنسي في الرواية المغاربية" سؤالا مؤكدا هو: هل يمثل الفرنسي المستعمر فرنسا بالنّسبة إلى المغرب العربي؟ فقد يتبادر إلى الأذهان أن ذلك الفرنسي لا يمثل فرنسا بحكم طول مدة الاستعمار ونشأة أجيال من الفرنسيين في المغرب.

للإجابة عن هذا السؤال لا بد من مناقشة بعض القضايا التي ستوضح لنا "تمثيل" أو "عدم تمثيل" الفرنسي المستعمر في المغرب للفرنسي في فرنسا.

كانت الحملة الاستعمارية على الجزائر ثم تونس ثم المغرب الأقصى، مكونة من فرنسيين أو متفرنسين، فالجيش الفرنسي بفنييه وخبرائه وضباطه وعساكره هو الذي قام بعملية الاحتلال. ويتكون ذلك الجيش - بصفة عامة- من أبناء فرنسا، أولاد الأسر الفقيرة والحقيرة، جنود وخدم يحملون السلاح

والبعض منهم يخدم الضباط حيث كانت الأغلبية من ضباط فرنسا في بداية القرن التاسع عشر تنتمي إلى الأسر الشريفة، وانتقل ابن الأسرة الشريفة عادة بخدمه ولو إلى ميدان القتال.

وكانت عناصر الجيش الفرنسي تنتسب إلى مختلف طبقات المجتمع آنذاك فمن أعلى المستويات إلى أدناها.

وبعد تمكن الاستعمار من البلاد، بدأت عملية الاستعمار الاستيطاني وبدأت سيول الهجرة تتدفق على بلدان المغرب العربي مكونة من فلاحين وعمال وتجار وأصحاب أموال وإداريين؛ بل مكونة أيضا من مثقفين لنشر اللغة الفرنسية ودراسة المجتمع المغربي، ثم مساعدة السلطات الاستعمارية في التوجيه، وفوق كل هؤلاء أقبل بعض من الإيطاليين والإسبانيين والمالطيين، الذين منحت لهم الجنسية الفرنسية حتى يشتد بأزرهم الوجود الفرنسي.

وجاء كل هؤلاء الفرنسيين أو المتفرنسين لتحقيق أغراض معينة ولو لا ذلك لما أتعبوا أنفسهم، وتتمثل تلك الأغراض أو الأهداف في تحقيق أهداف الوطن الأم ومطالبه، وإيجاد الأسواق لمصنوعاتهم والمواد الخام لمصانعهم، والأرض لفلاحيهم، ثم صرف الرأي العام عن المشاكل الداخلية.

ولما تحققت مطالب الوطن الأم، بدأ فرنسيو المستعمرة يحسون بأهمية ما قد وقع تحت تصرفهم، وصاروا يتعاونون مع الوطن الأم على حساب السكان الأصليين، ويطالبون الوطن الأم بالاستجابة إلى رغباتهم، لأنهم جاؤوا من أجلها ليخدموا مصالحها.

بدات عملية "تعمير المستعمرة من قبل الفرنسيين"، فمدوا السكك الحديدية، وعبدوا الطرق وغرسوا مزارع شاسعة بالكروم، وربوا الخنازير، وبنوا المنازل ذات النمط الفرنسي، كما بنوا منازل ريفية تشبه منازل الريف الفرنسي، ثم أنشأوا قرى فرنسية بكاملها وأحياء فرنسية بأسرها في المدن الكبرى، بل أنشأوا أيضا المدارس حتى في القرى ليقتلعوا الثقافة الإسلامية من جذورها ويفرنسوا

التعليم بعيدا عن الدين، كما بنوا المسارح ودور اللهو والمقاهي الحديثة وكل متطلبات الحياة الأوروبية بما في ذلك قاعات الموسيقى والرقص للشبان والشابات، وفرضوا العادات والتقاليد الفرنسية؛ ومثالها الصارخ وقوف شاب فرنسي مع حبيبته أو خطيبته قرب دارها أو جنب دكان أمها يتناجيان ويتهامسان وأحيانا يتلامسان ولا يجرؤ أحد على إزعاجهما.

ولقد أرادوا إيجاد نموذج لفرنسا فكانت المثال المحتذى به في كل شيء ويستمدون منها الأفكار.

لذلك بقي فرنسيو المستعمرة مرتبطين بالوطن الأم، سواء الذين جاؤوا منها أم الذين ولدوا في المستعمرة، فهم يستمدون من الوطن الأم الخبرة الإدارية والمناهج التعليمية والدعم البشري والمعونة المادية بل والحماية الكلية وقت الحاجة.

إنهم مرتبطون بها ماديا ومعنويا وروحيا، إنها البداية والنهاية: (إنهم يبالغون في الحديث عن تمزقهم، فقد رتبوا حياتهم اليومية في المستعمرة فاستوردوا أخلاقيات الوطن الأم، حيث يقضون عطلهم بانتظام ويستمدون منه الخبرة الإدارية والسياسية والثقافية وظلت عيونهم متجهة نحوه)[123].

وخلاصة القول أن فرنسي المستعمرة يمثل فرنسا لأنه: ابنها جاء من أجل تحقيق مطامعها واستمر متعلقا بها، كما بقيت هي فخورة به، حتى أولئك الذين لم تعرف ميلادهم ضمتهم إلى صدرها، أمثال "البير كامو" و"إيمانويل روبليس" و"جاك بيرك" فهي أمهم وكيف لا يمثل الأبناء أسرتهم؟

---

[123] Albert Memmi: Portrait du Colonisé, pp35-36.

3- الرواية المغاربية

تُعتبر دراسة صورة شعب في فن أدبي لشعب آخر مسألة عادية، لكن حين تتخذ الرواية المغاربية بالذات موضوعا، تصبح مسألة غير عادية، لأن الرواية المغاربية تنقسم إلى قسمين:

الرواية المغاربية العربية: التي كتبها مغاربة عن مشاكل المغاربة المتصلة بهم، وبلغة المغاربة، وهي اللغة العربية، أي اللغة الرسمية في المغرب العربي، فهي رواية مغاربية شكلا ومضمونا، واستخلاص تصور المغاربة للفرنسيين منها مسألة طبيعية جدا ما دامت تعبر عن المغاربة.

والرواية المغاربية الفرنسية: التي كتبها مغاربة أيضا عن مشاكل المغاربة أو المتصلة بهم لكنها كتبت باللغة الفرنسية، فهل تعتبر هذه الروايات مغاربية أم لا؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال، يجب ألا يغيب عن البال أن الفرنسية فرضت فرضا على المغاربة، وأنهم رفضوا تعلمها في البداية وقاوموها؛ ولمّا توطن المستعمر شرع البعض من الأهالي في إرسال أبنائهم إلى المدارس الفرنسية ابتغاء الوظيفة، بعدما صار المثقف بالعربية مثل الجاهل تماما في ميدان العمل الرسمي، ثم زاد الإقبال على تعلم الفرنسية عندما بدأ البعض من المغاربة يقلدون المحتل في كلامه وعاداته وطعامه وملبسه ومسكنه، وبذلك انتشرت الفرنسية في الكثير من الأوساط المغاربية.

وببداية استيقاظ المغاربة من غفوتهم، بدأ الأدباء يعبرون عن المشاكل التي يتخبط فيها المجتمع، وأرادت فئة التعبير عما يجيش في صدرها لكنها لم

تستطع التعبير سوى بالفرنسية، فعبرت مضطرة، (... كانوا يسمون إلى التعبير من مأساة مجتمع متأزم)[124].

وثبت البعض في ميدان الأدب، واتخذه مطية لكشف الستر، وبذلك بدات الرواية المغاربية الفرنسية، تعبر عن المشكلة الأساسية، مشكلة الاستعمار (فلم يكن للمجتمع المغربي حتى ذلك الحين وجود معترف به على الإطلاق، لا في القوانين ولا في الحياة اليومية، ولا في الأدب.

كان الاستعمار ينكر عليه الوجود والذاتية والشخصية وكان ينكر عليه من باب أولى كل قيمة. ولكن ها هو ذا أدب شمال إفريقيا للمرة الأولى، يتحدث عن أمم المغرب باعتبارها حقائق واقعة، ليس الاستعمار الأوروبي إلا حادثة عارضة فاجعة في تاريخها وفي حياتها.

وهكذا انعكست حدود المشكلة، فقد كانت الحقائق الوحيدة والقيم الوحيدة المعترف بها هي الحقائق والقيم التي تخدم الاستعمار، ولم يكن العالم المغربي يتحدد إلا بالنسبة لهذه الحقائق والقيم، على نحو سلبي دائما. ولكن الرواية المغربية تأتي فتصحح هذا الوضع على الأقل داخل نطاقها الخاص، وتقيم هذا العالم على قدميه من جديد بعد أن كان يسير منكفئا على رأسه، فهي تصور حياة الناس في المغرب باعتبارها الحقيقة الجوهرية، والاستعمار باعتباره حادثة عرضية وشذوذا عابرا)[125].

لقد عبرت الرواية المغاربية الفرنسية اللغة عن مشاكل المغرب، وكشفت النقاب عن الاستعمار الفرنسي وواجهت الفرنسيين بحقيقتهم وباللغة التي يفهمونها: (... اغتاظ "روبير كامب" بسذاجة من عقوق محمد ديب، ولم يغفر له أن يشتم الفرنسيين بلغتهم الخاصة)[126].

---

[124] عبد الكبير الخطيبي: الرواية المغربية (ترجمة محمد برادة)، ص15.

[125] مولود معمري: الأدب الإفريقي باللغة الفرنسية، مجلة "لوتس"، عدد1مارس68، القاهرة، ص74.

[126] عبد الكبير الخطيبي: الرواية المغربية، (ترجمة محمد برادة)، ص14.

وخدمت الرواية المغاربية الفرنسية اللغة، المغاربة في قضيتين هامتين: الأولى تناولها المشاكل المغاربية وكشف الستر عنها؛ والثانية مواجهة الفرنسيين أنفسهم بحقيقة أعمالهم بواسطة لغتهم. وبذلك، فمضمون الرواية المغاربية الفرنسية مغاربي، ولا مناقشة في ذلك، ولكن هل استطاعت تلك الرواية التعبير عن ذلك المضمون بصدق؟

إن معظم الروائيين المغاربة الفرنسيي اللسان يقولون بأنهم لا يكتبون أدبا فرنسيا، واستعمالهم اللغة الفرنسية، مجرد وسيلة، كاستعمال الرسام لألوان صنعت في فرنسا أو أية دولة أجنبية، ويؤيدهم في تلك النظرة البعض من الدارسين: (لفرنسا الحق في المطالبة بكل الأعمال الناطقة بالفرنسية أو الكتاب، فأصل الفرنسية فرنسا "ألم يلحق العرب كل المؤلفين الناطقين بالعربية بهم سواء كانوا فرسا أم أتراكا أم أزبكيستانيين أو أكراداً" ومع ذلك ففي الجزائر يمثل الكتاب الجزائريون، أدبا وطنيا بمضمونه وفنياته، إضافة إلى ذلك من الممكن استعمال نفس الأنغام الموسيقية لخلق ألحان مختلفة، ونفس الألوان لخلق رسومات مختلفة كما يقول "معمري" اللغة فرنسية والتعبير جزائري)[127].

ويفصل البعض من المغاربة - روائيون ودارسون- بين اللغة وبين الآثار الأدبية ويعتبرونها أداة عمل، مثل المطرقة أو المنشار أو السكين أو أية أداة جامدة، لا تتأثر بما يحيط بها، ولا تتطور، ولا تنمو.

وإذا كانت اللغة أداة ليس غير، لا تتأثر ولا تنمو، فالحق مع الذين يقولون بأنها أداة، أما إذا كانت تتأثر وتتطور وتنمو فإن للقضية إذن وجه آخر.

إن لكل مجتمع لغته أو لغاته، واللغة عبارة عن اصطلاحات اجتماعية يعبر عنها بأصوات بشرية فسيولوجية، ثم تتطور تلك الاصطلاحات بتطور المجتمع متغذية بكل تراث المجتمع، ولولا التطور والنمو لبقيت كل اللغات جامدة

---

[127] Ghani Merad: La Littérature Algérienne d'expression française, pp145-146.

كما خلقت ولما اتسعت الأسر اللغوية وتفرعت، ولما تطورت الدلالات والمفاهيم: (بماذا ينتقل ميراث شعب عبر الأجيال؟

بالتربية التي تربي بها الأولاد، واللغة ذلك الخزان الرائع الذي يثرى دائما بالتجارب الجديدة.

إن التقاليد والمكتسبات والعادات والغزوات، أعمال الأجيال السابقة كلها مسجلة في التاريخ)[128]، فاللغة إذن ليست وسيلة أو أداة، إنها وعاء يضم بين جوانبه أشياء حية، وحقيقة الوعاء أيضا أداة، لكنه أداة خاصة، لا يصلح لاستيعاب كل شيء ولا يصلح لكل الناس، والاختلاف موجود بين اللغات ذات الأصل الواحد والمنتمية إلى أسرة لغوية واحدة أما بين اللغات التي لا تشترك في الأسرة اللغوية الواحدة، فالاختلافات بينها شديدة، من حيث النظام التركيبي (النحو) أو الشكلي (الصرف) أو الصوتي (الأصوات اللغوية) أو الدلالي (دلالة المفردات ومعانيها).

وهناك مفردات كثيرة تخص البيئات التي تعيش فيها كل لغة: فثمة اختلافات كثيرة بين اللغة الفرنسية واللغة العربية في المفردات المتصلة بالإنسان- مأكله ومشربه وملبسه-، والنباتات وبعض مظاهر الطبيعة والحياة الروحية، والعادات والتقاليد والتاريخ... إن الاختلافات تظهر في أبسط الأشياء مثل "المائدة" فهي أداة معيشية مغاربية غير معروفة في فرنسا، و"العمامة" و"الحجاب".

فكيف يعبر الروائيون المغاربة عن الحياة المغاربية بلغة قوم يختلفون عنهم في الحياة الروحية والاجتماعية والمادية؟

إنهم يزعمون بأنهم يخضعون اللغة الفرنسية للتعبير عن الروح المغاربية ويطورونها لتتلاءم مع أفكارهم، فهل يعقل أن يطور عشرة أفراد أو عشرون لغة غير لغتهم في ظرف سنوات؟

---

[128] Albert Memmi: Portrait du Colonisé, p133.

حقيقة، تتطور اللغة - اية لغة- إلا أن تطوّرها لا يتم إلا في فترات زمنية طويلة - بالنسبة لعمر الإنسان- ونتيجة لتطور المجتمع بأكمله. اما او ياتي فرد او مجموعة افراد، ويستعملون مفردات أو صيغا ليعبروا بها عن مجموعة افكار جديدة أو بعيدة عن جو اللغة المعبر بها، فذلك ليس تطويرا في اللغة إلا إذا انتشرت تلك المفردات أو الصيغ وعم استعمالها، وهذا فرض مستبعد جدا لا يحدث إلا عبر مدة زمنية طويلة، والدليل على ذلك، نتائج المجامع اللغوية العربية فهي تقر صيغا ومفردات جديدة أو مجددة، إلا أن شيوعها وتداولها يحتاج إلى مدة زمنية إذا تقبلها أهلها، ويحتاج إلى تغير وتطور في المجتمع العربي كي يضطر إلى استعمالها، وبذلك فادعاء الروائيين المغاربة بتطوير وتطويع اللغة للتعبير عن مشاعرهم فيه الكثير من الغرور.

يعني استعمال لغة أجنبية، التفكير من منطلق حضاري معين وميراث بالذات، ثم التعبير عن ذلك الفكر الوطني بلغة أخرى تعتمد على ميراث حضاري آخر، أي يترجم المغاربة فكرهم إلى اللغة الفرنسية ترجمة بكل ما تحمله كلمة ترجمة من معانٍ وإيحاءات، وبذلك نستطيع القول أن الرواية المغاربية الفرنسية اللغة رواية ترجمت أثناء كتابتها، وبذلك فهي- ليست الأصل، وإنما الرواية المغاربية الفرنسية اللغة "صورة" مترجمة لأصل مفقود.

ومن البداهة، الا تكون الأعمال المترجمة مشابهة كل الشبه للأصل، فالمجيد للغتين، يلاحظ الفروق بين العمل الأدبي في لغته الأصلية وبين ترجمته في لغة ثانية، مهما كانت قدرة المترجم، فلكل لغة خصائص تنفرد بها، وتلك الخصائص تسم كل عمل مترجم بسمات توضح أنه صورة. فإذا ما جاء مترجم ثان وأعاد الأثر إلى لغته الأصلية يكون بذلك قد ابتعد تماما عن روحه الأولى، لأن الخصائص التي وسمته في اللغة المترجم إليها ستكون عاملا في البحث عن خصائص أخرى في اللغة الأصلية لتحل محلها وبذلك لا يبقى من الأثر الأدبي

إلا الروح العامة، وما يطلق عليه جزافا اسم المضمون، أما الخصائص والجزئيات واللفتات، وخصائص الفن الأصيلة فستضيع كلها في الطريق.

ونتيجة لتعبير المغاربة عن واقع بلغة واقع آخر، جاء أدبهم شاذا، فلا هو مغاربي صميم ولا هو فرنسي صميم: (... فإذا كانت هذه الروايات من الوجهة التقنية، تقترب من الكمال فإنها لم تكن انعكاسا أصيلا للمجتمع الجزائري وبخاصة على مستوى الجماهير الشعبية الكادحة والمستغلة، ولا الشعب بصورة عامة، بفضائل هو إنسانيته ومقاومته الصامتة أو العلنية للضغط الاستعماري)[129].

لم تستطع الرواية المغاربية الفرنسية التعبير عن الشعب، لأنها تعبر عن قوم بعقلية قوم آخرين: (تفكير الشخصية حسب المنطق الفرنسي خطر، فلكي تكون اللغة فرنسية جيدة، يجد الروائي نفسه مجبورا على جعل الشخصية تفكر بالفرنسية وعلى تحميلها أفكارا أو عواطف "على الطريقة الفرنسية" وشيئا فشيئا يصل الروائي إلى تغيير الطبائع، وربما إلى التشويه أو إفقاد الشخصية)[130].

ويصل "غاني مراد" إلى أن الكتابة بالفرنسية تدفع الروائي المغاربي - كرها - إلى تغيير الطبائع، وربما تشويه الشخصية أو فقدانها. ويعتبر ذلك خطرا، بل إنه الخطر بعينه فماذا يبقى من الأثر الأدبي إذا تغيرت طبائع الشخصية أو تشوهت ملامحها أو فقدت الشخصية شخصيتها؟ ستكون الشخصيات الروائية عندئذ مثل الطفل الذي يلبس ملابس رجل أو العكس، أو رجل نحيف طويل في ملابس رجل سمين قصير.

إن اللغة إذن ليست أداة بهذا المعنى، واحتجاج "غاني مراد" بإلحاق كل من كتب بالعربية بالعرب أمر مردود، لأن العرب -قديما - لم يعرفوا ما يسمى

---

[129] مصطفى لشرف: الثقافة الجزائرية (ترجمة د. إبراهيم الكيلاني)، مجلة المعارف السنة الثانية، العدد 24، سوريا 1964، ص68.

[130] Ghani Merad ; La Littérature Algérienne d'expression française, p152.

بالأدب العربي والفارسي والتركي والكردي، بل كانت هناك دولة إسلامية لغتها الوحيدة التي يؤلف بها هي العربية ودستور مجتمعاتها كلها هو الإسلام بإعجاز لغة كتابه القرآن.

ولم نجد مصدرا واحدا ألحق الأدب الفارسي -قبل الفتح - بالعرب إنها مرحلة تاريخية لها خصائصها المختلفة، والأساس فيها الروابط الروحية والعقيدة المشتركة والميراث المشترك لا الدموية، فلا نخلط بين الأمور.

وتبقى قضية أخرى: هي ارتباط أديب بلغة أجنبية وانسجامه معها، وتعبيره عن مشاكل شعب تلك اللغة -مثل الأديب الروسي المولد والنشأة، فلاديمير نابوكوف - فأدبه لا صلة له بأدب شعبه الأصلي، لأنه ملتزم بمشاكل المجتمع الأمريكي وقضاياه، وهنا نجد أن الأصل العرقي أو الجغرافي لا قيمة له، إذا لم يؤثر في الإنتاج الأدبي. وهناك قضية أخرى حول استعمال أديب لغة أجنبية وسيلة للإنتاج، حيث يضع شخصياته الروائية في مأزق، نتيجة بعدها عن الواقع اللغوي الذي تعيش فيه.

ومعروف أن المغاربة عرب، فكيف يتكلمون جميعا بالفرنسية -في الروايات -، وحتى الراعي الذي لم يعرف المدرسة يتحدث بالفرنسية؟ إن العقل لا يقبل ذلك، كما لا يقبل أن يسمع عاملا أمريكيا يترنم بالشعر العربي وهو يعمل في الورشة.

قد يأتي يوم تصبح فيه قضية اللغة غير ذات قيمة، نتيجة الإقبال على تعلم اللغات وتعدد وسائل انتشارها، لكن معرفة اللغات بطلاقة بين مختلف الشعوب ما زالت تقتصر على فئات معينة من كل شعب؛ ولذلك فإنه من الناحية "الواقعية" أيضا، لا يمكن قبول الرواية المغاربية الفرنسية لأن الواقع المعيش يخالف ذلك، هذا يقودنا إلى أن قضية اللغة ستظل رغم انتشارها محتفظة بآثار عميقة جذرية تدل على أصلها الذي لا نستطيع أن نتخلص منه إلا بالموت.

إن الرواية المغاربية الفرنسية لا تعبر عن فرنسا بتاتا، كما انها لا تعبر عن المغرب كلية، إنها مغاربية المضمون فرنسية الشكل، إنها مخلوق خاص قائم بذاته مثل المولود الذي يولد –نتيجة ظروف معينة - غير سوَيٍّ فيكبر ويلعب دوره في الحياة، إنه ابن أبويه، لكنه لا يشبه إخوته، ولا يمكن التخلي عنه أو إنكاره.

الفصـــل الثـــاني

صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية

القسم الأول

صورة الفرنسي في الرواية العربية المغاربية

1- الحاكم
2- القاضي
3- الجندي
4- رجل الأمن
5- المعمر
6- رب العمل
7- رجل التعليم
8- الفرنسيون عامة

لا تضم الروايات العربية المغاربية كلها شخصيات فرنسية، فالتي تحتوي منها على شخصيات فرنسية لا تزيد على خمس عشرة رواية، والبقية لا نجد فيها إلا إشارات قليلة جدا وعابرة. وباستخراج كل الشخصيات الفرنسية الواردة في تلك الروايات، اتضح لنا أننا يمكن أن –نقسمها إلى قسمين أساسيْن:

الفرنسي، ويتضمن: الحاكم، والقاضي، والجندي، ورجل الأمن، والمعمر، ورب العمل، ورجل التعليم، والفرنسي بصفة عامة.

ثم الفرنسية، ويتضمن هذا القسم: زوجة الفرنسي، أو المرأة المسنة، والفتاة، والتاجرة، والعاملة، والموظفة، وأخيرا زوجة المغاربي أو حبيبته.

ورتبت نماذج الفرنسي حسب قوة تسلطه على المغاربي وفرض وجوده عليه. فالمغاربي مرغم على الاتصال بالحاكم –مدنيا كان أم عسكريا - ثم المثول أمام القاضي؛ أما الجندي أو رجل الأمن، فهما اللذان يقتحمان على المغاربي بيته أو متجره -عندما لا تنفع الوسائل السياسية والقضائية -؛ ثم يأتي المعمر - وهو المغتصب للأرض -، ليقبل أو يرفض تشغيل المغاربي؛ ويليه رب العمل في السيطرة على الرزق؛ أما المعلم فعلاقة المغاربي به ليست علاقة تسلط وتجبر إنما علاقة انجذاب وإعجاب... كما رتبت نماذج الفرنسية بناء على علاقة المغاربي بها. ففي البداية لاحظ زوجة "الرومي" من بعيد، ثم رأى ابنته، ثم تعامل مع التاجرة ودخل محلها عندما صار يتحدث شيئا من الفرنسية، ثم تعامل مع الموظفة في الإدارات الحكومية والشركات والمؤسسات العامة، ولما زال الحاجز بينهما، أعجب بها وأثمر ذلك الإعجاب الحب والزواج.

تلك هي الشخصيات الفرنسية الواردة في الروايات العربية المغاربية، قسمتها إلى قسمين أساسيْن، ثم قسمت كل قسم إلى نماذج محددة لتسهيل دراستها، ولنخرج آخر الأمر من "مجملها" بصورة الفرنسي في الرواية المغاربية "أي الفرنسي بصفة عامة".

وسنراعي التسلسل الزمني في نشر الروايات أثناء الدراسة، حتى نتمكن من ملاحظة التطور في نظرة المغاربة إلى الفرنسيين مما أثر أو لم يؤثر في أسلوب التعرض للشخصية ورسم دورها في الرواية.

1- الحـــاكـــم

ظهرت شخصية الحاكم أول مرة في رواية عبد الكريم غلاب: "دفنا الماضي"[1] وهي شخصية الحاكم العسكري لمدينة فاس.

يقف الجنرال حاكم فاس حائرا أمام مشكلة أرقته، فقد عجزت شرطته كما عجز جنده عن إسكات مسدسات عتيقة لبعض الشبان المغاربة، خشي أن يضيع هؤلاء الفتيان سمعته وشرفه المكتسب في ساحة القتال، بل شرف فرنسا كلها وبعد مشاورة خبرائه عقد العزم على إذلال الأهالي وإخضاعهم بالقوة[2].

أمر الحاكم بتطويق المدينة وتفتيشها بيتا بيتا، وألقى القبض على مجموعة من المواطنين. ولما جاء مساعد الجنرال ليقدم له تقريرا وقف مزهوا، وعقب السيجارة يتدلى من فمه وطلب منه أن يحكي له قصة "الاستسلام". تصور نفسه فاتحا لمدينة من المدن ومساعده يقص عليه كيف استسلمت تلك المدينة، وكاد مساعده أن يقول له بأن العملية مجرد عملية اعتقال، إلا أنه خشي غضب رئيسه، واستصغار العملية التي أشرف عليها بنفسه، لذلك أخبره بأن العملية تمت كما رسمها –أي الحاكم - فانفجر مقهقها من السرور وأخبر مساعده بأنه سيشكل محكمة عسكرية لمحاكمة المشوشين[3].

---

[1] عبد الكريم غلاب: دفنا الماضي: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1966.

[2] عبد الكريم غلاب: دفنا الماضي، ص357 -359.

[3] عبد الكريم غلاب: دفنا الماضي، ص360 -363.

عرض "غلاب" هذه الشخصية بأسلوب بسيط جدا، معتمدا على السرد في تصوير الشخصية: (وأسقط في يد الجنرال، فإن جثته الضخمة ووجهه القاني وشاربه المفتول وبذلته الطافحة بأوسمة الشرف والنصر، كل ذلك لم يستطيع أن يحقق النصر الذي حلم به في فاس، وأصيب كبرياؤه، فالمجد الذي حققه في ساحات الشرف بدأت تدهمه ثلة من شبان يسجلون الهدف في خفية من أعين جيشه وشرطته وحرسه...)[4]؛ ويستمر الكاتب في السرد واصفا الجنرال وهواجسه وخططه، وعندما يتحاور الجنرال مع مساعده، لا يتعدى حوارهما كلمات بسيطة، فالحوار أساسه أسئلة عادية يجاب علنها بأجوبة عادية هي أيضا. إذن فالروائي هو مقدم الشخصية وقد ركز في تقديمه لصورة الجنرال حاكم فاس على الصفات الجسمية، فهو ضخم الجثة، قاني الوجه، مفتول الشارب، يلبس بذلة تزينها الأوسمة العديدة[5]. ثم ينتقل إلى وصف حركاته، فالجنرال يضع يده في جيبه، ودخينة التبغ لا تفارق شفته، وعندما يسير، يضحك حتى تنتفخ أوداجه ولا يهمه شيء قدر حفاظه على شرفه العسكري.

ونجد الشخصية نفسها في رواية "المعلم علي"[6] لعبد الكريم غلاب أيضا. الجنرال حاكم المدينة، الذي يقف في اجتماع لأرباب العمل في المصانع بعد أن أضرب العمال فرنسيون ومغاربة. يقف في قاعة الاجتماع محتدا غاضبا من إضراب العمال المغاربة عن العمل، وكان رأيه أن يطرد أرباب العمل كل المغاربة عقابا لهم، إلا ان صوتا انثويا جاءه من الهاتف خفف من حدته، وجعله يستلقي على كرسيه ويضحك بانشراح أثناء المكالمة، وعندما يعود إلى الاجتماع يقرر بأن لا زيادة في أجور المغاربة مهما كانت نتيجة الإضراب -حتى وإن زيدت أجور

---

[4] عبد الكريم غلاب: دفنا الماضي، ص357.

[5] عبد الكريم غلاب: دفنا الماضي، ص357.

[6] عبد الكريم غلاب: المعلم علي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1971.

الأوروبيين - إضافة إلى طرد العناصر البارزة بين المغاربة، فليس للمغاربة الحق في الإضراب، حسب رأيه، وهو يستشيط غضبا عندما يصله طلب تكوين نقابة للعمال المغاربة وحدهم، ويجمع أرباب العمل وممثلي النقابة الفرنسية ويصب على الآخرين جام غضبه: "وصرخ: أنتم المسؤولون (...) لأنكم روجتم هنا بضاعة أجنبية غريبة عن هذا الوسط علمتموهم أشياء لم تكن تخطر لهم على بال"[7].

فهو يريد الإبقاء على جهل العمال المغاربة، حتى لا يفهموا أشياء تكون البداية في إيقاظ وعيهم، أما العمال الأوروبيون، فهو مستعد إلى الدفاع عنهم أمام أرباب العمل، شريطة ألا يكونوا مثالا يحتذى من طرف المغاربة، لأن الهدف الإبقاء - ما أمكن - على البلاد كما هي.

ولقد رسمت هذه الشخصية كما رسمت مثيلتها الشخصية السابقة، فالسرد هو الأسلوب الذي استعمله الروائي مع الوصف الكامل للشخصية من الناحية الجسمية والشكلية فالجسم ضخم، والكرش مدورة والوجه أحمر لامع، والعينان زرقاوان، يرتدي بذلة عسكرية مزينة بالأوسمة والشرائط وعلى الرأس القبعة العسكرية المزينة بضفائر الذهب، واليدان مرتكزتان على الحزام العريض بالإبهامين[8].

ثم ينتقل الكاتب إلى وصف حركات الجنرال وأفعاله، فيذكر اصطناعه الغضب أمام أرباب العمل، كما لا ينسى الدخينة المتدلية من الفم، والتي يلفظها ويسحقها بحذائه، ومن شدة الغضب تنتفخ أوداجه.

وفي اجتماع آخر يشعل دخينة من أخرى وإنه عصبي، ويريد أن تكون كلمته هي العليا دائما ولا يقبل مناقشة حتى من مساعديه[9].

---

(7) عبد الكريم غلاب: المعلم علي، ص365.

(8) عبد الكريم غلاب: المعلم علي، ص 326 - 327

(9) عبد الكريم غلاب: المعلم علي، ص367.

فالجنرال حاكم المدينة هو شخصية بعينها واحدة في روايتي عبد الكريم غلاب "دفنا الماضي" و"المعلم علي"، السمات الجسمية مشتركة بين الشخصيتين الضخامة الحمرة والسمنة وكذلك الاهتمام بالبذلة العسكرية ذات الأوسمة والشرائط، وكذلك الحركات مثل الغضب المصطنع والدخينة التي لا تفارق الفم، والتجوال جيئة وذهابا في قاعة الاجتماعات، ووضع اليدين في الجيوب او تعليتهما في الحزام.

وكذلك موقف الشخصيتين من المغاربة واحد، فالحاكم يريد الإبقاء على احتلال المغرب بكل الوسائل، فيدفع بالشبان الوطنيين إلى المحكمة العسكرية، ويطرد العمال المطالبين بالحقوق التي يطالب بها الفرنسيون من العمل، ويتركهم للجوع والبؤس حتى لا يفكروا مرة أخرى في الثورة ضد السلطة.

وفي رواية أحمد زياد "بامو"[10] نجد شخصيتين لحاكمين، الشخصية الأولى هي "طاليك" الحاكم العسكري على ناحية من نواحي المغرب الأقصى، أقبل في يوم من الأيام على سكان الناحية ليخبرهم بأنه جاء لينوب عن "المخزن الشريف"[11] في الحفاظ على الدين الإسلامي والعادات والتقاليد[12]، ولكن سرعان ما حول الناحية إلى ضيعة كبرى اقتسم ملكيتها المعمرون، بينما اقتسم المغاربة العمل فيها.

استطاع الحاكم "طاليك" الوصول إلى غرضه بانتزاع الأراضي والإرهاب والتعسف حتى بلغ به الأمر حد الغضب من رؤسائه لأنهم بعيدون عن الواقع المغاربي، وفي عهده انتشر الفساد المادي والخلقي، فتهدمت مصانع المغرب

---

[10] أحمد زياد: بامو، دار الكتاب، الدار البيضاء 1974.

[11] المخزن الشريف: هو السلطة الحاكمة في المغرب الأقصى قبل الاحتلال وهي ترجع بأصلها إلى صلة من الصلات بالنبي (صلى الله عليه وسلم).

[12] أحمد زياد: بامو، ص10.

التقليدية، كما بث جواسيسه وعيونه في كل الأرجاء وبذلك جثم على صدر الأهالي بسرعة فائقة[13].

عرض الروائي شخصية "طاليك" دفعة واحدة، مع الإهمال التام للناحية الجسمية حيث شرع في سرد أعمال الحاكم بأسلوب خطابي، وكأنه يكتب خطبة أو مقالا حماسيا يقول: (كان اسم ذلك الحاكم "طاليك" وقد اقترن اسمه بجو من الرعب والإرهاب والتعسف والاستنزاف، وكان الحاكم الفرنسي "طاليك" يعتبر نفسه سقراطيا في المذهب الاستعماري، وكان يعتبر رؤساءه في الرباط وإدارة الشؤون السياسية بعيدين عن الواقع المغاربي على حد تعبيره (...) وكل ما يشرعه ويفتيه المسيو طاليك يقوم على دعامتين اثنتين متقابلتين:

تجريد المواطن المغاربي من كل وسائل المقاومة المعنوية والمادية.

وخلق إمبراطورية قوامها المستعمرون، وعلى أن يكون طاليك فيها هو بونابرت.

ومن الحق الإشارة إلى أن طاليك قطع في خطته هذه أشواطا بعيدة على أنّ أقطعَ وجهٍ كان في برنامجه هو سعيه الحثيث في تفتيت المجتمع المغربي)[14].

وهكذا نجد عرضا مباشرا بأسلوب تقريري، همه الوحيد الإقناع لا الإثارة لشخصيته مجردة من السمات الإنسانية عدا العنف الشديد في تطبيق السياسة الاستعمارية أما الشخصية الثانية فهي للحاكم "رامونا" الذي غضب غضبا شديدا من "بامو" زوجة "باسو" الحداد المغربي، والتي ثارت في وجه رجل من رجال السلطة أراد الاعتداء عليها، فلما سمع الحاكم بتلك الحادثة غضب من تمرد "بامو" على أحد ممثلي السلطة، واعتبر العملية إهانة للسلطة ولفرنسا وقرر معاقبتها بنفسه[15].

---

[13] أحمد زياد: بامو، ص 18 -20.

[14] أحمد زياد: بامو، ص18 -19.

[15] أحمد زياد: بامو، ص 98 -99.

استدعى الحاكم "رامونا" بامو إلى المكتب فذهبت صحبة "حمامدو" المتعلم عند زوجها، وأمام باب الحاكم مكثت تنتظر، وأثناء حضوره وسط هرج ومرج تساءل إن كانت هي فأجابت بنعم فطرد بنفسه "حمامدو" لتبقى وحدها، وفي المكتب سألها عن أصلها ملاطفا وادعى معرفتها، ثم اتهم زوجها بخيانتها مع امرأة مستعدة للشهادة، وحاول إثارتها ضد زوجها المشوش والخائن وتحسر على ضياعها مع ذلك الرجل، ثم طلب منها رفع الحجاب وأظهر لها رغبته في الزواج من مغربية جميلة إلا أنها أبت رفع الحجاب، ونتيجة لتهديداته رفعت الحجاب، فدهش لجمالها وعذر كل من طمع فيها وأراد التفوق عليهم جميعا، فعاد يطري جمالها ويتهم زوجها ووضعيتها المعيشية، وعرض عليها أن تتولى أموره المنزلية ويمنحها راتبا ويسرح زوجها من السجن مع طلاقه لها وإبعاده عن القرية بعد مساعدته ماديا.

ولما طلب رأيها انفجرت "بامو" باكية، فأحضر حارسه وأمر بنقلها إلى بيته والإغلاق عليها دون مكالمتها حتى ينظر في أمرها[16].

لم يكن غرض الحاكم "رامونا" التمتع "ببامو": (لأن الطبيعة جردته من السلاح الذي يمكن أن يفتك وينتهك به عرض المرأة، ولكن ما المقصود من حجزها؟ يجيب بعض الأعيان من الراسخين في علم سير المراقبين المدنيين بأنه يعتقد أن الحاكم "رامونا" لا يرمي لغير إخضاع هذه المرأة وإذلالها وامتهان ميزة جمالها بتشغيلها خادمة ذلولة حتى يتبين للناس أنه لا شيء يمكن أن يستعصى عليه)[17] غرض "رامونا" إذن إخضاع وإذلال أجمل امرأة عرفتها الناحية، ولا عجب في ذلك: (فلقد كان "رامونا" مصنفا في قائمة ذلك الرهط من الحكام الفرنسيين الذين يكيفون سياستهم في حكم البلاد والعباد بأمزجتهم الشاذة التي

---

[16] أحمد زياد: بامو، ص 100 -105.

[17] أحمد زياد: بامو، ص 109.

تستمد أصول تكيفها من تكوينهم الفسيولوجي المختل الميزان ولئن كان مبدأ "السياسة الأهلية" يساعدهم على التفنن في استخدام أساليب من الغطرسة والجبروت فإنهم -بالرغم عن ذلك - كانوا يشتطون في استخدام نفوذهم إلى الحد الذي يجعل المصالح المركزية في الرباط تضيق بهم في بعض الأحيان)[18].

ورغبة "رامونا" في الإخضاع والإذلال والاحتقار تعدت الأهالي حتى أصبح يسعى إلى إذلال نفسه، نتيجة عجزه الجنسي الذي جعله يشعر دائما بالحطة أمام الرجال بصفة عامة والنساء بصفة خاصة، كما حدث له مع "بامو" التي (كانت تقص على زوجها "باسو" ما عانت من شذوذ الحاكم وسلوكه الغريب وذكرت فيما ذكرته أنه كان يجردها من ثيابها ويكتفي بالنظر إليها ثم تنتابه نوبة تكاد تشبه النوبات التي يصاب بها المجانين فيسلمها سوطا رقيقا من شعر الجياد ويأمرها بأن تضربه في أماكن مختلفة من جسده. ولقد شعرت بأنه يعاني من عقدة عجز جنسي ما طبع سلوكه العام بضروب شتى من ألوان الغرابة والشذوذ في تصرفاته العامة منها والخاصة على السواء)[19].

لم نلمس حضور "رامونا" -الحاكم العاجز جنسيا، الذي أراد تعويض عجزه بإذلال الأهالي وتحطيم كل القيم لديه، وإخضاع كل من تسول له نفسه أن يدافع عنها -، على مسرح الأحداث في الرواية لأن الكاتب تولى مهمة تقديمه، وقص كل كبيرة وصغيرة عنه، بأسلوب سردي خطابي، هدفه الأول الإقناع برأي الكاتب في شخصية الحاكم من خلال أقواله هو، أو كلام الشخصيات الأخرى عدا "رامونا" نفسه؛ ولذلك جاءت شخصية "رامونا" لا نعرف منها سوى: ("... عينين زرقاوين تعبران عن كوامن الفظاظة والغلظة، شعرها خاطه شيب من

---

[18] أحمد زياد: بامو، ص 148 -149.

[19] أحمد زياد: بامو، ص 156 -157.

الناحيتين اليمنى واليسرى ووجه رسمت عليه خيوط في شكل عروق تكاد تكون ناتئة في بعض مواقفها)[20].

وهكذا ترى أن شخصية الحاكم في الرواية العربية المغاربية تعتمد على صفات جسمية معينة، مثل الضخامة والبدانة والسمنة مع الميل إلى القصر، ثم حمرة الوجه، ورزقة العينين والشيب إضافة إلى الاهتمام بالمظهر وذلك بالمحافظة على اللباس العسكري والشارات والرتب، سواء في روايات عبد الكريم غلاب أو رواية أحمد زياد...

كما تتسم شخصية الحاكم بالغضب، أو اصطناعه، وشدة الانفعال، والتعصب، والحقد على الأهالي، واعتبارهم أقل مستوى من البشر، ومحاولة الإبقاء عليهمفي الفقر والبؤس والذل باستعمال أعنف أساليب التسلط، كبث الجواسيس، والزج بهم في السجون، والتقديم للمحاكم العسكرية، ونشر الفساد والانحلال الخلقي بالاعتماد على الشرطة والجيش؛ وهذه الأوصاف مشتركة بين مختلف شخصيات الحاكم.

والسمات المظهرية التي عرفناها عن طريق الوصف الجسدي، تدل على التباعد بين شخصية الحاكم الفرنسي والروائي المغاربي. فالروائي المغاربي يرى الحاكم من بعيد، فيصف سماته الجسمية، ثم يلاحظ حركاته وانفعالاته فيصفها بأسلوب سردي تقريري خطابي مما يجعل القارئ يدرك نظرة الروائي إلى شخصية الحاكم دون أن يحس أن الروائي قد عايش هذه الشخصية أو تأثر بها وتفاعل معها.

---

[20] أحمد زياد: بامو، ص102.

جدول مكونات شخصية الحاكم

الرواية وكاتبها والشخصيات الواردة فيها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الـــدور
"دفنا الماضي" لعبد الكريم غلاب: 1 - الجنرال حاكم فاس	جثة ضخمة – وجه قان – شارب مفتول - بذلة مزينة بأوسمة الشرف والنصر - دخينة التبغ لا تفارق شفتيه – منتفخ الأوداج	متجبر – قلق– حقود على الأهالي – استعماري النزعة – مغرور – عنيف – ظالم.	حاكم المدينة يستعمل كل الإمكانيات لتحطيم مجموعة من الشبان المغاربة أرادوا تلطيخ شرفه وشرف فرنسا.
"المعلم علي" لعبد الكريم غلاب: 1 - الجنرال حاكم المدينة	ضخم الجثة – الكرش مدورة – الوجه أحمر لامع – عينان زرقاوان – بذلة عسكرية مزينة بالأوسمة والشرائط – قبعة عسكرية مزينة بظفائر الذهب - الدخينة تتدلى من الفم – منتفخ الأوداج.	عنيف – استعماري النزعة – عصبي متجبر – حقود على المغاربة –ظالم.	يحدث إضراب للعمال في المدينة فيحقد على المغاربة ويطردهم من العمل ويقدم رؤساءهم إلى المحكمة العسكرية ويستجيب لمطالب الفرنسيين.

"بامو" احمد زياد: 1 - طاليك	لا شيء	عنيف جدا – استعماري جدا – متعسف – مرعب –ظالم	– ضرب البلد –حكم ناحية واستطاع تحطيم كل شيء فيها.
2 - رامونا	عاجز جنسيا – عينان زرقاوان – شعر وَخَطَهُ الشيب – خيوط ناتئة في الوجه.	معقد– شاذ التصرفات – حقود – فظ غليظ – همه الوحيد تحطيم كل شيء يتمسك به المغربي - ظالم	غضب من رفض امرأة مغربية اعتداء واحد من رجال السلطة عليها، فاستدعاها وحبسها في بيته، ونتيجة عجزه الجنسي راح يعذب نفسه أمامها.

1- القاضي

أما شخصية القاضي الفرنسي في الرواية المغاربية العربية فلم نصادفها إلا في روايتين اثنتين هما "دفنا الماضي"[21] لعبد الكريم غلاب "حب وثورة"[22] لعبد الرحمن عمار.

يلمح الكاتب في رواية "دفنا الماضي" من خلال حوار بين محمود - القاضي المغربي -وعونه، إلى المراقب القضائي الفرنسي الذي يخشاه القاضي محمود ويرهبه ويرتعد كلما استدعاه، وقبل الدخول إلى مكتب المراقب القضائي يسأل "العون" عن مزاجه، وكالعادة يخبره "العون" بأن النصرانية زوجة المراقب لا بد أن تكون ألهبت ظهره بالسياط أي أنه مغلوب على أمره من قبل زوجته، لذلك هو ينتقم من مرؤوسيه.

شخصية ضعيفة أمام الزوجة، يتحول ضعفها ذاك إلى ظلم وبطش بالمرؤوسين المغاربة والمحكوم عليهم.

ويدخل "محمود" إلى مكتب المراقب فيبادره بالسؤال عما فعل في قضية "المحكومين" الذين ألقي عليهما القبض، ويجابه القاضي "محمود" بغضب شديد عندما يخبر "المراقب" بأنه ما زال مستمرا في دراسة القضية. ويحسم المراقب القضائي الموقف بأن القضية لا تحتاج إلى دراسة، وعلى القاضي أن يحكم بالإعدام على رئيس المجموعة والسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة على بقية العناصر[23].

ويسجل القاضي محمود الحكم صاغرا، فهو لا يستطيع رد قول للسيد المراقب القضائي. وهي شخصية لا نعرف منها سوى أمرين: جبنها أمام الزوجة ثم تجبرها أمام الأهالي وعنفها في معاملة المرؤوسين.

---

[21] سبقت الإشارة إليها، ص2.

[22] عبد الرحمن عمار(ابن الواحة) حب وثورة، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1969.

[23] عبد الكريم غلاب: دفنا الماضي، ص384 -385.

من خلال الحوار الخفيف الذي دار بين القاضي محمود وعونه، استطاع الكاتب أن يلمح بخفة وذكاء إلى شخصية المراقب القضائي رغم كونها هامشية جدا.

أما القاضي الفرنسي في رواية "حب وثورة" لعبد الرحمن عمار، فشخصية باهتة أيضا، ولم يرد في الرواية شيء إلا عدم تصديق "القاضي" لكلام الثائر التونسي المقبوض عليه، والرجوع إلى رجال الأمن للتأكد من مدى صدق المقبوض عليه، وبطبيعة الحال؛ فرجال الأمن هم الذين ألقوا القبض عليه وهم الذين عذبوه. إنه قاض لا يهمه الحق، بل يهمه أولا وأخيرا ردع الثوار وتشديد الخناق عليهم[24].

إنهم يريدون إخراجه وقومه من تونس، وبالتالي فهم أعداء له، ومن العبث أن يحاول الكاتب إلصاق تهمة الظلم بهم لأنهم يدافعون عن وضعهم.

من هذا نرى أن حضور شخصية القاضي الفرنسي في الرواية المغاربية قليل جدا وتصويرها باهت، فالمراقب القضائي أو القاضي، رجل ظالم لا يهمه من الحق شيء ورغبته الأولى والأخيرة هي القمع دون رحمة أو شفقة لأية حركة يقوم بها المغاربة.

---

[24] عبد الرحمن عمار: حب وثورة، ص 51 -52.

جدول مكونات شخصية القاضي الفرنسي

الرواية وكاتبها والشخصيات الواردة فيها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الدور
"دفنا الماضي" لعبد الكريم غلاب 1 - المراقب القضائي	لا شيء	ضعيف الشخصية أمام زوجته – جبار أمام المغاربة – عنيف في معاملة المرؤوسين	عنيف يحكم على الناس غيبا كما يريد الحاكم
"حب وثورة" لعبد الرحمن عمار 1 - القاضي الفرنسي	لا شيء	لا يصدق ما يقوله الأهالي ولا يكذب أبدا رجال السلطة	يحاكم الأهالي بما يقوله رجال السلطة عنهم

3- الجنــدي

وردت أسماء عديدة لضباط فرنسيين في رواية عبد الرحمن عمار (ابن الواحة) "حب وثورة"، غير أن الكاتب لم يمدنا بأية أوصاف تجسد الشخصيات المتحدث عنها عدا شخصيتين فحسب الأولى هي الملازم (روني) الذي كان مسؤولا عن قرية من قرى الجنوب التونسي يقف عاجزا أمام عمليات الثوار، وللحصول على معلومات لجأ إلى استجواب أعضاء الشعبة الحزبية لاعتقاده أن لهم صلة بالثوار ومساعدتهم، ويتملص أعضاء الشعبة بذكاء وينيرونه عندما يخبره واحد منهم بأنهم يخشون الثوار كما يخشاهم هو نفسه، فيحتد قائلا: (أنا لا أخاف أحدًا أسمعت، لا أخاف أحدا. أنا عييت من هذا النقاش أنا أريد أن أعرف.. لا بد أن أعرف)[25]، ويزداد غضبه فيمسك بالسوط ويهم بضربهم ويلجأ واحد منهم إلى حيلة يحد بها من غضب الملازم فيخبره بأنه كان على وشك الذهاب إلى ضابط المكتب الثاني[26] لإعلامه بهجوم الثوار على منزله ليلا والاعتداء على زوجته بالضرب حتى اضطر إلى أخذها للمستشفى، ويسرع الملازم للتأكد من صحة الخبر فيأتي رد الممرض مصداقا لكلام الرجل، وبذلك تنطلي الحيلة على الملازم "روني"، ويزداد حيرة أمام تزايد عمليات الثوار وهيجان القبطان في المركز وشكوى السياسيين من قلة حماية الجيش لهم[27].

ويعتمد الكاتب في رسم هذه الشخصية على السرد (كان الملازم "روني" يرغي، ويزيد، ويده تدق الطاولة كالمطرقة..)[28] كما اعتمد في الرسم، على الحوار الساذج المبني على الأسئلة العادية والأجوبة المباشرة، الذي أداره بين الملازم

---

[25] عبد الرحمن عمار (ابن الواحة): حب وثورة، ص127.

[26] يشبه ضابط مخابرات عسكرية.

[27] عبد الرحمن عمار: حب وثورة، ص127 -129.

[28] عبد الرحمن عمار: حب وثورة، ص 126.

وأعضاء الشعبة الحزبية: (أنتم تعرفون جيدا من هم... هؤلاء الفلاقة... من هو قائدهم... أريد أن تقولوا من هم؟

وأجابه ببرود: يا مسيو الملازم، نحن مثلك نكره الفلاقة، ولا نعرف أي فلاق ولو عرفناه لقلنا لك ولكنك لا تريد أن تصدقنا.

(أنت تكذب)[29]، والحوار السابق يوضح لنا مدى سذاجة هذا الملازم فهو يستدعي أعضاء الشعبة الحزبية ليقول لهم "أريد أن تقولوا من هم؟ ... ثم ليقول لمدّعِ عدم معرفته بالثوار "أنت تكذب" وكأن المسألة بسيطة جدا.

أما الأوصاف الجسمية والرغبات والأحاسيس فلا أثر لها في شخصية الملازم "روني"، إذ يكتفي الروائي باستخدامه في وصف موقف ليس إلا. والشخصية الثانية هي السرجان "بول لا كروا" الجبان الذي تملكته الرعشة عندما ألقى عليه الثوار القبض، ولم يكتف الكاتب بوصفه بالجبن والخوف بل زاد على ذلك الغباء أيضا، فهو لا يدري لماذا يحارب، إنه يحارب تنفيذا للأوامر، لأن واجبه الأول تنفيذ ما يؤمر به دون بحث عن الأسباب، فهو جاهل من الناحية السياسية يتحرك دون وعي أو إدراك[30].

والطريقة التي رسمت بها شخصية الملامزم "روني"، رسمت بها شخصية السرجان "بول لاكروا" أيضا. فالسرد والحوار هما طريقتا رسم الموقف، أما الملامح الجسمية وبقية الصفات الإنسانية فلا وجود لها في شخصية "بول لا كروا". إنه هو أيضا مجرد جزء من موقف.

والمرجح أن سبب تجريد الكاتب لهاتين الشخصيتين من الملامح الجسمية والصفات الإنسانية الجيدة، يرجع إلى حماسه في إبراز بطله "مصباح" في صورة الشجاع، القوي الذكي، الذي يلعب بجيش فرنسا وضباطه رغم أميته.. كما

---

(29) عبد الرحمن عمار: حب وثورة، ص126.

(30) عبد الرحمن عمار: حب وثورة، ص 157 -162.

وردت شخصية الضابط كذلك في رواية عبد الكريم غلاب "المعلم علي"[31]، إنه "الملازم جان" Lieutenant Jean الذي حضر محاكمة بعض الشبان المغاربة فور وصوله من فرنسا، وتعجب من اتهام شبان تبدو عليهم البراءة، وعلى وجوههم تشويهات التعذيب.

ويحمر وجهه خجلا عندما يسمع "إيدار" يصرح بأنه اعترف بجريمة القتل أمام الشرطة لأن الكهرباء كانت تصعقه في (...) وتسيل الدموع من عيني الضابط "جان"، وكاد يصيح في القاضي (إنه بريء يا سيدي...)[32] لكنه لم يفعل، فرغم تأثره ورغم ملاحظته التعسف الواقع على الأهالي لم يفه بكلمة واحدة، وهو عضو من أعضاء المحكمة. وهكذا عمم الروائي صفة الظلم على الفرنسيين، حتى هذا الضابط الجديد الذي لم يعرف الروح الاستعمارية بعد، نجده لا يفعل شيئا إيجابيا رغم إدراكه حقيقة الموقف، وتمتعه بحس مرهف وعاطفة رقيقة مع ميله إلى الحق: (واحمر وجه جان واغرورقت عيناه الخضراوان بدموع ساخنة أحالت خضرتهما الفاتحة حمرة قانية ... وعلا ضباب خفيف نظارتيه البيضاوين: نزعهما يمسحهما بورق شفاف فانفضحت دموع عينيه)[33] إنه ضابط ذو قلب طيب نظيف السريرة، ولا شك أن السبب في ذلك حداثته في الميدان.

وفي رواية "وناس"[34] لمحمد الحبيب بن سالم، يذكر المؤلف عدة ضباط فرنسيين أولهم الضابط المسؤول عن فرقة "القومية" le goum[35] الذي يقع "وناس" -بطل الرواية - بين يديه في الصحراء عندما تاه عن قافلة الإبل ويقابل هذا

---

[31] عبد الكريم غلاب: المعلم علي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت 1971م.

[32] عبد الكريم غلاب: المعلم علي، ص409.

[33] عبد الكريم غلاب: المعلم علي، ص 408 -409.

[34] محمد الحبيب بن سالم وناس: الشركة التونسية للتوزيع 1973م.

[35] جماعة من المغاربة انضموا إلى صفوف الجيش الفرنسي لمحاربة أهاليهم طلبا للرزق.

الضابط "وناس" بخطاب قاس جدا، إذ يشك فيه ويعتقد أنه جاسوس للثوار ويهدده بالقتل، وعندما يعلم أن "وناس" قد صاد ريمين من الصحراء وجاء بهما معه، يرسل عسكريّين لإحضار الريمين ثم يستولى عليهما مقابل وعد بإطلاق سراح "وناس" قريبا من قريته، ولما يلحظ غضب "وناس" بسبب سلب ريميه منه يخبره بأن الغضب على فقدان الريمين مثل عدم الغضب فهو لن يتخلى عنهما وإذا رفض تسليمهما فسوف يفقدهما ويفقد حياته معهما، وبذلك لم يجد "وناس" بدا من التسليم[36].

لقد ذكرت شخصية الضابط بواسطة "وناس" بطل الرواية الذي قدم نفسه، كما قدم الشخصيات التي تعامل معها واحتك بها، فسرد ما حدث له مع هذا الضابط كما سرد الحوار الذي دار بينهما حول تيهه وحول الريمين. بيد أن الروائي أنطق بطله –راعي الإبل الأمي - بلغة عربية قوية مثل قوله: (فلم اتمالك أن أجبته بلهجة تنضح هزلا)[37]، وكذلك أنطق "الضابط" بلغة بليغة هو أيضا.

ولقد أهمل الصورة الجسمية للضابط، واهتم بقسوته وظلمه واغتصابه لحق "وناس" في الريمين، فالضابط قاس عنيف في كلامه، جبان، انتهازي أمام الضعفاء "وتتكرر معظم الصفات السالف ذكرها -عدا الطمع - أثناء ذكر ضابط آخر هو قائد الثكنة الذي يتملص عادة من العمل معتمدا على نائبه، فإذا ما اضطر إلى العمل، يعمل بعصبية وكأنه مكره على فعله[38].

ثم يتحدث الكاتب عن ضابط محقق، حاول في البدء دفع "وناس" إلى البوح والكشف عن مصدر الأسلحة التي ضبطت معه ولما رفض، ولم تجد معه

---

[36] محمد الحبيب بن سالم وناس، ص87 -91

[37] محمد الحبيب بن سالم وناس: ص87.

[38] محمد الحبيب بن سالم وناس، ص117.

أساليب التحقيق المهذبة، أرسله إلى غرفة التعذيب، ولما لاحظ عناده وإصراره على عدم البوح هاج وماج، ثم هجم عليه يمزق جلده بسلك معدني، وكلما سالت الدماء ازداد هيجانا وعنفا في الضرب حتى تعب ثم طلب من اثنين تكملة عملية التعذيب وبقي يتلذذ بالمنظر، إنه يتلذذ بتعذيب الآخرين ويستمتع برؤية دمائهم تسيل، إنه متعطش إلى الدماء.

وكل ما وصف به أنه يحب تعذيب الثوار[39]، ثم يذكر المؤلف شخصية ضابط تحقيق ثانية، ولولا تحديده بأن ذلك الضابط غير سابقه[40]، لما لاحظ القارئ اختلافا بين الشخصيتين لتماثلهما في الأعمال التي يقومان بها؛ إن شخصيات الضبّاط كما يتضح لنا في رواية "وناس" واحدة، فجميعها لا صفات جسدية لها، وجميعها تغضب بسرعة وتحقد على البطل "وناس"؛ وجميعها جبانة؛ وهي في الواقع شخصية واحدة أو فكرة عامة عن شخصية ترددت في عدة مواقف، لا يذكر المؤلف إلا أفعالها اتجاه البطل، فهو محور الرواية المتصف بكل الصفات الحميدة التي يفتقر إليها الضباط الفرنسيون.

ويصف "محمد المختار جنات" بعض الضباط الفرنسيين في روايته "نوافذ الزمن"[41] أولهم يستقبل المسجونين أو المقبوض عليهم بسوط في يده ملوحا به أمام وجوههم، ناظرا إليهم شزرا واحدا واحدا مهددا متوعدا، ضاربا البعض منهم على الوجه بالسوط، وأخيرا يأمرهم بالخروج باصقا في كراهية وحقد، متوعدا بالشر إن وقعوا بين يديه مرة أخرى؛ إنه ضابط لا يُعرف عنه سوى عنفه وقسوته في معاملة الأهالي وحقده عليهم.

---

[39] محمد الحبيب بن سالم وناس، ص133 -136.

[40] محمد الحبيب بن سالم وناس، ص139 -145.

[41] محمد المختار جنات: نوافذ الزمن، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، سنة 1974.

وثانيهم مثل أولهم، فهو يوقف سيارة الإسعاف، وعندما يجد فيها طبيبا تونسيا وممرضة ومريضا ينزلهم من السيارة، فيزعج المريض بالأسئلة ثم يسخر من الطبيب راميا له أوراق الهوية في وجهه، ويزعج الممرضة حين يطلب منها جس نبضه ويوقفهم حتى ينتهي من فحص السيارة المقبلة، ثم يأمر الطبيب بفك العجلة الأمامية ولا يخلي سبيلهم إلا بعد ما يمل من إزعاجهم. يفعل كل ذلك غير مكترث بحالة المريض ودون احترام للطبيب أو الممرضة[42].

أما الثالث، فهو ضابط مظلي Parachutiste يتمكن وجنده من إلقاء القبض على مجموعة من المقاومين التونسيين في معركة بنزرت، فيسمعهم اقذع الشتائم مثل (عرب "كلاب"... فلاقة)[43] وكل حديثه صراخ وصياح وتهديد ورفس بالرجل وكأنه وحش هائج. وهكذا نرى أن شخصيات الضباط في رواية "نوافذ الزمن" متشابهة من حيث مواقفها تجاه التونسيين، أما صفاتها الأخرى، فكلها مجردة، وتركيز الكاتب كله حول حقدهم على الأهالي ومعاملتهم الفظة وقيامهم بأعمال دنيئة مثل الضرب بالسوط... إلخ.

ويأتي الطاهر وطار بشخصية ضابط فرنسي في رواية "اللاز"[44]، ومنذ الجمل الأولى حول هذا الضابط نلاحظ شيئا غير عادي، فالضابط يأمر رئيس الدورية بفك قيد "اللاز" وتقديم مقعد له ثم الخروج من المكتب.. وبعد خروج قائد الدورية، يشرع الضابط بالتصريح بأنه لن يتخلى عنه وأنه يحبه لعدة أسباب: (واعترف لك أنني لا أطيق الحياة في هذه القرية الصغيرة بدونك.. إنني أحبك لأشياء عديدة أنت لا تسكر مهما شربت، وتحسن لعب الحجر والورق،

---

(42) محمد المختار جنات: نوافذ الزمن، ص77 -78.

(43) محمد المختار جنات: نوافذ الزمن، ص350.

(44) الطاهر وطار: اللاز، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974.

وتتقن الشتم بالفرنسية والعربية معا. وفوق هذا وذاك... كلا كلا، "اللاز" لن استغني عنك، لا استطيع)[45].

إنه لا يستطيع التخلي عنه لجملة عيوب وخبائث فهو لا يسكر مهما شرب ويجيد اللعب والشتم وشيئا آخر لم يصرح به.

ويستمر في التأكيد على عدم قدرته على التخلي عنه رغم علمه بأن "اللاز"، يهرب الجنود من سريته لكنه يجد له عذرا بسرعة مذهلة: (أعرف أنك واسطة لا غير وأعتقد انك تقوم بهذا العمل خشية أن يقتلك المتمردون بسبب صداقتنا.

إنني أفهم وضعك وأعذرك..)[46]؛ ويطلب منه أن يدله على هذا الذي يعمل لحسابه وسيقوم هو بعمل اللازم.

ويصمت "اللاز" متقززا من كلام الضابط وعروضه: (الخنزير يتحدث عن الصداقة والحب كما لو أنه عاهرة وقحة (...) هذا المخنث يوشك أن يبكي. شيء مخز)[47]؛ وكلما التقت عيونهما تقزز "اللاز" من ابتسامة الضابط المتداعية وتمنى أن يهوي بمطرقة على تلك الأسنان البيضاء التي تطل من فمه فيهشمها[48].

ويحَار الضابط ماذا عساه يفعل؟ لقد تحداه "اللاز" –الشاب الصعلوك السكير – واعترف أمام العساكر بمعاونة المجاهدين وكأنه يقول له: افعل ما تشاء إن كنت قادرا ويقدح الضابط فكره إزاء هذا الموقف: (الكلب رصاصة في تلك الجبهة العريضة تنزع منه التحدي إلى الأبد.. لأية كرامة يثأر اللقيط..

---

(45) الطاهر وطار: اللاز، ص74.

(46) الطاهر وطار: اللاز، ص75.

(47) الطاهر وطار: اللاز، ص75.

(48) الطاهر وطار: اللاز، ص76.

الدنيء يبالغ في إهانتي.. ليفعل، فأنا الذي أتحت له الفرصة.. إنّه غير واع للخطر الذي يحدق به.. بل إنه يستهين بي.

وفكر أن يخرج غدارته ويصوبها نحو جبهة اللاز ويفرغ فيها رصاصة، إنه لا يستحق أكثر من واحدة، إلا أنه تهالك على المقعد ووضع يده على جبينه وتململ عدة مرات، ثم تناول سيجارة أشعلها وألقى نظرة خاطفة على اللاز.. ماتت القهقهة في فمه.. إنه في وضع الانتظار.. لقد أدرك شيئا ما. الدموع تسيل من عينيه بكثر.. إنه في وضع المفجوع.. الأبله، كنت أفضل ألا يعترف أمام أحد غيري حتى أتمكن من إنقاذه، ولكن .. المجنون، الغبي)[49].

الموقف محير فعلا، فالضابط يتندم لأن اللاز اعترف بزهو أمام العساكر وكان الضابط يفضل ألا يعترف إلا أمامه حتى يتمكن من إنقاذه.. فهل هو خائن لفرنسا؟ أم متعاون مع الثورة؟ أم في الأمر سر؟. بعد صفحات قليلة من هذا الموقف يكشف الضابط عن سر تعلقه باللاز، وذلك عندما يتذكر كيف تكونت علاقته باللاز (قال الضابط في نشوة الظافر المنتصر، وبسمة انتقام تتراقص خلف زجاج نظارته، وسيجارة أمريكية تترنح بين شفتيه الرقيقتين الحمراوين "تعرفت عليه في اليوم الثاني من حلولي بهذه القرية اللعينة.. لعبت معه الورق سقيته طيلة الأربع ساعات، وسكرت قبله، أغلقت عليه الباب، وأخرجت الغدارة وأمرته بنزع ثيابه، كان مشدوها لا يدري لماذا؟ عندما تعرى أجبرته على احتساء قارورة كاملة، وسبقته إلى الفراش عاريا "كان يهوي علي بالضرب كلما فرغ من مهمته حتى يعود. لم يكن في ذلك أية إهانة لو ظل "اللاز" لازا فحسب.. أما وأنه "فلاق" يستغل مرضي واستسلامي له كالعاهرة البئسة ليؤدي دوره ويقدم الخدمات لإخوانه، فهذه هي الإهانة بعينها)[50].

---

[49] الطاهر وطار: اللاز، ص77.

[50] الطاهر وطار: اللاز، ص82.

إذن، فالضابط على علاقة شاذة مع اللاز، ولذلك يحاول الحفاظ عليه، ولا يرى في تلك العلاقة أي ضرر، إنما الضرر كله في استغلال "اللاز" للعلاقة وإعانته للمجاهدين اعتمادا على مكانته لدى الضابط.

فما العمل الآن وقد انكشف أمر "اللاز" أمام الكثيرين؟، أ يقتله وبذلك يقوم بواجبه، أم ماذا يفعل به وهو لا يستطيع التخلي عنه (هذا اللعين ماذا سأفعل به؟ لقد احترق، جريمته تستحق الإعدام الفوري، إنه "فلاق" وسط الثكنة بالذات)، الجريمة كبرى، الإعدام رميا بالرصاص، كلب مات.. جرذ ناقص من الحساب.

لكن من يخسر؟ أنا.. أوف أية خسارة؟ غيره كثيرون إنهم يقولون في لغتهم: النخالة تجلب الكلاب.. أنتدب واحدا من الجنود لخدمتي وكفى.. اللعين يحسن القيام بدوره، يشرب كثيرا ولا تعتريه ذرة خجل.. أعدم مسؤوله وأرمي به في السجن في غرفة بجوار غرفتي طبعا فترة شهرين أو ثلاثة، ثم أعيده إلى الحياة الطبيعية.

سأكثر له الخمور والمأكولات وأمنعه من مغادرة الثكنة، ويوم يتقرر رحيلي من هذه القرية البغيضة أعدمه)[51].

لقد عاش الضابط ترددا خطيرا بين واجبه وهو يدركه إدراكا جيدا، وبين عاطفته ورغباته وشذوذه الذي يدركه أيضا إدراكا جيّدا، وكيف لا يدرك شذوذه فهو يتمتع بثقافة عليا فهو خريج السوربون، كلية الآداب ويتمتع برهافة حس وتذوق جمالي عال، لذلك فهو معجب بتعابير "اللاز": (يا له من لقيط يحسن التعبير، كأنه أديب من أدباء ما بعد الحرب الكبرى. قال الضابط في

---

[51] الطاهر وطار: اللاز، ص83 -84.

نفسه، وهو يتذكر سارتر، والحي اللاتيني، وشبابه الصاخب عندما كان طالبا بكلية الآداب، قبل أن التحق بالجيش لم أكن أعيش في التابوت)[52].

ويستقر رأيه على الاحتفاظ باللاز في السجن وممارسة شذوذه، ريثما يحين موعد رحيله عن القرية فيعدمه، وبذلك يقوم بواجبه ويشبع رغبته؛ إلا أن اللاز يستطيع الفرار من الثكنة مع مجموعة من العساكر الجزائريين مع قتلهم للسرجان ستيفان، وأخذهم طائفة من الأسلحة وتدمير منشآت عديدة، وبذلك تكون صدمة الضابط عنيفة جدا، وعندما يقف أمام جثة السرجان يبلغ ذروة الانفعال: (وظل جامدا، بينما تقدم الشامبيط وهو ينزع في وقار سترته ليغطي بها الجثة، وفجأة زمجر الضابط:

لا تمسسه، لا تمسسه، أيها القذر أبعد سترتك النتنة كلكم فلاقة كلكم أعداء لا تمسسه.

وسحب مسدسه وصوبه نحوه، وهو يردد في هستيرية.

لا تمسسه، لا تمسسه، ثم التفت إلى بعطوش وصرخ فيه أن يتقدم قرب الشامبيط ظلت أسنانه تصطك، ويده تهتز متقلصة على المسدس، وعيناه تتسعان أكثر فأكثر لتشع زرقتهما المخيفة خلف زجاج النظارات...)[53]. وتختلط عليه الأمور، فبعدما أغمض عينيه عن أعمال اللاز وتركه على قيد الحياة، يقوم بهذا العمل الفظيع فيقتل ضابطا ويهرب جنودا وأسلحة، وبذلك يضعه في مأزق: (أما الضابط فلم يفكر على الإطلاق كانت الأمور مختلطة في ذهنه والمشاعر مثلجة في صدره (...) وهذا الشامبيط الهرم الذي يعلق في صدره عدة نياشين فخرية.. ما أضخم بطنه وما أغلظ شفتيه وما أذل عينيه، ثم هذا الشاب القوي الذي تلفه البذلة العسكرية الفرنسية الشريفة، بالأمس قدم خدمة

---

[52] الطاهر وطار: اللاز، ص87 -88.

[53] الطاهر وطار: اللاز، ص128.

كبرى لوطني، وصباح اليوم أمضيت قرار ترقيته، القذر لو كان واعيا للبث مع إخوانه، الانتهازي القذر لا يدرك تماما انه ليس فرنسيا ومع ذلك يأتي اعمالا لا يأتيها إلا فرنسي مخلص، الخائن القذر قد يستيقظ ضميره ذات يوم ويهوي علي بخنجر، أو يضع في مكتبي قنبلة ثم يفر نحو الغابة)[54].

الضابط مدرك لكل الأمور، مدرك لنذالة وقذارة الجزائريين المتعاونين مع فرنسا، مدرك للخطر المحدق به من قبل الجزائريين الخونة، ومع ذلك فهو لا يستطيع القيام بعمل جريء تجاه هذا الوضع ونتيجة لثقافته العالية يستطيع كشف الستر عن أسباب ضعفه، فأثناء مفاجأته يشبه نفسه بهاملت، بطل مسرحية شيكسبير الذي يكبله التردد فلا يستطيع القطيعة ويبقى فريسة الشكوك والهواجس.

يخاطب نفسه وهو أمام جثة السرجان ستيفان، يصوب مسدسه نحو الشامبيط المتعاونين الخائنين: (أطلق النار يا هاملت، اضغط على الزناد، يا طالب كلية الآداب امخر هذا الصدر المدبج بالنياشين الفرنسية، أيها القبطان الفرنسي المحارب في أخطر منطقة. صدع هذه الجبهة البليدة لهذا الشاب الريفي العربي، أيها الفرنسي المخدوع. مهان.. يا هاملت .. هيا يا هاملت)[55].

إنه مدرك لحاله، فهو هاملت العاجز عن اتخاذ القرار، عجزه يرجع لشذوذه الذي جعله مثل "العاهرة البئيسة" كما يقول.

ونتيجة فرار اللاز وقتله للسرجان وتفتح ذهن الضابط على كل الحقائق وإدراكه لحالته، انفجر حقده على العرب، وأراد أن يعوض عجزه الجنسي فشرع ينتقم من العرب بتحطيم كل عزيز لديهم، وقام بعملية انتقام شديدة، مثل أمره المرتزق بعطوش بقتل بقرة خالته "حيزية" أم قدور بن الربيعي رئيس اللاز: (خيل

---

(54) الطاهر وطار: اللاز، ص129 -130.

(55) الطاهر وطار: اللاز، ص131.

إلى الضابط أن الرصاصات تمكنت بصدر اللاز فتنفس من أعماقه ابتسم وشعر بحبل الغضب الذي كان يخنقه يتلاشى فجأة، وارسل إصبعيه لاستخراج سيجارة)[56].

ورغم إحساس الضابط بالانتقام من اللاز، فإنه لم يكتف بقتل البقرة، بل أراد إشفاء غليله من أسرة قدور -الذي كان سببا في تجنيد اللاز مع الثورة - فبصق على وجه والده الربيعي ثم أمر المرتزق بعطوش بأن يفعل في "حيزية" - وهي خالته أيضا - أم قدور وتحت التهديدات، "فعل" بعطوش في خالته، بعدما نفذ أمر الضابط وأفرغ رشاشته في "مريانة" أم اللاز التي جاء بها الشامبيط. وبذلك أحس الضابط بأنه ثأر من "اللاز" لشرفه المهان، وأعجب بالمرتزق بعطوش الذي نفذ أوامره كلها فرقاه وجعله وسيلة يحطم بها شرف القرية كلها، وبعدما انتقم من أسرة اللاز وقدور اللذين كانا سببا في إهانته.

وبعد تقليده لبعطوش رتبته اصطحبه إلى خمارة "موريس"، وهناك استغل الضابط حكاية بعطوش مع خالته "حيزية" لإثارة من في الخمارة: (... ثم التفت إلى من معه يسليهم بقصة بعطوش مع خالته.. يقينا مضاجعة المحرمات ألذ شيء على الإطلاق.. وارتفعت القهقهات صاخبة رنانة، بينما راح الضابط ينظر إلى سراويلهم ويعلن في نفسه.. لقد أثارت شهوتهم هذه الحكاية لأوسع في التفاصيل)[57].

إن عقدته الجنسية مسيطرة عليه، ولا يستطيع الفكاك منها، ولذلك اضطر إلى متابعة استغلال "بعطوش" وجعله يقوم بالمهام التي كان "اللاز" يقوم بها[58]، فاستدرجه إلى غرفته: (وظل بعطوش يدقق النظر في الضابط. في حدود

---

[56] الطاهر وطار: اللاز، ص136 -137.

[57] الطاهر وطار: اللاز، ص188.

[58] الطاهر وطار: اللاز، ص259 -260.

الأربعين.. متوسط القامة.. أبيض البشرة.. نحيف الجسم.. على عينيه الزرقاوين نظارات جميلة في إطار ذهبي.. ملامحه نسوية.. في عنقه صليب ذهبي يتدلى من سلسلة رفيعة.. أنامله جد قصيرة)[59].

طلب الضابط من "بعطوش" أن يتعرى ويلحق به، ولما أفاق بعطوش ونظر لضابطه: (استقرت عيناه على السرير، ليس هناك سوى جثة ممددة بيضاء، ناصعة البياض بضة، طرية، وتنهد..)[60]. تنهد بعطوش لأنه عندما رأى جثة الضابط تذكر خالته "حيزية" وتذكر الجريمة التي اقترفها، فهوى على الضابط وكتم أنفاسه، ثم أجهز عليه بالخنجر، وبذلك تحقق شك الضابط وخوفه، ومات على يد بعطوش[61].

ولتصوير شخصية هذا الضابط، استعمل الكاتب فنيات مختلفة وأساليب متعددة حيث بدأ بعرض عقدة الضابط ولخصها في تعلقه باللاز، وحيرته أمام القيام بواجبه والمحافظة على صديقه، ولكنه لم يكشف عن سر تلك الصداقة، بل ظل يشير من حين لآخر إلى تعلق الضابط ومرضه، وأخلاق اللاز، مازجا في تصوير كل ذلك بين السرد ومناجاة الضابط لنفسه[62].

ثم مناجاة اللاز، وإبراز رأيه في الضابط، وبذلك عرفنا وجهة نظره في الضابط، وأثناء ذلك أشار إلى أسنان الضابط وبياضها. ويستمر الكاتب في الكشف عن خبايا شخصية الضابط بالوصف من خلال مناجاة الضابط لنفسه، وضمن تلك المناجاة يصف شفتيه الرقيقتين الحمراوين، ويسرد تاريخ علاقته باللاز وسبب نشأتها، وتعلقه باللاز وحيرته أمام هذا الموقف الذي جعله في مأزق. ويستمر المؤلف في سرد الأحداث ووصفها، وعندما يفر اللاز من السجن بعد قتل

---

[59] الطاهر وطار: اللاز، ص261.

[60] الطاهر وطار: اللاز، ص262.

[61] الطاهر وطار: اللاز، ص263.

[62] الطاهر وطار: اللاز، ص74 -75.

السرجان ستيفان وثورة الضابط على الشامبيط وبعطوش. يشير إلى جبنه وخوفه ثم زرقة عينيه والنظارة التي يلبسها[63].

استغل المؤلف مناجاة الضابط جيدا، وكلما بلغ مرحلة في مناجاته يكشف جزءا من شخصيته، ففي صفحتي 129 -130 يظهر إدراك الضابط لخيانة الشامبيط وبعطوش لإخوانهم، ثم يبرز تردده إزاء اتخاذ موقف حازم أمام هذين الخائنين لقومهما. وأثناء تفجر حقد الضابط على اللاز ومن ساعده، يبرز الكاتب كيف دفع الحقد الضابط إلى أمر "بعطوش" بإتيان خالته[64] ثم يستمر في إفراغ حقده والثأر لنفسه.

وفي صفحة 260 يسرد الكاتب أوصاف الضابط الجسمية كما رآها بعطوش، ثم الأوصاف الجسمية الداخلية فيما بعد.. لقد استعمل الكاتب مختلف الفنيات لرسم شخصية الضابط، مثل السرد، ومناجاة الضابط، والشخصيات المحيطة به، وأحيانا الحوار. وكلما تطورت الأحداث يضيف جزءا من الشخصية، وأستطيع تشبيه طريقته بالرسم بواسطة الفسيفساء.

لقد رسم لنا الشخصية متنامية أثناء الحدث، فلا نراها كما ترى الشخصية على المسرح كلها دفعة واحدة، وإنما نرى صفاتها الجسدية جزءا جزءا في كل مناسبة، حيث تملي المناسبة نفسها أي جزء من جسده أو وجهه، كان هو المشارك أو المعبر عن الموقف، وكذلك صفاته نراها الواحدة بعد الأخرى يلمح إليها الكاتب، ثم يكشف عنها أو يكشف عن جزء منها، ثم تأتي حركة الأحداث لتكملها، وهكذا نرى الشخصية حية مقنعة.

كما عرض "الطاهر وطار" في رواية "اللاز" لشخصية الملازم "ستيفان" الذي لا يصحو من السكر إلا نادرا، فهو مدمن ولا يهمه شيء بعد الشراب[65]. وفي

---

[63] الطاهر وطار: اللاز، ص128.

[64] الطاهر وطار: اللاز، ص136 -137.

[65] الطاهر وطار: اللاز، ص98.

رواية عبد الرحمن عمار (ابن الواحة) "عندما ينهال المطر"[66]، نصادف شخصيتين من الضباط الأول النقيب "إدوارد" الذي يقود حملة تفتيشية على منزل "سليمان" والد "عباس" –شاب تونسي مناضل ألقي عليه القبض - ويشمل التفتيش كل بقعة في المنزل، وعندما لا يجد شيئا يتحدث "مع سليمان" مطمئنا إياه على ولده، وعندما يعرض عليه "سليمان" أوسمته وشهاداته التي حصل عليها أثناء خدمته في جيش فرنسا يقدر ماضيه، ويرسله إلى زميله الضابط المحقق في قضية ابنه[67]، لكن ذلك الضابط –النقيب جاك - يحاول استغلال لهفة "سليمان" على إبنه، ويطلب منه مساعدته في الحصول على معلومات من "عباس"؛ ويتحمس "سليمان" بدافع عاطفته نحو ابنه ويطلب مقابلته للضغط عليه، حتى يطلق سراحه ولكن الضابط يعلمه أن إطلاق سراحه شيء غير ممكن، ولا بد من محاكمته؛ وبذلك تخيب كل آمال الشيخ "سليمان" بعدما كان يتصور أن ماضيه مع فرنسا كفيل بإطلاق سراح ولده[68].

كما عرض المؤلف شخصية الضابطين أثناء حوارهما مع الشيخ "سليمان"، حيث جاء ذكر النقيب "إدوارد" عرضا، أما النقيب "جاك" فلقد ذكر الكاتب بعض صفاته الجسمية وعصبيته وغضبه وخبثه وقسوته[69] في جمل قليلة بسيطة أثناء سرده للأحداث أو ضمن الحوار الذي أداره بين الشخصيات، وأخيرا فإننا نرى شخصية الضابط الفرنسي في الرواية العربية المغاربية تتسم بالظلم والقسوة والحقد وشدة العصبية والخبث والغباء والطمع مع عدم تحديد الصفات الجسمية إلا قليلا. ولا يشذ عن هذه الأوصاف إلا الضابط النقيب في رواية "اللاز"للطاهر وطار، حيث يعرض الكاتب شخصية الضابط عرضا مفصلا وبصورة

---

[66] عبد الرحمن عمار: عندما ينهال المطر، الدار العربية للكتاب، ليبيا -تونس 1975.

[67] عبد الرحمن عمار: عندما ينهال المطر، ص118 -120.

[68] عبد الرحمن عمار: عندما ينهال المطر، ص125 -127.

[69] عبد الرحمن عمار: عندما ينهال المطر، ص125 -127.

مقنعة، فيشعر القارئ أنه أمام شخصية حية لها سماتها الخاصة وظروفها. أما سائر الشخصيات فهي مجرد "كليشيهات" يتداولها الروائيون ولولا تسميتهم لبعض الضباط، لما استطاع القارئ أن يفرق هذا الضابط من ذاك، فكلهم يشتركون في أعمال متشابهة والكثير من الروايات تبدأ عرضها لشخصية الضابط بالصيغة التالية:

(أخذ يهدد ويتوعد ويرعد ويُزبد، ثم أخذ السوط ونادى على الحارس)[70].

بعد الضابط، يأتي الجندي أو المرتزق أو المظلي أو ذو القبعة الحمراء، وقد ورد ذكره في مواضع عديدة من الرواية العربية المغاربية ولدى مجموعة كبيرة من الروائيين. تحدث البعض منهم عن الجندي الفرد، وتحدث البعض الآخر بصفة عامة عن الجند، حيث لا يقوم الجند عادة بأعمال إلا في مجموعات، ومن تتبع ذكر الروائيين للجنود الفرنسيين، يتضح أنهم يتميزون بالقسوة والعنف والشراسة والحقد والصلف والاستهتار والظلم، يكثرون من الضرب والركل والتهديد والشتم، والإهانة، والتعذيب بوحشية، والتلذذ بتعذيب الناس، ويتهالكون على الفساد والإكثار من شرب الخمر والبحث عن النساء، وهتك الأعراض والاغتصاب والسطو على الديار لمختلف الأغراض.

فإذا ما وقع الجندي في مأزق فهو جبان، مضطرب عاجز عن القيام بواجبه، لا هم له سوى الخلاص من المأزق ولو على حساب واجبه. ونادرا ما نجد جنديا يتصف بالإخلاص في تأدية الواجب او يتصف بشيء من الذكاء.

كما يتسم الجندي الفرنسي بالارتباط الشديد بموطنه الأصلي، فهو يتذكر دوما مسقط رأسه أو بلدته، وبخاصة الجرحى، ثم إنه شديد الحب للزوجة

---

[70] من بين الروايات التي أوردت هذه الصيغة: حب وثورة، ص126، وناس، ص 88 -117 -133، نوافذ الزمن، ص10... إلخ.

أو الحبيبة -الغائبة - قوي الحنين إليها لدرجة العفو -أحيانا - على المغربية إذا كانت قريبة الشبه بها.

أما الملامح الجسمية، فقليلة الورود وبخاصة إذا ما قيست إلى تفصيل الأفعال والإفاضة فيها.

فالروائي يريد إقناع القارئ بما حدث له ولقومه نتيجة ظلم الجند ليصل إلى تنفير القارئ من الجندي الفرنسي حتى لا يكون بينهما أي تعاطف، ولذلك هو يركز على الأفعال مهملا الصفات الجسمية، ذلك أن معايشة الروائيين المغاربة للجندي الفرنسي والاحتكاك بينهما كان احتكاك المجابهة لا المعايشة.

وتتلخص الصفات الجسمية للجندي الفرنسي الواردة في الرواية العربية المغاربية -على قلتها - في زرقة العيون اللامعة ووضع النظارات الشمسية واحتقان الوجه، وتهدل الأوداج الحمراء، وضخامة الجثة والعضلات المفتولة، إنه مخلوق مرعب.

والأسلوب السائد في رسم شخصية الجندي هو السرد التقريري أو النبرة الخطابية العالية، مع الحوار الساذج بين شخصين من حين لآخر. والشخصيات التالية مثال على ما ورد ذكره سالفا.

ففي رواية "حليمة" لمحمد العروسي المطوي يقول: ((...) أما حليمة فكان نصيبها أن انهال عليها أحد الجنود القساة ضربا بمؤخرة بندقيته فأصابها في جنبها، ووقعت على الأرض ثم ركلها برجله ركلة فظيعة حتى أغمي عليها)[71].

فالكاتب كما نرى لم يذكر في سرده سوى القسوة والضرب والركل لحد الإغماء.

أما محسن بن ضياف، فيتحدث عن جندي فرنسي جريح مقعد، شغله الحنين إلى قريته الهادئة في شمال فرنسا إلى درجة أنه لا ينتبه للممرضة التي

---

[71] محمد العروسي المطوي: حليمة، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ب ت، ص104.

تستعمل كل الوسائل لانتزاعه من أفكاره: (وأطرق الجندي الفرنسي إلى الأرض وهو يردد في حنان وعيناه تتألقان: قريتي الجميلة.. قريتي الجميلة)[72]؛ وهذا الجندي عندما يتذكر قريته ويتذكر الثلج والقرميد الأحمر... إلخ، لا يتذكر كل ذلك إلا بعدما أصبح لا يستطيع التحرك من فوق المقعد المتحرك، وصار خياله وسيلته في الحركة، بعدما عجز عن القيام بأية حركة فعلية.

ويتحدث "عرعار محمد العالي" في رواية "ما لا تذروه الرياح" عن جندي فرنسي جاء ضمن فرقة تبحث عن "البشير" -بطل الرواية -، فيصوره عنيفا شديدا كثير الحركات وكأنه عفريت ((...) ظهرت على ملامح الجندي انقباضات مرعبة، نتيجة الغضب والقلق، فدنا وجهه المحتقن من بلقاسم، وشد على سلاحه بيدين من حديد، وانفجر قائلا: تكذب، نحن نعرف أين هو ابنك.. فهو إما أن يكون قد ثار وتمرد وصعد إلى الجبل، وإما أن يكون قد اختفى هنا في بعض الأركان، لكن لا تخشى شيئا، إذا كان هنا فسنخرجه من غاره مثل الفأر، إذا كان قد صعد إلى الجبل، فسنحاصره وننزل به وهو أشلاء.. نحن ننصحك أن تدلنا على مكانه هيا خبِّرناه (...) خاب أمل الجندي في بلقاسم فتملكه غضب ممزوج بالمقت والكره، فوخز صدر ضحيته بفوهة بندقيته وشعر باللذة والراحة وود لو يستطيع أن يمزق هذا الصدر ويرى بندقيته تظهر من الجانب الآخر، مضرجة يقطر منها الدم القاني، فأعجبه هذا التصور وراح يدفع فوهة بندقيته بشدة في صدر بلقاسم (...) لكن بعد محاولات عديدة، لم يبخل فيها بالجهد تخلى عن أمنيته هذه وراح بسبابته يتحسس الزناد ويرغب رغبة شديدة في جذبه.. فهذه لذة لا تتكرر، فلماذا لا ينتهز الفرصة؟ ليشد الزناد وليترك الرصاص يندفع بنشوة في جسم عدوه...)[73].

---

[72] محسن بن ضياف: التحدي، الشركة التونسية للتوزيع، 1972، ص57.

[73] عرعار محمد العالي: ما لا تذروه الرياح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1972، ص18 -20.

هذا الجندي العنيف الدموي، يلين عندما يستجوب "ربيعة" -زوجة البشير - لأنه يلاحظ مدى التشابه بينها وبين زوجته: ((...) فهذه الفتاة التي تقف أمامه، يكاد يطفر الدمع من عيونها قد أرجعت إلى ذاكرته صورة فتاة أخرى، عزيزة عليه، لا تشبهها في التقاسيم والأوصاف لكنها تتحد معها في التمتع بالجمال والفتنة... وهذه الصورة هي صورة زوجته التي مر عليه زمن طويل ولم يرها... فتصور أنه إذا ظلم هذه فإنما يظلم زوجته... وهذا شيء لا يريده، لهذا فهو لم يصر كثيرا على أن ينتظر الجواب من ربيعة..)[74].

لم يتعب الجندي "ربيعة" في الاستجواب حتى لا يجرح صورة مشابهة لزوجته التي غاب عنها زمنا طويلا ويحن لرؤيتها، فعاطفته نحو زوجته منعته من التعنت مع "ربيعة" وعندما أراد استجواب حماة ربيعة -زوجة بلقاسم أي أم البشير - نفر منها واشمأز من قبحها، وبذلك ابتعد عنها ولم يوجه لها أي سؤال[75]؛ فهذا الجندي إنسان عاطفي محب للوسامة كاره للقبح رغم العنف والقسوة والحقد التي تظهر عليه أثناء معاملته للأهالي.

وأثناء رسم الروائي لشخصية جندي ثان، نجده يركز على الصفات المنفرة جسمية ونفسية، فيصفه ساردا: (إن أحد الجنود المسؤولين يخاطبهم ... لم يستمع إليه البشير بانتباه .. فقد كان يمعن النظر في الكتلة اللحمية الشحمية الضخمة التي وقفت متصلبة العضلات تشغل حيزا كبيرا من فراغ القاعة التي وقفوا فيها... كان هذا الجندي ضخم الجثة للغاية متهدل الأوداج أحمرها.. يحمل نظارة مظللة الزجاج.

إن هذا الشخص يبعث الهيبة في النفوس ويدعو كل إنسان إلى التزام حده وعدم التفكير في محاولة العصيان... ما إن يراه الإنسان حتى يخيل إليه أنه

---

(74) عرعار محمد العالي: ما لا تذروه الرياح، ص21 -22.

(75) عرعار محمد العالي: ما لا تذروه الرياح، ص22.

يتكلم معه هو، ويهدده فأشداقه التي تنتفخ، وعيناه اللتان تلمعان توحيان بالاعتداء والوحشية. لا يتخيل أحد، أنه يمكن لهذا الشخص أن يتفوه بكلمة لطيفة، فهو متناقض في كل شيء مع ما يمكن أن يسمى ظريفا.. لهذا لم يستطيع البشير أن يدرك كلمة مما قال .. فقد شعر دون سبب لذلك، أن هذا الشخص الواقف أمامه يكن له العداء وهو سينتهز كل فرصة للنيل منه والتنكيل به. أحس أن جسمه ينفر من هذا الشخص وأطرافه ترتجف رغما عنه، إنه يتخيل نفسه بين يديه الحديديتين، تتهشم عظامه بمجرد أن يلمسه، يا لهذا المخلوق)[76].

مخلوق مخيف، له شكل فظيع يتمتع بحضور قوي جدا لدرجة بعث الخوف في الآخرين، نتيجة جسم قوي وشخصية مسيطرة ونظرات مخيفة، إنها شخصية أكثر وضوحا من شخصية الجندي الأول وأكثر بشاعة، فالأول يتمتع بعاطفة حساسة رغم قسوته، أما الثاني فهو مخلوق مرعب.

إنه العنف والقسوة والضرب والشتم سمات بارزة في تصوير الجندي. فمحمد المختار جنات يتحدث في روايته "نوافذ الزمن" عن دورية من رجال المظلات، فيقول: (دورية من رجال المظلات تقتحم الدار) كادت تحطم الباب بأعقاب البنادق "كانوا شرسين.. أعينهم تفيض بالمقت والحقد.. رجال الموت والمنايا سلطوا علينا من السماء صواعقهم، وهبطوا إلى الأرض، فاكتسحوا الشوارع والأنهج ليجندلوا برشاشاتهم ما غفلت القنابل والمدافع عن حصده.." (...) قلبوا حشيتنا (...) وخرجوا بعد أن صفعوني، وأسمعوني شتيمة أعرف مدلولها عند الجنود جيدا...)[77]؛ ثم يتعدى الكاتب تلك الصفات والسمات ويركز في تصويره على قضية حساسة جدا، وهي مسألة الجنس، فالشيخ نور

---

[76] عرعار محمد العالي: ما لا تذروه الرياح، ص42 -43.

[77] محمد المختار جنات: نوافذ الزمن، ص54 -55.

الدين شخصية هامة في أحداث الرواية؛ خرج يلتقط الأخبار بعد حملة المظليين، فوقع بين أيديهم، والتقفه جندي بالسؤال عن وجهته، فزعم أنه يبحث عن طعام له ولعجوزه، فرمى له الجندي لقمة خبز آمرا إياه بالتقاطها مثل الكلب[78]؛ ثم انتحى به جانبا وسأله إن كانت له بنت: فأجاب الشيخ بالنفي ثم انتقل للسؤال عن المدام -الزوجة - فأخبره بأنها عجوز كلها جلود، فلما وجد باب أسرة الشيخ مقفلا أمامه طلب منه أن يدله على نساء جميلات صغيرات، وبذلك أصبح الشيخ في مازق يدله على نساء جميلات ومن أين له النساء الجميلات، الرشاشة مغروزة في ظهره[79] تلك هي أعمال الجندي الفرنسي.

وإذا كان هذا الجندي قد أحرج شيخا مسنا ووضعه في مازق، فغيره فعل أفظع من ذلك، ولم يكتف بالطلب بل أخذ مطلبه بالقوة: (كانوا يجلسون على حافة الجابية، يمضغون ويدخنون.. خرج أحدهم من الكوخ يصفر، ويزرر سرواله... فنهض الآخر وطوح بسلاحه لصاحبه ودخل الكوخ، ثم ... ذبحوا العجل واستأصلوا أحشاءه وشووا الكبد والقلب، وأطلقوا أعيرةً نارية على رؤوس الأشجار وخرجوا يتواثبون.

تسورت الطابية... عثرت في الساقية بجثة زوج مبروكة وخاله، ووجدت تحت حائط الجابية جثة "الخماس" منكفئة على وجهها... وفي الكوخ.. يا للهول رأيتها عارية تنتحب، تقطع شعرها وتندب..)(80)؛ قتلوا زوجها وخالها ثم الخماس، ثم العجل، ثم قتلوها أفظع قتل معنويا وجسديا بسهولة ويسر.

رسم "المختار جنات" الجندي الفرنسي بأسلوب بسيط معتمدا في أكثر الأحيان على الحوار البسيط ذي الجمل القصيرة جدا، المباشرة المعنى، الدالة على

---

[78] محمد المختار جنات: نوافذ الزمن، ص58.

[79] محمد المختار جنات: نوافذ الزمن، ص58 -62.

[80] محمد المختار جنات: نوافذ الزمن، ص70.

سرعة الأحداث[81] والسرد الوصفي مع التقديم والتأخير في تقديم الأحداث وبعض جزئياتها[82]، بحيث جعل الصورة الكلية لا تتم إلا بعد تمام الرواية، وبذلك جاءت شخصية الجندي الفرنسي معقولة -رغم إهمال الكثير من الصفات والمبالغة في السوء -بحيث عندما يقرأ المرء كلامه لا يستغرب كثيرا.

وعلى خلاف ذلك، جاء حديث أحمد زياد في روايته "بامو" عن الجيش الفرنسي، فهو يصوره جيشا عاجزا تماما، يستطيع الحنصالي -شخصية مهمة في الرواية - أن يسقط طائرة ببندقية صيد ويقتل الطيار الذي نزل بالمظلة[83] بل وقف في وجه لواء كامل وأخزاه: (وكان الجيش الفرنسي بقيادة جنراله في وضع مخجل جدا، لأنه لم يستطع بجنوده المدججين بمختلف الأسلحة البرية والجوية الفوز على رجل واحد لا يملك سوى بندقية واحدة وعدة طلقات. إن هذا من الأشياء التي لا يصدقها عقل إلا أنه أمر واقع[84]) وحتى إن كان ذلك أمرا واقعا فالعقل والذوق لا يستسيغانه، وكان عرضه في الرواية لا بد من أن يخضع إلى عملية تطويع فني ومعالجة خاصة لينجح روائيا.

وفي رواية "اللاز" للطاهر وطار، يشير إشارة عابرة إلى معاملة الجند الفرنسي للأهالي من خلال "اللاز" -بطل الرواية - بأسلوبه الشديد الوقع على القارئ فيقول: (جنديان يجران "اللاز" من ذراعيه، وثمانية يستحثونه السير، باللكمات، والضرب بمؤخرات البنادق بينما الدماء تتطاير من أنفه ووجنتيه، وجبهته، وشفتيه، وهو يترنح تارة، ويقاوم أخرى)[85] العنف والقسوة، الضرب، والركل هي السمات التي يتسم بها الجندي الفرنسي.

---

[81] محمد المختار جنات: نوافذ الزمن، ص58 -62.

[82] محمد المختار جنات: نوافذ الزمن، ص70.

[83] أحمد زياد: بامو، ص170

[84] أحمد زياد: بامو، ص171.

[85] الطاهر وطار: اللاز، ص16.

أما عندما يقع واحد منهم بين أيدي الثوار فهو عاجز كل العجز: (واعتراه نوع من الخوف، واضطرب قلبه، واقشعر بدنه، ووهنت أوصاله، وتراخت عضلاته، وأحس بأنفاسه تختنق.. وقرر أن يمتثل)[86]؛ إنه يخاف على حياته، والخوف على الحياة غريزة إنسانية لا يفتقدها المرء إلا في النادر جدا من حالات السمو الروحي، ومن المستبعد جدا أن يحدث مثل ذلك عند شخص مدفوع برغبة مادية أو بقوى أخرى لا يستطيع مقاومتها.

كذلك نجد الضرب والعنف والقسوة والاستهتار والتعدي على الشرف كلها تكون الأوصاف الأساسية التي يتصف بها الجندي في رواية "سوق الكلاب"[87] لمحي الدين بن خليفة، يقول: (ومسك الجنود خناق الشوارع في أيام عصيبة يجوبون الليل بين الأزقة ويدقون الأبواب المستسلمة، منادين بأسماء النسوة صلفين مستهترين: ... فاطمة... مبروكة... فاطمة... مبروكة..

وتفشّى سطوهم على الدور يقتحمونها بالرصاص حتى كاد الناس أن يهجروا بلدهم ليعتصموا بالكهوف والمغاور)[88] أوصاف يتسم بها الجند أو الجنود الفرنسيون في الرواية العربية المغاربية، وذلك بتركيز الروائيين على الأعمال التي يقوم بها الجندي تجاه المغاربي، وإهمال بقية النواحي المكونة لشخصية الجندي. ونادرا ما يتعرض الروائيون لعواطف هذا الجندي أو تفكيره أو أحلامه أو أوصافه الجسدية، مع التقديم المباشر له بالسرد المعتمد على المبالغة والتهويل وذكر المثالب التي من عرضها تظهر معاناة الشعب وكفاحه.

---

[86] الطاهر وطار: اللاز، ص140.

[87] محي الدين بن خليفة: سوق الكلاب، مطبعة المعارف، سوسة، تونس 1976.

[88] محي الدين بن خليفة: سوق الكلاب، ص40.

جدول مكونات شخصية الجندي الفرنسي

الرواية وكاتبها والشخصيات الواردة فيها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الـــدور
"حب وثورة" لعبد الرحمن عمار: 1 - الملازم روني	لا شيء	جبان - عنيف الكلام يلجأ للسوط - غضوب - يرغي ويُزْبِد	يستدعي أعضاء الشعبة الحزبية للحصول على معلومات حول الثوار ولكنه يفشل
2 - السرجان بول لاكروا	لا شيء	جبان- غبي	يلقي الثوار عليه القبض فيكاد يموت خوفا
"المعلم علي" غلاب 1 - الملازم جان	عينان خضروان يضع نظارتين	مرهف الإحساس -يكره الظلم - طيب القلب	عضو محكمة عسكرية يرى الظلم فيتأثر
"وناس" محمد الحبيب بن سالم 1 - ضابط القومية	لا شيء	استغلالي- قاس - ظالم	وقع تحت رحمته "وناس" في الصحراء فانتزع منه ريميه بقوة
2 -ضابط محقق	لا شيء	عنيف - متعطش لرؤية الدماء - يلجأ للسوط	يحقق مع "وناس" بعنف وقسوة

3 -ضابط تحقيق	لا شيء	عنيف – متعطش لرؤية الدماء – قاس	يحقق مع "وناس" بلغظة وفظاظة
"نوافذ الزمن" لمحمد المختار جنات 1 - ضابط	لا شيء	حقد - يستعمل السوط - عنيف جدا	يضرب الناس ويهددهم ثم يبصق عليهم متوعدا
2 - ضابط	لا شيء	وقح –فظ –مستهتر بكل المبادئ والقيم	يوقف سيارة إسعاف ويعطّلها بمن فيها من الأهالي
3 -ضابط مظلي	لا شيء	سليط جدا – عنيف جدا – عدواني	يعامل بعنف وقسوة مجموعة من الأهالي
"اللاز" الطاهر وطار 1 - الضابط	أسنان بيضاء –شفتان رقيقتان حمروان – عينان زرقاوان –يحمل نظارات –في حدود الأربعين – متوسط القامة – أبيض- نحيف – ملامح نسوية	مخنث – شاذ جنسيا يفضل إرواء شذوذه على واجبه – مثقف واسع المدارك – يشبه نفسه بهاملت لتردده – جبان	لا يستطيع قتل اللاز لتعلقه به جنسيا رغم ثبت عمل "اللاز" مع الثورة ولما يفر اللاز ينتقم من أهل القرية ويموت على يد بعطوش

2 - الملازم ستيفان	لا شيء	سكير- لا يصحو	سكير حتى قتل
"عندما ينهال المطر" لعبد الرحمن عمار 1 - النقيب إدوارد	لا شيء	يقدر الذين خدموا فرنسا	يقود حملة تفتيش
2 - النقيب جاك	لا شيء	انتهازي- عصبي - قاسٍ	يحاول استغلال عاطفة الأب في الحصول على معلومات عن الابن
حليمة المطوي 1 - جندي	لا شيء	قاس -الضرب	يلتقي بحليمة فيضربها
"التحدي" بن ضياف 1 - جندي جريح	لا شيء	عاطفي - حساس	كثير الحنين إلى قريته
"ما لا تذوره الرياح" عرعار: 1 - جندي	لا شيء	عنيف- حقود - دموي - يحب الجمال	يبحث عن البشير بعنف ثم يلين لرؤية شبيهة زوجته
2 -جندي ثان	سمين-متهدل الأوداج أحمرها يحمل نظارة - يدان قويتان	فظ- غليظ - مرعب - مخيف	يتحدث مع المجندين بعنف فيخشونه
"نوافذ الزمن" لمحمد المختار جنات 1 - المظليون	لا شيء	الشراسة- الحقد والمقت - الظلم	يقومون بتفتيش المنازل وإعاثة الفساد فيها
2 - جندي	لا شيء	شهواني - فظ	يبصق على شيخ ويهينه

3 - جنود	لا شيء	الظلم - الاعتداء على الشرف بالقوة	قتلوا زوج امرأة وفعلوا فيها واحدا واحدا
"بامو" أحمد زياد 1 - الجيش الفرنسي	لا شيء	العجز والجبن	لواء يعجز عن واحد
"اللاز" الطاهر وطار 1 - جنود	لا شيء	العنف والقسوة والشدة	يلقون القبض على اللاز ويعذبونه كثيرا
"سوق الكلاب" بن خليفة 1 - جنود	لا شيء	الصلف- الاستهتار - السطو	يقومون بتفتيش المنازل والاعتداء على الناس

4-رجل الأمن

الشرطي: هو سلطة المراقبة المباشرة على الشعوب المغاربية في المدن والقرى الكبيرة، على العكس مما يوجد في الأرياف والبوادي، حيث يقوم الدرك بالمراقبة، يتابع كل التحركات ويتصدى لأية حركة بسيطة، فإذا ما بدت خطورة أو شبه خطورة يقوم الجيش بواجباته.

والتلميحات إلى الشرطة كثيرة في بعض الروايات العربية المغاربية مثل رواية عبد الكريم غلاب "سبعة أبواب"[89]، فضباط الشرطة أو الأمن في تلك الرواية كثر. أولهم ضابط قاد حملة تفتيش على منزل الراوي -وهو بطل الرواية أيضا - ونفذ مهمته بإتقان ودقة، حيث فتش كل صغيرة وكبيرة وجمع كل ما يمكن الاستعانة به أثناء التحقيق، لأن مهمته كانت جمع كل شيء قد ينير طريق التحقيق، ولذلك لم يحاول التعدي على أصحاب البيت، بل تدخل عدة

---

[89] عبد الكريم غلاب: سبعة أبواب، دار المعارف، 1965.

مرات ناهرا زملاءه الذين تدخلوا فيما لا يعنيهم[90]. وفور انتهاء عملية التفتيش كتب تقريره، واصطحب المقبوض عليه، وسلم كل شيء في المركز وبذلك انتهى كل شيء بالنسبة إليه[91].

إنه ضابط يتقن عمله ويدرك جيدا حدوده، ولا يريد أن يتعب نفسه باي مجهود خارج مهمته ولكن المفتش المرافق للضابط كان على العكس منه: (وكان ثالث الفرسان الأربعة مفتشا سمينا تنوء ركبتاه بحمل بطنه والإضافات.. كان وجهه كالحا لا يعبر إلا عن حقد دفين، لا ابتسامة ولا كلمة إلا النابي منها والفظ (...) وهو -فيما يظهر - حقود لا يجد متنفسا لحقده إلا في ضحايا الشرطة من المعتقلين (...) وكان حريصا على أن يعبر عن سخطه وحنقه حينما يجد ورقة بالعربية لا يفهم ما فيها، أو حينما يحدثني بفرنسية كورسكية فأفضل أن أجيبه بعربية مغربية، حاول أن يثور في وجهي فصده الرئيس، وحاول أن يعبث بمقتنيات البيت فصده الرئيس، وحاول أن يتمرد فيصدر الأوامر التي تحمل بعض الإهانات فصده الرئيس)[92].

لم يكن هذا المفتش البشع الخلقة الحقود السيئ المعاملة المتصف الوحيد بتلك الصفات، فزميله المفتش يشبهه في الكثير من الصفات، فحنجرته مبحوحة والوجه محروق والخلقة مشوهة، يحاول تغطية ذلك بنظارات سوداء لكنها تعكس على وجهه ظلمة نفسه الحاقدة، فهو غاضب دوما على المساجين والمقبوض عليهم، لا يقبل أن يرى اثنين معا، ويغضب كثيرا إذا سمع كلام احدهم: (كان يلفظ أوامره من خلف نظارته فيتطاير شعاع الغضب من عينين حاقدتين، وكان قد تخفف من سترته اتقاء للفح اغشت[93] فبدا وهو محترف بمسدسه كما يبدو

---

[90] عبد الكريم غلاب: سبعة أبواب، ص14 -15.

[91] عبد الكريم غلاب سبعة أبواب، ص20.

[92] عبد الكريم غلاب: سبعة أبواب، ص15 -16.

[93] غشت: هو شهر أغسطس (أوت).

أطفال رعاة البقر "الكاوبويز" في أفلام "التكساس" وامتثلنا فليس بوسعنا أن نعاند مفتشا تمنطق بمسدس)[94].

بشاعة في الخلقة وسوء أخلاق ومعاملة، الصفات نفسها تقريبا يتصف بها عميد الشرطة الذي كان يحاول بعث الرهبة والخوف في المساجين: (وقطع حبل تفكيري صوت مزلاج الباب وهو ينفتح بعنف عن جسم ضخم قوي لا يقارب ضخامة طوله إلا أكتافه العريضة وبطنه المنتفخ وأوداجه الملتهبة، وعلائم الجد والصرامة تطفح من عينيه المختفيتين وراء نظارة سميكة، وكأن شرارات الغضب تتطاير من محجريهما، يسير في اتزان وهو يحسب لمواقع أقدامه حسابها ويشمخ بأنفه وكأنه يسير بين جنود شاكين سلاحهم تحية للبطل الفاتح.

تمنطق بمسدسه، وفي هذا المسدس تكمن قوة هؤلاء الرجال الذين يحمون الأمن بقوة الحديد والنار، ألقى علي نظرة عجلى من خلف نظارتيه السميكتين فلم أعر نظرته انتباها وسار بخطواته المتزنة حتى نافذة الغرفة، ثم عاد أدراجه وهو يحسب أنه أدى مهمة بوليسية، وعرفت فيما بعد أنه عميد شرطة الرباط)[95].

ضخامة الجسم، تهدل الأوداج، انتفاخ العيون، وضع النظارات السوداء، سوء الخلقة وبشاعتها، الحقد والكره والمقت للأهالي، سوء المعاملة والظلم والاعتماد كلية على الحديد والنار. تلك هي أهم الصفات التي يتصف بها ضابط الشرطة في رواية "سبعة أبواب" لعبد الكريم غلاب، الذي سرد فيها ذكرياته وما حدث له مع الشرطة زمن المقاومة.

ونجد الروح نفسها في رواية "المعلم" لعبد الكريم غلاب أيضا، حيث يدير نقاشا بين الجنرال الحاكم العام ونائبه الكولونيل "ميشيل" و"بونيفاس" مسؤول الأمن و"سولي" ضابط الشرطة، اجتمعوا لبحث قضية المجزرة التي وقعت في

---

(94) عبد الكريم غلاب: سبعة أبواب، ص25.

(95) عبد الكرم غلاب: سبعة أبواب، ص27 -28.

المدينة بعد إضراب العمال وهجوم مجموعة من السيارات على حي الأهالي وتقتيل عدد كبير جدا منهم، ثم قيام الأهالي برد الفعل وقتل مجموعة من الفرنسيين، فكان الجنرال حاكم المدينة حائرا خائفا من السلطات العليا، بينما لم يكترث نائبه كثيرا، فالمعركة رابحة، أربعمائة من الأهالي مقابل ثمانية من الفرنسيين.

أما "بونيفاس" المسؤول عن الأمن فكان يريد المزيد من التقتيل ويحرض الحاكم العام على إلقاء القبض على مدبري الإضراب، وكل من سولت له نفسه –من الأهالي - القيام بأية حركة. ولذلك هيأ كل الظروف ليتم إلقاء القبض على البقية فجر تلك الليلة، ليقدموا لمحكمة عسكرية، وخلاف هؤلاء كان "سولي" يرى أن قوات الأمن استغلت خطأ وقامت بأعمال تهور، ودعا إلى محاسبة المسؤولين عن الفتنة، ولذلك احتدت أعصاب "بونيفاس" –فهو الذي دبر المجزرة - وثار في وجه "سولي" الذي انكمش وسكت عندما لاحظ رضى المجموعة[96].

نجد السمات نفسها إذن في وصف عبد الكريم غلاب لضباط الشرطة: سوء خلقة وسوء معاملة.. ودائما الرئيس يتصرف في حدود، ومرؤوسوه يثورون على هذه الحدود وينصحون بتجاوزها.

والشرطي لا يتمتع بأية رتبة، ويرد الكلام عن الشرطة غالبا بصفة عامة، إلا في رواية عبد الكريم غلاب "سبعة أبواب" التي يعرض فيها للحديث عن ثلاثة أفراد من رجال الشرطة.

أولهم: (شاب نحيف معتز بشبابه، صحبنا صباح يوم في القطار من الدار البيضاء حتى الرباط وظل يلحظنا ويرهف السمع لكلامنا (...) وكنت أقابله من حين لآخر فيبين اهتماما زائدا بالتطلع إلى وجهي ومراقبة اتجاهات سيري، فلما دخل علي فجر ذلك اليوم خيل إليه انه فتح قلعة، وانه وجد في القلعة ذخائر

---

[96] عبد الكريم غلاب: المعلم علي، ص502 -405.

تجعل منه بطل معركة، وكان يبتسم لي في سخرية وكأنه يقول: أتذكرني..؟ أتذكر القطار والشارع..؟ ها أنت الآن بين يدي (...) وأغريته بالتسلق إلى سدة متداعية لأمتحن جرأته .. وتسلق، ولكنه كان خائفا خوف الأطفال حينما يقلدون الكبار في القيام بأعمال جريئة. وحاول أن يخفي جبنه حينما وجد حقائب فارغة، ولكن نشوة الظفر باصطياد رجل يعرفه انتصرت على كل خيباته)[97] شاب ضعيف الجسم قليل الخبرة، جبان لم يستطع أن يصل إلى مستوى "الراوي" الذي كان بين يدي الشرطي، ومع ذلك كان يتحداه بالنظرات الباردة ويمتحن شجاعته، ولا يأبه له، ولا شك أنه –أي الشرطي - سيعتبر إلقاء القبض عملية كبرى، وسيطلب من رئيسه إسناد مهمة الاستنطاق إليه، حتى ينتقم من ذلك المغربي الذي أتعبه كثيرا: (وأنه سيحاول أن يطلب من رئيسه ترك مهمة الاستنطاق إليه، فالنظرات الباردة الجافة التي كان يقابلني بها هذا الرجل ستصبح اليوم نظرات حارة.

سأذكره بيوم القطار ويوم الشارع... وسيكون ذلك مفتاح الاستنطاق، سأعرف كيف أرغمه على أن يقول كل شيء (...) سأظفر بمعلومات قيمة توضع نتائجها نقطا في ملف ترقياتي)[98].

ماذا سيفعل هذا الشرطي الشاب الجاري وراء الترقية ولا شيء سواها مع مناضل مغربي محنك؟

ثاني الثلاثة: شرطي بملابس مدنية يقوم باستجواب الراوي، وما كاد "الراوي" يخبره بأنه من "فاس" حتى برقت عينا الرجل، وخشي "الراوي" أن يكون لذلك الشرطي ذكريات سيئة من "فاس": ((...) ولكن الرجل –رغم كبره -

---

[97] عبد الكريم غلاب: سبعة أبواب، ص13 -14.

[98] عبد الكريم غلاب: سبعة أبواب، ص19.

كان ذا وجه بشر وعينين ضاحكتين وحديث مؤنس. فلم يلبث الشك الذي راود نفسي أن انقشع فقد انطلق بلغة عربية فاسية:

-فاس بلدي فأنا فاسي، قضيت فيها عمرا من عمري منذ جئت شابا من فرنسا في أعقاب الحرب العالمية الأولى، مدينة جميلة بهوائها وأهلها، ولي فيها أصدقاء ولو استطعت أن أنتقل إلى العمل هناك لفضلته على كل مكان في المغرب (...) ونسي الرجل العمل الرسمي الذي يقوم به وانطلق يحدثني عن فاس (...) وأنهى حديثه بشبه اعتذار هو لا يريد أن يضايقني لأنه يقوم بعمل إداري صرف (...) انتهت مهمته فودعني وهو يقول: حظ سعيد)[99].

شرطي لطيف قلبه عامر بالحنين إلى فاس، المدينة التي تربى فيها وأحبها وأهلها، ولذلك لم يضايق "الرجل" لأنه فاسي.

أما الشرطي الثالث: فهو محقق، في حدود الخامسة والثلاثين طلق المحيا، في وجهه بشر وفي ملامحه علائم جمال، وتقدم إلي يتبعه المغربي المجدور الوجه وهو يحمل ملفا فارغا إلا من أوراق التعريف (...) وحاولت أن أدرس نفسية الرجل من خلال أسئلته، فجذبته إلى موضوعات غير ذات أهمية، وبدأت أدلي فيها باعترافات حسبها خطيرة فركز عليها أسئلته. وأبدى نشاطا في تسجيل الأجوبة، وكانت علامات السرور تبدو على محياه وهو يسجل الاعترافات.

ودلتني هذه التجربة على أن الرجل من نوع المحققين في الجرائم العادية، ومن الطبيعي أن يكون بسيطا فيما يتصل بالمسائل السياسية، لهذا غرق في الماضي ونسي الحاضر (...) واستأنفت التحقيق بعد فترة استجمام، وإذا به يدخل كالأسد الهصور، تغيرت معالم وجهه واحتقنت عيناه ونظر إلي في خبث وهو يقول: إنك تغالطني أسألك بالفرنسية فترد بالعربية وما أريد منك أن تتجنب الإجابة باصطناعك الجهل بالفرنسية (...).

---

[99] عبد الكريم غلاب: سبعة أبواب، ص25 -26.

وأمام الاطمئنان والهدوء النفسي اندفع في عصبية يجرد مسدسه وهو يحاول أن يخفي مظاهر التهديد، وضرب به على المكتب الذي يفصل بيننا وهو يقول: (من الأفضل لك ألا تدعني أستعمل القوة (...) واستخدمت المنطق لإقناع صاحبنا بأنه ليس لدي ما أقول غير الذي سمع، ويخيل إلي أني أقنعته، فقد عاد يقول: إن آخرين قد يحققون معك، ولن ينفعك معهم هذا الذي تقول. والآن لقد انتهت مهمتي، فإلى الكهف...)[100]، إنه شرطي يقوم بواجبه من غير إفراط ولا تفريط، فقد استعمل أولا أسلوب الملاينة وكأنه غبي لا يفهم، لدرجة أن "الراوي" أراد تضليله، فكان هو المضلل، وبعد فترة الاستجمام غيّر الأسلوب، فهدد وتوعد وغير سحنته اللطيفة، ولما أراد "الراوي" إقناعه بالمنطق، أبدى الاقتناع، ولكنه أشار إلى أن غيره لن يقبل مثل ذلك الكلام.

شخصية سوية تقوم بواجبها حسب الأصول، وتدرك بذكاء كل ما يدور. وهكذا تنوعت شخصيات الشرطي في رواية عبد الكريم غلاب.

الأول غر جاهل جبان، والثاني عاطفي رقيق الإحساس، والثالث ذكي يدرك جيدا ما يفعل وما يقول، والكل يقوم بواجبه كما يطلب منه.

كما ورد ذكر الشرطة -عموما في بعض الروايات، فوصفت هذه الروايات أعمالها مثل تعقب الأهالي وإزعاجهم، ومعاملتهم معاملة سيئة... إلخ[101].

الفسيان: أو مسؤول المكتب الثاني، يشبه المخابرات أو المباحث، ولكن عمله ليس موجها إلا إلى الأهالي، هو الذي يتصنت ويلاحظ كل صغيرة وكبيرة تطرأ على حياة القرية أو الحي الذي يشرف على أمنه، فهو مثل جهاز الإنذار أو الرادار بالنسبة إلى الأمن، وكل مغربي يستدعى إلى المكتب الثاني -عند الفسيان بيرو - تخور ركبتاه لإدراكه أن "الفسيان" سيورطه لا محالة.

---

[100] عبد الكريم غلاب: سبعة أبواب، ص28 -30.

[101] محي الين بن خليفة: سوق الكلاب، ص57 -61.

ورغم اهمية شخصية "الفسيان" في الحياة اليومية المغاربية -اثناء الوجود الفرنسي - لم يرد ذكر تلك الشخصية إلا في رواية "عبد الرحمن عمار" "حب وثورة" التي أشار فيها إلى شخصية "الفسيان" المرعبة عندما التقى "بحمد" -احد سياسيّي القرية التي تقع فيها الأحداث - وأحرجه بالأسئلة: (وتخلص من المحادثة بأن رفع يده بالتحية العسكرية، المفروضة على كل فرد "بالتراب العسكري" وواصل طريقه متعثرا... وانساب بين الناس... مبهورا... لاهثا. لا يكاد يصدق أنه نجا من قبضة "بيرو" القاسي، الفظ، المتغطرس كل واحد من سكان البلدة يعلم ذلك، ونادرا من بينهم من لم يصفعه أو يركله أو يشتمه هذا الفسيان الجائر)[102].

فحمد يخشى "الفسيان" هروبا من قسوته وفظاظته وغطرسته التي قاسى منها معظم سكان القرية. لكي يحقق "الفسيان" خططه صار يتكلم عربية ركيكة، ملوثة بلكنة بليدة، ومحشوة بألفاظ فرنسية محطمة ليكون مفهوما من قبل الأهالي[103].

ويتدخل في كل شؤون القرية إلى درجة أن يخطب لعلي عميله فتاة تنافس عليها "مصباح" -بطل الرواية - و"علي" -أحد "القومية" -، وبذلك يرفع من معنويات العملاء، ويحطم نفسية الشبان الذين رفضوا العمل مع الجيش الفرنسي أمثال مصباح، ووضع أهل الفتاة في مأزق، عندما أخبرهم برغبة الحاكم العسكري للبلدة في زواج "علي" من الفتاة وفسر لأسرة الفتاة أن رفضهم رغبة علي تعني رفضهم رغبة الحاكم العسكري -وهو يعلم الا احد يستطيع رفض رغبة الحاكم العسكري - إضافة إلى تقديم مهر مغر جدا، وبذلك سد كل المنافذ على الأسرة[104].

---

[102] عبد الرحمن عمار: حب وثورة، ص24.

[103] عبد الرحمن عمار: حب وثورة، ص39.

[104] عبد الرحمن عمار: حب وثورة، ص39 -41.

وبذلك وضع فعلا أسرة الفتاة في مازق، ولكن "مصباح" رفض تلك الخطبة وأعلن أمام الفسيان أن الرأي لا يعود إلا إلى الفتاة، وهي لن تقبل الزواج إلا بأبناء عمومتها، فأثار بكلامه ذاك "الفسيان" الذي وقف غاضبا مركزا عينيه الزرقاوين الفائرتين، كمين الجارح الكاسر على مصباح الذي وقف متحديا[105].

ودارت بينهما مناقشة حادة كانت نتيجتها صفع "الفسيان" لمصباح وهجوم مصباح على الفسيان ونشوب معركة بين فتيان البلدة و"القومية" الذين رافقوا الفسيان، وكانت النتيجة النهائية موت مجموعة من الشبان منهم "قومي" وفقدان البعض من "القومية" أسلحتهم[106] واحتدت أعصاب "الفسيان" على إضاعة السلاح: (... وتقدم منهم الفسيان صائحا.

- ضيعتم السلاح، أيها الكلاب، أنتم نساء نعطيكم أسلحة لتضيعوها في اشتباكات مع أناس عزل.. أنتم نساء.. أنتم نساء.

وجعل يشتم ويصيح.. ويلعن (...) ولم يهتم الفسيان بالجثث الأخرى التي كان بعضها يئن من الألم، كان أمرهم لا يهمه، إنهم من "العرش" من الهاجمين، من العرب القذرين كما قال فليموتوا قال صائحا.

- هي عصيان إذن، هي قتل (قومي) يخدم فرنسا .. سنرى.. سنرى يا كلاب، يا بهائم، سنرى النتيجة سوف أصلبكم، سوف تموتون تحت السوط وبالرصاص)[106].

معرفة تامة بنفسية المغاربي، فهو يعير رجاله بأنهم نساء لمعرفته استنكاف المغاربي -وبخاصة البدوي - ذلك التشبيه، وعندما أراد ضرب "مصباح" ساعد "عليًا" على خطبة "ربح" حبيبة "مصباح"، ثم وضع أسرة "ربح" في مازق بالحيثيات

---

[105] عبد الرحمن عمار: حب وثورة، ص41 -42.

[106] عبد الرحمن عمار: حب وثورة، ص42 -44.

[106] عبد الرحمن عمار: حب وثورة، ص42 -44.

التي وضعها أثناء كلامه. إنه شخص ذكي واسع الحيلة يحسن الضغط على مواقع الوجع.

ونتيجة لذكاء الفسيان ودهائه، نجد الأهالي يخشونه كثيرا، وكلما اقبل على أحدهم ينقبض قلبه مثلما حدث لأعضاء "الشعبة الحزبية" عندما ورد عليهم في دكان أحدهم: (وسكتوا فجأة، لأن الشخص القادم إلى الدكان مرعب مهول (...). إنهم لا يخافون الملازم ولا القبطان، بقدر ما يخشون هذا المتغطرس الذي يقوم بحفظ الأمن صحبة عدد من "القومية" والصبائحية في البلدة.

إنه أحد من الموس وأخطر من الأفعى، وأَسَمُّ من العقارب، إنه العذاب المجسم. ولكن "بيرو" ابتسم ابتسامة صفراء وقال: "لا، لا اجلسوا، اجلسوا أنا لم آت لإزعاجكم، كنت مارا فقلت لا بد أن أزور أصدقائي، أنتم، أنتم فقط (...) جئت فقط لأسألكم سؤالا واحدا هل صحيح أن مصباحا ذهب إلى طرابلس؟ ودقت القلوب وارتعشت الأصابع... هذا القذر، يا له من ماكر... وتمالك عليه جاشه وقال:

- صحيح هو في طرابلس منذ أشهر عديدة.

وسأل "بيرو" بخبث: - وذهب بدون جواز سفر، وكنتم تعلمون ولم تخبروني؟

كنا لا نعلم بذهابه، ولما بلغنا الأمر، كان هو في طرابلس منذ أشهر عديدة)[107] دهاء في المعاملة وكأنه ثعبان ينساب بين الأحجار والحشائش، وعدا أعمال الفسيان، فنحن لا نعرف عنه شيئا، لماذا يتصرف هكذا وما هي أحاسيسه أثناء تأدية عمله؟ ما هي رغباته؟ أوصافه الخلقية؟ صفاته الجسمية؟ كل تلك الأمور وغيرها لا نعرف عنها شيئا، فالكاتب لم يقدم إلا أعمال "الفسيان" تجاه الأهالي، واصفا إياه بالخبث والمكر والدهاء والغطرسة وبغض الأهالي والحقد

---

[107] عبد الرحمن عمار: حب وثورة، ص132 -134.

عليهم بأسلوب سردي لبُه الكلمات الضخمة مثل: قاسٍ، فض، متغطرس، الجارح الكاسر، ثارت ثائرته، زعق وضرب بالكف والساق إنها قوالب محفوظة.

الجندرمة: وهم رجال الأمن في القرى والأرياف فقط، يتمتعون بسلطات اوسع من سلطات رجال الشرطة في حفظ الأمن، والحديث عنهم في الرواية العربية المغاربية عام، لا يركز على شخص أو مجموعة منهم، بل يذكر ظلمهم وقسوتهم وحقدهم على الأهالي، حتى صاروا علامة شر يتطيّر منها الأهالي: (كل الناس خائفون من هذه الزيارة، وهل يأتي الجندرمة بخير؟ إنهم ما جاؤوا إلا لأمر. أمر يصيب واحدا من القرية أو جماعة.. غرامات.. اعتقالات.. تجنيد.. نعي جندي. ما كان نزولهم إلا مصائب تتوالى)[108].

فالجندرمة لا تزور أحدا إلا لمصيبة ستلحق به، ومثال ذلك ما حدث لشيخ تونسي زارته الجندرمة في كوخه: (... وذات يوم فوجئ سكان "الدوار" بحملة تفتيش من الجندرمة.. كانوا قاصدين كوخنا بالذات بحثا عن ولدي المتهم بالمقاومة وجمع السلاح والمتفجرات (...) فتش الجندرمة الكوخ، وقلبوه ظهرا لبطن فلم يعثروا على شيء... واستشاطوا غضبا وغيظا فأشعلوا النار في الكوخ بكل ما فيه.. وهو كل ما نكسب في هذه الدنيا الفانية.. لم تطق زوجتي المسكينة صبرا فامسكت بأحد الجندرمة تصيح وتصرخ.. فما كان منه إلا أن ركلها برجله فوقعت على الأرض...

وأمام هذا المشهد المثير لم أتمالك نفسي، فامسكت بهذا العكاز الذي أتوكأ عليه الآن وتقدمت إلى عون الجندرمة قاصدا ضربه... فما شعرت إلا بطلقة نارية وجهها إلي عون آخر فاصابت رصاصتها فخذي واغمي علي)[109].

---

(108) محمد العروسي المطوي: حليمة، ط2، ص16.

(109) محمد العروسي المطوي: حليمة، ط2، ص112 -113.

تلك هي أعمال الجندرمة، أما من هم هؤلاء الجندرمة فلا شيء نعرف منهم. وذكر أعمالهم بذلك الأسلوب التعليمي البسيط ،أفقدهم القدرة على إثارة خيال القارئ. فواحد منهم ركل العجوز برجله! وبماذا سَيَرْكلهَا إذا لم يفعل ذاك برجله. ثم يذكر الكاتب أن المشهد مثير، ولم يكن بحاجة إلى ذكر ذلك فبذكره تلك الصفة قطع كل خيال وكل تصور، مثل تلك الأمور هي التي جعلت شخصية الجندرمة باهتة، لأن الكلام عنها مكرر، فالصفات نفسها وردت أثناء حديث الروائيين عن الشرطة وضباطهم والعساكر وضباطهم... إلخ.

السجانون: والمقصود بهم كل عمال السجن، الذين يحتك بهم المساجين، ورغم دخول الكثير من المغاربة السجن وبخاصة المثقفين -بسبب الحذر منهم - فإن الحديث عن السجانين لم يرد إلا في رواية "سبعة أبواب" لعبد الكريم غلاب التي تحدث فيها عن عمال السجن الذين احتك بهم "الراوي" -المؤلف نفسه -، وكانت السمات المشتركة بينهم هي: الطمع والانتهازية والحقد، كما اشتركوا في النظرات الحادة وزرقة العينين والجمال، والبعض منهم قصير نحيف، بينما البعض الآخر طويل ضخم الجثة.

فالحارس العام قصير معروق الخدين ذابل العينين أصلع الرأس إلا من شعرات تحرس القمة الفارغة، أوصى الحارس باحترام المسجونين ومعاملتهم معاملة طيبة عندما علم أن واحدا منهم صحفي والثاني أستاذ والثالث موظف، أي لكل واحد منهم وزنه في عالم الحرية[110].

ونائب رئيس السجن يصطنع الوقار والاستعلاء، لا يتحدث مع السجناء وكل الحراس يحترمونه، إلا أنه لم يتورع عن طلب مبلغ كبير من المال من سجين زاعما أنه في حاجة ماسة لذلك المبلغ وسيرده في مدة لا تزيد عن

---

[110] عبد الكريم غلاب: سبعة أبواب، ص63 -67.

السنة[111]. لعلمه بأن السجين لا يستطيع الرفض مخافة سوء المعاملة ورجاء في التخفيف عنه، فهذا النائب استغل منصبه لابتزاز أموال السجناء... والمراقب "فور" طويل القامة معروق الوجه أزرق العينين حاد النظرات، ينظر بحقد واحتقان، عيناه تقعان على المساجين، فلا تطرفان ولا تتحولان، بل تتسمران في وقاحة وتحدٍّ.. لا يتساهل أبدا مع المساجين. أمنيته أن يقتل الفرنسيون جميع المغاربة حتى يخلو المغرب لهم، وبذلك يستريح من عناء حراسة الأهالي الذين يثيرون فيه الاشمئزاز[112].

وبصفة عامة، فحراس السجن طماعون، تتحلب أشداقهم للاستفادة من السجناء، لذلك فهم يتهافتون على حراسة الزنزانات، وصاروا يحيون السجناء بدل أن يحييهم السجناء، وكانوا يفتشون سلات التموين بدقة متناهية: (لا عن الأشياء الممنوعة ولكن عن الأشياء الطريفة التي يطمعون في أن نؤثرهم بها علينا. وأذكر أن أحدهم، كان قاسي المظهر شديد البأس، وجد قارورة عطر في سلتي فآثر نفسه بها دون أن يستشيرني وإنما تفضل بإخباري عن طريق زميل آخر بالذي فعل)[113].

ويمثل طمع الحراس وانتهازيتهم في استغلال المساجين: (ذلك الحارس الذي استقبلنا بفظاظة وغلظة عند مدخلنا لأول يوم، فقد رأيناه عاري النفس بعد أيام، أصبح يترضانا ولو طمعا في علبة سجائر، وكان يخرق قوانين السجن فيفتح الزنزانات، نقابل من أهلها من نشاء (...) هذا الشخص الذي كان يحاول أن يظهر قويا رأيناه يرجو ويستعطف أحد زملائنا أن يكتب رقية "حرزا" لينتصر الفريق الذي يفضله في مباراة كرة القدم)[114]؛ وأبرز مثل على طمع الحراس

---

[111] عبد الكريم غلاب: سبعة أبواب، ص113 -115.

[112] عبد الكريم غلاب: سبعة أبواب، ص123 -127.

[113] عبد الكريم غلاب: سبعة أبواب، ص113.

[114] عبد الكريم غلاب: سبعة أبواب، ص112 -113.

وانتهازيتهم وعبثهم بالقوانين مقابل مصالحهم، الحارس "البال مال" -كما سماه المسجون - فهو ضخم الجثة قوي البنية جميل الوجه حيوي الشباب، يتلون مثل الحرباء وأهدافه قريبة جدًا لا يبالي في سبيل تحقيقها بأي شيء إلى درجة الجنون، لا يعادي أحدا، كما لا يصادق أحدا، وكل علاقاته تحكمها المصلحة بدا أول مرة أسدا هصورا يملأ صياحه آفاق السجون، وتصم شتائمه الآذان، فتوجس السجناء منه خيفة وشرعوا في التفكير للوصول إلى نفسيته، ولكنه دلهم على مبتغاهم بسرعة، فهو يصرخ ويأمر إلا انه سريعا ما يبتسم للمسجونين.

فأدركوا أنه يمثل أمام رؤسائه، وعرفوا لعبته فصاروا يعرفون أنّه يطلب شيئا كلما فتح زنزانة صائحا شاتما وكان يصيح فيهم آمرا بالدخول ومشيرا بيده أن أبقوا أطول مدة، بل تعدى كل ذلك إلى درجة التآمر على الأمن العام، عندما طلب منه "الراوي" مقابلة جماعة من رفاقه القي عليهم القبض حديثا، وكان سيستغل حجة ضدهم في التحقيق، فطلب من "البال مال" مقابلتهم للتنسيق فيما بينهم، وقبل المجازفة بوظيفته ومستقبله وربما بحياته مقابل سيارة يجول بها المغرب ومبلغ من المال يكفيه للقيام بتلك الجولة وموازنة ميزانيته التي لا تتزن مطلقا[115]. اما طمعه في أكل المساجين واستيلائه على السجائر، وسماحه لهم بالتجمع والزيارة، فتلك أمور بسيطة لا يهتم بها.

فالسجان الفرنسي في الرواية العربية المغاربية طماع إذن، استغلالي، يستغل فرصة وجود الأهالي في السجن ليستولي على طعامهم، وليضغط عليهم بغية الحصول على أموال أو لتحقيق مآرب اخرى، حتى وإن ادى به الأمر إلى التسامح في القيام بواجبه وأحيانا الخيانة. مع اتصافه بالحقد والبغض ومقته الأهالي.

---

[115] عبد الكريم غلاب: سبعة أبواب، ص106 -110.

جدول مكونات شخصية رجل الأمن الفرنسي

الرواية وكاتبها والشخصيات الواردة فيها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الـــدور
"سبعة أبواب": غلاب 1 -ضابط شرطة	لا شيء	يدرك حدوده - غير ممتد	يفتش بإتقان
2 - مفتش	سمين - ضخم - وجه كالح - خلقة بشعة	حقود- فظ	يحب الاعتداء دوما
3 -مفتش ثان	مبحوح - كالح الوجه - محروق - بشع- نظارات سوداء	حقود- غضوب - سيء الأخلاق	يعامل بعنف
4 - عميد الشرطة	ضخم - طويل - عريض الكتفين -بطن منتفخ - أوداج ملتهبة - نظارات	صارم- جاد حقود	يتفقد المسجونين مشمئزا ومتجبرا
"المعلم علي": غلاب 1 - بونيفاس	لا شيء	العنف والشدة - الظلم - دموي	دبر مجزرة ضد الأهالي
2 - سولي	لا شيء	غير ظالم - يطبق القانون بنزاهة	عارض المجزرة وطالب المجرمين بمحاسبة
"سبعة أبواب": غلاب 1 - شرطي	شاب نحيف	جبان- ساذج مغرور- قليل الخبرة	تتبع الراوي وفرح بالقبض عليه متشفيا
2 -شرطي ثان	مسن - وجه بشر - عينان ضاحكتان	لطيف المعاملة	عامل المتهم بلطف لأنه من مدينته
3 -شرطي ثالث	الخامسة والثلاثون - طلق المحيا - جميل الخلق	ساذج- انفعالي	يستجوب بلطف ثم بعنف
"حب وثورة": عمار 1 - الفسيان	لا شيء	مرعب - فظ - متغطرس - ذكي	يثير الرعب في القرية بأساليبه الماكرة

		- واسع الحيلة - داهية - ماكر- حقود	
"حليمة": المطوي 1 - الجندرمة	لا شيء	الظلم- التعسف	فتش البيت واحرقه
"سبعة ابواب": غلاب 1 -الحارس العام	قصير – معروق الخدين ذابل العينين – اصلع	انتهازي	يحسن معاملة المساجين لاستغلالهم فيما بعد
2 - نائب الرئيس	لا شيء	يصطنع الوقار - انتهازي - استغلالي	يستغل المساجين
3 -فور المراقب	طويل – معروق الوجه – أزرق العينين – حاد النظرات	حقود- وقح - متشدد - استعماري	يتمنى القضاء على كل المغاربة
4 - حارس سجن	لا شيء	فظ – غليظ - استغلالي –تافه- عابث	قابل المساجين بغلظة ثم صار يتراضاهم طمعا
5 - البال مال	ضخم الجثة قوي البنية جميل الوجه	انتهازي -وصولي	متظاهر بالعنف مع المساجين وهو متواطئ معهم لمصلحته الخاصة

5- المعمر

معروف – تاريخيا - أن المعمرين استولوا على أجود الأراضي الزراعية في المغرب العربي -كما ورد في الفصل الأول - بشتى الطرق والأساليب، وعاش الكثير من المغاربة على العمل في مزارع المعمرين، وكان المعمر ظاهرة بارزة في المجتمع المغاربي، ومع ذلك فالحديث عن المعمر لم يرد إلا في القليل جدا من الروايات العربية المغاربية، وعلى شكل إشارة فحسب كما في رواية "حليمة" لمحمد العروسي المطوي الذي اشار إلى ان المعمر هو أول من ادخل جهاز "الراديو" إلى

القرية بمناسبة ميلاد ابنه[116]؛ ثم يذكر بعد ذلك -على لسان أم حليمة بطلة الرواية - أن المعمر قتل والد حليمة لأن أمها اشتهت وردة في بستانه أثناء وحمها بحليمة، فلما أراد الوالد تلبية رغبة زوجته رفض حارس البستان، وفي الغداة ذهب الوالد لاستئذان المعمر في قطف وردة، ولما أطل الوالد برأسه إلى البستان، رآه المعمر وظن به الظنون فأطلق عليه النار من مسدسه وبذلك قتله من أجل وردة[117].

والمبالغة واضحة تماما، فكيف يصر الوالد على اقتطاف الوردة من بستان "المعمر" مع العلم أن الزهور في البادية كثيرة جدا، إضافة إلى أن المعمر لا يقتل كل من أطل برأسه على البستان، لقد أراد الكاتب أن يعطي صورة لظلم "المعمر" ولكنه أعطى صورة لغباء الوالد، لأنه ضحى بحياته من أجل وردة كان باستطاعته الحصول عليها بسهولة، من أي مكان...

كما وردت الإشارة إلى المعمرين في رواية أحمد زاد "بامو" حيث يشبه "المعمرين" بالجراد في الاستيلاء على الأراضي: (لقد كان المعمرون الجدد على قلتهم القليلة يفعلون في غصب الأراضي أكثر مما يمكن أن يقوم به جيش عرمرم جرار، ولا غرابة من أن يطلق عليهم الفلاحون وصفا "تقنيا" هو اسم "أمرد" ويعنون به الجراد الذي انتشر من زاوية الشيخ إلى دار أولاد زيدوح وسيدي جابر عبورا لأجود الأراضي من ناحية بني ملال)[118].

المعمر إذن يكاد يكون غائبا في الرواية العربية المغاربية، والمعتقد أن غياب المعمر يعود إلى أن الرواية العربية المغاربية تركز على مرحلة الكفاح المسلح وتهمل الحياة الاجتماعية أثناء الوجود الفرنسي في المغرب.

---

(116) محمد العروسي المطوي: حليمة، ط2، ص17.

(117) محمد العروسي المطوي: حليمة، ط2، ص55.

(118) أحمد زياد: "بامو"، ص37 -38.

فجل الروايات العربية المغاربية تتحدث عن مرحلة الكفاح ضد المستعمر، وذلك يعني صب الاهتمام على المجاهدين والجند الفرنسي والشرطة، وزيادة عن ذلك فالروايات العربية المغاربية لم تكتب إلا بعد استقلال أقطار المغرب العربي.

وقد صبت الرواية التونسية همها على مدح الحزب الدستوري وقيادته في مواجهة السلطة الفرنسية، كما ركز عبد الكريم غلاب – وهو أبرز روائي في المغرب الأقصى - على مدح حزب الاستقلال وأعماله السياسية لإخراج المحتل، أما الرواية الجزائرية –على قلتها - فالثورة المسلحة هي شغلها الشاغل. ولذلك لم ترد صور للمعمر الفرنسي في الرواية العربية المغاربية.

وهكذا، لم تهتم الرواية المغاربية بالمعمرين، حيث لم ترد الإشارة إلى المعمرين سوى في روايتين، ولم تهتم الروايتان بإيراد صورة أو صور للمعمرين، بل اكتفت واحدة بالإشارة إلى معمر والثانية إلى المعمرين بصفة عامة، وذلك يعني أن نسبة الروايات التي وردت بها صور المعمرين قليلة جدا.

6- رب العمل

هو كل فرنسي يتصرف في عمل ما، فمدير الشركة وصاحب المصنع المهندس أو الفني والعامل الفرنسي، شخصيات تتصرف في المغاربي العامل، تقبل تشغيله أو لا تقبل، وإذا ما قبلت تشرف عليه اثناء العمل وتتصرف فيه فنيا وإداريا وماليا. وسيرد عرض شخصيات أرباب العمل حسب اهميتها بالنسبة إلى العامل المغاربي.

فمدير الشركة، هو الشخصية المهمة في البحث عن العمل، ويليه صاحب المصنع -لأن المصانع أصغر من الشركات -، ثم المهندس أو الفني الذي يشرف على مجموعة من العمال، وأخيرا العامل الفرنسي الذي يكون عاملا ومسؤولا على زميله المغاربي أو الأهلي.

- صاحب المصنع أو مديره

مثل السيد "بواسييه" المهندس ومدير شركة استغلال مناجم الحديد في رواية "الدقلة في عراجينها" للبشير خريف[119].

عين المهندس "بواسييه" مديرا للشركة وكان حديث العهد بتونس، وصادف أن وقع حادث خطير، استطاع "المكي" –بطل الرواية – أن يبعد الكارثة، إلا انه اصيب بجراح، فعاده السيد المدير وزوجته في المستشفى وشكراه على تضحيته، ونصحه بألا يركن للفراش[120]، فتعجب "المكي" وبقية العمال من اهتمام السيد المدير به.

لاحظ المدير عدم خروج "المكي" لحديقة المستشفى، –ولم يفهم أنها مخصصة للفرنسيين وحدهم – إلا عندما سأل "المكي" وألح عليه: (فاندهش إلى هذا التمييز لحداثة عهده بالمستعمرات ونقاوة سريرته من السخافات الاستعمارية، فأمسك عن الموضوع ودعاه إلى داره والتجول بحديقتها المواجهة للمستشفى)[121]. ولم يفهم "المكي" سبب اهتمام المدير به، إلا عندما سمع زوجته تحمل على هذه العنصرية، مؤكدة أن المكي قد يكون حجة حية لنظريتهما في أن العرب كغيرهم من البشر قمينون بالرقي[122] وكافأ المدير "المكي" بأن وعده برفع منزلته إلى وظيفة مسك الدفاتر بمخزن الآلات والأدوات –بعد شفائه – وتخصيص دار له من دور العملة الأوربيين[123] وبر المدير بوعده، فحقق "للمكي" شيئا لم يكن يحلم به.

---

[119] البشير خريف: الدقلة في عراجينها، الدار التونسية للنشر، تونس، 1969.

[120] البشير خريف: الدقلة في عراجينها، ص209.

[121] البشير خريف: الدقلة في عراجينها، ص210.

[122] البشير خريف: الدقلة في عراجينها، ص210.

[123] البشير خريف: الدقلة في عراجينها، ص211.

هذا المدير هو الذي نصح "الدبنجق" -زعيم العمال الأهالي في الشركة - بالحيطة عندما وقعت الإضرابات، وبرهن له انه يرغب في مساعدته ومساعدة العمال، ولكنهم: (ليسوا أهلا لما يطلب، وقام على درج وأراه عريضة تبرئة العملة منه ومن أعماله، ونصحه أن يتخلى عن هذا الأمر وأن الأمة لن تنضج بعد (...) سكت الفرنسي يشبك يديه ويحكمها في بعضهما، ثم نظر إلى الدبنجق في عينيه ونصحه أن يحتاط وطلب منه أن يذر التشويش ويتابع عمله وانه سوف يطلع المراجع العليا على مطالب العملة.

والتفت إلى المكي وبشره بأن "لادات" رجع إلى عمله، واستودعهما مشيعا إياهما بنظرة إعجاب حزين، متسائلا ما نكران زميله "لاكاز" على هؤلاء صفة الإنسانية)[124]، مهندس ومدير شركة لا يرى فرقا بين فرنسي وأهلي ولا يؤمن بالنظريات العنصرية، بل يتمنى أن يرى الأهالي واعين بحقوقهم مدركين لوضعهم، يعمل بذكاء ويؤدي عمله بنزاهة وإخلاص مع ضميره، والسبب في كل ذلك أنه لا يؤمن بنظرية العنصرية ولحداثة وجوده بالمستعمرة.

وعرض البشير خريف لشخصية مدير ثان، مقابل "بواسييه" هو "لاكاز" مساعد "بواسييه" الذي يعتبر نقيض"بواسييه" فهو ينصح صديقه "بواسييه" قائلا: (إياك والعرب، إنك حديث العهد بالبلاد، أنا إفريقي وقفت على حقيقتهم (...) إنهم كذابون، سراق خداعون، مغالطون لا معقول لديهم إلا القوة، لا يخضعون إلا لها، يعبدونها يسجدون لها، إنك أن استجبت لأدنى مطالبهم يأخذون ذلك على أنه ضعف منك، فلا يلبثون أن يطالبوا بغيره، وغيره ويتسع الخرق...

الرفض الرفض ولو للمبدا، لا تشعرهم انك تسمع منهم، إننا بالنسبة إليهم، قوة من قوى الطبيعة ليس لهم أن يتساءلوا عما نفعل، فإن خيرا، فليغنموه

---

(124) البشير خريف: الدقلة في عراجينها، ص273 -284.

شاكرين، وإن شرا فليحتملوه صابرين، ليس إلا هذه سياسة مثلى)[125] لا يرى في العرب إلا العيوب مجتمعة، ولا يجد سياسة نافعة معهم إلا التعنت والعنف والتسلط.

رسم البشير خريف هاتين الشخصيتين ضمن تتابع أحداث الرواية بأسلوب سردي مع شيء من الحوار وفي لغة بسيطة.

وأشار كذلك عبد الكريم غلاب في روايته "المعلم علي" إلى شخصية رب عمل وصاحب مصنع هو "هنري" الذي لا يراه العمال إلا: (حينما يفتش أو يصدر الأوامر من بعيد... أو يأتي إلينا نافخا شدقيه تتراوح فخذه على حمل بطنه الضخم محتجا أو معاقبا)[126]، واستغلاله غير مقتصر على العمال المغاربة وحدهم، بل إنه يريد استغلال العمال الفرنسيين ايضا، بحجة أنه وأمثاله يقدمون تضحية للوطن الأم لأنهم هاجروا في سبيل تدعيم الوجود الفرنسي في المغرب حتى يتركوه للأجيال القادمة مجهزا[127] جثة ضخمة وجشع لا يشبع ذلك هو "هنري" صاحب المصنع، الذي اشار إليه الكاتب على لسان "علي" بطل الرواية.

ـالمهندس أو الفني

ولا نجد كلاما عن هذا الصنف من الفرنسيين إلا في رواية محمد الصالح الجابري (يوم من ايام زمرا)[128]، حيث أشار الكاتب إلى رؤساء العمل في شركة استغلال المناجم، فذكر انهم لا يقبلون تشغيل أي عامل مغاربي إلا إذا دفع رشوة لا تقل عن عشرين الف فرنك فرنسي قديم[129] فلكل مسؤول مبلغ

---

[125] البشير خريف: الدقلة في عراجينها، ص284.

[126] عبد الكريم غلاب: المعلم علي، ص264.

[127] عبد الكريم غلاب: المعلم علي، ص369.

[128] محمد الصالح الجابري: يوم من أيام زمرا، الشركة التونسية للنشر، تونس 1968م.

[129] أنظر: محمد الصالح الجابري: يوم من أيام زمرا، ص61.

معروف: (... بونانو "مثلا" أبرتيفه[130] ثلاثون ألف فرنك، "جاك" بولحية لا يرضى بالعشرين، إلا من عند أصدقائه، وبقية الشافات لهم طريفة[131] مرتفعة[132]). وغالبا ما يشبه العمال مسؤوليهم تشبيهات مضحكة أو يطلقون عليهم أسماء غريبة مثل "جاك" الذي شبهوه بالفأر لأن وجهه شبيه بوجه الفأر على حد قولهم[133]، إشارات بسيطة جدا لا تمكن من استخلاص صورة أو تصور لمسؤول العمل لأن ذكر المهندس أو الفني لم يرد في الرواية إلا لإبراز المشاكل التي عانى منها البطل التونسي أثناء البحث عن العمل، ولتبرير تصرفه المتهور في ختام الرواية. كما لا ننسى أن احتكاك الأهالي بالمهندسين قليل جدا، فالصناعات الفرنسية في المغرب العربي لم تكن واسعة الانتشار، وأغلب ما وجد منها صناعات خفيفة لا تثير اهتمام الأدباء.

كما وردت الإشارة إلى فني فرنسي في رواية "الدقلة في عراجينها" للبشير خريف وهو "تسوتسو" الذي يكره العرب كرها شديدا[134].

عين "المكي" –بطل الرواية - للعمل في فرقته فأهانه عدة مرات بخاصة عندما عرف أن "المكي" يعرف القراءة والكتابة –وهو أمي - فأحرجه عدة مرات بتكليفه بالأعمال التي لا يعرفها حتى يظهر عجزه أمام رفاقه[135]، ومع ذلك فقد أعجب به "المكي" –رغم دمامة خلقته - بسبب نشاطه ومهارته في العمل: (...) أقبل "تسوتسو" خفيفا، ناشطا محمر الوجه بين أسنانه الغليون، تزحلقت دفتا الباب على الفرغار، فأخذ صندوق الأدوات وسبق لإصلاح محرك بأحد المعامل

---

(130) أبرتيفة: آتية من كلمة "أبرتيف Apéritif" الفرنسية أي ما يشرب من خمر قبل الأكل لفتح الشهية.

(131) طريفة: التعريفة أو السعر.

(132) محمد الصالح الجابري: يوم من أيام زمرا، ص62.

(133) محمد الصالح الجابري: يوم من أيام زمرا، ص73.

(134) البشير خريف: الدقلة في عراجينها، ص197.

(135) البشير خريف: الدقلة في عراجينها، ص195 -197.

(...) أزال معطفه، وظهرت سواعده، ذوات الشعر الأصفر وتقدم إلى الجهاز نظر فيه من عدة نواح وحرك وجس ثم دعا بصندوق الماعون، فتسلح بكلاب إنجليزي وازال القطع واحدة واحدة، حتى وصل إلى الأسفل فدخل تحت العجلة غير مبال بتلويث يديه بالشحم الأسود اللزج وانطوت قامته وازداد اعوجاجا وسماجة وعسرا، لكنه ثابت الحركات غير متردد فازال العجلة المعطوبة واثبت مكانها أخرى سالمة (...) برزت عروق وجهه خضراء تحت تأثير الجهد والعرق يقطر من ذقنه (...) وصاح أن "حذار" فابتعد من العملة من كان متكئا على الأجهزة وضغط على زر، فزمجر المحرك واعتدل في صوت رقيق متصل ودارت العجلة بسرعة حتى انمحت أشعتها واصبحت كانها بلا رواكن (...) اخذ الفتى بهذه اللولبة، وتبدلت نظرته إلى العلج، فاصبحت دمامته الخلقية التي ادخل عليها دمامة أخرى من اعوجاج وانحناء ووسخ إتقانا لعمله، اصبحت جمالا واي جمال)[136] . إنه قبيح الخلقة، يحقد على الأهالي لكنه متقن لعمله، لا يهمه شيء في سبيل ذلك.

الفني الفرنسي إذن طماع عند "محمد الصالح الجابري" وسيئ المعاملة والأخلاق والخلقة عند البشير خريف، مع إتقانه لعمله إتقانا جيدا يبعث الإعجاب.

العامل

الفرنسي، وهو في الوقت نفسه رقيب على العامل المغاربي مثل "انطونيو" -سائق القاطرة- في رواية محمد الصالح الجابري "يوم من ايام زمرا" الذي غار من مساعده "الربيعي الماجري" لأنه كان يتمتع بيد قوية جدا هي اليسرى، ولما أكلت الغيرة صدر "انطونيو" لم يجد بدا من تكليف مساعده بإصلاح عطب -

---

[136] البشير خريف: الدقلة في عراجينها، ص198 -199.

مفتعل - بالسكة ثم داهمه بالقاطرة وقص له يده اليسرى[137]، وبذلك فقد مساعده اليد التي كان يراهن بها الزملاء ويخيف بها أعداءه.

حقد حيواني فظيع هو الذي دفع "أنطونيو" إلى القيام بفعلته تلك، فلم يشر إليها الكاتب لأنه ذكر الحادثة أثناء حوار سريع بين إبراهيم -بطل الرواية - الشاب الذي حضر إلى القرية بحثا عن العمل و"عمار" الصعلوك الذي لا هم له إلا تتبع الأخبار.

كما عرض عبد الكريم غلاب في روايته "المعلم علي" شخصية عاملين فرنسيين هما "أندري" و"ماتيو" اللذين قادا إضراب العمال الفرنسيين وتزعما النقابة، وقبل الشروع في الإضراب اتصلا بـ"الحياني" -شاب مغربي عامل من أبطال الرواية - (تقدما إليه – فقد كان في انتظاره - لأول مرة كانا هما اللذان يرغبان في الحديث إليه، ولم يكن ينقصهما البشر، فقد علت وجهيهما ابتسامة لا تحتاج إلى كبير عناء لتدرك أنهما اقتسراها اقتسارا من خلال المتاعب التي يعانيانها وهما يقودان حملة الإضراب.

بادر "الحياني" إلى تحيتهما بمثل الاحترام الذي الف أن يحييهما به، لكنه فوجئ بأنهما يتحدثان بكثير من الاحترام، ولأول مرة يسمع منهما ضمير الجمع "فو"[138] وهما يخاطبانه (...). إدارة المعمل تعرف انكم لن تسيروا المعمل، ولكنها فقط تريد أن تكسر الإضراب بكم.. وحرك "الحياني" رأسه يريد أن يقول: فهمت، أكد للرفيقين أنه سيتحدث إلى زملائه في الموضوع ودخل المعلم وهو يفكر: - إدارة المعمل تريد أن تستغلنا لتكسر الإضراب.. والعمال الأجانب يريدون أن يستغلونا ليكون الإضراب ناجحا، ونحن؟ ماذا سنستفيد لو نجح؟ ماذا نخسر لو فشل؟)[139].

---

[137] محمد الصالح الجابري: يوم من أيام زمرا، ص105 -106.

[138] فــو: أنتم.

[139] عبد الكريم غلاب: المعلم علي، ص304 -305.

إنهما يرغبان في إنجاح الإضراب دفاعا من حقوق زملائهم العمال، لكنهما لم يهتما -بعد حصول العمال الفرنسيين على حقوقهم - بمصير "الحياني" وزملائه الذين طردوا من العمل وسجنوا بسبب مشاركتهم في الإضراب، بل تهربا من مقابلة "الحياني" و"علي" وعندما أراد مقابلتهما لمساعدة العمال المغاربة في المطالبة بحقوقهم تملكتهما الدهشة من جراة الشابين -"الحياني" و"علي" - ومن غرابة مطلبهما، حيث طلبا مؤازرة زعماء نقابة العمال الفرنسيين -اندري وماتيو - لإنشاء نقابة للعمال المغاربة، وابديا معارضة شديدة متعللين بأن النقابة للعمال، بينما المغاربة مساعدون لا غير. يضاف إلى ذلك أن النقابة في الوطن الأم للدفاع عن المواطنين والمغاربة ليسوا مواطنين، فلا يحق لهم الالتحاق بنقابة أصلها هناك[140]. ورغم تلك المعارضة، ورغم الحجج، فقد أضرب العمال المغاربة مطالبين بنقابة تدافع عن حقوقهم، فما كان من "أندري" و"ماتيو" إلا ان أشاروا على المسؤولين بالسماح للمغاربة بالانخراط في نقابة العمال الفرنسيين والقرار النهائي يعود إليهما، وبذلك يكون العمال المغاربة كأن لم يفعلوا شيئا. وتمت خطة "أندري" و"ماتيو" وانضم العمال المغاربة إلى النقابة، وعرفت السلطة ممثليهم وأبرز العناصر فيهم، بل صار "أندري" و"ماتيو" يتجسسان على العمال المغاربة ويعلمان الأمن بكل تحركات العناصر المستنيرة بين العمال المغاربة[141]. ولما فهم العمال المغاربة اللعبة وقاموا بإضراب آخر، أغرى "ماتيو" شرطيا بعاملين مغربيين كانا يقتحمان المصانع لإخراج العمال، ثم تعدى ذلك إلى بذل كل المحاولات لإحباط الإضراب متنقلا بدراجته بين المعامل ساعيا من هنا إلى هناك، إلا أن حجرة مصوبة من مقلاع شجت رأسه، وجعلته يغير اتجاهه[142].

---

[140] عبد الكريم غلاب: المعلم علي، ص356 -362.

[141] عبد الكريم غلاب: المعلم علي، ص382 -383.

[142] عبد الكريم غلاب: المعلم علي، ص388.

أحس "ماتيو" و"أندري" بظلم الإدارة للعمال الفرنسيين فاستعملا كل الوسائل لرفع ذلك الظلم، وعندما أراد المغاربة أن يرفعوا الظلم عنهم، وقف هذان العاملان في سبيلهم بعدما استعانا بهم واستغلا قوتهم في الضغط على الإدارة، إنهما عاملان نقابيان وسط بني جلدتهم. أما مع المغاربة فهما استعماريان مثل بقية رجال الإدارة الاستعمارية وربما أشد سوءا وضراوة.

الفرنسي العامل –في الرواية العربية المغاربية – يشبه شيئا ما الفرنسي الحاكم –رغم ندرة وجوده – فالملامح الجسمية منعدمة الذكر، وظروفه الخاصة لا تذكر، ونوازعه النفسية غائبة عن عالم الرواية والتركيز كله على أعماله وتصرفاته اتجاه المغاربي، مع التركيز على إبراز ظلمه واستغلاله للمغاربي، وسوء معاملته له دون ذكر للأسباب، وكأنه خلق شرير أو شيطان. عدا واحدا يشذ عن القاعدة، ويرجع سبب سماحته إلى حداثة عهده بالمستعمرة أي أنه سيكون مثل غيره عندما يتقادم به العهد، أما طريقة الرسم فهي باهتة بالنسبة إلى طريقة رسم الفرنسي الحاكم.

فالسرد هو الأسلوب السائد مع شيء من الحوار البسيط، والتقديم يكون عادة من طرف شخصية مشاركة في الأحداث، وغالبا ما يكون البطل هذه الشخصية. ولذلك، فالتهم دائما موجهة إلى الفرنسي، لأن البطل يريد الإقناع بوجهة نظره.

رب العمل الفرنسي –سواء كان مدير شركة أو صاحب مصنع أو مهندسا أو عاملا – شخصية قليلة الأهمية في الرواية المغاربية، أهمل الروائي صفاتها الجسمية بصفة عامة، فمن بين تسع شخصيات لم تذكر صفات جسمية إلا لثلاث شخصيات، و الشخصيات الثلاث التي ذكرت بعض صفاتها الجسمية اتفقت في القبح والدمامة، فالأشداق منتفخة والفخذان قصيران والبطن منتفخ و الوجه مثل وجه الفأر إنه دميم الخلقة أحمر الوجه بساعدين مشعرين.

أما الصفات المعنوية فتكاد تكون مشتركة بين الشخصيات التسعة، حيث تشترك ثماني شخصيات في: العنصرية والحقد على الأهالي والظلم والنزعة الاستعمارية الانتهازية والاستغلال، ولا يشذ عن هذه الصفات إلا السيد "بواسييه" مدير الشركة في رواية "الدقلة في عراجينها" الذي وصفه الروائي بالروح الإنسانية ومعاداة العنصرية، والعدل معللا ذلك بحداثة عهده في المستعمرة، وذلك ليثبت أن الظلم والاستغلال والحقد... إلخ، ليست صفات لازمة لكل فرنسي، بل غالبا ما يكون الفرنسيون الحقيقيون -أي الذين لم يتشبعوا بعد بالروح الاستعمارية التي تسود في المستعمرات- بعيدين عنها ومبغضين لها، وبذلك يقرر حقيقة واقعية أولا، وثانيا يكسب الروائي فئة من الفرنسيين، وثالثا يزيد من التشهير بالمسؤولين عن المستعمرة.

ودور أرباب العمل بالنسبة لبطل الرواية المغاربي هو العرقلة المباشرة أو غير المباشرة كالتشدد معهم أو امتصاص عرقهم أو استغلالهم بالرشوة وغيرها للحصول على عمل، أو الغيرة منهم وعرقلتهم اثناء العمل أو الوقوف ضدهم اثناء المطالبة بحقوقهم، ولذلك ركز الروائيون على صفات أرباب العمل المعنوية السيئة لإظهار قوة البطل المغاربي وجلده وجهاده في سبيل حقوقه أو في سبيل وطنه.

ولكن العمل لم يكن مشكلة أساسية في الرواية العربية المغاربية -فهو مجرد وسيلة للارتزاق - ولذلك جاءت شخصيات أرباب العمل ضعيفة وهامشية، فهي تعرقل "البطل" في المشكلة الأساسية بالنسبة إليهبل مشكلته الأساسية هي تحرير الوطن.

جدول مكونات شخصية رب العمل

الرواية وكاتبها والشخصيات الواردة فيها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الدور
"الدقلة في عراجينها": خريف 1 - بواسييه	لا شيء	-إنساني -غير عنصري -عادل	يساعد الأهالي ويتعجب من محتقريهم
2 - لاكاز	لا شيء	-عنصري - استعماري حقود- ظالم	متشدد مع الأهالي ويحتقرهم
"المعلم علي": غلاب 1 - هنري صاحب المصنع	أشداق منتفخة فخذان صغيران بطن منتفخ	-استغلالي- جشع -استعماري حقود	يثور على العمال ويرفض زيادة الأجور
"يوم من أيام زمرا": الجابري 1 -يونانو	وجه مثل الفأر	-استغلالي - مرتش	لا يقبل أحدا للعمل إلا برشوة كبيرة
2 - جاك المهندس	لا شيء	استغلالي	لا يقبل توظيف أحد إلا برشوة

"الدقلة في عراجينها": خريف 1 - تسوتسو	دميم - احمر الوجه - ساعدان مشعران	سيئ الأخلاق -يتقن عمله جيدا	يثير السخط بأخلاقه والعجب بعمله
"يوم من أيام زمرا": الجابري 1 - أنطونيو العامل	لا شيء	غيور جدا من صحة المغاربة - حقود	دبر مكيدة لمساعده وقص بها يده حقدا
"المعلم علي": غلاب 1 - أندري	لا شيء	منافق- انتهازي استعماري - حقود	يدافع عن بني جنسه ويرفض ذلك للمغاربة
2 - ماتيو	لا شيء	منافق- انتهازي استعماري - حقود	يدافع عن بني جنسه ويرفض ذلك للمغاربة

7-رجل التعليم

المعلم الفرنسي شخصية معروفة في المغرب العربي نتيجة تركيز فرنسا على محاولة محو اللغة العربية وثقافتها، وإحلال اللغة الفرنسية وثقافتها محلها بواسطة مدارسها المتخصصة. لذلك اهتمت السلطات الفرنسية بتكوين معلمين أكفاء يقومون بتعليم الأهالي والتنفير من التعليم "التقليدي" متمثلا في شيخ الكتاب أو الفقيه: (فالأستاذ شاب نصراني حليق الذقن عاري الراس يلبس

بذلة أنيقة وحذاء ملمعا، ويعلمنا طول الوقت وهو واقف، يسألنا فنجيبه ويحدثنا عن أشياء جديدة لم نسمع بها من قبل)[143].

فالشباب والأناقة والنظافة وإتقان العمل وحسن السلوك هي سمات المعلم أو الأستاذ كما يراها "عبد القادر" -شخصية هامة في الرواية - عكس الفقيه الذي يكون شيخا -أعمى في الكثير من الأحيان - رث الثياب قذرا وسيء المعاملة.

والمقارنة التي عرضها المؤلف بين المعلم الفرنسي "فرانسوا" والمعلم المغربي "اليازغي" تبين بوضوح البون الشاسع بين المعلم الفرنسي والفقيه: (كانوا جميعا يلاحظون هذا الفرق الواضح بين الأستاذ "اليازغي" والأستاذ "فرانسوا": كان الأول يتحدث عن أشياء لم تكن مفهومة في أغلب الأحيان، وكان الثاني يحدث عن أشياء يفهمونها ولو أنه يتحدث إليهم عنها بلغة غير لغتهم (...) وكان الثاني يقف وسط القسم يقفز من ركن إلى ركن، فتقفز معه العقول الصغيرة يجادلها في تيقظ ويدفعها إلى الفهم في غير أمر ولا استعلاء (...) وكانت دروس الثاني توصي بالبساطة ولكنها تؤكد الحياة (...) ولم يكن فرانسوا يثور لأنه لم يكن يجد ما يثيره والذين يسيئون التصرف أو لا يفهمون كان يعاقبهم ببساطة فيتقبلون عقابه بصدر رحب.

كان فرانسوا يلبس ملابس مقدودة على جسمه وينتعل حذاء مربوطا بقدميه ويستغني عن "القب" والطربوش والعمامة بشعره الطبيعي فوق رأسه يقيه صقيع البرد ولفح الشمس وتيار الهواء (...) وكان فرانسوا يبدو متحررا فهو يتحرك بإرادته ويقفز بشبابه، وينطق الكلمة متحكما في عضلات صوته ويشير بيديه يملكهما ويمتلكانه، ومن ثم تجده كتلميذ بينهم يتمتع بحرية إضافية هي التي منحته إياها وضعيته كأستاذ (...).

---

(143) عبد الكريم غلاب: دفنا الماضي، ص93.

وكان "فرانسوا" يشعر بأنه يؤدي رسالة الفكر والحياة فكان حريصا على أن يبلغ رسالته يشعر بالمسؤولية، فإذا لم يفهم الصغار اتهم نفسه بكل بساطة وعاد يجرب أسلوبا جديدا في الأداء والاتصال العقلي (...) وكثيرا ما كان التلاميذ يتبارون في تقليد فرانسوا كما يتبارون في تقليد اليازغي ولكن تقليد فرانسوا كان يثير الإعجاب بمقدار ما كان تقليد اليازغي يثير السخرية والاستهزاء)[144] المعلم فرانسوا هو مثل التلاميذ إلا على نتيجة شبابه وحيويته وإتقانه لعمله، ولذلك فلا عجب إذا ما اعجبوا به، كيف لا يعجب التلاميذ، بالمعلم الفرنسي، وهم يرون فيه المثل الحي الذي يصبو كل واحد منهم لأن يكون مثله.

لقد وجدوا انفسهم أمام شخص يتمتع بطاقات جسمية ومهنية رائعة، ومما يزيد في إعجاب التلاميذ بالمعلم الفرنسي الحياة النظيفة التي يعيشها المعلم الفرنسي، مثل والد "مادلين" الذي زاره عبد الرحمن في منزله، فعبد الرحمن بطل من أبطال الرواية تعلق بفتاة فرنسية هي "مادلين" فدعته إلى بيت أسرتها وقدمته لوالدها -المعلم- فرأى الجو الذي يعيش هنا المعلم فيه: (خرج عبد الرحمن من منزل "مادلين" وقد تعرف على والد يعيش حياته، تغمره حيوية جليلة، تملأ ذهنه مفاهيم جديدة عن الحياة والناس، مدرس يعيش أغلب وقته مع أطفال ونتاج الأطفال، ولكنه يهب بقية وقته للكتب والرسم والموسيقى والرياضة يقرب من الخمسين، ولكن وجهه شاب في مقتبل العمر، تحدث إلى ضيفه في مختلف فنون المعرفة وروى ذكريات لذيذة، وسأل عن الكثير مما يجهل من حياة ما خلف السور: كيف يعيش الرجل؟ كيف تعيش المرأة؟ كيف تعيش الفتاة ؟)[145].

لقد وصف عبد الكريم غلاب المعلم الفرنسي مركزا على ثلاثة عناصر هامة هي: الشخصية المتناسقة والحيوية وإتقان العمل.

---

(144) عبد الكريم غلاب: دفنا الماضي، ص126 -128.

(145) عبد الكريم غلاب: دفنا الماضي، ص253.

ووردت إشارة خفيفة إلى مدير مدرسة فرنسي في رواية "الدقلة في عراجينها" للبشير خريف هو السيد "لافو" الذي استقبل "المكي" -بطل الرواية - وأدخله القسم: (وفي وسط الساحة، السادة المعلمون يحيطون بالمسيو "لافو" مدير المكتب وكان ذا ساقين طويلتين تحملان "هدفة"[146] ومرايات[147] سودا وكسكيتة ليلية اللون.

استقبله وسأله عن أبيه وأسرته، وكان خبيرا بنسب أهم العائلات التي تقطن نفطة، فهو مدير المكتب ورئيس البلدية، يهابه الأهالي، مع أنه ودود صاحب نكتة.

أدخله إلى قسم فسيح ذي نوافذ واسعة وسبورة سوداء...)[148]، السيد "لافو" إذن رجل خبير بالمنطقة التي يعمل فيها، محترم من قبل الأهالي إلى حد الهيبة -لا الخوف - رغم أنه ودود وصاحب نكتة. يضاف إلى ذلك أنه واسع الثقافة محب للنظام والترتيب عطوف، ومحب للخير إلى درجة أنه فرح فرحا شديدا لنجاح "المكي" في الشهادة الابتدائية فقام عن عشائه وقبله عندما سمع الخبر[149].

والسيد "لافو" مدير طيب، رغبته هي تعليم أبناء الأهالي، وتكون فرحته عظيمة عندما ينجح واحد منهم. وهو مثقف منظم في عمله، تهابه الأهالي، رغم خفة ظله، إنه باختصار إنسان محترم.

رجل التعليم الفرنسي في الرواية العربية المغاربية إنسان يتمتع بصفات جسمية جميلة، أبرز ما فيها التناسق والرشاقة كما يتمتع بصفات معنوية حسنة، فهو قوي الشخصية، جاد في عمله، حيوي، نشيط هادئ الأعصاب متزن في

---

[146] الهدفة: البطن الكبيرة.

[147] المرايات السود: النظارات السوداء.

[148] البشير خريف: الدقلة في عراجينها، ص93.

[149] البشير خريف: الدقلة في عراجينها، ص193.

تصرفاته، واسع الاطلاع والمعرفة، منظم ... دوره في الرواية إثارة إعجاب البطل المغاربي ولا غرابة في ذلك فكل الروائيين المغاربة -الذين يكتبون بالعربية تقززوا من وسخ الفقيه أو شيخ الكتاب وثيابه الرثة -نتيجة ظروف خاصة - ونفروا من معاملته السيئة ومن عصاه التي تلهب الأرجل والأكف، وعندما يرون المعلم الفرنسي النظيف النشيط -المتمتع بمرتب يكفل له العيش الكريم - المثقف يعجبون به، ويتمنى كل واحد أن يكون مثله.

ولم ترد صور رجل التعليم الفرنسي سوى في روايتين اثنتين -لأن الغالبية العظمى من الروائيين الذين يكتبون بالعربية لم يدخلوا المدرسة الفرنسية.

جدول مكونات شخصية رجل التعليم الفرنسي

الرواية وكاتبها والشخصيات الواردة فيها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الـــدور
"دفنا الماضي": غلاب 1 - فرانسوا	شاب - حليق الذقن عاري الرأس - بذلة انيقة حذاء ملمع	جاد في عمله - نشيط - نظيف - انيق هادئ الأعصاب - متزن - يشعر بالمسؤولية	يثير إعجاب التلاميذ بالنظافة والنشاط وحسن المعاملة
2 - ابو مادلين	يقرب من الخمسين وجه شاب	حيوي - نشيط - محب للمعرفة والاطلاع -متحرر الفكر	منسجم في حياته الأسرية، يثير الإعجاب

"الدقلة في عراجينها"، خريف 1 - السيد لافو مدير المدرسة	-ساقان طويلتان -بطن كبير - يضع نظارتين سوداوين- قبعة ليلية اللون	- شخصية قوية- لطيف المعشر - واسع الاطلاع - منظم - عطوف على الأهالي	يحترمه كل الناس لجده ونزاهته

8- الفرنسيون عامة

وبمجرد الإشارة إلى الفرنسيين، تأتي بعض الصفات كالأناقة والنظافة(150)، والسيادة والقوة والجمال.. فهم شديدو الاهتمام بالدنيا، لأنهم كفار جنتهم الدنيا..(151) وصار الشبان المغاربة يتمنون أن يكونوا مثل الفرنسيين لأنهم يتمتعون بكل ما يرغب فيه الشباب.

وإعجاب المغاربي بالفرنسي واضح العلة، فالفرنسي، محترم، سليم الجسم، مرفه، متعلم، يتمتع بكل مباهج الدنيا، بينما المغاربي محروم من كل شيء وكأنه حيوان، لا حق له في شيء.

ولقد كثر إعجاب المغاربي بالفرنسي حتى صار الأطفال الصغار يظنون أن الفرنسي معصوم، لا يتبرز مثلما أشار الطاهر وطار في رواية "اللاز" أثناء تداعي أفكار "قدور" شخصية أساسية في الرواية، وتفكيره في الفرنسيين وعظمتهم، فلم يصدق الأطفال زميلهم عندما أخبرهم أن غائط الفرنسي مثل غائط أي واحد منهم، فكيف يصدقون ذلك والفرنسي يختلف عنهم تمام الاختلاف[152] الفرنسي

[150] البشير خريف: الدقلة في عراجينها، ص269.

[151] الطاهر وطار: اللاز، ص42.

[152] الطاهر وطار: اللاز، ص42 -43.

هو الصحة والحيوية والنظافة والأناقة والرفاهية والعمل المتقن .. تلك هي السمات العامة التي يلاحظها المغاربي في الفرنسي.

والملاحظ أن صورة الفرنسي العادي تختلف اختلافا شديدا عن صورة الفرنسي العامل أو الفرنسي الحاكم، فلا بدانة ولا ترهل أوداج، ولا قبح خلقه ولا ظلم ولا قسوة ولا سوء معاملة ولا انتهازية، بل حيوية وشباب ونشاط وأناقة وحسن معاملة وإتقان للعمل، ولا غرابة في ذلك، فالفرنسي الحاكم يتصارع مع المغاربي من أجل السلطة والفرنسي العامل يتصارع معه ايضا من اجل الحصول على مزيد من المال، بينما الفرنسي العادي بعيد عنه أو يريد أن يغرس فيه أفكارا. ولذلك فهو يتعامل مع عقله ولا بد أن يتبع طرقا ومناهج، وأن يتقن عمله حتى يتمكن من توصيل أفكاره لذلك نجد الفرنسي العادي يتمتع بصورة أجمل نتيجة خفاء الصراع بينه وبين المغاربي ونتيجة طبيعة موضوع الصراع ومساحته التي يتقلبان فيها وظروفها.

وهكذا يتضح لنا أن الفرنسي قوة محطمة للمغاربي، ضاغطة عليه أما الفرنسي المتساهل أو المساعد للمغاربي فنسبة وروده قليلة جدا لا تزيد كثيرا عن عشر الفرنسي المحطم أو الضاغط، أما الفرنسي المساعد فهو لا يتعدى "رجل التعليم". فإذا ما راعينا دقة الأثر المحطم الذي يقوم به رجل التعليم لاستطعنا إضافة نسبة الفرنسي المثال إلى نسبة الفرنسي المحطم أو الضاغط، وبذلك تكون النسبة مهولة، وذلك يوضح لنا اهتمام الروائي المغاربي بأفعال الفرنسي معه، حيث نجد الفرق شاسعا بين نسبة أعمال الفرنسي وصفاته الجسمية أو المعنوية؛ ومن هنا نستطيع إبراز الفرق الجلي بين الصورة الأفقية لشعب في أدب شعب آخر والصورة العكسية لشعب في أدب شعب آخر حيث يركز روائي الصورة الأفقية على الصفات المادية والمعنوية التي أثارت ولفتت انتباهه وأثرت فيه، فيرسمها لإبراز مدى التوافق بين رؤياه تلك والرؤيا المألوفة لديه في بلده.

أما روائي الصورة العكسية فهو لم يسافر للاحتكاك بالأجنبي، بل جاء الأجنبي إلى بلده وفرض عليه نفسه، ولذلك لا تؤثر فيه الصورة المادية أو المعنوية بل تؤثر فيه الأعمال والأفعال.

ولعل بقية الصور تكون أكبر موضح لهذه النتيجة.

القسم الثاني

صورة الفرنسية في الرواية العربية المغاربية

1- الزوجة والمرأة المسنة

2- الفتاة

3- التاجرة أو صاحبة المحل

4- العاملة أو الموظفة

5- زوجة المغاربي أو حبيبته



نتيجة عادات وتقاليد وظروف شتى صار المغاربة ينظرون إلى حجاب المرأة على انه مسألة دين وشرف، فالمرأة لا بد أن تتحجب لأن الدين الإسلامي أراد حجبها، وسفورها يهتك شرف المرأة.

ولما جاءت المرأة الفرنسية، خرجت إلى الشوارع سافرة عارية الرأس والذراعين والساقين تتجول في الشوارع والأسواق، وترتاد المحلات العامة والمقاهي، بل إنها تؤدي وظائف شتى مثل الأعمال الإدارية والتمريض والتدريس والتجارة... إلخ.

كما احتك بها المغاربي في الميدان العاطفي، فالفرنسية أنيقة تهتم بأناقتها كثيرا، وتحاول جذب الرجل إليها دائما، ولذلك سريعا ما ينجذب إليها المغاربي، الذي يعيش في حرمان فظيع.

لذلك، فمن البديهي أن يتأثر الروائيون المغاربة، ويرسمون صورا للمرأة الفرنسية، وفيما يلي سنعرض لصورة الزوجة والمرأة المسنة ثم الفتاة ثم التاجرة ثم العاملة أو الموظفة ثم زوجة المغربي أو حبيبته كما وردت في الرواية العربية المغربية.

ويرجع ترتيب الصور إلى العلاقة بين الفرنسية والمغاربي، فقد لاحظ أولا زوجة الفرنسي وتصرفاتها، ثم الفتاة في الشارع أو مع أهلها، ثم احتك بالتاجرة عندما دخل فندقها أو خمارتها، ثم العاملة أو الموظفة عندما اضطر لاستخراج وثائق، ولما زال الحاجز النفسي بينهما، بدأت علاقات الحب تنشأ، فأثمرت أحيانا الزواج، وأحيانا بقيت في إطار الحب وما يشبهه من علاقات عاطفية.

1-الزوجة والمرأة المسنة

تتمتع الزوجة الفرنسية –في ذهن المغاربي - بمميزات كثيرة، فهي دائمة الجمال والأناقة لا تهتم بالخرافات والأوهام، ولا تتحدث عن خصوصيات النساء[153]، ميالة إلى التعرف وحب الاستطلاع، مع الطبيعة والمعاملة الحسنة، وبخاصة تجاه الأولاد، ومثال ذلك السيدة "فرانسواز" التي عالجت البشير -بطل رواية "ما لا تذروه الرياح" - لما عقره كلب زوجها: (أخذتني مدام فرانسواز من يدي واقعدتني بجانبها على أريكة خضراء لينة الأطراف.. كم كانت نظيفة مدام فرانسواز.. وكم كان ساقاها ابيضين (...) وما هي إلا لحظة حتى وجدت نفسي، محاطا بكمية كبيرة من الحلويات والسكريات وكذلك النقود.

اجريت مقارنة بين مدام فرانسواز وبين امي وكانت النتيجة اني أحببت امي وعشقت مدام فرانسواز، كانت يد مدام فرانسواز لينة، طرية، بيضاء.. مثل القطن. أحببت أن تلمسني هذه اليد وتحيط بعنقي.. أحببت أن أكون دائما بجانبها لأطلع على قامتها الهيفاء، ولأرنو إلى رأسها المرفوعة بكبرياء، والمتوجة بشعر لونه اشقر خلاب)[154]، النظافة، وصفاء البشرة، والطيبة، والجمال تلك هي صفات الزوجة الفرنسية التي يراها المغاربي، إلا أن الحكم ليس عاما، ففي الزوجة الفرنسية عيب كبير لم يغب عن المغاربي، ذلك العيب هو خيانتها لزوجها: (ولاحظ أن زوجة "كينو" أخذت تهتم به وقد بهرها بجسمه القوي.. وبذلك المزيج من الطباع.. وكانت مشاجرة عنيفة بينه وبين حمادي الصيدلي الذي قلنا أنه كان عشيقها.. ولكن النصر كان بجانب حسن، فقد استجابت له، وأخيرا وجد امرأة ناضجة وجميلة)[155].

---

(153) عبد الكريم غلاب: دفنا الماضي، ص253 -254.

(154) عرعار محمد العالي: ما لا تذره الرياح، ص56.

(155) محسن بن ضياف: التحدي، ص169.

إنها تخون زوجها مع كل واحد تعجب بجسمه، فكانت غريزتها تقودها.
وليست زوجة "كينو" الوحيدة التي تخون زوجها، بل الكثيرات من الزوجات الفرنسيات يخن أزواجهن: (كل الفرنسيات الموجودات هنا اعرفهن يا عباس اترى تلك الشقراء ذات (البنوار) الوردي إنها زوجة التاجر ارمان ولكنها خليلة لجورج الملازم في الجيش، وتخرج أيضا مع إدوارد الخياط الثري. وغيرها، وغيرها كثير)[156]، الخيانة الزوجية إذن ظاهرة منتشرة لدى الكثيرات من الزوجات الفرنسيات، مع الفرنسيين أو المغاربة، لأن الهدف هو إشباع الرغبة الجنسية.

الزوجة الفرنسية جميلة، وتحافظ على جمالها، فالبشرة بيضاء والشعر اشقر والقوام ممشوق، والنظافة لازمة بالإضافة إلى الطيبة وحسن المعاملة ولطف الحديث والحنان.. إلا أن الكثيرات خائنات –مع التمتع بالجمال والرشاقة طبعا - لا يرعين شرف أزواجهن.

تلك هي صورة الزوجة في نظر المغاربي كما يراها من بعيد، أو كما تظهر له من خلال ملاحظته، وعرضها الكتاب من خلال نظرة الشخصيات المغاربية. أما المرأة المسنة أو العجوز فهي طيبة جدا إلى درجة إخفائها فارا من العسكر الفرنسي، مثل تلك العجوز –في رواية "نوافذ الزمن" لمحمد المختار جنات - التي أخفت "عمر" –من الشخصيات الأساسية في الرواية - في سطح العمارة في بيت الغسيل، وعالجت جراحه ورعته موفرة الطعام والشراب والأمن: (سمعت خفق خطوات.. لا شك انها هي أطلت بشعرها الأشيب وسملت تطلعت إلى السماء، وسدت انفها بأصابعها، وقالت لي: ارايت يا عمر، لو لم يرشوا المدينة بهذا الدواء المطهر لأصبنا بالوباء؟ أطرقت .. فسألتني بطيبة التمعت في عينيها الذاويتين وتجاعيدها الرهينة: الغير لك ضمادتك؟ اجبتها: مرسي، مدام.

---

[156] عبد الرحمن عمار (ابن الواحة): عندما ينهال المطر، ص41.

اردفت لتعيد للمرة العاشرة أو العشرين: كان عليك أن لا تخرج في ذلك الوقت للصيد (...) استيقظت مذعورا على ضوء شمعة تضيء، ويد العجوز تمد إلي صحن الطعام.. وتكلمت .. وتكلمت، فتصنعت الإغفاء.. خرجت وردت الباب)[157].

عجوز مسنة، شعرها أشيب، تجاعيدها خفيفة طيبة القلب تحن على الضعيف ولو كان عدو قومها لكنها ثرثارة.

والملاحظ أن المرأة المسنة سواء أكانت تاجرة أم غير تاجرة فهي ثرثارة حسبما ورد ذكرها في بعض الروايات.

جدول مكونات شخصية زوجة الفرنسي والعجوز الفرنسية

الرواية ومؤلفها وخصياتها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الدور
"ما لا تذروه الرياح" عرعار 1 - فرانسواز	-لينة الأطراف -نظيفة - ساقان أبيضان - هيفاء شقراء	-حنونة - طيبة -لطيفة - رقيقة	تداوي البطل عندما عقره كلب زوجها فتثير إعجابه بخصالها
"التحدي" بن ضيف 1 - زوجة كينو	-جميلة - ناضجة	-خائنة لزوجها بغية إرواء غريزتها الفائرة	تتعلق بالبطل وتعجب بجسمه
"عندما تنهال الأمطار" عمار 1 - زوجة أرمان	شقراء	خائنة لزوجها	تخون زوجها مع الكثيرين
"نوافذ الزمن" جنات 1 - عجوز	شعر أشيب تجاعيد خفيفة	طيبة القلب حنونة - ثرثارة	تساعد ثائرا جريحا

---

[157] محمد المختار جنات: نوافذ الزمن، ص40 -42.

2-الفتاة الفرنسية

تتمتع بحرية التصرف والانطلاق، فهي تعمل أو تدرس أو تقوم بنشاطات مختلفة، تصادق الفتيات والشبان، وتتجول في مختلف الأمكنة بحرية تامة تتحدث مع الرجل وتضحك معه دون أن تعترضها عقبات، كل ذلك والمغربي الشاب ينظر إليها فاغرا فاه، فهي مثل "الشحمة" امام القط –كما يقول المثل – يتمنى أن يكون إلى جانبها ليسمع ضحكاتها الرنانة الحلوة، ويرى عن قرب شعرها الأشقر المنسدل على ظهرها مثل خيوط الذهب، ووجهها الأبيض وجبينها الوضاء، والقامة الممشوقة، واللبس الأنيق، وشخصيتها القوية.

فعبد الرحمن من أبطال رواية "دفنا الماضي" لعبد الكريم غلاب، أعجب "بمادلين" الفتاة الفرنسية العاملة في مصرف بفاس وفتنه منطقها: (كان منطقها سبيلها إلى قلبه، فهي تتحدث كأنما تغني، يرن صوتها الأخاذ في نفسه كما ترن نغمات وتر انطقتها يد صناع)[158].

كما فتنته روحها الطيبة، الصافية من شوائب الروح الاستعمارية التي لوثت المسؤولين الفرنسيين في المغرب[159]: لذلك كانت تجد متعة في الحديث مع عبد الرحمن الذي يمثل الجانب الآخر، الجانب الذي تراه من بعيد –ولا تعرف حقيقته – وتسمع عنه الكثير من الغرائب. كما وجد فيها عبد الرحمن زيادة عن جمالها ولطفها: (الوجه الثاني لهؤلاء الدخلاء الذين ملأوا نفسه غيظا بما يأتونه من تصرفات (...) فقد كشفت له مادلين عن الجانب الجمالي والروحي للأمة التي يتحدث الناس عن الجمال فيها والرقة والعذوبة (...) وكانت مادلين، وهي تتحدث إليه بعقل ذكي ولسان ذرب وعينين لامعتين ووجه ضاحك، تفتح قلبها ليكون مستقر قلبه، ولم يكن يهدف إليها عامدا أو باحثا عن مستقر، ولكنه

---

[158] عبد الكريم غلاب: دفنا الماضي، ص249.

[159] عبد الكريم غلاب: دفنا الماضي، ص249.

كان يتجنب بدافع هذا الجديد الذي تتيحه مادلين حينما تتحدث إليه بغير حجاب، وتناقشه بغير عقدة)[160].

أتاحت "مادلين" لعبد الرحمن معرفة أمرين هامين جدا، الأول: هو الوجه الثاني لفرنسا، والثاني: الفتاة التي يستطيع محادثتها ومناقشتها بغير إحراج او عقد، الأمر الذي لا يتوفر في المغاربية، والعجيب أن المغاربي يعجب بحرية الفرنسية ومحادثتها له وسفورها إلا أنه لا يحاول أن يطور أخته المغاربية، وزاد إعجاب عبد الرحمن "بمادلين" عندما دعته إلى العشاء مع أسرتها، بعدما هيأت الجو حتى صارت أسرتها ترغب في التعرف على صديقها، الأمر الذي لم يكن يخطر على بال.

ولاحظ عبد الرحمن مدى الترابط والتفاهم والصراحة بين أعضاء الأسرة، فزاد إعجابا بصديقته.

لم يفق إلا وهي: (تقترب منه وتزداد شوقا إليه وتبوح بسر حبها، ولكنها كانت متعففة –رغم شبابها وقوة تجربتها - عن أن تندفع في مغامرة جريئة، وكانت صراحتها واحترامها لنفسها تزيده حبا لها وإيمانا بقدرته على أن يعف)[161].

وبلغ إعجاب عبد الرحمن بمادلين أقصى الحدود، إلى درجة أنه أبعد فكرة الزواج منها حتى لا يفسد صداقتهما: (مادلين صديقته، وستكون صديقة العمر، لن أضعها في أسر الزواج)[162]. وهكذا عرض علينا عبد الكريم غلاب صورة مثالية للفتاة الفرنسية بأسلوب سردي هادئ أساسه الوصف.

---

[160] عبد الكريم غلاب: دفنا الماضي، ص250 -251.

[161] عبد الكريم غلاب: دفنا الماضي، ص254 -255.

[162] عبد الكريم غلاب: دفنا الماضي، ص256.

اما "البشير" –بطل رواية "ما لا تذروه الرياح" لعرعار محمد العالي – فقد اثارت إعجابه فتاة فرنسية، ولم يستطع التحكم في نفسه، فاندفع يمسح على شعرها، (لكن الفتاة بحركة رشيقة وثائرة، خلصت شعرها من يديه، وتحركت مبتعدة عن البشير، وهي تلفظ هذه العبارات: يا لك من رجل وقح... إلخ)[163].

إنها جميلة رشيقة ومتحركة تخالط الرجال وتجالسهم، لكنها لا تقبل اي شيء إلا إذا كانت راضية فهي تتمتع بشخصية قوية، قادرة على التصرف، ومجابهة حتى الرجال، الشيء الذي يفتقده المغاربي في المغاربية، وينسى أن المجتمع كله سيصرخ في وجهها إن فعلت – عيب عيب!...

عرض "عرعار" الفتاة بأسلوب سردي تقريري مركزا على قوة شخصيتها وجاذبيتها وانوثتها، وبذلك يشترك مع "عبد الكريم غلاب" في العديد من صفات الفتاة، فهي جميلة وأنيقة ومتحررة، إلا ان شخصيتها قوية، لا تقبل العبث بها أو التعدي عليها، فهي متحررة ومحترمة ايضا، وهكذا نلاحظ ان جمال الفتاة الفرنسية وقوة شخصيتها عاملان جذابان للشاب المغاربي.

يتضح لنا مما سبق أن صورة الفتاة قليلة الورود في الرواية المغاربية، حيث لم ترد سوى صورتين كل واحدة في رواية.

جدول مكونات شخصية الفتاة الفرنسية

الرواية ومؤلفها وشخصياتها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الدور
"دفنا الماضي" غلاب 1 – مادلين	عينان لامعتان وجه ضاحك	طيبة –غير استعمارية ذكية – متحررة – عفيفة	اثارت إعجاب البطل بجمالها وقوة شخصيتها إنها مثال للمراة
"ما لا تذروه الرياح" عرعار 1 – فتاة	شعر اشقر – وجه ابيض – قامة ممشوقة – لبس رشيق	شخصية قوية – مهذبة متحررة –ابية	تثير إعجاب البطل بشخصيتها القوية

---

[163] عرعار محمد العالي: ما لا تذروه الرياح، ص93.

3-التاجرة أو صاحبة المحل

لا تستنكف الفرنسية من الأعمال التجارية، نتيجة الظروف التي مرت بها، بيد أن إقبال البعض من الفرنسيات على التجارة المشبوهة أثار انتباه المغاربة، فسجلوا انطباعات عن تاجرات الخمر، لأن تجارة الخمر تجلب المشاكل، ومن تاجرات الخمر السيدة "لافا" التي كانت تتاجر بالخمر من بيتها سرا بالاعتماد على مجموعة من الأشخاص تثق فيهم[164].

والسيدة "لافا": (عجوز بدينة مترهلة، شعرها أبيض، وعيناها غائرتان)[165] تتكلم مزيجا من الفرنسية والإيطالية والعربية، ومستمعها ينفر من حديثها لثرثرتها التي لا تنتهي ومن أكاذيبها حول حياتها وحول زوجها وبطولاته[166]، إنها تاجرة عجوز، ثرثارة أكثر كلامها كذب.

عرض الكاتب شخصية هذه التاجرة بالسرد والحوار الذي دار بين إبراهيم –بطل الرواية - والشيخ العياشي -من شخصيات الرواية -، وبذلك نوّع زوايا عرض الشخصية رغم أنها شخصية هامشية.

والسيدة "جاك" صاحبة خمارة شقراء سمينة، تستغل رواد خمارتها لقضاء ماربها[167]، وبذلك فهي تستفيد منهم زبائن يستهلكون خمرها، ثم لقضاء حاجياتها في الحياة العامة.

وفي رواية "سوق الكلاب" لمحي الدين بن خليفة، نصادف شخصية تاجرة فرنسية هي "المدامة"، فهي تدير خمارة بقرية من قرى الجنوب التونسي، دائمة

---

[164] محمد الصالح الجابري: يوم من أيام زمرا ، ص87.

[165] محمد الصالح الجابري: يوم من أيام زمرا ،ص95.

[166] محمد الصالح الجابري: يوم من أيام زمرا ، ص96 -99.

[167] عبد الرحمن عمار (ابن الواحة): عندما ينهال المطر، ص35 -36.

الوقوف بباب خمارتها تراقب السوق[168]، متكيفة مع الظروف ومراقبة رواد المقهى المقابل لخمارتها، يملأ صدرها البغض والحقد على العرب وتتمنى النزاع المستمر بينهم[169].

وأمتع اللحظات عندها، عندما ترى الجيش الفرنسي يعتدي على العرب: (كانها تشاهد قططها تقتل فارة مستهترة)[170]، وبسبب حقدها على العرب، فهي دائمة الوشاية بمن تكره مثل "الحشائشي" و"إسحاق" و"الحاجة" -شخصيات أساسية في الرواية - الذين يخطبون ودها لمكانتها في القرية، فهي التي: (تبيع الخمر وتداوي البغال وتربي القطط والكلاب ويهابها أهل السوق جميعا لا يكنزون لها غير أرباحهم من المواسم الفنية التي ينفقونها في حانتها)[171]، بالإضافة إلى مشاكستها: لأهل السوق فهي دوما واقفة أمام حانتها تراقب الناس وتزعجهم بمنظرها البشع، فجلدتها مرتخية تزداد ورما كلما جردتها بأظافرها الحادة[172]. لهذا، فالكل يكرهها في السوق وهي تكرههم.

والفرنسية التاجرة دائما عجوز أو امرأة متقدمة في السن قبيحة الخلقة، مترهلة الأطراف سيئة المعشر، تكره الأهالي ويكرهونها والمرجح أن الفرنسية التاجرة وبخاصة المتاجرة بالخمر، لا بد أن تكون قبيحة سيئة المعاملة حسبما ورد في الرواية العربية المغاربية، وربما يكون لتحريم الدين الإسلامي الخمر أثر خفي في خلق هذا الشعور نحوها، وكيف لا تكون سيئة المعشر وهي تتعامل مع السكيرين، وتتأثر بكلامهم وحركاتهم، وتجابه مناوراتهم للتهرب من الدفع، ولكي

---

(168) محي الدين بن خليفة: سوق الكلاب، ص28 -29.

(169) محي الدين بن خليفة: سوق الكلاب، ص35.

(170) محي الدين بن خليفة: سوق الكلاب، ص36.

(171) محي الدين بن خليفة: سوق الكلاب، ص42.

(172) محي الدين بن خليفة: سوق الكلاب، ص85.

تتغلب عليهم وترغمهم على الرضوخ، لا بد أن تكون مشاكسة عنيدة، وإلا فمن المؤكد أن تفلس سريعا.

جدول مكونات شخصية التاجـرة

الرواية ومؤلفها وشخصياتها	الصفـات الجسمية	الصفـات المعنويـة	الـــدور
"يوم من أيام زمرا" الجابري 1 - السيدة "لافا"	عجوز- بدينة مترهلة -شعر أبيض - عينان غائرتان	ثرثارة- كذابة فخورة -- مشاكسة	تتاجر بالخمر سرًا في القرية
"عندما ينهال المطر" عمار 1 - السيدة "جاك"	شقراء- سمينة	استغلاليـة	تستغل زبائنها لقضاء حاجياتها
"سوق الكلاب" بن خليفة 1 - المدامة	جلدة مرتخية ورمة	حقودة- استعمارية النزعة - مشاكسة	تعاكس أهل القرية وتزعجهم

4-العاملة أو الموظفة

وهي التي تقوم بعمل في مؤسسة ما أو موظفة في إدارة مثل "مدام باوليني" التي عمل معها "علي" -بطل رواية "المعلّم علي" - مساعدا وذلك عندما لاحظت ذكاءه ونشاطه فطلبت من رئيس العمال تعيينه مساعدا لها تعيينا صوريا[173]، وبذلك استراحت من الكثير من التعب: وأعجب مساعدها، "علي" (بوجهها السمح وعينيها الزرقاوين وقامتها الفارعة وشبابها الغض ويديها البضتين.. (...) هف قلبه إلى رؤياها وهو يسير عائدا على قدميه إلى منزله من المعمل، فقد أصبح يشعر بغبطة وارتياح وهو يعمل في مساعدتها، ويحس لكلماتها -الفرنسية أو

(173) عبد الكريم غلاب: المعلم علي، ص273.

العربية الملحونة التي تنطقها محرفة بصوت أخاذ - أصداء تدغدغ إحساسه)[174] إنها عاملة جميلة يرتاح الناظر إليها.

وفي رواية "التحدي" لمحسن بن ضياف، ذكر لمرضة فرنسية تعمل في مستشفى عسكري، وتسهر على علاج "حسن" -بطل الرواية - الذي حمل إلى المستشفى بين الحياة والموت، مغمى عليه وعندما سمع صوتا رقيقا لطيفا يناديه باسمه فتح عينيه على شعر أصفر وعينين خضراوين[175]. وإذا بالممرضة جاءت لتطمئن عليه حاملة العباءة لتغطيه، لأن الجو بارد، أرادت أن تطعمه عشاءه، فطلب منها إبعاد العشاء وإشعال سيجارة، ثم طلب منها أن تحدثه عن أي شيء فهو يشعر بضجر شديد، عن الحرب أو السلام أو الحب.

إرضاء له، تحدثت عن تجربتها في الحب، التجربة المريرة التي جعلتها تختار بين دخول "الدير" أو الهجرة لتعمل مؤاسية للمعذبين من البشر، واختارت الهجرة. لقد فشلت مرتين في حبها، وكانت دائما الضحية المغرر بها، وأسف "حسن" لإثارة مشاعرها، لكنها كانت مرتاحة للبوح بسرها، ثم أخبرته أنها تحمل إليه مفاجأة، هي تحية له من ضابط فرنسي جريح، فلقد سمع بوجود مسؤول من مسؤولي الثورة -حسن -؛ ولما سأل المرضة أخبرته بوجود "حسن" فأرسل له معها تحياته، لأنه يؤمن بثورات الشعوب.

فرد "حسن" -محترزا - على التحية بمثلها، ولم تصدم الممرضة باحتراز "حسن" من تحية الضابط، بل أدركت مخاوفه وأيدته في ذلك، مطمئنة إياه بأن نوايا الضابط حسنة، وحملت رد التحية فرحة نشطة، لأنها شعرت بأنها قربت بين إنسانين[176]. الفرنسية العاملة إنسانة جميلة، لطيفة المعاملة، حلوة المنطق، لا

---

[174] عبد الكريم غلاب: المعلم علي: ص275 -276.

[175] محسن بن ضياف: التحدي، ص70.

[176] محسن بن ضياف: التحدي، ص71 -75.

تكره الأهالي بل تحبهم أحيانا، ولم تركز الرواية العربية المغاربية على هذه الشخصية لأن الاحتكاك بها قليل.

جدول مكونات شخصية العاملة أو الموظفة

الرواية ومؤلفها شخصياتها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الدور
"المعلم علي" غلاب 1 - مدام باوليني	-وجه سمح -عينان زرقاوان - قامة فارعة -شباب غض - يدان بضتان	لطيفة	تشغل البطل معها لتعلمه فيعجب بها
"التحدي" بن ضياف 1 - ممرضة	-شعر أصفر -عينان خضروان - صوت رقيق	-ذكية- إنسانية النزعة - مهذبة	تساعد المريض وتحاول التقريب بينه وبين عدوه خدمة للإنسانية

5- زوجة المغاربي أو حبيبته

أعجب المغاربة بجمال الفرنسية ورشاقتها وحريتها وقوة شخصيتها، ثم تطور ذلك الإعجاب إلى علاقات حب ثم إلى الزواج، وبخاصة بعدما استتب الأمر في المغرب العربي للسلطة الاستعمارية، وقيام جماعات من المغاربة بالدعوة إلى الاندماج[177].

---

[177] كما ورد في المدخل، ص29 -30.

ففي رواية "ما لا تذروه الرياح"، يلتقي "البشير" –بطل الرواية - في ليلة شديدة المطر بفرانسواز، تمشي في الشارع تحت الأمطار: (فما كاد البشير يراها حتى انشرح قلبه، وشعر بسعادة تنبعث في نفسه فقد نالت إعجابه، رغم أنه رآها مدة ثانية فقط.. فقال يحدث نفسه: ... يا للمرأة الشجاعة التي تخترق الشوارع بمفردها دون حارس أو حام، يا لقامتها المديدة وجمالها الساحر الفتان... إنها تمشي مرفوعة الرأس، متصلبة القامة، معتزة بنفسها، تتحدى الزمن وتدعو إلى الإعجاب... هذه هي المرأة في جميع النواحي: في الشجاعة ومقارنة الصعاب، وفي الجمال..(...) هذه هي المرأة التي كنت أبحث عنها منذ زمن بعيد، هذه هي المرأة التي يلزم علي أن أتقرب منها وأنال رضاها هذه هي الأنثى التي تجدر بي، فلأتبعها وأحاول التقرب منها، ولا أتركها إلى أن أعرف كل شيء عنها)[178] يتبعها عبر الشوارع حتى تضجر من ملاحظته، فتطلب منه بأدب وجد أن يكف عن ملاحقتها، ثم هددته بالشكوى إلى الشرطة، ولكن دون جدوى فقد كان السكر والتعب قد انهكاه حتى سقط أمامها. وبذلك وجدت نفسها حائرة أتعينه أم تتركه وتكمل طريقها، وبعد صراع حاد،؟ قررت أن تحمله إلى بيتها وتسعفه، وبعد مجهودات كبيرة جدا وصلت به إلى منزلها، فأسعفته وأنامته ثم ذهبت لتفقد ولدها الذي تركته نائما[179]. وعندما افاق البشير من نومه وجد نفسه أمام: (امرأة تناهز الثلاثين من عمرها، تقف عند عتبة الباب، تنظر إليه بحنان، بعيون زرقاء مزدانة برموش طويلة، وترتدي فستانا أزرق اللون شفاف، يكشف شيئا من مفاتنها فلم يستطع لفظ كلمة.

تقدمت السيدة الفرنسية، وبكل سرور وبهجة قدمت نفسها:

---

[178] عرعار محمد العالي: ما لا تذروه الرياح، ص99 -100.

[179] عرعار محمد العالي: ما لا تذروه الرياح، ص100 -107.

- صباح الخير يا سيدي... هل لا تعرفني؟ أنا مدام فرانسواز إنك الآن في بيتي... وأنا سعيدة جدا بوجودك في ضيافتي.. ارجع، ارجع من فضلك إلى سريرك ولا تحاول فتح هذه النافذة... إنها في مواجهة الريح، ولو فتحتها قليلا، فإن هذه الغرفة ستصبح مثل الثلاجة..

قالت السيدة هذه العبارات "ثم بكل جرأة تقدمت وأخذت بشير من يده وأعادته إلى فراشه... فانقاد لها هو مثل طفل رضيع...)[180].

أكثر البشير من الثناء على فرانسواز عندما أحس بالعافية، فادعت الغضب، فلم تعمل شيئا سوى الواجب، وطلبت منه الكف عن المديح وإلا فإنها ستغضب؛ وكف البشير إرضاء لها. وأثناء ذلك وطدت العزم على أن تنشر حبائلها حوله حتى لا يفر منها، فلقد اتضح أنه يتمتع بجمال ورجولة[181]... وأدرك البشير –جاك، كما قال لها، حيث ادّعى أنه فرنسي واسمه جاك ولا أهل له -، هدفها فرضي بالمشاركة في اللعبة، فهي امرأة فاتنة جديرة بأن تكون زوجة لأعظم رجل في فرنسا[182]–على حد قوله -؛ فهي جميلة ومثيرة، وبخاصة عندما لا يغلق فمها، فتكشف بإغراء عن بعض الأسنان البيضاء المضللة الجوانب[183].

ولما أراد البشير الخروج، تمسكت به فرانسواز قائلة: (يحزنني كثيرا، أن تذهب وتتركني هكذا بهذه القسوة، ولا تشكرني[184] على ما فعلته معك)[185]، فوعدها بالعودة، وبذلك صار يتردد عليها، ويلتقيان في شتى الأمكنة. وفي يوم من

---

[180] عرعار محمد العالي: ما لا تذروه الرياح، ص108.

[181] عرعار محمد العالي: ما لا تذروه الرياح، ص112 -113.

[182] عرعار محمد العالي: ما لا تذروه الرياح، ص114.

[183] عرعار محمد العالي: ما لا تذروه الرياح، ص116.

[184] تطلب منه الشكر على عملها وسبق أن قالت له بأنها ما عملت إلا الواجب، وهذا غلط من الكاتب وفي الرواية هنات كثيرة نتيجة ضعف تركيب الرواية فنيا.

[185] عرعار محمد العالي: ما لا تذروه الرياح، ص118.

الأيام فوجئ البشير بأن فرانسواز أم لولد يبلغ السابعة من عمره، وأنها أرملة[186]... -ولم تخبره منذ البداية لأنها كانت تعتقد بأن ماضيها لا يهمه -، ثم أخبرته أنها سليلة أسرة كريمة عريقة في المجد والثراء، ثم أحبت زوجها وأحبها وتزوجا رغم معارضة أسرتيهما، ولكن زوجها آثر ان يشترك في حرب الجزائر لقهر الثوار فقتل هناك، ولذلك اقسمت أن تبقى لذكراه[187]. ومع ذلك، فعلاقتها مع البشير لا تدل على أي وفاء نحو زوجها، وبمرور الزمن شعر البشير أن فرانسواز تحبه حب العالم لموضوعه[188]. وبقي ذلك الإحساس ينمو حتى هجرها، وذلك عندما أعلن استقلال الجزائر ووجد نفسه مشردا -فهو جندي الجيش الفرنسي - لا ملجأ له إلا الخمرة وبذلك انهكه المرض، حتى دخل المستشفى وحيدا، لا يعلم أحد بمصيبته، وفكر مرارا أن يعلم "فرانسواز" ولكنه كان يحجم كلما راودته الفكرة، حتى جاء يوم وإذا بها تدخل عليه طالبة منه المغفرة، لأنها تعلم منذ البداية حقيقته، وكانت تعرف أنه سيدخل المستشفى لأنه مريض السل -ولم يكن يدري - وكانت تقوم معه بتجربة، لتعرف كيف يعمى العاشق، ويتيه في حب عشيقته، وهو لا يعرف أنها تستلذ عذابه، وتعيش آلامه.

لقد كانت تشجعه على نكران أصله، ثم تتجول معه في أحياء المغاربة لترى تطاحن مشاعره واحتراقها، والآن جاءت تطلب الصفح راجية منه أن يتزوجها لتعوض له كل ما قاساه... أما إذا كان يرفض الزواج منها، فلن ترغمه إلا أنها في خدمته، مستعدة لأن تلبي كل مطالبه، مستعدة لأن تساعده على العودة إلى بلده "كان" في فرنسا، وبذلك تكون قد أزالت الحمل عن كاهلها

---

(186) عرعار محمد العالي: ما لا تذروه الرياح، ص122 -125.

(187) عرعار محمد العالي: ما لا تذروه الرياح، ص128 -131.

(188) عرعار محمد العالي: ما لا تذروه الرياح، ص139 -140.

ويدرك البشير كل شيء، ويتفجر حنينه إلى الوطن والأهل، فيشكر فرانسواز على كل ما قدمت له من مساعدات مادية ومعنوية[189].

عرض الكاتب صورة حبيبة غريبة الأطوار، فهي تارة طيبة وتارة قاسية، وتارة اخرى جبارة، إلا أن السمات العامة التي يمكن استخلاصها من ذلك الخضم من الأوصاف والاستطرادات في سرد الحوادث الصغيرة والتافهة، أن "فرانسواز" امرأة ناضجة جميلة، رشيقة، احبت البشير بغية الالتذاذ بتعذيبه والقسوة عليه، إلا أن ضميرها عذبها فيما بعد، فندمت على فعلتها وتراجعت عن غيها طالبة الصفح والغفران باذلة كل إمكانياتها لمساعدة البشير، إنها إنسانة لها حسناتها ولها سيئاتها، والسرد هو الأسلوب الأساسي في عرض أجزاء الصورة مع شيء من الفوضى والتضارب في الوصف، والمرجح أن ذلك يرجع لضعف مستوى الرواية.

جدول مكونات شخصية زوجة المغاربي وحبيبته

الرواية ومؤلفها وشخصياتها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الدور
"ما لا تذروه الرياح" عرعار 1 - فرانسواز	-قامة مديدة -جميلة في الثلاثين -عينان زرقاوان - رموش طويلة - أسنان بيضاء	شجاعة - قوية الشخصية جريئة - ذكية	تتعلق بالبشير لتجري عليه التجارب النفسية ثم تتوب وتندم

وإذا ما وازنا بين صفات الفرنسية الحميدة وصفاتها الذميمة نلاحظ تركيز الرواية المغاربية على الصفات الحميدة، فالفرنسية قوية الشخصية ذكية، لطيفة في معاملتها، جريئة شجاعة، متحررة، طيبة، محبة للإنسانية والثقافة، رقيقة، عفيفة رغم تحررها.

---

[189] عرعار محمد العالي: ما لا تذروه الرياح، ص199 -211.

ونتيجة لتركيز الروائيين المغاربة على صفات الفرنسية الحميدة، جاء دورها في الرواية مختلفاً عن دور الفرنسي، فهي مثار إعجاب المغاربي أو مساعدة له، ومزعجة له ومبعث احتقار ومحطمة له؛ وواضح أن الفرنسية لا تمثل خطرا كبيرا على المغاربي، بل إنها مثار إعجاب رغم قلّة ورودها في الرواية العربية المغاربية.

الفصل الثالث

صورة الفرنسي

في الرواية المغاربية الفرنسية

صورة الفرنسي في الرواية المغاربية الفرنسية

1- الحاكم
2- الجندي
3- رجل الأمن
4- المعمر
5- رب العمل
6- رجل التعليم
7- الطالب
8- المثقف
9- رجل الدين
10- الفرنسيون عامة

لقد بينا كيف أقبل المغاربة على تعلم اللغة الفرنسية -بعد تأكدهم من استمرار الوجود الفرنسي وثبوته - لأسباب مادية نفعية، فقد أصبحت الفرنسية -في المستعمرة - من أهم وسائل العيش، إذا لم تكن أهمها على الإطلاق. ومع مرور الزمن كثر عدد دراسي الفرنسية من المغاربة، وتسرب البعض منهم إلى الثانويات ثم الجامعة، وبذلك تكونت مجموعة مثقفة ثقافة فرنسية لا بأس بها، تلك المجموعة هي التي أنبتت -ابتداء من العشرينيات - أدباء يعبرون باللغة الفرنسية عما يجيش في صدورهم من إحساسات وأفكار مرتبطة في أغلب الأحيان بالمغرب ومشاكله المتعددة.

وكان أهم مشكل واجه الأدباء المغاربة هو الوجود الفرنسي في المغرب ونتائجه، ولذلك جاءت الروايات المغاربية الفرنسية اللغة، زاخرة بالشخصيات الفرنسية المتنوعة، وفي هذا الفصل سنحاول إبراز صورة الفرنسي في الرواية المغاربية الفرنسية اللغة، بالاعتماد على الروايات الستة عشر المنتقاة من بين مجموع الروايات التي ظهرت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى نهاية 1976م.

ومعيار الانتقاء هو وجود شخصيات فرنسية أو غيابها في الرواية، بغض النظر عن رأي الروائي فيها وموقفه منها.

ومن قراءة الروايات اتضح لنا أن المرأة الفرنسية تحظى بوجود كبير جدا في الرواية المغاربية الفرنسية، لذلك أفردت لها فصلا مستقلا عن الرجل الفرنسي، ولذلك سنقف وفي هذا الفصل على صورة الرجل الفرنسي وحدها، أما صورة المرأة فسنخصّص لها فصلا مستقلا.

وبعد حصر شخصيات الرجل الفرنسي الواردة في الرواية المغاربية، وتقسيمها إلى مجموعات تكون كل منها نموذجا -مجموعة من العسكريين مثلا يكونون نموذج العسكري وكذلك الطلاب والمعلمين - حسب وظائفها أو خصائصها الفكرية -إذا لم تكن لها وظائف أو كانت وظائفها ضعيفة الأثر في

المغاربية -، اتضحت لنا مجموعة نماذج للرجل الفرنسي هي: الحاكم مدنيا كان أو عسكريا، العسكري أو الجندي مهما كانت رتبته.

رجل الأمن مهما كانت رتبته، المعمر، صاحب العمل، رجل التعليم معلما أو مديرا أو أستاذا. والطالب زميل الدراسة والآمال، والمثقف يساريا أو غير يساري، ورجل الدين، ثم الفرنسي بصفة عامة الشرير والطيب.

تلك النماذج هي محور هذا الفصل نبرز فيه صورة كل نموذج منها لنخرج بالصورة العامة للرجل الفرنسي في هذه الروايات.

1- الحاكم

وردت شخصية الحاكم الإداري -بغض النظر عن الرتبة السياسية فالمغاربي لم يكن يعرف آنذاك الفروق بين المسؤولين - في عدة روايات مغاربية فرنسية اللغة:

الأولى رواية محمد ديب "الحريق"[1][2] التي ذكر فيها نائب الوالي (Sous-Préfet) الذي استدعى "قارا" -جزائري ثري بعض الشيء وعميل للسلطات الفرنسية -وراح يحدثه عن الوحدة العامة والقاعدة الخلفية التي يعتمد عليها كل بناء: (لن نستطيع العمل إلا إذا وضعت اليد في اليد، بل أقول: القلب مع القلب)[3]. فالسلطة الفرنسية لن تستطيع العمل إلا إذا وضع الجزائري يده في يد الفرنسي، يتعاونان على بناء البلد -الجزائر طبعا - ولذلك ستصدر قوانين تخص الأهالي، ونائب الوالي يعلم أن: (خليطا من الانفصاليين الخطرين أو الحالمين الأغبياء، يعملون كل ما في وسعهم لتشويش عقول الناس الشرفاء،

---

(1) لم نعتمد على الروايات المغاربية المترجمة حفاظا على وحدة النسق اللغوي للنصوص عدا رواية "سأهبك غزالة" لمالك حداد، وذلك لتعذر الحصول على النسخة الأصلية.

(2) Mohamed Dib: L'Incendie, Seuil, Paris, 1954.

(3) Mohamed Dib: L'Incendie, Seuil, Paris, p103.

وتلك نذالة قبيحة (...) من غير مجهوداتنا ومجهودات أصدقائنا، لن تعرف هذه البلاد إلا الخسران والخراب)[4].

وبذلك أفهم نائب الوالي "قارا" بأنه يريد منه مساعدته في وضع حد لإضرابات الفلاحين، وذلك بإمداده بمعلومات حول دعاة الإضراب وغير ذلك من المعلومات المرغوب فيها، فـ "قارا" صديق من أصدقاء السلطة، والبلد لن تبنى إلا بمعاونة الأصدقاء، لم يطلب نائب الوالي من "قارا" معلومات، ولم يسأله عن فلان أو علان، لم يطلب منه اسم منظم الإضراب، إنما دفعه بذكاء إلى إخباره بما يريده؛ ففي البلد فئتان من الأهالي: نزهاء وخبثاء، وبطبيعة الحال كل إنسان لا يرضى أن يوضع في صف الخبثاء، ثم لن يتم بناء البلد إلا بتعاون النزهاء مع الفرنسيين، إضافة إلى علم السلطة بنوايا الخبثاء، وتأكدهم بأنهم لن يفلحوا.

إذن فالطريق السليم هو طريق النزاهة، أي التعاون مع السلطة على كشف الخبثاء، وذلك يعني محاربة المضربين الذين عطلوا العمل في مزارع المعمرين، وأقلقوا بال نائب الوالي، حتى استدعى "قارا" وأوحى إليه أثناء حديثهما بتلك النتيجة، ورغم حديث نائب الوالي عن الصداقة والتعاون، فإن "قارا" لم يستطع توديعه وداع صديق لأن: (نائب الوالي مد يدا فوق المكتب الضخم المفرق بينهما، وبذلك لم يلمس "قارا" إلا رؤوس الأصابع، مع الخروج مدبرا دون إدارة ظهره للشخصية الرسمية...)[5]؛ "فقارا" لا يستطيع مصافحة صديقه الراغب في التعاون لأن المكتب الضخم يفصلهما ولا يستطيع أن يدير له ظهره، وكيف يعمل ذلك وهو "قارا" الأهلي والآخر السيد نائب الوالي. ومع ذلك، فهو يحدثه عن النزاهة والشرف والتعاون وبناء البلد... بمنتهى الذكاء والخبث.

---

[4] Mohamed Dib: L'Incendie, Seuil, pp103-104.

[5] Mohamed Dib: L'Incendie, P104.

والرواية الثانية التي وردت فيها شخصية حاكم، هي "سبات العادل"[6] لمولود معمري، وفيها تحدث الروائي عن "الكوميسار"[7] الحاكم الإداري لناحية من نواحي القبائل الكبرى بالجزائر.

استدعى "الكوميسار" شيخا -لم ير حاكما -، فبدا له الحاكم شبيها برجال الأمن لتشابه الملابس، ولم يفهم الشيخ كلام "الكوميسار" لأنه خاطبه بالفرنسية ثم العربية وهو لا يفهم إلا القبائلية، فاضطر الحاكم إلى استدعاء مترجم، ولم يستطع الحاكم أن يفهم لماذا لا يتحدث الشيخ بالفرنسية مثل كل الناس[8]. وبعد لف ودوران استطاع الشيخ أن يفهم القضية، فالحاكم "الكوميسار" علم أن أسرة الشيخ تتبنى أفكارا مضادة للإدارة، فسليمان -أحد أبناء الشيخ منظم لحزب الشعب الذي يضم الجياع وقطاع الطرق -، وباستطاعة الحاكم الزج به في السجن بقية حياته، لكنه فضل التعامل أولا مع رب الأسرة فمن واجبه رد ابنه إلى الطريق السوي والتفاهم معه، دون إهدار شباب سليمان، ولتوضيح أهمية الإدارة في حياة الأسرة، انتزع الحاكم من الشيخ كل بطاقات التموين معرضا عن كل محاولات الشيخ لإفهامه الأوضاع التي تعيش فيها الأسرة[9]. وبذلك، أظلمت الدنيا أمام عيني الشيخ، ولم يستطع رؤية باب الخروج، فكيف سيعيل أسرة كاملة دون تموين، ولكن الحاكم أمره بالانتظار، فظن أنه سيرجع له البطاقات، لكن الطين زاد بلة، فالحاكم غاضب جدا على الشيخ لأنه أطلق الرصاص على ابنه "ارزقي" -طالب ثانوية عامة أعلن عدم وجود الله بين الجماعة - الذي فرّ خوفا من الموت، وتعجب الشيخ من الحاكم الذي يتدخل بين المرء وربه، ولكن الحاكم يرى أن إطلاق النار على الابن يعد اعتداء على

---

[6] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, Plon, 5 éd., Paris, 1965.

[7] Komissar كتبت في الأصل بحرف K بدلا من C للدلالة على المنطق المحرف من قبل الأهالي.

[8] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p 22.

[9] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, pp 23-25.

العدالة الفرنسية، فكيف لا يشكو الشيخ ابنه للعدالة؟ ولماذا يريد قتله؟ وقبل أن يزج به في السجن لا بد من حجز بندقيته وبذلك فقد الشيخ البندقية[10] وانتهى كل شيء.

طلب الحاكم من الشيخ إن كان يرغب في معرفة مصدر المعلومات التي وصلته فرفض الشيخ، إلا أن الحاكم أصر على تعريفه بالشخص الذي يوصل له كل المعلومات عن الشيخ وأسرته، وهو ابن عمه "تودير"، أظلمت الدنيا ثانية في عيني الشيخ وهم بالخروج ولكن الحاكم استبقاه، وكلف كاتبا أن يتحقق إذا كان الشيخ قد دفع غراماته أم لا؟ وكان الشيخ لم يسدد بعد غرامات الحكومة تلك السنة، وقال بأنه لا يستطيع رهن حقله أو بيعه وبذلك أثار غضب الحاكم، فهو يعلم أن حقل الشيخ مرهون عند "تودير"، وحتى إذا باع الحقل فلن يتمكن من تسديد ديون "تودير" فكيف سيسدد الغرامات الحكومية.

وحار الشيخ، الحاكم يعرف كل شيء، ويعرف أنه لا يملك شيئا ومع ذلك يطلب منه تسديد الغرامة فبماذا يسددها؟

وجاءه اقتراح الحاكم ضربة قاصمة، فهو يقترح عليه رهن المنزل عند ابن عمه "تودير": (ولاحظ الأب اهتزاز كتفي الكوميسار، نتيجة ضحك داخلي لا يغير من ملامح الوجه، اللهم إلا انفلاقا عجيبا في العينين)[11].

وأدرك الشيخ أن اقتراح الحاكم أمر، ثم جاء تهديد الحاكم موضحا معتقده ذاك فهو في نظر الحاكم خرقة بين يدي "تودير" وفي نظر الإدارة دودة يستطيع سحقها لولا خوفه من الله، ومع ذلك فهو يربي أولاده ضد فرنسا لذلك فليحذر[12].

---

(10) Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, pp 25-26.

(11) Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p 28.

(12) Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p 29.

إن الحاكم حطمه اقتصاديا ومعنويا -بنزع البندقية وهي من مقومات الرجولة - وروحيا -عندما عاقبه لأنه رفض إلحاد ولده - ثم اجتماعيا وأسريا -بتنمية الحقد والكراهية بينه وبين ابن عمه "تودير" -؛ وبذلك دخل الشيخ مكتب الحاكم بشخصية وخرج بأخرى. كل ذلك فعله الكوميسار في مقابلة واحدة ومع شيخ كبير محنك مؤمن بالله. إنه حاكم ذكي جدا وخبيث جدا، فهو يعرف كيف يضع الأصبع على الجرح، ثم يغرزه ويتضح ذكاؤه وخبثه من حواره مع "تودير" العميل وكيف يضحك معه وعليه.

ضج "تودير" من أمين القرية (شيخ مؤمن بالله يجمع كل سنة أموالا وحبوبا من الأغنياء ويوزعها على الفقراء) الذي أحرجه، وبعد ذوبان الثلج أسرع إلى "الكوميسار" يشكو "الأمين"، فتعجب الحاكم من وقوع مثل تلك الأعمال دون علمه وفكر: (قد يكون القائد[13] ولكن لا، إنه غبي جدا)[14]. إنه يعلم جيدا أن القائد غبي ولن يتجرأ على عمل أي شيء دون إخطار الحاكم فهو مطيع ولا يستطيع اتخاذ أي قرار إلا بعد مشاورة الحاكم.

يقوم الأمين بعمله ذاك إذن، اتباعا للعادات والتقاليد دون استشارة القائد أو الحاكم، لأنه يريد الحفاظ على الدين والعادات والتقاليد لوجه الله والأجداد، كما قال "تودير".

وثار الحاكم: (- أي نعم؟ الله والأجداد... والبابا لم لا؟ والقائد؟ أتعتقد أن هذا المصباح العتيق فكر يوما في القائد؟ لم يبحث ولو مرة واحدة عنه، لو فعل لأخبرني القائد، إنه غبي ولكن مطيع...)[15].

استغل "تودير" غضب الحاكم على الأمين، وأراد أن يثير الانتباه، فقال أن الأمين مسكين لأنه يعتقد أن كل شيء بيد الله، وضحك "تودير" من أولئك

---

[13] القائد في عهد الاستعمار الفرنسي يشبه العمدة في مصر.

[14] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p 96.

[15] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p 97.

المساكين المعتقدين بأن الغنى والفقر بيد الله: (فكر الكوميسار ناظرا إلى "تودير"، انت تعرف جيدا أيها الخبيث ان الثروة تأتي من الشيطان، ثم قال:

لماذا تضحك؟ ما يعتقده الأمين هو الحل، والثروة والقوة بيد الله، وفكر الكوميسار: (من المفيد اعتقاد الشعب بالله، لو لم يكن موجودا لوجب خلقه) وضحك لهذه الفكرة.

وضحك "تودير" ثانية، ولما رأى الكوميسار "تودير" يضحك مع علمه بانه لا يضحك من أجل نفس الفكرة ازداد ضحكا)[16].

ويعلم الكوميسار أن "تودير" خبيث ويخبره بذلك حتى لا يتخابث معه، ومع ذلك يري أن يبقيه في الجو العقلي نفسه الذي يعيشه قومه.

يستدعي الكوميسار "الأمين"، ثم يتركه ينتظر ساعتين بحجة أنه آت من بعيد ويحتاج إلى الراحة، وأثناء انتظار الأمين تشاغل الحاكم بالحديث في الهاتف والحديث مع مساعده بونيفاس، ملقيا عليه محاضرة في معاملة الأهالي عندما لاحظ أنه يتمتع بعقلية إدارية ممتازة؛ فبونيفاس يرى أن معيار الحكم على الأهالي هو مدى انتفاع السلطة به ولو كان ظالما[17]. رأيه ذاك أثار إعجاب رئيسه الذي أسرع يشرح كيفية معاملة الحاكم للمحكومين: (اعلم عزيزي بونيفاس، أن المرء الذي ينتظر يحس بالإثم، عندما يدخل هنا يكون همه التبرير والخلاص، فالانتظار الطويل من أنجح الوسائل.

ألقى السيد بونيفاس نظرة إعجاب حادة على الكوميسار. وأضاف الكوميسار، إضافة إلى ذلك، فالأهالي مثل الأطفال إنهم يؤمنون بالعدالة... العدالة... بفف... وضحك.

لا بد إذن من المحافظة على المظاهر، هذه يا بونيفاس، الكلمة الكبيرة في السياسية الأهلية، أن تكون واقعيا في تعاملك مع الجرائد أمام الرأي العام

---

[16] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, pp 98-99.

[17] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p 100.

والديمقراطيين (...) أمّا النقابات، والمنظمات النسائية، فهواء، وبمعنى آخر: يا بونيفاس، كلمات ثم كلمات، ثم كلمات، ودائما كلمات تنتهي بـ (... يّة)[18] إن أمكن، فذلك أفضل)[19]. ثم مثل الأمين بين يدي الحاكم ومساعده، وكانت أول إهانة تلقاها عدم مصافحة الحاكم له حتى اضطر إلى إرجاع يده دون مصافحة، وبدأت عملية العك واللك "فالكوميسار" يريد إثبات خطأ الأمين –وهو يعلم جيدا أنه لم يخطئ - وما كاد بونيفاس يحدث الأمين عن الإيمان بالله وأن الله أمر المؤمنين بطاعته وطاعة أولي الأمر منهم[20]، حتى هجم عليه الكوميسار محتدا غاضبا من الأمين على خروجه عن طاعة السلطة، بمساعدة الفقراء من مال موسري القرية دون علم الإدارة، وبذلك عصى السلطة صراحة وفهم "الأمين" المسرحية، فجلس ليستريح بعد أن أدرك الغاية، وأسرع بالموافقة على الاستقالة، وبذلك استراح من "أمانة" القرية وحمد الله على أنه لم يظلم أحدا. ولكن الكوميسار أراد إثارته: (فيم تفكر يا أمين؟ قال الكوميسار بسخرية، أفكر، أنه ينبغي احتقار العباد كثيرا، حتى يحكموا كما تحكمونهم أنتم)[21].وهكذا نرى أن الكوميسار حاكم ذكي في تطبيق سياسة السلطة، مطلع على عادات الأهالي وتقاليدهم خبيث في الوصول إلى أهدافه يستعمل الأساليب غير المباشرة في تسيير الأهالي. فيضغط اقتصاديا ومعنويا وروحيا واجتماعيا حتى يجرد ضحيته من كل عنصر من عناصر المقاومة فتحس بأنها تحت رحمته، لا مناص لها من بطشه، إنه حاكم قدير.

ولكننا خارج وظيفته لا نعرف عنه شيئا. وتصوير الروائي لشخصية "الكوميسار" يعتمد على المزج بين العديد من الأساليب الفنية كالوصف، ثم

---

[18] مثل الديمقراطية والإنسانية والاشتراكية.

[19] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, pp101-102.

[20] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, pp105-106.

[21] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p108.

الحوار، ثم الوصف، ثم المناجاة. وبذلك، قدم لنا شخصية الكوميسار من زوايا عديدة، تحدث عنها الروائي ساردا، ثم حوارا عندما تحاور الكوميسار مع "تودير"، ثم "بونيفاس"، ثم مع "الأمين". وبذلك، تجمعت آراء كلٍّ من الروائي و"تودير" و"بونيفاس" و"الأمين" في الكوميسار. أي نظر إلى "الكوميسار" من زوايا متعددة، فجاءت شخصيته مقنعة وواقعية، رغم إهمال الروائي لصفاته الجسمية إهمالا تاما.

أما الرواية الثالثة التي وردت فيها شخصية حاكم، فهي رواية "التلميذ والدرس"[22] لمالك حداد، وفيها يتقرب الحاكم -حاكم إداري لمدينة جزائرية صغيرة - من الدكتور إيدير (طبيب بالمدينة لا يحب الاختلاط بالحاكم وأمثاله من شخصيات المدينة) الذي يحضر -مكرها - حفلا رسميا. وهناك يقتنصه الحاكم (أخيرا انفردنا، إنني سعيد بوجودك بيننا هذا المساء، فاللقاء نادر جدا يا دكتور إيدير)[23]. إنه يتحدث بلطف ولباقة وكأنه يتحدث إلى أعز صديق، ولاحظ "إيدير" أن الحاكم: (رجل جميل، وربما جميل زيادة عن اللزوم، أشقر، منشرح، في الأربعين على الأكثر)[24]، وسأل الحاكم "إيدير" عن العمل، مُبْديًا كل الاستعداد لمساعدته في مكافحة الوباء الذي بدأت بشائره تظهر في بعض المناطق، وقبل أن يربطه "إيدير" بخطة محددة تهرب منه قائلا: (يا للشيطان، إننا خارج العمل هذا المساء...)[25] وأشار إلى الخادم، فأقبل بصينية المشروبات وأسرع يناول "إيدير" كأس خمر، ولما اعتذر "إيدير" عن شرب الخمر لم يعجب أو يسخر، بل امتدحه: (أنت حكيم)[26] ولما استفزه "إيدير": (كلا، لست حكيما، أنا مسلم لا غير)[27] لم يغضب بل قال: (إذن سنتناول نحن الاثنين عصير

---

[22] Malek Haddad: L'Elève et la Leçon, Julliard10/18, Paris, éd. 1973.

[23] Malek Haddad: L'Elève et la Leçon, p85.

[24] Malek Haddad: L'Elève et la Leçon, p85.

[25] Malek Haddad: L'Elève et la Leçon, p86.

[26] Malek Haddad: L'Elève et la Leçon, p86.

[27] Malek Haddad: L'Elève et la Leçon, p86.

فواكه)[28] وبذلك استطاع أن يؤثر في الدكتور "إيدير": (اعترف بأنني تأثرت بتلك السماحة)[29]. وزاد الحاكم من ملاينته لإيدير فاستشاره حول مشكلة أرقته، فهو في انتظار مولود وزوجته حديثة عهد بالبلد ولا يعرف إن كان الجو سيكون ملائما لزوجته وقت النفاس أو لا؟ ..

وقبل أن يجيبه "إيدير"، اعتذر. ولم يفق "إيدير"، إلا عندما وضع الحاكم يده على كتفه مقدما إليه زوجته[30]، منتهى اللطف واللباقة؛ الحاكم يريد أن يكسب ود الطبيب "إيدير" لأنه الطبيب الجزائري الوحيد في المدينة، والأهالي معجبون به، وله شهرة واسعة جدا، فلا شك أن كسب وده سيسهل الكثير من الأمور للحاكم، لأنه يريد أن يسير شؤونه في هدوء ويسر، لذلك استعمل الأسلوب المناسب لجذب الطبيب "إيدير" وعزف له النغمة المحببة –آنذاك - نغمة الاحترام واللطف واللباقة والمعاملة الحسنة، فهو يدرك أن "إيدير" طبيب أي مثقف، والمثقف الجزائري لا يؤثر فيه شيء وقتذاك، مثل الاحترام... وبذلك عرض مالك حداد شخصية معقولة للحاكم، فهو ذكي، يعرف كيف يجذب الناس إليه وكيف يعاملهم وكيف لا يثيرهم وكيف يؤثر فيهم، إضافة إلى ذلك، أشار الروائي إلى صفات جسمية هامة فهو جميل جدا وأشقر منشرح لا يتعدى الأربعين من العمر.

وأسلوب الروائي في تقديم شخصياته يعتمد على الحوار ذي الجمل القصيرة الخاطفة الموحية من بعيد مثل قول الحاكم لـ"إيدير" بأنه حكيم، لما رفض شرب الخمرة، فلم يرد الحاكم أن يجرح شعور الطبيب، بل أراد أن يحافظ على شعوره ومدحه أيضا، فرد عليه "إيدير" بجملة قصيرة تحمل معاني رائعة (كلا، لست حكيما، أنا مسلم لا غير) أراد الحاكم أن يقول له: أنت مثقف،

---

(28) Malek Haddad: L'Elève et la Leçon, p86.
(29) Malek Haddad: L'Elève et la Leçon, p86.
(30) Malek Haddad: L'Elève et la Leçon, pp86-87.

ثقفتك فرنسا حتى صرت تتخذ قرارات حكيمة، فرد عليه "إيدير" بأنه لم يتخذ أي قرار، ولا دخل لثقافته الفرنسية في الأمر، إنما لا يشرب لأنه مسلم مثل بقية إخوانه الذين لم يتثقفوا ولا يشربون الخمرة، هذا الأسلوب الشاعري ذي المعاني المتعددة هو السائد عند مالك حداد. وبجمله القصيرة جدا استطاع ان يعرض على القارئ صورة للحاكم الذكي الذي يريد الوصول إلى أهدافه بالأساليب المناسبة.

تشترك شخصية "الحاكم" في الرواية المغاربية الفرنسية في عدة أشياء، فالحاكم في كل الروايات ذكي جدا وخبيث جدا، لا يهجم على بغيته مباشرة، أسلوبه المفضل في الحكم الملاينة واللف والدوران، حتى يعري خصمه من كل شيء، مع الاعتماد على النفاق والرياء. فأمام الأهالي يعزف الحاكم على نغمة العدالة والتعاون وبناء البلد، ومع ضميره أو نوابه يشرح أبشع الأساليب لاستغلال الأهالي وتحطيمهم ماديا ومعنويا.

كما تشترك الرّوايات المغاربية الفرنسية في التركيز على سياسة الحاكم مع الأهالي مع الإهمال التام للصفات الجسمية، عدا شخصية الحاكم في رواية "التلميذ والدرس" لمالك حداد؛ حيث أشار الروائي إلى بعض صفات الحاكم الجسمية.

ويلاحظ تطور في رسم شخصية الحاكم، ففي رواية "الحريق" لمحمد ديب، نرى استغلال نائب الوالي لـ"قارا" وتهديده الخفي له ولغيره، بينما نرى في رواية "سبات العادل" لمولود معمري، الحاكم أكثر صراحة مع الأهالي، فهو يحطم كل مناوئ لفرنسا، ولا يهدده، بل يحطم كل طبيب يساعد الضعفاء، فهو يريد أن تبقى الإدارة الملجأ الوحيد، من تغضب عليه هلك ومن ترضى عنه ملك. أما في رواية "التلميذ والدرس"، فالحاكم دبلوماسي لبق، لا يجري وراء الفتيان أو الفلاحين المضربين عن العمل، بل يسعى لاحتواء طبيب، هو المثل الأعلى للمدينة. فمن التهديد إلى التحطيم إلى احتواء العقل.

رصدت الرواية الجزائرية تطورا واضحا في اهتمامات الحاكم تجاه الشعب الجزائري، وخطوات تطوره؛ كما نجد تطورا في طرق عرض الشخصية، فمحمد ديب يصف مع إيراد الحوار بين الحاكم والأهالي، ومولود معمري يصف ثم يعطي وجهة نظر مجموعة أشخاص في الحاكم، مع كشف الحاكم نفسه عن جوانب من شخصيته وآرائه، بينما يعتمد مالك حداد أساسا على الحوار المركز جدا، تتخلله جمل شاعرية ذات إيحاءات متنوعة. ومن هنا يتّضح انّ الرّواية المغاربية الفرنسية رسمت صورة الحاكم من زاوية واحدة –كما هو الشّأن عند محمد ديب –، أو من زاويتين –كما هو الشّأن عند مولود معمري –، أو من عدّة زوايا، كما هو الشّأن عند مالك حدّاد –، حسب تعدّد الشّخصيات المتفاعلة مع الحاكم.

وهكذا، عرضت الرواية المغاربية الفرنسية صورة الحاكم الفرنسي بعيوبه العديدة المستورة وحسناته التي يفتعل أكثرها.

والملاحظ أن صورة الحاكم لم ترد إلا ثلاث مرات، وفي ثلاث روايات لا غير.

جدول مكونات شخصية الحاكم

الرواية، كاتبها شخصياتها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الـــدور
"الحريق" ديب 1 - نائب الوالي	لا شيء	المداراة- المغالطة - النفاق	الضغط خفية على ضعاف النفوس من الأهالي لنشر الخوف والرهبة بين الشعب
"سبات العادل" معمري 1 - الكوميسار	لا شيء	حقود جدا -خبيث قاسي القلب	يحاول تحطيم كل ثائر بمختلف الأساليب
"التلميذ والدرس" حداد 1 - الإداري	جميل- اشقر في الأربعين	منشرح لبق جدا ذكي جدا -متحضر بعيد النظر - خبيث الغايات	يحاول ربط صداقة مع طبيب جزائري - مثال القرية ليتصل بواسطته بأجواء القرية

2-الجندي أو العسكري

عرف المغاربة الوجود العسكري الفرنسي بمعايشة العسكر للشعب المغاربي، ثم باحتكاك شباب المغرب به أثناء التجنيد الإجباري.

لذلك، وردت شخصيات عسكرية فرنسية في الرواية المغاربية الفرنسية مثل رواية "سبات العادل" لمولود معمري، التي تحدث فيها الروائي عن:

السرجان (الرقيب) الذي كان مسؤولا عن الأكل، فعلى الساعة الحادية عشر خرج قرب المطبخ مناديا على الأوروبيين، ولم يحضر أحد سوى المرشح "ارزقي" -بطل الرواية وهو شاب جزائري جند في الحرب العالمية الثانية وقائد لمجموعة من المغاربة -، فلم يهتم به السرجان ثم أرسل عسكريا للبحث عن الأوروبيين وبذلك حضرت مجموعة اتجهت مباشرة إلى الطاولات قبل مجموعة "ارزقي"، فحدثت

مشاجرة بين "ارزقي" ومجموعته المغاربية وبين المجموعة الأوروبية، فاقبل السرجان مسرعا: (أقبل السرجان معلنا أن الأسبقية للأوروبيين، فاحتج "ارزقي" بأنه حضر قبلهم.

إنه القانون، قال السرجان، الأوروبيون أولا.

وخلص السرجان إلى تهديد "ارزقي" قائلا بأنه "سيعطيه علقتين ليعلمه كيف يتصرف)[31]؛ حقيقة أن السرجان يطبق القوانين المتبعة آنذاك، لكنه يطبقها بصَلف واحتقار، وإلا كيف يتجرأ سرجان على مرشح.

الملازم أول "شيرو"[32] الذي يستقبل المرشح أرزقي مبشرا إياه بالمهمة التي سيقوم بها، ففي الجبهة "مزرعة" غير معروف إن كانت محتلة من طرف العدو أم لا، وأرسلت إليها فرقة للاستطلاع، لكنه سيرسله الليلة مع فرقة ثانية، ولما يسأله "أرزقي" عن سبب إرسال فرقة ثانية يجيبه بكل بساطة وبراءة بأن الفرقة الأولى نسيت أن تعود[33]. وسكت الملازم "شيرو" عند هذا الحد، فهو لا يثرثر ولا يناقش ولا يتكلم إلا إذا لزم الأمر.

الملازم "ريني"[34] الذي تعرف عليه "أرزقي" في الجبهة الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية، وتكونت بينهما صداقة متينة فشارك في الحرب العالمية الثانية لأسباب شخصية، فهو يعتقد أن الحرب مجرد تصفية حسابات: (لقد رأيت الفريتز[35] مدة سنتين، رأيتهم كثيرا في الألمان[36] كانوا يرغموننا على النزول من فوق الرصيف، ليمر السادة، اتفهم... لذلك لا أطلب إلا رؤيتهم... لأصبح عليهم بالخير...).

---

[31] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p125.

[32] الملازم أول شيرو -Lieutenant Chiroux.

[33] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p152.

[34] الملازم ريني–Sous Lieutenant Reynier.

[35] المقصود بكلمة الفريتز الألمان Frita.

[36] ألمان "منطقة صناعية بفرنسا" Mans.

عندما يتذكر بأن الفريتز (عادة يسمهيم "الأوغاد") يعبون أجود خمور فرنسا (لا خمور الراين البيضاء، لأنه يفضل البوجولي[37]، وعندما يتذكر ان الفريتز الصغار يلاحقون في الحشيش بنات فرنسا (لا الألمانيات بنظاراتهن وظفائرهن الطويلة، اللائي يقلن: يا، كل حين) يحتقن وجه ريني الأحمر بطبيعته: آه، الأوغاد)[38].

وهذه الأمور هي التي جعلت "ريني" يعتقد أن الحرب مجرد تصفية حسابات، لذلك ما إن سمع بتكوين جيش فرنسي في إفريقيا حتى أسرع مخترقا جبال "البرانس" في عربة خرطال حاملا معه أهم أشيائه الخاصة وأثمنها مثل غليونه وبعض الأعداد من جريدة "أوست إكلير"[39]، واخترق البلدان دون أن يعيرها أدنى اهتمام: (فالبصر، القلب والفكر ممتدة إلى اليوم الذي سيرى فيه أرض فرنسا التي نفاه منها الأوغاد، فكل ما وقع لريني مجرد قوس، لفة قام بها ليعود من الجهة الأخرى لبلد البوجولي والغليون والضحكات والفتيات الجميلات اللائي سيلاحقهن في الحشيش. وللحصول على كل ذلك لا بد من التخلص أولا من الفريتز)[40]. لا بد أن يصفي "ريني" حساباته مع الألمان الذين حرموه متعته، وأفسدوا الحياة في بلده.

يحتفظ الملازم ريني بغليونه وأعداد الجريدة لأسباب: (فغليون ريني لم يكن شيئا ثانويا، بل كان ريني نفسه يعتبره مثل شفتيه أو عينيه كان يعضه أثناء الحديث، ويمضغه ما بين الأكلتين، يحشيه متلذذا أوقات الراحة[41] ويحتفظ بأعداد الجريدة إلى ما بعد الحرب عندما يلتقي بكل المنافقين

---

[37] البوجولي خمرة فرنسية مشهورة على اسم منطقتها Le Beaujolais .

[38] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p 159.

[39] أوست إكلير- Ouest Eclaire.

[40] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p160.

[41] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p160.

والمتعاونين، ويقول لهم كلمات وستثبت أعداد الجريدة كلامه يومذاك، ولهذا فهو يخاف من الحفر، وكان يشمئز دوما من الحفر والخنادق والدخول فيها)[42] لأنه لا يريد البقاء في حفرة، بل يريد العودة إلى بلد "البوجولي" و"الفتيات الجميلات" ليتمتع بغليونه وما يتبعه. رغباته واضحة وأهدافه محددة ودوافعه معقولة، ولذلك توطّدت الصداقة بينه وبين "أرزقي"، ولما توفي حزن عليه "أرزقي" حزنا شديدا، وعبر عن حزنه ضمن رسالة كتبها –ولم يرسلها – لأستاذه: (لو قلت لكم أستاذي العزيز، أن فقدان "ريني" لم يؤثر في لكنت كاذبا لأن سنة من الحياة في السراء والضراء ليست هينة)[43].

– إنسان يعرف ما يريد، عرض الروائي صورته بوساطة وصف الراوي له وهو أرزقي – والروائي أحيانا.

الملازم[44] "رو" الذي ولد في الغرب الجزائري ونشأ فيه قرب مدينة وهران، يجهل فرنسا تمام الجهل إنه يتحدث عنها بتعابير كتب التاريخ أو خطب الولاة في الزيارات الرسمية، إلى درجة أن السامع يرغب أن يصفق له في النهاية[45]؛ فهو يتحدث عن تحرير فرنسا مثل "ريني" (ولكن شتان بين كلمات "رو" المجوفة وفورات "ريني" المؤلمة[46]. وكانت رغبته الوحيدة هي انتهاء الحرب ليرجع إلى "مونتانياك"[*] –بلد قرب وهران كانت تسمى بهذا الاسم أيام الاستعمار –، (قرب المدفئة لابسا الخفين ومستمعا لابنه روني "يستذكر جدول الضرب" وصار خفا "رو" مضرب الأمثال في الفرقة)[47]؛ فلا هم للملازم "رو" إلا الحنين إلى خفيه

---

(42) Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, pp160-161.

(43) Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p165.

(44) الملازم "رو"–Sous-Lieutenant Roux.

(45) Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p162.

(46) Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p162.

(*) مونتينياك–Montagnac.

(47) Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p162.

في الركن الدافئ قرب المدفأة يراقب ابنه "روني"، وبذلك يكون "رو" المثل الحي على الكسل وحب الدعة وقلة النشاط، واستطاع الروائي الإيحاء بذلك بواسطة تركيزه على تعلق "رو" بخُفَيْهِ الدافئين والركن الدافئ قرب المدفأة، والدفء من اهم بواعث الكسل وما عدا الكسل، والدعة فإننا لا نكاد نعرف شيئا عن الملازم "رو".

وفي رواية "نجمة" لكاتب ياسين ذكر لضابط فرنسي، تعرف عليه الأخضر -من الشخصيات الرئيسية في الرواية وهو طالب بالثانوي طرِدَ من الدراسة في حوادث 8 ماي 1945 أثناء المظاهرات لمطالبة فرنسا بالوفاء بوعودها - في السجن وأعجب به، رجل متين من شمال فرنسا بشوارب حمراء يشرب باستمرار من مطرته(*) المعلقة في حزامه أثناء ساعات الحراسة[48] ولم يضرب أحدا من المساجين، فقد كان رجلا بحق، وعندما ذكره الأخضر بذلك اشمأز: (آه، لا تحدثني عن ذلك...)[49] ولذلك أصر الأخضر على دفع حساب الخمر التي شرباها معا في الخمارة.

وأثناء حديثهما، ذكر الأخضر أن رمضان قريب، أبدى الضابط تعجبه من الأهالي، فكلهم يشربون الخمر ومع ذلك يصلون صلوات عجيبة وكأنها حركات رياضية بطيئة يعرضها شريط سينمائي[50]. وبذلك ثارت ثائرة الأخضر على الضابط الذي أعجب به، فها هو يسخر من الأهالي ودينهم، ولكن الضابط شرح رأيه للأخضر: (لا أقول أي شر في صلواتكم، يمكنكم الطيران في برانيسكم الملائكية، إذا كانت الرياضة الإلهية تعجبكم، فأنا من الشمال والكنيسة والمسجد سيان عندي، ولا أقلق من أجل ذلك: فأنا من بلد بروليتاريا)[51]. إنه لا يحب

(*) المطرة: القربة المعدنية التي يحمل فيها كل جندي ماء-Gourde.

[48] Kateb Yacine: Nedjma, p61.

[49] Kateb Yacine: Nedjma, p61.

[50] Kateb Yacine: Nedjma, pp61-62.

[51] Kateb Yacine: Nedjma, p62.

الجندية إطلاقا، بل يكرهها لأنه رأى بعينيه ما فعله "الشلوح"[52] في بلده أثناء الحرب العالمية الثانية، وغلى الدم في عروق الأخضر عند سماعه "الشلوح": (الشلوح كلمة أخرى مثل "بيكو"[53] طبعا نحارب معا "البوش"[54] في الخطوط الأولى، ومع ذلك فالفرنسيون لا يفرقون بيننا وبين العدو. وندم على نطقه كلمة "بوش" لقد ألصق بي مرض السلالات)[55] وكيف لا يغضب الأخضر، وهذا الضابط الذي أعجب به يحتقر المغاربة بإطلاق أسماء عنصرية عليهم، ورغم ثورة الأخضر، فإن الضابط لم يهتم كثيرا ونصح نديمه: (لا لزوم للغضب مثل التركي (...) وأحس الضابط بندم صادق، وهو يملأ للأخضر الكأس)[56]، هذا الضابط الفرنسي المتين البنية الأحمر الشوارب يشرب الخمر كثيرا لأنه يكره الحرب ولا يهتم بأي دين، فهو من طبقة عاملة همها النجاة من مشاكلها؛ ولذلك فهو لا يضرب أحدا من المساجين، بل يشمئز من تذكر الأعمال. ورغم كل هذا، فمغاربة المغرب الأقصى "الشلوح" عنده والمغاربة عموما "بيكو" والأتراك مثال لسرعة الغضب، فهو من أمة أرقى من تلك الأمم إنه عنصري رغم انتمائه للبروليتاريا.

كما نجد في رواية "نجمة"، بحارا فرنسيا التقى به الأخضر في القطار في مقصورة من الدرجة الثالثة، ولما هم قروي جزائري بالنزول مع زوجته ساعده البحار في جمع أمتعته وتعجب الأخضر من تصرفات البحار: (... لقد أظهر الثامن من ماي أن طيبة هذا البحار يمكن أن تترك المكان للوحشية، فالتسامح

---

[52] الشلوح: مجموعة من البرابرة يعيشون في جبال المغرب الأقصى جندتهم فرنسا في صفوفها بالقوة مع بقية إخوانهم المغاربة.

[53] بيكو: كلمة فرنسية سوقية يطلقها الفرنسيون على المغاربة وتعني الجدي أو الدابة الغبية، فالمغاربة كلهم "بيكو".

[54] البوش: كلمة فرنسية سوقية أطلقت على الألمان إبان الحرب الثانية.

[55] Kateb Yacine: Nedjma, p62.

[56] Kateb Yacine: Nedjma, p62.

يكون دائما البداية... ماذا يفعل هذا البحار ذو اللكنة المارسيلية في قطار جزائري؟ بطبيعة الحال، القطار ممول من فرنسا...)[57]، واستخرج البحار علبة السجائر مقدما سيجارة للقروي والأخضر، فزاد عجب الأخضر، لماذا هذه الطيبة المفرطة؟ إنهم يريدون محو جرائمهم ... وبسرعة طرد الأخضر هذه الفكرة إنه "بحار طيب".

قد يكون والده أحد البؤساء... وربما يكون قد عرف الجوع في المرسى العتيق... فلم يصب بعد بالعدوى من هؤلاء، ولذلك فسيتغير مثلهم، سيقال له: (إنهم لصوص، كنودون، لا يحترمون إلا العصا، ويوم ذاك لن يقدم سجائر لفلاح...)[58].

تعجب الأخضر من تصرفات البحار ولطافته وطيبته، وظن أنه يمثل، ولما طرد هذه الفكرة، مفكرا أنه قد يكون طيبا، بئيسا وابن بئيس ظل متأكدا من أنه سيتغير مثل غيره، ولن يقدم سجائر للفلاحين، فرغم وجود أمثاله من الفرنسيين الطيبين إلا أن طيبتهم ليست دائمة، فالفرنسيون الأشرار كثر، والشر سريع الانتشار...، وفي نهاية [رواية آسيا جبار "أبناء العالم الجديد"[59] حديث بسيط عن عسكري فرنسي يحرس مجموعة من المقبوض عليهم، يثور ويغضب عندما يسقط واحد من المحجوزين ويأمره بالقيام: (انهض "كلب ابن كلب" زمجر العسكري الذي تعلم من هذا البلد الشتم وطول النفس)[60]، لقد تعلم إذن الشتم من هذا البلد وسوء المعاملة، وكيف لا يتعلم مثل ذلك من هذا البلد وهو آت للمشاركة -مكرها - في هذه الحرب اللعينة: (لم يخفض العسكري عينيه، وقال: "هذه الحرب القبيحة" لقد سئم، عمل ممل جدا حراسة هذه الأشباح المنهوكة المرفوعة

---

(57) Kateb Yacine: Nedjma, p63.

(58) Kateb Yacine: Nedjma, p63.

(59) Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, Juillard10/18, Paris, 1962.

(60) Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, p20.

اليدين دائما (...) وخفض عينيه: الرجل يئن في التراب منكمشا من الركبة إلى الرأس "كلب مات" فكر. كلب قضى...)[61].

وهذا الجندي يكره الحرب كما يكره الأهالي أيضا، ويحتقرهم فهم في نظره مجرد كلاب لا يستحقون الحياة.

أما رواية "الأفيون والعصا"[62] لمولود معمري، فتحوي مجموعة صور لعسكريين فرنسيين هم:

الملازم الأول "ديليكليز[63]" الذي كان مسؤولا على ثكنة بقرية "تالا" في القبائل الكبرى ويتسم "ديليكليز" بسمات محددة، الأولى الصراحة مع المثقفين الذين يتعامل معهم، فعندما سمع بحضور الدكتور بشير الأزرق –من أبطال الرواية - أراد في البدء أن يبقى محايدا ولكن أحداث الثورة جرفته فانضم إلى صفوفها وكان سفره إلى مسقط رأسه "تالا" بهدف الالتحاق بصفوف الثورة، فطن إلى خطورة حضور مثله إلى القرية، فالمرجّح أنه ينوي الالتحاق بالثوار، ولذلك استدعاه إلى مكتبه واستقبله بأناقته المعهودة، ولباسه الخفيف، الدقيق ثم قدم له السجائر وحدثه عن المطر والجو الجميل ثم انتقل إلى السؤال عن مهنته وامتداحه[64]، وعندما لاحظ أن الدكتور بشير يريد التهرب من المواجهة، قطع عليه الطريق، ومن الحديث عن الطب وإيمان الناس به وبخاصة القرويين البسطاء، أمثال هذه القرية دخل في الموضوع، فسكان القرية قرويون بؤساء وبسطاء، لذلك (من الواجب حمايتهم من الأفكار الخداعة والرعاة الأشرار والمحاولات الخطيرة)[65] وأحس الدكتور بشير بالخطر فتذكر وصية أمه وهو

---

[61] Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, p21.

[62] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, Plon Pocket, Paris, éd. 1970.

[63] الملازم الأول: ديليكليز - Lieutenant Delecluse

[64] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p 65.

[65] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p 65.

خارج من البيت لمقابلة الضابط "كن أبله"[66] وحاول أن يعمل بوصية أمه وقال للضابط (أقول لكم الحق، لقد غادرت الجزائر لأفر منها من كل هذا ولأبتعد عن جو هذه الحرب التي لا معنى لها والتي يحارب فيها كل واحد الآخر)[67].

واعتقد الدكتور بشير أن كلامه هذا قطع الحبل على الضابط ولكن "ديليكيز" يحسن عمله جدا: (ليست الحياة في الجزائر رائعة جدا ولكن... لا تغلط يا دكتور... لقد كنتم في وضع أحسن، بحيث كان من الأسهل عليكم أن تعيشوا دون أن يهتم بكم... في الجزائر يوجد مجال كامل من المياه الممتزجة أو الظلال... أما هنا... أنظروا هذا الأفق (ويمد ذراعه) إلى نهاية امتداد اليد، وبعد ذلك، فخطر لا لزوم له (ونظر إلى بشير في عينيه) لذلك، فالكل هنا يلعب سافرا ولا وجود إلا لفريقين دون متفرجين، ففي عائلتكم مثلا "بلعيد" في فريق وعلي في الآخر، "علي" ضائع بالنسبة لبلعيد ولكن بلعيد خائن بالنسبة لـ"علي" أترى الغباء.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة تواطؤ تعني: أترى؟ أنا صريح معك، أنا وأنت من عالم واحد، عالم الأذكياء المثقفين الذين يتصارحون حتى وإن كانت الصراحة مؤسفة للواحد أو للآخر)[68]، وبذلك اضطر الدكتور بشير إلى التصريح بأنه لا يستطيع مجادلته وإقناعه، ولم يجد خيرا من السكوت وزاد "ديليكليز" الموقف إحراجا بأن قال للدكتور بشير أنه وكما تحدث أحد الخطباء عن الرهان، يراهن على انخراطه..."[69]، ومع ذلك فهو سعيد بوجوده، وسعيد باستقباله أي وقت يشاء ومنحه رخصة مرور[70].

---

(66) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p 66.
(67) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p 66.
(68) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, pp 66-67.
(69) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p 67.
(70) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p 68.

اما سمة "ديليكليز" الثانية، فهي الذكاء والخبث في تسيير أعماله، ومعاملة سكان القرية، فعندما علم بدخول الثوار إلى القرية ومساعدة الأهالي، جمعهم مستفسرا عن أسباب مساعدتهم للثوار مستغلا معلوماته التي استقاها من كتاب "الوجيز في الخدمات النفسية" والتي يقوم بتجربتها يوميا، وراح يثير نخوة الأهالي، بأن قال لهم أنه يعرف السبب، فهم يساعدون الثوار لأنهم خائفون، اقعدهم الجبن، وهو يعلم جيدا ان الأهلي لا يقبل إطلاقا أن يوصم بالخوف والجبن بناء على ما ورد في الوجيز[71]:

(للسيطرة على فرد وتوجيهه أكثر من المجموعة التي تخضع لقوانين "حول سيكولوجية الجماعات انظر الفصل الثالث المخصص لها"، يكفي كشف نقطة الضعف فلكل رجل مصلحة ما: هوى، حقد، شبق، خيلاء مجروحة، طموح شرعي أو غير شرعي، "وغالبا ما يكون الطموح غير الشرعي أنفع وأجدى" حب المال، ضعف، وبذلك فللرجل دائما مأخذ يؤخذ منه)[72]؛ واستغل هذه النقطة جيدا إلى درجة التحدي، معلنا أنه يتحدى أي واحد يدعي عدم الخوف من الثوار، وراح ينظر في الجميع متحديا، وبذلك أثارهم حتى اضطرهم إلى كشف أفكارهم، فهم يريدون منه السلاح ليدافعوا بها عن أنفسهم أمام الثوار، ولكن "ديليكليز" يدرك جيدا الهدف من طلبهم ذاك، وكيف لا يدركه وهو الذي أوحى لهم بالفكرة، أراد أن يطلبوا السلاح بحجة الدفاع عن أنفسهم، وهو يدرك أنهم لن يوجهوا طلقة واحدة ضد الثوار ليورطهم في الحراسة، فهو لن يوزع السلاح على السكان فتلك عملية غير معقولة، إنما يستجيب لطلبهم بأن يحرسوا القرية بأنفسهم مع أفراد العسكر، وأتى بالقوائم وحدد أماكن الحراسة، وشرح كيف تتم العملية، وبذلك أصبحت القرية مسؤولة المسؤولية كلها عما يحدث فيها، فأهلها حراسها، وبذلك وضعهم أمام الأمر الواقع... وسمة "ديليكليز" الثالثة هي

---

[71] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, pp 95-96.
[72] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p 96.

طريقته الحربية، فهو لا يتفق إطلاقا مع القيادة المكونة من ضباط تعلموا القتال في الكتب، والحرب عندهم: "مقاتلة العدو في الميدان"[73]، لأنه يرى أن الحرب شيء آخر.

لقد أرسل ستة تقارير خلال ستة أشهر أوضحت تدريجيا نجاح منهجه في الحرب، لأن الثورة تختلف عن الحرب التقليدية ولأنّ سبب الثّورة هو أساسها ومحورها؛ ولذلك لا بد من كسب الشعب (ومن أجل ذلك كتب تقاريره الستة بعناية، وأبرز تقدما باهرا بين تقريره الأخير الذي يعرض حسنات الطريقة السيكولوجية من بدايتها حتى نهايتها)[74]؛ ويجلب الشعب -بمختلف الوسائل - يجعل الثوار كالسمك خارج الماء، وكلما استعمل العنف وما يتبعه من أساليب الحرب التقليدية اندفع الشعب ناحية الثوار، وهكذا نرى الضابط "ديليكليز" يعتمد في الحرب على الطرق النفسية مثل التوجيه والدعاية ودراسة العادات والتقاليد واستعمال كل وسائل الضغط غير المباشرة لجلب الشعب، وبث العيون والجواسيس بينه حتى يعرف كل صغيرة وكبيرة، فلا يضرب إلا وقت اللزوم، وولع "ديليكليز" بالطرق النفسية بلغ به خرق القوانين العسكرية، فعندما جاءه عسكره بثائرين لم يرسلهما إلى المكتب الخامس -المخابرات العسكرية -بل أمر ضابط الأعمال السيكولوجية أن يجلب منهما كل المعلومات الممكنة، فطموح "ديليكليز" يدفعه إلى استغلال كل الفرص[75].

إن "ديليكليز" أنيق في ملبسه، لبق الحديث، دقيق الأعمال، وعدا ذلك لا نعرف عنه شيئا. وعرض الروائي صورة "ديليكليز" مبينا لنا بالسرد أعماله وأفكاره وآراءه وكلامه أيضا. لذلك، فالقارئ يشعر دوما أن الضابط غائب، فـ "ديليكليز" عبارة عن مجموعة من الأوصاف والتقارير.

---

(73) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p 123.
(74) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, pp 122-123.
(75) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p 176.

والملازم الأول "بذرة العنف"[76] الذي كان معجبا بهذا الاسم المطلق عليه، رغم أنه لم يكن أعنف من غيره[77]، لا يحب مقابلة سوى الفلاقة[78] الحقيقيين ومجابهتهم، لذلك كان رؤساؤه معجبين به كثيرا، ويعتقدون أن إصراره مع زبائنه يهدف إلى الحصول على أكبر قدر من المعلومات. حقيقة كان الحصول على المعلومات غرضا من أغراض "بذرة العنف" ولكنه لم يكن الغرض الأساس، فغرضه الأساس من الإصرار مع المستنطقين هو الجانب الرياضي من العملية، تلك النشوة التي يشعر بها وهو يدفع الخصم إلى آخر مدى، ملاحظة متى يتخلى عن العناد، التلذذ برؤيته يتعذب شتى أنواع العذاب وترقب الاعترافات المرفوضة. الانشراح برؤية "الفلاق" يقاوم طويلا وحتى آخر فصل ثم تكون النهاية للمهزلة بلذة ولحياة "الفلاق" أيضا[79].

العنف إذن هو صفة هذا الضابط، ولذلك ابتدر الدكتور بشير -الذي يسلم له ليتحقق معه - مستهزئا من أناقته: (السيد ذاهب إلى حفل)[80]، وبسرعة أدرك الدكتور بشير أن هذا الضابط غير سوي، ولذلك صمم على إفساد لذة الضابط بدفعه إلى الحديث ثم تبني طريقة دفاع. وما هي إلا دقائق محددة حتى شرع الدكتور بشير في إلقاء عرض مطول -وقد لاحظ جهل الضابط ونفوره من كل الأمور العقلية والنظرية - عن الحضارة المسيحية والأمم المتحدة، والدفاع عن الغرب[81]... إلخ وبسرعة: (رأى ملامح "بذرة العنف" الوردية تتغير بسرعة من بسمة الاستهزاء إلى برطمة الاحتقار إلى ذهول نتيجة عدم الفهم (...) خرج "بذرة العنف" مسرعا كالريح، وسمعه بشير يصرخ أمام الباب: آه

---

[76] بذرة العنف: Graine de Violence.

[77] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p153.

[78] الفلاقة: جمع فلاق أي الثائر أو المجاهد وسمي فلاقا لأن الشائع عنه عند الفرنسيين أنه يفلق كل شيء.

[79] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p 153.

[80] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p 153.

[81] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p 154.

انت هنا يا رقيب؟... ما هذا الذي اتيتني به؟... إنه انثى... سيبكي من الصفعة الأولى، ومن الثانية سيلقي روايات... انت تعرف جيدا انني لا احب الرخاوة... زيادة على ذلك فهو متعلم... (...) ويتحدث عن عذراء "اورليان"... إنه مقرف... ارحني من زبونك، فلقد ازعجني سلمه للمدنيين، لقد خلقوا لمثل هذا)[82]. وهكذا استطاع الدكتور بشير أن يفسد متعة "بذرة العنف" في الاستجواب مبرزا عضلاته باستعمال مختلف الأساليب العنيفة. "فبذرة العنف" يرغب في التعامل مع اناس اشداء ليرضي غروره بتحطيم كبريائهم وكسر شدتهم، ولكن الدكتور بشير انتبه إلى عقلية الضابط وتظاهر أمامه بالولع الشديد بالثقافة مظهرا الليونة والطراوة، وبذلك أثار اشمئزاز الضابط -فهو لا يريد إلا كسر الأعواد الصلبة لتظهر قوته - ونفره من استنطاقه لأنه لا يستطيع الاستنطاق إلا بالتعذيب والضرب والشتم والاستهزاء. أما الاستنطاق بواسطة الحوار والمنطق والمحاجة، فيحتاج إلى ثقافة وعقل راجح وهدوء أعصاب وذكاء حاد وكل هذه الصفات يفتقدها "بذرة العنف" فهو مثل الثور الهائج، قوة وضجيجا وفراغ عقل.

ولرسم شخصية "بذرة العنف"، استعمل الروائي أسلوب السرد مبينا أسباب تسميته ورأي الضابط فيه، ثم رأي الدكتور بشير -عدوه - ثم كشف عن شخصيته وأخلاقه من خلال إيراد كلامه وموقفه من الدكتور بشير، أي حكى الروائي عنه كل ما يتصل بأسلوبه في العمل، وعدا ذلك لم يرد عنه شيء فهو إنسان عنيف ولوع بالقوّة العضلية.

أما العسكري "جورج شوديي"[83] الذي أسند إليه الضابط حراسة "فلاقين" أُلقي القبض عليهما، وبعدما أمعن فيهما النظر تأكد بأن لا فرق بينهما وبين رفاقه الفرنسيين إلا سوء التغذية البادية عليهما والسمرة الزائدة، وبذلك أزال

---

(82) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p 184.

(83) Georges Chaudier.

من رأسه اعتقاده الخرافي حول "الفلاقة" فهم بشر مثل كل البشر[84]، ولما شرع الضابط في تعذيب أحد الأسيرين تعجب منه جورج: (إنه غبي هذا الفلاق، فحتى الصراخ لا يصرخ، رغم أن الصراخ مريح، وربما ستخفف الجماعة من عنفها"[85].

ثم فتح حديثا مع "علي" -الأسير الثاني - عن أعمال "الفلاقة" الإجرامية وجبنهم، وعن رئيسهم الدموي المزاج، وعندما تعب الضابط ومساعده من تعذيب عمر -الأسير الأول - أخرجوه مهشما، ثم أركبوه طائرة هيلكوبتر، واعتقد "جورج" أنهم سيأخذونه إلى المستشفى، إلا أنهم قذفوه من الطائرة ووقع أمامهما أشلاء، فأدار "جورج" رأسه ولم يستطع النظر إلى الجثة، ولا لأسيره "علي"[86]: (رأى جورج الطائرة تعود في الغداة بالضابط. إنه يرى "الفلاق" يصعد هو الآخر: الذي كان أمامه، وبعد ذلك، جسما مقذوفا مع صيحة وحشية (...) ولكن، انتظروا، أمامه المجال إلى الصبح لحراسة هذا الميت مع إيقاف التنفيذ)[87]، إنه لا يستطيع النظر إلى إنسان حطم أشلاء، ولذلك ما أن أظلم الليل حتى عرض على "علي" الهروب، ولكنه صدم برفض "علي" الذي خشي أن يقتل بعد خطوة أو خطوتين، وتعجب منه "جورج" فبإمكانه أن يفرغ فيه رشاشته ولكنه أدرك بإحساسه وطيبته مدى خوف "علي" من العملية المعروفة، التي غالبا ما تعلن عنها إذاعة فرنسا مباشرة بعد حدوثها: (قتل أثناء محاولة فرار)[88]؛ ولذلك، اضطر إلى تعريض نفسه للخطر بتعليق رشاشته في شجرة بعيدة والعودة إلى مكان الأسير ليتمكن من الهروب مطمئنا، ولما تمت العملية، وتيقن من فرار "الفلاق" أدرك خطورة الموقف، إنه قد ينجو من الموت ولكن ماذا سيقول للمساعد والملازم والعقيد واللواء والأصدقاء والأب وجان ماري والأخت الصغيرة نيكول؟ ... لقد بدأ عملا ولا بد من

---

(84) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p 177.
(85) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p 177.
(86) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, pp 179-180.
(87) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, pp 180-181.
(88) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p 183.

إتمامه، وكانت تتمة العمل هي اللحاق "بالفلاق"، ليس بغرض إيقافه او قتله ولكن للذهاب معه عند الثوار، لأنه سئم من كل تلك الأوساخ هناك[89] ويمضيان الليل كل واحد حذر من الثاني، وتراود "جورج" فكرة مغرية هي الضغط على الزناد فقط وبذلك يكسب المجد والشهرة إذ سيقال أنه (تعقب خارجا عن القانون عدة كيلومترات معرضا حياته للخطر، واستطاع القضاء عليه في منطقة العدو...)[90] وبذلك سيكسب كل شيء ولكنه متأكد من زيف ذلك[91] فلم يفعل، وتابع طريقه مع رفيق الكفاح الجديد.

لم يكن جورج العسكري الفرنسي الشاب يعرف حقيقة الثوار، ولما عرفها تعجب مما يقال عنهم، وكان يصمهم بالجبن والغدر والمزاج الدموي، فلما رأى رؤساء –دعاة الحضارة والتقدم - يقذفون بالبشر من الطائرات، لم يستطع تحمل ذلك، فتفجرت عاطفته الإنسانية، وأطلق سراح أسيره الذي كان سيلقي نفس المصير وهرب معه، لأنه سئم من تلك الأعمال الوحشية، فهو شاب عاطفي حساس، يتمتع بروح إنسانية لا تقبل الغدر مهما كان مصدره... وعرض الروائي صورة "جورج شوديي" من خلال حواره مع أسيره ثم أعماله التي قام بها ثم مناجاته مع نفسه مجزئا العرض في فقرات ليست متباعدة جدا وليست متلاحقة. وبذلك عرض صورة العسكري الفرنسي الشاب الهارب من الحرب الاستعمارية التي خاضها قومه بدعوى الحضارة والإنسانية.

أما النقيب "مارسياك"[92]، فهو سليل أسرة فرنسية عريقة في المجد العسكري، دخل الكلية الحربية حسب تقاليد الأسرة: (ففي قائمة الاستقبال الكبيرة بمدينة نانسي لا زالت صورة جده البعيد هاجما في "رايخشوفن"

---

(89) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p 186.

(90) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, pp 186-187.

(91) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p 187.

(92) النقيب "مارسياك" Capitaine Marcilac.

بسيفه)[93] لم يكن "مارسياك" يكره شيئا مثل كرهه الشك والتردد ومرض الاهتمام بالدوافع والأسباب، لذلك لم يصل إلى نتائج مرضية في الخطابة لأنه لا يستطيع الحديث عندما يستطيع التأكيد فقط، فهناك الخير والشر، وكل منهما تام الوضوح ولا شيء بينهما[94] فلم الخطابة إذن، واللف والدوران لإثبات شيء مؤكد؟ فهو لا يقبل الأخذ والرد، وكثيرا ما فكر في الالتحاق بوحدة عسكرية مقاتلة ليحطم الفلاقة، والتخلي عن غليونه، والسبب الوحيد الذي يصرفه عن تنفيذ واحدة من العمليتين هو فكرة الانضباط الرفيعة التي بقي متمسكا بها من الكلية الحربية[95] وروح الانضباط هي الدافع الوحيد الذي دفع "مارسياك" إلى المشاركة في تدريب "النشاط النفسي" حيث علم أشياء كثيرة لم يذكرها ولم يدرسها أي كتاب عن الحرب التقليدية.

قرأ وناقش كتابات "ماوتسي تونغ" عن الحرب الثورية ومنها تعلم المبدأ الأساسي للحرب الثورية ويتلخص في: (يجب أن يكون الجيش في الشعب كالسمك في الماء)[96] وبذلك عاد إليه توازنه فلقد حلت بديهيات وقواعد جديدة مكان القديمة ورجع إلى مقر عمله عازما على تطبيق ما تعلم...[97]، عاد "مارسياك" إلى "تالا" خلفا للملازم أول "ديليكليز" فأمر بقطع كل أشجار الزيتون -لأن الأهالي تعللوا بأنهم لا يرون الفلاقة نتيجة كثافة أشجار الزيتون[98] -. ورغم ذلك، لم يستطع إيقاف مسيرة مجموعة من الثوار بل خسر أربعة عشر قتيلا، وبذلك أثار غضب العقيد في القيادة فاضطر أن ينفي عن نفسه مسؤولية تلك الخسارة مرجعا الأسباب إلى إخباره بمرور مجموعة الثوار في آخر لحظة ثم

---

(93) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p251.

(94) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p251.

(95) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p252.

(96) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p253.

(97) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p253.

(98) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, pp257-258.

قلة عدد العساكر وعدم إمداده بالعون[99]؛ وهكذا وجد نفسه مضطرا إلى تطبيق ما تعلم في الدورة التدريبية، فلجأ إلى ملفات الضابط السابق "ديليكليز" مستعينا بضابط النشاط النفسي الذي أرسل له منذ ستة شهور –وخيب أمله منذ اللحظة الأولى، لأنه كان ينتظر وصول رجل ضخم يحمل نظارات ويعتقد أن الحرب مشاكل رماية ينبغي حلها –[100]؛ وعمل كل ما في وسعه لاكتشاف من ساعد الثوار من سكان القرية، فاستعان بملفات سابقه واستعلامات "هاملت"[101]–ضابط النشاط النفسي – وأقاويل الطيب –عميل في القرية –، لكنه لم يتوصل إلى نتيجة. وبعد تفكير وتدبير قرّر رأي النقيب على القيام بعملية لمعرفة عملاء الثوار في القرية، ولما وقف أمام ضباطه شارحا خطته قال: (عندي هنا قائمة بثلاثين اسما، عشرون امرأة وعشرة رجال، كلهم مشبوهون، والمطلوب استنطاقهم واستخلاص أكبر قدر من المعلومات.

ثم توقف: بكل الوسائل.

لم يتمالك "هاملت" نفسه من التحرك فوق مقعده، أما الآخرون فكانوا يفكرون: (سيغلط مرة أخرى)[102]؛ وكان النقيب يعلم أنه على حافة القانون فالاستنطاقات المشددة ممنوعة، ولكن ما العمل؟ إنه يدرك أن القيادة لن ترضى عن تلك العملية –لو سمعت – ولكنها ستحميه، وذاك هو المهم[103]؛ وزيادة عن خوفه من القيادة، فقد كان خائفا من ضباطه وبخاصة المرشح "هاملت" –ضابط النشاط النفسي – والمساعدين اللذين كانا يهاجمانه علنا أثناء المناقشات العامة أو الأحاديث الخاصة، فالمرشح هاملت يقول عنه: (مارسياك؟ هو النموذج التقليدي للضابط المسن، الخوذة على الرأس والقفاز الأبيض في اليد. يتحدث

---

[99] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, pp274-276.

[100] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p 279.

[101] هاملت: Hamlet.

[102] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p284.

[103] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p285.

كثيرا عن المدرسة (...) يحلق ذقنه كل صباح، ويلعب الفروسية كل احد بعد الصلاة ويغضب كثيرا لأن الأعداء ليسوا جنودا حقيقيين بشارات وغمامات على العيون، وتقاليد وقوانين)[104]، أما المساعد؟، فهو يسخر منه لأنه -اي الضابط مارسياك - يحب حرب المجابهة، من بيارز ويكره حرب قطاع الطرق[105]... وتمت عملية الاستنطاق باستعمال مختلف الأساليب، منها أخذ الرضع من صدور الأمهات وتهديدهن بقتل أطفالهن والقيام بعمليات مسرحية توحي بأن بعض الأطفال قتلوا، فانهارت أعصاب البعض منهن، وحصل "مارسياك" على شيئين حصل على الحجة لمواجهة "هاملت" الداعية إلى اللين والهدوء، والدليل القاطع على تفاهة طرق "هاملت" النفسية وصلاحية طرقه العملية الفعالة، وهي معرفة أماكن اختباء الثوار في القرية: (عجبا خمسة مخابئ وأين؟ في كل الأماكن حيث يدرك الفلاقة أن روحك الطيبة لن تبحث عنهم فيها، مخبأ في ميضاة المسجد، أتسمع يا مرشح؟ عند ربك والثاني على بعد مائة متر من مقرنا، امام نوافذ مكتبك، في تلك الدار المهجورة التي كنت تراها طوال اليوم... لا بد انهم رأوك تشتغل... شجاعة... أو رذيلة، الثالث وراء الخزانة عند "فروجة" محميتك، يا سيدي المرشح، وأخت صديق فرنسا الكبير، بلعيد الأزرق، وأيضا اخت علي الأزرق صديقنا الآخر... من شدة صداقته حمل البندقية ليسمعنا ذلك أكثر والمخبآن الباقيان عند قرويين بعيدين عن كل الشبهات، يقدمان لك القهوة في بيتيهما، وفوق المخبأ حيث كان الفلاقة يسمعونك تمارس السيكولوجية. كم ضحكوا عليك)[106].

ولم يستطع "هاملت" مجادلته، واراد ان يتملص قائلا بأنه اخطأ لإيمانه بالمثل، وبذلك اثار ثائرة النقيب: (كلما سمعت حديثا عن المثل امسك

[104] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p278.
[105] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p279.
[106] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p325.

مسدسي... أتدري، يا مرشح، من أين يتماسك البشر ؟... من البطن، نعم ليس من القلب: إنه يترنح بسرعة وليس من العقل: فهو هواء، ولا نستطيع البناء على الهواء أما البطن فهو جاد وصلب... ولا يكذب... إنه أمر... له متطلبات بسيطة... يبدأ من الأحشاء)[107]. لقد اتضحت الأمور للنقيب "مارسياك" واستطاع أن يصل إلى مبتغاه بالطرق التي يؤمن بها، لذلك جمع سكان القرية ليخبرهم: (لقد اخترتم صفكم، وذلك أحب إلي: وبينكم وبيني، اتضحت الأمور أخيرا، إنكم أعداء وستعاملون على هذا الاعتبار)[108]. ومعاملة الأعداء معروفة، فهي العقاب الشديد، وليس معنى ذلك أنه حاقد عليهم كلا: (لقد زلوا، ولن يعرف لا الشفقة ولا الحق، فهو حاكم فقط، لقد أسندت إليه مهمة الانتصار على العدو، ولا يعمل إلا ما يلزم لذلك، أما الباقي فمن اختصاص القيادة، أما المشاكل المزيفة التي – مثل هاملت – شرعت فيها المنظمة الماكرة المتلونة للتخريب الشيوعي.

ثم أعلن النقيب بأنه لا يريد التفرقة بين أبرياء ومذنبين لأنهم مذنبون جميعا)[109] وقر رأيه على تدمير القرية، عقابا لسكانها العملاء للثوار... لقد عرفنا منشاه وفكره وطريقة عمله، ولا نعرف شيئا عن صفاته الجسمية وكل ما يتصل بها، فهو فكر وعمل، صوره الروائي من مختلف الزوايا: بسرد نبذ عن حياته وأعماله وأفكاره، وسرد آراء مرؤوسيه فيه وسرد مناجاته. ثم بالحوار الذي قام بينه وبين العديد من شخصيات الرواية، وبذلك تعددت زوايا رؤية النقيب "مارسياك" فجاءت أفكاره وعقليته وأعماله واضحة كل الوضوح.

–المرشح هاملت(*) – كما سماه النقيب "مارسياك" الذي كان يكرهه لتمسكه بأخلاق المسيح–، هو انموذج الفرنسي المتدين، فهو سليل أسرة كاثوليكية

(107) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p326.
(108) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p359.
(109) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p360.

(*) المرشح هاملت:Aspirant Hamlet.

متعصبة تصلي وتتناول القربان وتقوم بأعمال خيرية وترسل أبناءها إلى المدرسة اليسوعية... إلخ[110]. وتعلم المرشح "هاملت" –روني - في المدرسة اليسوعية فتشبع بمبادئها وآمن بالغرب والحضارة وفرنسا والكنيسة الكاثوليكية المقدسة[111]، فلما استدعي للجيش وأرسل إلى الجزائر للمشاركة في الحرب: (لم يذهب متحمسا (...) ولا مشمئزا. ألم يقل المسيح نفسه: "جئت بالسيف لا بالسلام"؟ فهو في غنى عن التلويح بالكلمات الضخمة: الحقيقية لا تحتاج إلى تعريف، إنها تعرف نفسها، والغرب والحضارة وفرنسا، والكنيسة الكاثوليكية المقدسة مجموعة حقائق)[112]؛ ولا ضرر أن يدافع عن كل ذلك بسلاحه. وعندما استلم "مارسياك" –رئيس هاملت - ملف هاملت أسرع ينقب عن نقائصه ولكن أمله خاب، فلا عيوب ولا نقائص ولا نقطا سوداء، ولم يجد في الملف شيئا يحدد شخصيته، إلا أن أحاديث "هاملت" عن نفسه أبرزت "لمارسياك" لوحة: (فرنسي متوسط متوسط جدا)[113].

التحق "هاملت" بالجيش إذن، مدافعا عن حقائق يؤمن بها: (فحارب وأحرق، ركل الأعجاز، قذف قبضته بسرور في وجوه من سموا "فلاقة"، ولكنه لم يغتصب نتيجة قرف شخصي وضعف، كما أنه لم يعذب لأن الفرصة لم تتح له، ورأى التعذيب، فلم يتلذذ ولم يتأزم ضميره، لأنه مقتنع بأن ما يحدث من أجل القضية)[114]. وبعد مدة شارك في عملية حربية واسعة النطاق، ومساء تلك العملية راودت فكره الشكوك والندم وكل الأمور التي تعلمها سابقا في تعليمه المسيحي، وبقي تأثيرها باهتا، غمرت ذهنه وأثناء إجازة وزيارة لمسقط رأسه –في فرنسا - حيث الخطيبة التي كان هاملت يسميها "الأب" وحيث الحشيش

[110] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p280.
[111] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p281.
[112] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p281.
[113] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p280.
[114] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p281.

الأخضر، والخمرة الجيدة، والكنائس العتيقة، وكل ذلك يسبح في السلام، ازداد إيمانا، ورجع متغيرا، يتوق إلى الاستشهاد في سبيل معتقده ومنذ ذلك اليوم لم يفتر حماسه وكأنه المسيح أو واحد من رعاته، مكلف بالدعوة إلى الكلمة الطيبة بمناسبة وبغير مناسبة، وبخاصة بغير مناسبة على حد قول مارسياك[115].

لقد وصف الروائي "هاملت" ساردا كل ما يتصل به سردا: فوصف وصوله إلى "تالا"، ونشأته المتدينة ورأيه في الحرب ضد الجزائر ومشاركته فيها ونماذج من أعماله. تفتح ذهنه على فكرة السلام القائم على وسائل سلمية، لا السلام القائم على وسائل وحشية، ثم دعوته للسلام. وعدا نشأته وتدينه وآرائه وأعماله، لم يذكر الروائي عنه شيئا، ولو غيرنا اسمه أو أضفنا إليه صفات جسمية لما تغير شيء في الصورة لأنه صورة روحية عقلية ليس إلاّ.

-ضابط النشاط النفسي: الذي قام باستجواب رمضان -أستاذ جزائري ماركسي ألقي عليه القبض لإشرافه على تنظيم خلايا ثورية -، ولما عجز عن إقناع رمضان وإضعافه، صرخ فيه: (هنا، محتشد الموت، فإذا كنت ترغب في الخروج ينبغي عليك أن تفعل اللازم)[116].

لقد نفذ صبره، وسئم من الأعمال التي يقوم بها، فهو يدرك جيدا أن المقبوض عليه ميت، فلماذا يحاولون الإقناع، والطرف الآخر لا يقبل الاقتناع؟ أمنيته هي التخلص من تلك الحياة القذرة، ولذلك كانت فرحته شديدة عندما قتل قائدا بارزا من قواد الثوار، فاعتقد أن الحرب انتهت وراح يبشر المعتقلين: (انتهت الحرب، قريبا سيكون كل واحد في بيته... وأنا كذلك... أنا كذلك... ورقص وحده (...) أمسك رمضان من زر السترة الأعلى.

---

[115] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p282.

[116] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p351.

- نعم يا صاحبي، أنا أيضا سأرى زوجتي... وابنتي... لها أربع سنوات، ابنتي... وجميلة. أتريد رؤيتها ؟)[117]. إنه لا يعرف ماذا يفعل ولا يدري ما يقول، فهو سعيد جدا لأن الحرب ستنتهي ويعود إلى زوجته وابنته، فهو لا يحب الحرب، ولو كان من محبيها لما فرح لانتهائها، إنه أنموذج الضابط الذي شارك في الحرب مكرها، ولو خير لما اختار المشاركة فيها ،ولكن...

وردت صور متعددة للعسكري الفرنسي في الرواية المغاربية الفرنسية، ولكل واحد سمات تميزه عن غيره، ففيهم العنصري المحتقر للمغاربة، وفيهم المستقيم الجاد وفيهم الواقعي المحدد الأهداف، وفيهم الخامل الكسول، وفيهم التقدمي أو البروليتاري الذي يكره محاربة الشعوب المستضعفة، ومع ذلك يشتم البعض من أبناء تلك الشعوب بشتائم عنصرية، وفيهم الطيب الذي لم تفسد طبيعته الإنسانية بعد، وفيهم الذكي جدا، والمثقف، ومثال الضابط المتفتح الذي يحسن اللعب على مختلف الحبال، وفيهم العنيف الغبي الذي لا يعتمد إلا على القوة العضلية، وفيهم الساذج الذي غُرِّر به وعندما عرف الحقيقة هرب من صفوف الجيش، وفيهم الجامد الفكر المحافظ في كل شيء وكأنه ضابط من ضباط نابليون بعث من جديد، وفيهم المتدين المحب للسلام والحضارة، وفيهم الكاره للحرب المغلوب على أمره. هكذا صورهم الروائي على اختلافهم. ولكنه اتخذ موقفاً واحدا إزاءهم جميعا، وهو انعدام ذكر صفاتهم الجسمية، فكل ما قيل عنهم، ذكر لأعمالهم مع الأهالي وذكر لأفكارهم في الحرب أولا ثم في مختلف أنشطة الحياة. لم ترد صورة متكاملة لأي جندي فرنسي في الرواية المغاربية الفرنسية، كما لم ترد أية صورة مشابهة لأخرى إنما هي مجموعة صور لأعمال العسكريين الفرنسيين، وأفكارهم موزعة دون تمييز على نماذج نمطية واضحة فلا نكاد نذكر أسماءهم، وإنما كل ما يبقى في أذهاننا هو الدور الذي قاموا به.

---

[117] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p353.

أما أساليب العرض فقد تنوعت واختلفت من شخصية إلى أخرى، ولكن الطابع السردي هو الغالب ثم الحوار، وطريقة عرض الصور هي الطريقة التوضيحية، فالروائي يبدأ حديثه عن شخصية من نقطة ما، ثم يتابع إيراد معلوماته بصورة متواصلة أو متقطعة، ولكنها تسير في خط واحد لتؤكد كلامه وتشرح آراءه، فإذا كانت الشخصية شريرة جاءت المعلومات لتوضح ذلك، وإذا لم تكن شريرة جاءت كذلك بقية المعلومات لتأكيد ذلك.

إن شخصية الجندي لم تترك في ذهن الروائي صورة إنسان بعينه، ولكنها كانت بالنسبة إليه عنصرا من عناصر طبيعة العدو الاستعماري، ولما كانت صفات الشر معروفة، وأفعاله أيضا مرئية وممارسة، لم يكن توزيع الأدوار والأسماء أمرا عسيرا.

جدول مكونات شخصية العسكري

الرواية، كاتبها شخصياتها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الـــدور
"سبات العادل" معمري 1- رقيب	لا شيء	عنصري عنيف	يمنع مجموعة من المغاربة مجندين من الأكل قبل الأوروبيين
2- ملازم أول شيرو	لا شيء	جاد – حاد	يأمر أرزقي بقيادة دورية استطلاع رغم خطورة العملية
3 -الملازم ريني	وجهه أحمر	صريح – لا يظلم ولا يظلم	انظم إلى جيش فرنسا ليثأر من الألمان الذين حرموه من متع بلاده فرنسا

4 -ملازم أول رو	لا شيء	كسول- خامل -ذكاؤه محدود	هدفه انتهاء الحرب للعودة إلى بيته
"نجمة" ياسين : 1 -ضابط صف	متين الجسم -شواربه حمراء	-لا يؤمن بالله - ماركسي بروليتاري يسخر من الأديان - عنصري	لا يضرب المساجين لأنه تقدمي يؤمن بالطبقات الكادحة ويشمئز من الحرب
2 -بحار	لا شيء	طيب القلب -إنساني	ساعد فلاحا لعدم تلوثه بالنزعة الاستعمارية
"أبناء العالم الجديد" جبار : 1 -عسكري	لا شيء	بذيء – عصبي	حاقد على الحرب لاعن لها
"الأفيون والعصا" معمري : 1 -الملازم الأول ديليكليز	انيق ولا شيء غير اناقته	الصراحة مع المثقفين - ذكي - خبيث واسع الاطلاع - يفكر جيدا - ميال إلى التجديد في عمله - دقيق	قائد عسكري في قرية يحاول فصل الشعب عن الثوار بالوسائل النفسية
2 -ملازم أول بذرة العنف	لا شيء	غبي -معجب بجسمه وعضلاته - عنيف جدا - عنيد جدا - جاهل مغرور بقوته	يقوم بعمل استنطاقي للمقبوض عليهم معتمدا على عضلاته

- جورج شودي	لا شيء	ساذج – رقيق العاطفة يؤمن بما يقال له – لا يحب الظلم – لا يحب التعذيب .	شارك في الحرب دفاعا عن الحضارة ولما رأى زيف ذلك انظم إلى الثوار
4 - النقيب مارسياك	لا شيء	واضح جدا – يكره المناقشة – جامد الفكر – منضبط – تقليدي – معجب بالتقاليد الفرنسية	قائد عسكري يحاول مسايرة الجيل الجديد ولكنه فشل لجموده
5 - المرشح هاملت	لا شيء	متديـن جدا	حارب دفاعا عن الحضارة ثم صار يدعو إلى السلام
6 -ضابط النشاط النفسي	لا شيء	يكره الحرب – يتمنى انتهاءها – ضعيف في عمله	يستجوب المقبوض عليهم باشمئزاز لكرهه الحرب

3- رجل الأمـن

كثيرا ما احتك المغاربة بالشرطة الفرنسية، لأنها السلطة المباشرة التي يلجأ إليها الجهاز الاستعماري للتعامل مع المغاربة، وانعكس ذلك الاحتكاك في الروايات المغاربية الفرنسية، فوردت فيها صور للشرطة ورجالها بمختلف درجاتهم.

في رواية "الحريق" لمحمد ديب، ألقت الشرطة القبض على "حميد سراج" شاب مثقف من دعاة الثورة، وفي المركز أحاطت به مجموعة من رجال الشرطة، وبدأ واحد منهم يضرب "حميد" على وجهه ويصرخ، ثم انهالت عليه الجماعة

كلها تضربه على رأسه وكامل جسمه حتى صار همه الأوحد المحافظة على الحياة لا غير، فشتموه أفظع الشتائم وبصقوا على وجهه وركلوه، إنهم وحوش، ولم ير حميد في وجوههم سوى الموت...[118].

ثم أخذوه عند المفتش لمتابعة الاستجواب، وكان المفتش قصير القامة، فهو لا يتعدى المتر والستين سنتيما، ضخم الجثة، قميصه الأبيض مفتوح الرقبة، وأسفل سترته يغوص في الظل، أخرج يديه من جيبيه ثم وضعهما فوق الطاولة وشرع يدق بأصابعه، ورغم انطفاء سيجارته فقد استمر يدق على الطاولة وكان وجهه غير حليق وفمه مفتوحا والشفة السفلى تتدلى، وبقي يدق[119].

مفتش منفر، فمنظره قبيح، ومما زاده قبحا إهماله لمظهره، فالوجه غير حليق والسيجارة تتدلى منطفئة والشفة السفلى تتدلى إضافة إلى تحجر أعصابه، فهو يدق ويدق حتى يجعل المستنطق ينهار، دون ضرب أو صراخ أو شتم، فهو مفتش محنك يعرف كيف يثير من يتقابل معه، وبواسطة السرد وصف الروائي أعمال الشرطة مع "حميد سراج"، ثم مقابلته للمفتش مستغلا صفاته الجسمية القبيحة لإبراز تأثير جسمه في معنويات المستجوب.

إذا كان مفتش محمد ديب هادئ الأعصاب مثيرا لأعصاب المستجوب، فمفتش كاتب ياسين في رواية "نجمة" على النقيض من ذلك تماما. حيث يقصّ الأخضر –طالب ثانوية شارك في مظاهرات 8 ماي 1945 وألقي عليه القبض –، كيف عامله مفتشو الشرطة: (علق المفتش السوط في حزامه، وأخذ حبلا مبللا من على حافة الحوض.

وتوقفت ركلات المفتشين الآخرين (...) شد وثاق يدي ورجلي الأخضر، ثم ركزت عصا في الوثاقين شلت حركات السجين ثم حمل ورُمي في الحوض

---

(118) Mohamed Dib: L'Incendie, pp106-108.
(119) Mohamed Dib: L'Incendie, pp120-121.

(...) احس بشيء بارد يوضع على شفتيه، ومن الطعم أدرك انهم يدخلون له حجرا كبيرا لحد الحلق لمنعه من إغلاق فمه. ثم وضع شيء ثان وتمكن من تحديده: إنها البداية المعدنية لخرطوم ري، وتدفقت المياه (...) وزاد الضابط تدريجيا منسوب الماء. الأخضر يتخبط بعنف)[120] ويدأ الصياح والصراخ والشتم: وحش، تكلم وسيطلق سراحك، تكلم فانت شاب، من هم رؤساؤكم؟ هيا يا لواطي، أتريد الموت؟ إنه يسخر منا ابن الفاجرة، وتنهال اللكمات ثانية وتشترك الحبال المبللة مع السوط في العزف على الرجلين المرفوعتين، ويزداد لهاث المفتشين بازدياد الضربات[121] وهكذا... إلخ، ثم يلتقي الأخضر برئيس فرقة[122] يكمل له الحساب فيفتشه ثم ينهال عليه باللكمات القاسية المحددة الهدف حتى يدميه. وعندما تتلطخ يده بالدم تأخذه نوبة عصبية عنيفة جدا فيمسك الأخضر يرجه بعنف، صافعا إياه بظهر كفه حتى اغمي عليه ولما أفاق الأخضر كان الضابط قد ذهب[123]... الضرب، ثم الضرب، وما يتبعه من مختلف طرق التعذيب، ذاك هو الشرطي في رواية "نجمة" لكاتب ياسين، الذي صور رجال الشرطة بأسلوبه المتقطع —سرد الحوادث والأوصاف مقطعة ومتداخلة في أجزاء الرواية –، دون ربط مع صعوبة اللغة مهملا الصفات الجسمية وكأن الشرطي لديه كتلة أعمال عنيفة لا غير.

وفي رواية "ساهبك غزالة"[124] لمالك حداد، يشير الروائي إلى خشونة الشرطة الفرنسية وقسوتها في معاملة المغاربة.

---

[120] Kateb Yacine: Nedjma, pp59-60.

[121] Kateb Yacine: Nedjma, pp60-61.

[122] رئيس فرقة: Brigadier.

[123] Kateb Yacine: Nedjma, p233.

[124] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، والدار التونسية للنشر، 1973.

كان الروائي في حانة يسكر، وإذا بحملة تفتيش يقوم بها أعوان الشرطة (إنّ أعوان الشرطة مسلحون). هات أوراقك.

لا ينبغي مخاطبة الناس باستعمال صيغة المفرد، لا، لا ينبغي أبدا مخاطبة الناس باستعمال صيغة المفرد (...) إن عملية "التعذيب" تبتدئ بمخاطبة الناس بصيغة المفرد: (ها هو أحد السكيرين يصرخ في ركن من أركان الخمارة:

- لقد شاركت في حرب 1914م إنه سكران، ولكن صحيح أنه شارك في حرب 1914م.

- مشاركتك في حرب 1914م كشعرة في مفرقي، هات أوراقك... وسأل عون من أعوان الشرطة المؤلف قائلا: ما عملك؟

ففسر له المؤلف، قال: السكر.

- ليس هذا بعمل وليس من صالحك أن تسخر مني وتستصغر قيمتي. وتساءل المؤلف في نفسه ترى ما عسى أن تكون قيمة شخص كهذا الشخص لو بيع؟ - أنا كاتب.

أهكذا تكون هيئة الكتاب إذن؟ ولم يلح عون الشرطة في السؤال. لقد أخذوا في سيارتهم ذلك الذي شارك في حرب 1914م، فليس مشاركة إنسان في حرب من الحروب بكافية لإثبات هويته)[125]؛ لقد خاطبت الشرطة الحاضرين بصيغة المفرد وذلك لا يجوز أبدا فصيغة المفرد لا تقال إلا للأطفال الصغار أو لمن زالت بينهم الكلفة أو للمحتقرين الضعفاء العجزة، وبالتالي فالشرطة تستصغر قيمة أولئك الذين خاطبتهم بصيغة المفرد، ثم سخر أحد الأعوان من رجل حارب سنة 1914م من أجل فرنسا، ومع ذلك فعمله ذاك مثل شعرة في مفرق العون... منتهى الاحتقار، حتى لمن خاطر بحياته في سبيل فرنسا؛ فإذا كانت الشرطة تعامل المغاربة بتلك الطريقة في الشارع، فكيف ستكون معاملتها لهم داخل

---

[125] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص24 -25.

المركز؟ أكيد أنها ستكون أبشع وأكثر فظاعة، في الشارع تعذبهم أدبيا وفي الداخل تعذبهم ماديا... فالشرطة عند مالك حداد عذاب أخلاقي وأدبي...

في رواية "أبناء العالم الجديد" لآسيا جبار، وردت صورتان لشرطيين فرنسيين هما المحافظ "جان"[126] والمحافظ "مارتيناز"[127].

- المحافظ "جان" رجل له سحنة حادة وملامح قاسية وأنف طويل وهيئة مميزة، يجلس دائما وراء مكتبه العريض وكأنه مركز هناك[128] قام باستنطاق سليمة –معلمة جزائرية منظمة إلى صفوف الثورة وألقي عليها القبض - أكثر من أسبوع بأسلوب واحد هو البرودة التامة في الكلام وتكرار الأسئلة من حين لآخر والإهانات الأدبية ومحاولات التخجيل والتهديد الضمني، وبذلك لم يستطع تنويع قاموسه، وبقي يدور في حلقة واحدة[129].

وفي اليوم العاشر، تعب من تلك اللعبة ورمى في وجهها صورة المشبوهين، لقد بدأ يضعف، هكذا فكرت سليمة، ومن البهو سمعت وشوشات في أحد المكاتب ثم سمعت المحافظ "جان" يقول محتدا و (–آسف إنه يصرخ - هو أيضا يصرخ. لن أفعل ذلك مع النساء. لا. ليس عندي. ليس هنا.

ثم وشوشات أخرى. ومن جديد هي والمحافظ يتقابلان، رفع عينيه نحوها لقد فهمته لأول مرة -لقد تعودت على إقناعه منذ عشرة أيام - تراه شاحبا والأسنان معقودة، وكان يحاول طمس الرعدة الخفيفة التي علت وجهه)[130]؛ لقد رفض لأعوانه ومساعديه شيئا ما... رفض أن يقوم بأعمال معينة مع النساء ثم رفض أن تقع تلك الأعمال في المؤسسة التي يشرف عليها إنه رجل: (له مبادئ

---

[126] المحافظ "جان": Commissaire Jean.

[127] المحافظ "مارتيناز": Commissaire Martinez.

[128] Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, p109.

[129] Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, p109.

[130] Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, pp110-111.

كما قالت سليمة)[131] وينتهي الاستنطاق ويتأكد المحافظ "جان" من قوة "سليمة" وصلابتها، فهي الأقوى، ويخبرها بانتهاء مدة الاستنطاق: (لقد انتهت مدة استنطاقكم، آنستي.. (...) ويستمر على هذا النحو البارد، وكأنه في قاعة وأكره على التوديع (...) لن يزعجكم شيء: لا يقول هذه الكلمات عادة لامرأة بجبهة عنيدة، إنما يقولها لرجال غالبا ما تكون سحناتهم ما زالت متورمة، وما ذلك إلا لبداية)[132]. المحافظ "جان" رجل شرطة لا يحب العنف ويترك كل أعمال العنف لأعوانه، أما مع النساء فهو لا يتخلى عن مبادئه نحو المرأة ولا يقبل مطلقا أن يتجاوز معها أي واحد حدود القانون، ولا نعرف إذا كان تمسكه بمبدئه ذاك يعود لأسباب خاصة أو تربوية أو حضارية، إلا أن أحداث الرواية تثبت تمسكه بمبدأ حسن معاملة المرأة، وميله إلى الاعتدال في القيام بأعماله، بتحديد سلوكه الوظيفي الذي يميز بين السياسة والأخلاق وتحديد بعض صفاته الجسمية، استطاعت الروائية أن تقدم صورة محافظ شرطة فرنسي، يقوم بأعماله ويحاول الحصول على معلومات، ولكن في حدود المعقول ودون تعدٍ على الروح الإنسانية، فهو إنسان يقوم بواجبه بلا تفريط أو إفراط، واستطاعت الروائية أن تقدم صورته بتوجيه الأنظار من عدة زوايا، فسليمة تحكي ما وقع لها وما فكرت فيه، والروائية تقص أيضا ما لم تذكره سليمة على صورة مناجاة المحافظ لنفسه، وبذلك سلطت الأضواء على الصورة من عدة زوايا، فجاءت مجسمة ومقنعة إلى حد ما..

- أما المحافظ "مارتيناز" فهو مساعد في الثامنة والثلاثين من العمر له جثة ثقيلة وأكتاف رياضي، ولكن خطوته لينة، عيناه ذات أجفان سمينة، وله ثقة حديثة بالنفس، ينتظر ساعته في هذه المدينة التي ولد فيها (حيث كانت أمه الإسبانية الأصل غسالة في ثكنة) وبنى فيها حياته ومستقبله.

---

[131] Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, p111.

[132] Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, pp111-112.

الأحداث الراهنة تساعده، وهو يعلم ذلك، فكلما امتدت الحرب زادت الحاجة إليه، إلى معرفته التامة بالأهالي والعناصر المسيّسة والمشبوهة في الناحية. وبذلك تتزايد ثقته بالنفس فمع زيادة ركيزة أو ركيزتين سياسيتين تتجمع لديه كل الفرص ليصير محافظا عاما قبل الأربعين، إنه نجاح باهر[133]؛ هكذا عرضت صورة المحافظ مارتيناز المشبوه الأصل والفرنسي الجنسية، فأزالت الستار عن صورته الشكلية أو الجسمية أولا ذاكرة عمره ثم واصفة جثته وهيئته من خلال ملامحه العامة ومشيته، ثم أشارت إلى طموحه الوظيفي واستغلاله الظروف وإمكانياته لتحقيق ذلك الطموح.

وبذلك عرضت الروائية الهيئة الخارجية أو المظهر الخارجي للرجل وأشارت إلى عنصر داخلي هام دون تفسيره أثناء تقديمها لصورة الرجل لكنها سرعان ما تبدأ في الكشف عن مظهره الداخلي، عندما تبرز جوهر الخلاف بين وجهة نظره ووجهة نظر رئيسه المحافظ العام في معاملة الأهالي.

فـ "مارتيناز" يأخذ على رئيسه: (سذاجته، نتيجة تشبثه بعدم استعمال القوة، القوة أولا، القوة عارية هي السياسة الوحيدة الرابحة في هذا البلد، إنه يمقت طريقة "جان" الباردة والمجردة في تسيير الاستنطاق وكأنه يقول لك: "اعمل ما يرضي ضميري"، "الضمير سيهلكك"، كان من الممكن أن يكون العجوز "مدير مدرسة طيب ليسأل بنفس الطريقة المؤدبة "البيكو" الصغار في شهادة الدروس الابتدائية)[134]. وهذا المحافظ لا يرى أية وسيلة لتسيير شؤون المدينة سوى القوة والعنف مع الأهالي كلهم، حتى مع "حكيم" - المفتش الأهلي - الذي يكرهه "مارتيناز" كرها شديدا لأنه أهلي، وكره من أجله المحافظ "جان" - رئيس العمل - لأنه يحترمه ويعطف عليه، بينما يرى "مارتيناز" أنه مثل غيره، والمفتش حكيم يدرك كره "مارتيناز" له جيدا: (أحس حكيم بأنّ الآخر قد أشهر

---

(133) Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, pp154-155.

(134) Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, p155.

مخالبه "إنه يكرهني، ولا يعرف كيف يعتبرني"، وليس له إلا طريقتان لمعاملة الناس: خادم أو متواطئ)[135] ولذلك كلفه باستنطاق "سعدي" -مناضل من مدينة حكيم - ليختبره، ويتأكد منه، فهو -اي مارتيناز - يخشى أن يكون "حكيم" سكينا ذا حدين[136] وزار المحافظ "مارتيناز" قاعة الاستنطاق مرتين لمشاهدة عمل المفتش رغم إحساسه من الوهلة الأولى أن "سعدي" لن يبوح بشيء.

فلمارتيناز حاسة يدرك بواسطتها من النظرة الأولى إذا كانت الضحية ستبوح أو لا؟ ولذلك، فهو غالبا ما يدخل في الوقت المناسب لدفع الضحية إلى البوح، فعندما يتأكد من تعب الضحية يدخل القاعة بوجهه البارد، ويجيب على أول سؤال فكان مارتيناز يستغل هذه العملية للتألق أكثر[137].

لذلك زار المحافظ قاعة الاستنطاق على سبيل العادة، وبعد مشاهدته سير العملية رضي عن نفسه لتكليفه المفتش "حكيم" بالعملية: (لمقاومة الفلاقة من الأفضل استعمال إخوانهم...)[138] لإدراكه أن "حكيم" سيبذل قصارى جهده حتى لا يوصم بالتعاطف مع الأهالي، بينما لو كان فرنسيا لما استطاع أحد أن يتهمه، فالمحافظ العام "جان" لا يقبل استعمال العنف، لإيمانه بمبادئ معينة، بينما لا يستطيع "حكيم" أن يتبنى أو يؤمن بتلك المبادئ لأنه أهلي ولن تفسر أعماله إلا بالتعاطف مع قومه، ولذلك استغل "مارتيناز" هذه النقطة الإنسانية ضاغطا منها على المفتش "حكيم" بلا رحمة أو شفقة، فلا هم له إلا السيطرة التامة على مرؤوسيه بأية طريقة، لإظهار مواهبه أكثر فأكثر وساعده على ذلك بروده التام[139].

---

[135] Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, p156.
[136] Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, pp156-157.
[137] Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, pp183-184.
[138] Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, p184.
[139] Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, p193.

أما الضمير وراحته، فتلك كلمات وترهات لا يأبه لها، وبذلك عرضت الروائية صورته الداخلية، وانطبقت الصورتان: الجثة الضخمة، والأكتاف العريضة والأجفان السمينة والمشية اللينة مع الطموح الشديد والثقة بالنفس اعتمادا على ظروف مواتية استغلها، أهمها معرفته الجيدة بالبلدة وأهلها وسلوكه مختلف الطرق لتحقيق مطامحه. وعرضت الرّوائية تلك الصّورة اعتمادا على سرد الأوصاف والأفكار.

أما في رواية مولود معمري "الأفيون والعصا"، فنجد صورة شرطيين هما:

المحافظ: (رجل حاد، انيق ومؤدب)(140)، قام باستجواب الدكتور بشير الأزرق بعد غيبة طويلة عن عيادته، لقيامه بتنظيم جهاز الثورة الصحي ورجوعه إليها لمدة قصيرة، وقبض عليه في اليوم الأول بعدما كشف أمره.

بدأ المحافظ استجوابه بحديث عام جدا عما يحدث في البلاد متهما الفريقين معا (أريد أن أكون صريحا معكم، المتحاربون مندفعون كثيرا... هؤلاء وهؤلاء على حد سواء... (...) لقد صاروا جميعا مجانين)[141]، فالكل مخطئ لأن الخطأ صفة بشرية، ويجب أن يسود العقل والتعقل. وأدرك بشير أن المحافظ سيصل إلى القوة الثالثة المكونة من أولئك الذين يقفون على مسافة واحدة من الطرفين المتحاربين، وفكر "بشير" أن المحافظ ناقص الخيال، فبدلا من البحث عن الحارس الأمين –أبو الهول - المحايد للبلد، كان من الممكن إيجاد شيء آخر، بدلا من البحث عن أولئك الذين لا يهمهم الأمر –وأين هم؟ - والاستفادة من حيادهم[142]؛ ومع ذلك فالدكتور "بشير" (يعترف بأن المحافظ يعمل بنزاهة، يختار كلماته، يحاول أن يكون موضوعيا، ويبحث عن الحجج الدامغة لإقناع هذا

---

(140) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p154.

(141) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p155.

(142) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p155.

المثقف الذي تعلم في مدارس فرنسا، ولكن كل ذلك لم يكن سوى مشهيات لا غير فالوجبة الأساسية ستأتي فيما بعد)[143]، واكتفى المحافظ في تلك الجلسة بالمشهيات والكلمات اللطيفة والأفكار الصريحة؛ وفي الجلسة الثانية بقي المحافظ متمسكا بهدوئه وحسن المعاملة محاولا إيجاد جو من الثقة المتبادلة ولم يسال "بشير" أسئلة مباشرة أو محرجة، بل راح يسأله أسئلة خاصة عن عمله ونبل مهنته ونوعيات زبائنه، إلا انه كان يدرج من حين لآخر سؤالا عن الثورة وجهازها الصحي بين بقية الأسئلة: (هل عندكم عدد كبير من الزبائن؟

- ما هي الأمراض الأكثر انتشارا عند مواطنينا المسلمين؟
- ما هي علاقتكم بالجبهة؟
- أعندكم زبائن أوروبيون؟ (لا ! حكم مسبق تافه من قبل الأوروبيين).
- حقيقة "عميروش" هو الرجل الخارق للعادة كما يقال؟ أنا أحتاط دائما من الخرافات.
- أتحبون الرسم الحديث؟ (بصراحة، أنا لا افهم فيه شيئا، لا شيء).
- كم تظنون عدد قوات الولاية الثالثة؟)(144).

ثم ينتقل المحافظ إلى مرحلة ثانية، فيترك "بشير" لمساعده موعزا إليه بالتشديد، وعندما يعود المحافظ يكمل عمل مساعده بالتصريح لـ"بشير" أن زميله "رمضان فراجي" –صديق بشير ورئيسه في العمل النضالي - أخبرهم عن كل أعماله في الجبهة، وأمام إصرار "بشير" على تكذيب كل ذلك، يعطيه المحافظ

---

(143) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, pp155-156.

(144) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p158.

فرصة أخرى، فإما أن يبوح بكل شيء وإلا فسيواجهه مع "رمضان فراجي" وأعطاه مهلة للتفكير، ليمتلئ قلبه بالمخاوف والهواجس[145].

يصر "بشير" ويذهب لإحضار رمضان ولكنه يعود وحده لأن رمضان هالك لا يستطيع الحركة... وبما أنه صريح فهو يعلن لبشير صراحة (حسنا، لقد لعبت... وربحت)[146] إنه شبه متأكد من مساعدة "بشير" للثورة، إلا أنه لم يستطع الحصول على الحجة الدامغة، فاعترف بربح "بشير" وانتصاره، ومع ذلك جرب آخر حيلة لديه، الثورة مستمرة، والمثقفون أمثال "بشير" انضموا إلى صفوفها، فما هي أفدح ضربة... يمكن توجيهها إلى الثورة؟ إنها تتلخص فيما طلبه المحافظ من الدكتور "بشير": (اسمعوا يا دكتور ستعلنون أننا لم نكن أشرارا معكم رغم ما ينشره المتمردون عما يسمونه "فظائعنا".. ونحن سنرسلك إلى دراساتك العزيزة... وبذلك تتخلص من كل شيء تخلصا حسنا... ولذلك طلبنا منك مكافأة صغيرة، ولمصلحتكم الخاصة، من الأفضل لكم مغادرة هذا البلد، هنا المحاولات كثيرة، وغالبا ما يجد المرء نفسه عاجزا عن الابتعاد عنها، فإذا ما التقينا مرة ثانية، فغير مؤكد أن تخرجوا في ظروف مثل ظروف اليوم.

هذا تصريح مرور باسمكم ولا أريد معرفة وجهتكم، إلا أنني آمل أن تكون إلى مكان حيث لن نلتقي أبدا، اللهم إلاّ إذا كنا نحن الاثنان في نفس الجهة من الحاجز، ثم قام)[147].

فإذا لم ينفذ تلك النصيحة، فعليه أن يختار بين أمرين: الأول الذهاب إلى مكان بحيث لن يلتقيا أبدا، وإذا ما التقيا فلن يخرج "بشير" من عند المحافظ مثل خروجه هذه المرة، أي الالتحاق بصفوف الثورة نهائيا وتحمل التبعات. والثاني الانضمام إلى الصف الذي يقف فيه المحافظ أي الوقوف ضد الثورة، وبذلك

---

[145] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p165.

[146] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p174.

[147] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, pp174-175.

ينجو من قبضة فرنسا، أي إذا أراد النجاة عليه الانسحاب المباشر، ويعني الانضمام إلى صف المحافظ؛ أو غير المباشر، ويعني السفر إلى فرنسا لمتابعة الدراسة، وإلا فليكن صريحا وليتحمل المسؤولية، ومن العروض الثلاثة يتضح ذكاء المحافظ فسبيلان –منطقيا - أضمن من سبيل واحد، فهو يدفع "بشير" بأساليب ذكية إلى عمل ما يرغب فيه هذا المحافظ الأنيق المؤدب الحاد الطبع الذكي جدا والمتقن لعمله بأحسن الأساليب. عرض الروائي صورته من خلال الوصف السردي والحوار بينه وبين غريمه وآرائه التي أبداها لغريمه –بشير -، وبذلك تعددت زوايا النظر إلى الشخصية فجاءت حية واقعية ومقنعة بحسناتها وسيئاتها.

المفتش: (رجل ما زال شابا، شعر الرأس قصير والملامح منبسطة)(148)، كلفه المحافظ بمتابعة استنطاق الدكتور "بشير" بعده، فأقبل مع مساعد وجذب الكرسي بعنف، ثم واجه بشير وكأنه نسر سيهجم عليه: (صوب المفتش نظرته الزرقاء نحو بشير:

–ستجيب عن أسئلتي.

كانت نبرته مدروسة، حادة وقاسية[149]، وشرع يلقي أسئلته بجد وحزم ولما وجد إجابات "بشير" سلبية كلها قال له: أتعلمون ماذا تفعلون؟ فتح بشير عينيه مستغربا.

–إنك تتحامق... وأنا لا أحب الحمقى.

رفع صدره بعنف واندفع خارجا كالريح، وكأنه في سباق[150].

الحدة في الكلام والمعاملة مع التمتع بالشباب وملامح منبسطة وشعر قصير، ذلك هو مفتش الشرطة في رواية "الأفيون والعصا" لمولود معمري. عرض

(148) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p160.
(149) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p160.
(150) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p162.

الروائي صورته البسيطة بوصف ملامحه الجسمية البسيطة ووصف حدته من خلال نتره الكرسي وحدة كلامه مع "بشير" أثناء تحاورهما، ونتيجة لبساطة الموقف، إذا ما قورن ببقية المواقف في الرواية لم تتضح صورة المفتش جيدا، ومع ذلك فمن إيحاءات الروائي ظهرت ملامح الصورة العامة.

يتسم الشرطي في الرواية المغاربية الفرنسية عموما بأعمال العنف. فالشرطة لا تعرف إلا الضرب المبرح بمختلف الوسائل والأساليب والشتم المقذع وسلاطة اللسان، فهي عذاب جسماني وأخلاقي أيضا دون ذكر للصفات الجسمية. ثم تغيرت هذه الصورة تدريجيا وتنوعت، فظهر رجل الشرطة الفرنسي القصير القامة، ضخم الجثة، المحنك في عمله، الواثق من نفسه، الطموح جدا -في بعض الأحيان -، الضارب عرض الحائط بالأخلاق وحسن المعاملة والروح الإنسانية في سبيل الحصول على معلومات بشتى أساليب العنف، لإرضاء رؤسائه أو للترقية في معظم الأحيان دون مراعاة لصراخ الضمير... كما ظهر رجل الشرطة الحاد الملامح الأنيق المؤدب ذو الهيئة المميزة، الذكي في القيام بعمله، الذي يبذل كل ما في وسعه للوصول إلى نتائج مرضية دون التعدي على الأخلاق، والتّأدّب وبخاصة مع النساء، دون تفريط في تأدية الواجب.

كما تطورت أساليب العرض كذلك، فمحمد ديب يكشف عن صورة في إطار بواسطة الوصف والسرد، ومالك حداد يعزف على إيحاءات الكلمات، وآسيا جبار ترتكز أساسا على إزالة الستر مع إبراز الصورة الداخلية بالحوار والمناجاة والسرد أحيانا، أما مولود معمري فيسلط الأضواء من عدة زوايا ليجسم الصورة، وبذلك تعددت أساليب عرض صورة الشرطي في الرواية المغاربية الفرنسية اللسان.

جدول مكونات شخصية رجل الأمن

الرواية، كاتبها شخصياتها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الـــدور
"الحريق" محمد ديب 1 - المفتش	قصير القامة- ضخم الجثة- وجهه غير حليق - شفته السفلى تتدلى	متحجر الأعصاب - محنك في عمله - هادئ	يستجوب الناس بإثارة
"نجمة" ياسين 1 - المفتش	لا شيء	بذيء- عنيف جدا	يستجوب بالعنف والضرب وكل وسائل التعذيب
"ساهبك غزالة" حداد 1 - الشرطة	لا شيء	السخرية -الاحتقار - التعذيب الأدبي	يقوم بعمليات تفتيش أساسها الاستفزاز
"ابناء العالم الجديد" جبار 1 - المحافظ جان	سحنة حادة - ملامح قاسية انف طويل - هيئة مميزة	هادئ جدا لحد البرود - ذو مبادئ إنسانية - لا يحب العنف	يستنطق الناس في حدود القانون وحسب رضا الضمير
2 - المحافظ مارتيناز	-في الثامنة والثلاثين -كتفان عريضان -خطوة لينة - أجفان سمينة	واثق من نفسه- طموح جدا - ذكي جدا - انتهازي لا يؤمن إلا بالعنف للردع - خبيث	يستنطق الناس بكل الوسائل ولا هم له إلا النتيجة لتحقيق مطامعه
"الأفيون والعصا" معمري 1 -المحافظ	حاد - أنيق	مؤدب - لبق - ذكي واسع الفكر - نزيه لطيف المعشر - يعمل بذكاء وخبث	يستنطق الناس بلطف ودهاء إذا لم يستطيع إلباس التهمة
2 - المفتش	شاب - قصير الشعر - منبسط الملامح	عنيف جدا - حاد الكلام	يستنطق بحدة وعنف كأنه سيهجم على غريمه

4- المعمـر

استولى المعمرون على الأراضي الزراعية الجيدة في المغرب العربي بطرق مختلفة –كما بينا في الفصل الأول من هذه الدراسة –، فظلموا العديد من المغاربة الذين ضاعت أراضيهم، ثم ظلموا آخرين بهضم حقوقهم واستغلال عرق جبينهم عندما شغلوهم في مزارعهم، وبذلك اتسع ميدان كراهية المغاربة للمعمرين، فكيف كانت نظرة المغاربة للمعمرين من خلال الروايات المغاربية الفرنسية؟

في رواية "الحريق" لمحمد ديب صورة عامة للمعمرين، فهم شذاذ آفاق جاؤوا بأحذية مثقوبة، ثم صاروا يملكون آلاف الهكتارات بعد أن اغتصبوها من الأهالي: (هكتارات بالآلاف صارت ملكية معمر واحد، هذا أو ذاك سيان: لقد جاؤوا إلى البلد بأحذية مثقوبة ما زلنا نتذكر ذلك، والآن يملكون متسعات لا تحصى من الأراضي)[151]؛ وبعد حصولهم على الأراضي صاروا يستغلون العمال ويأكلون حقهم، ويكدسون جبالا من الدراهم على حسابهم، كما وقع للشيخ "بادودوش" –فلاح كبير السن شارك في إضرابات الفلاحين ضد المعمرين –، فهو يقول للهاشمي –فلاح شاب شارك في الإضرابات أيضا –: (كنت شابا وقويا مثلك يا الهاشمي، عملت مثل عبد.

طبعا، بادودوش.

ولكن هم وحدهم يكدسون الفلوس.

طبعا...

إنهم يتضخمون ولا ندري أين سيصلون.

المساكين...

ويسممون حياة من يعملون من أجلهم.

---

[151] Mohamed Dib: L'incendie, pp30-31.

- إنهم مساكين، بادودوش.

بل وفيهم من هم أصدقاء لنا.

أحقا؟

نعم يوجد من يقولون أنهم أصدقاؤنا الوحيدون)[152].

هذان الفلاحان يدركان جيدا أن المعمرين يمتصون دماءهم ويثرون على حسابهم؟ كما يدرك بقية الفلاحين ذلك، فرأيهم في المعمرين واضح: (المعمرون لصوص)[153] واللص هو من يأخذ أي شيء بغير وجه حق إنهم مصدر بلاء المغاربة: (رفع ابن سالم عدة صوته:

- لماذا لا تتحدثون عن المعمرين؟ كل كلامكم معقول وحكيم ولكن ما فائدته؟ إنكم لا تقولون كلمة واحدة عن أولئك الذين جاؤوا لشقائنا كل مصائبنا جاءت منهم فإذا تحدثتم عن المصيبة ولم تتحدثوا عن مصدرها، فانتم تهرقون لعابكم سدى)[154]. نعم إنهم مصدر البلاء، فهم يستحوذون على الأرض ثم يمتصون العرق، فإذا ما اعترض الفلاحون، وأضربوا عن العمل مطالبين بأدنى الحقوق تبدأ المساومات، فالبعض يدعي الصداقة مع العرب، والبعض يزعم أنّ أجوره عادلة، والبعض الأخر يشفق على الزوجة والأولاد من الجوع. وإذا ما تجنب الفلاحون كل الإغراءات تأتي الشرطة، ويومذاك لن يبحث أي معمر عن فلاح، لأنه في السجن[155] وإذا ما بحث عنه، فمع رجال الأمن لحمله على العمل بالقوة[156].

---

(152) Mohamed Dib: L'incendie, p54.

(153) Mohamed Dib: L'incendie, p67.

(154) Mohamed Dib: L'incendie, p88-89.

(155) Mohamed Dib: L'incendie, p134.

(156) Mohamed Dib: L'incendie, pp126-127.

ثم يعطي الروائي صورة أنموذج للمعمرين هو المعمر "ماركوس"[157] الذي يمتلك مزرعة شاسعة، وكان فلاحوه لا يعرفونه حتى وقع حادث مات فيه فلاح بعد ما عجنته آلة الحصاد، فأقبل مسرعا يحمله فخذان صفيران، وعلا صوته المرتعش واضحا حادا، فأسكت مساعده: (لا يلمسه أحد هيا إلى العمل جميعا أسرعوا، قال كل ذلك بالعربية (...) ثم قال لمساعده بالفرنسية: لا بد من إحضار غطاء من المزرعة وتغطيته إلى أن يصل رجال الأمن، لن يتأخروا كثيرا وليعد كل هؤلاء إلى عملهم، خذ واحدا أو اثنين منهم للإجراءات الشكلية، لا تتركهم يتكلمون كثيرا، سأشرح الأمر بنفسي لرجال الأمن وسيفهمون. فسبب الحادث تهور الأهالي، ثم قال للعمال بالعربية: إلى العمل إلى العمل وإلا ستخصم الساعات الضائعة من المرتب لقد ألهب الانفعال وجنتيه الصفيرتين)[158].

لا شيء يهم المعمر "ماركوس" إلا استمرار العمل، أما حزن الفلاحين على أخيهم فهراء، وأما موت فلاح فسببه تهور الفلاح نفسه وسيفهم رجال الأمن القضية بسرعة لدرجة أنه يرفض ترك الفلاحين يقصون الحادثة. فهو أدرى بها منهم رغم عدم وجوده ساعة وقوعها؟، وفي هذا الموقف بالذات يهددهم بخصم الساعات الضائعة، فهو واثق من نفسه، كيف لا يثق وهو ابن عائلة معمرين[159] تعلم من عائلته العريقة كل أساليب القسوة والترهيب حتى صارت نظرته قاطعة كالسكين[160] بل بلغ به العنف إلى حد تشغيل العمال تحت رحمة المسدس[161].

وجنتان صفيرتان وفخذان قصيران ونظرات حادة كالسكاكين، وترفع عن الأهالي وعدم مقابلتهم إلا للضرورة، مع الحرص الشديد على سير العمل ولو تحت السلاح، مهما كانت الظروف —ولا ظرف أقسى من الموت - والحرص

---

(157) ماركوس: Marcous

(158) Mohamed Dib: L'incendie, pp76-77.

(159) Mohamed Dib: L'incendie, p77.

(160) Mohamed Dib: L'incendie, p77.

(161) Mohamed Dib: L'incendie, p123.

الشديد على الخصم من مرتبات الفلاحين على ضآلتها؛ هذا هو المعمر ماركوس الذي يمثل المعمرين في رواية "الحريق" لمحمد ديب.

ولقد صورهم بذكر المؤلف لأعمالهم وسردها من طرف الروائي نفسه او من طرف شخصيات مشاركة في الأحداث أو بواسطة الحوار بين مختلف الشخصيات، اي قدم نظرات خارجية وأخرى داخلية وأخرى مشتركة، إنه يصف مرضا جاثما على صدور المغاربة، ولم يجدوا له دواء، فذكر شكواهم المرة منه، فالمعمر إذن بلاء حل على المغاربي عند "محمد ديب".

وفي رواية "سبات العادل" لمولود معمري صورة معمر آخر هو: "استروفر"[162]: (رجل سمين احمر منتفخ...)[163]، رأى خروفا دخل مزرعته فطلب إحضاره مع راعيه وشرع: (السيد استروفر يوجه لكماته عشوائيا لأن الغضب خنقه (...) وتلقى جسم الراعي الضعيف معظم تلك اللكمات، وكان يتدلى كضفدعة صائحا من قبضة المعلم وكأنه مذبوح)[164] وعندما تمكن الراعي من الفرار تابعه "المعمر" وبعد عجزه عن اللحاق به أمر عاملا بإحضاره، وجمع حقده كله في ركلة قاسية وجهها إلى عجز الطفل، وعندما أراد عامل تخليص الطفل من يد المعمر كان جزاؤه اقتطاع كلب المعمر لجزء من فخذه، ففر هاربا[165].

الحقد الذي طال حتى الأطفال الصغار وشدة المعاملة مع السمنة والاحمرار والانتفاخ، تلك هي أوصاف المعمر "استروفر" في رواية مولود معمري.

ونجد صورة معمر آخر في رواية "ابناء العالم الجديد" لآسيا جبار، هو المعمر: "فيران[166]" إنه معمر سعيد، لأنه أتم الحصاد وخزن العلف ودفع أجور العمال ثم ذهب إلى المدينة ليستريح في حانته المفضلة. وهناك جلس مديرا عينيه

---

(162) استروفر: Estroffer.

(163) Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p67.

(164) Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p67.

(165) Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, pp67-68.

(166) فيران:Ferrand.

من البؤساء المارين[167]، ولم يفق من نشوته، إلا عندما حياه أحدهم باحترام بالغ، فراح "فيران" يحدثه عن مناقشته مع ممثلهم في البرلمان، مؤكدا أنهم لا يحاربون إلا حفنة من المشوشين، وسريعا ما يتم القضاء عليهم، إلا أنه تذكر تهديد الثوار له، إذا لم يدفع الغرامة، فتمنى أن تنتهي الحرب حتى لا يدفع ولا تمس ممتلكاته وبذلك يتمتع أكثر بممتلكاته ومدينته وعاداته[168].

و"فيران" رجل بلغ الخمسين من العمر وبدأت أعراض الروماتيزم تهدده، لذلك فهو يسير بتمهل محييا كل معارفه وممازحا لسائقه، إنه سعيد أيضا بسيارته العريضة[169]، هذا المعمر رجل مجتهد يحب التمتع بأمواله، كما يحب الهدوء والراحة والتقاليد المعادة.

عرضت الروائية صورته بسرد تلك المعلومات البسيطة عنه، والتي لم تعط صورة حية له لأنها لم تذكر سوى رضاه عن نفسه، وبلوغه الخمسين من العمر، والمعمرون عادة لا يكسبون -في البداية - شيئا، جاؤوا بأحذية مثقوبة ثم امتلكوا الأراضي بمختلف الطرق واستغلوا العمال، لقد لاينوا من غضب منهم، ومن تمادى في غضبه ردع بالشدة والعنف، والمعمر عادة سمين منتفخ أحمر الوجه حاد النظرات، مترفع عن الأهالي حقود عليهم، لا همّ له إلا جمع المال بانتزاع الأراضي وامتصاص العرق والمعمر لص ومصدر البلاء.... والملاحظ أن محمد ديب لا يصف المعمرين إلا بالعنف ومعاداة الأهالي، ثم تخف تلك النغمة شيئا ما حتى تصل إلى الرضا والهدوء عند آسيا جبار، وهذه المراحل الثلاث تبين شيئا عن صراع الأهالي مع المعمرين.

والأسلوب السائد في تقديم المعمر هو السرد مع الحوار أحيانا والمعمر الوحيد الذي جاءت صورته واضحة بعض الوضوح هو المعمر "ماركوس".

---

(167) Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, p256.

(168) Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, pp256-257.

(169) Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, p258.

ولم يرد ذكر المعمر الفرنسي بوضوح، إلا في ثلاث روايات، ولم تتضمن تلك الروايات غير ثلاث شخصيات وذلك لضعف تأثر الروائيين المغاربة بالمعمر وبعدهم عن المشاكل التي واجهها الأهالي مع أولئك المعمرين.

جدول مكونات شخصية المعمــر

الرواية، كاتبها شخصياتها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الـــدور
"الحريق" محمد ديب 1 - المعمرون	لا شيء	مستغلون أكالون للحقوق لصوص منافقون عنيفون	اغتصبوا الأراضي ثم امتصوا العرق وكدسوا الدراهم على حساب الأهالي
2 - ماركوس	- فخذان صغيران - صوته مرتعش - وجنتان صغيرتان - نظرات حادة	رهيب- عنيف بخيل جدا	يحتال حتى على الأموات حيث كذب على السلطات ومنع العمال من ذكر الحقيقة
"سبات العادل" معمري 1 - استروفر	سمين- أحمر- منتفخ	حقود - عنيف جدا	كان يقتل طفلا لأن خروفه دخل المزرعة
"أبناء العالم الجديد" جبار 1 - فيران	في الخمسين من العمر مريض بالروماتيزم	مجتهد - محب لمباهج الحياة	يتصنع اللطف مع العرب ولكنه يتمنى فشل الثورة ليستمر في الاستغلال والتمتع

5- رب العمل

إن استيلاء المعمرين على الأراضي لم تكن الوسيلة الوحيدة التي ضغط بها الفرنسيون على المغاربة، فقد ضغطوا عليهم بالعمل في المصانع العصرية التي قضت على الصناعات اليدوية مصدر عيش طبقة واسعة من الأهالي.

وفي رواية "نجمة" لكاتب ياسين صورة نموذجين فرنسيين كانا يسيطران على الرقاب بالعمل هما:

السيد أرنست[170] رئيس العمل دائم الحذر من العمال -الأهالي -لا يتخلى عن مراقبتهم خفية وإزعاجهم، لذلك فالعمال يحذرونه ولا يثقون في كلامه ووعوده، فكثيرا ما وعدهم شيئا ثم فعل شيئا آخر[171]؛ وكلما حان وقت الغذاء وأحضرت له ابنته غذاءه تزيد حدته مع العمال، فما سبب ذلك يا ترى؟ لا شك أنه قلق لخوفه من حقد العمال عليه، فهو يلاحظ أكلهم ويقارنه بأكله أو لخوفه على ابنته -الشابة - التي تحمل إليه الأكل كل يوم[172].

وبعد الأكل يخرج من مخبئه ماسكا عقب السيجارة وناظرا إلى العمال بوَجْهِهِ الأغبر[173] في محاولة للسيطرة عليهم إلا أنه لا ينجح، وغالبا ما يصطدم بالبعض منهم، ولكنهم يخضعون له والبعض منهم يعرف عنه أسرارا هامة مثل "امزيان" –عامل شاب - الذي: (يعرف قصة العسكري "أرنست" الحاصل على رتبة ضابط صف، وأمين المخزن في تونس والطباخ في إيطاليا: "لقد ربح دراهم المنزل في العسكر" كما يعرف بقية العمال أيضا أشياء هامة: "لم يدخل السجن قط وكاد يصير ضابطا، إلا أنه صرح بالتخلي عن حقوقه)[174].

وبسبب هذا الصراع بين "أرنست" والعمال، كثيرا ما يحدث بينه وبينهم خصام وعراك كما وقع بينه وبين الأخضر -عامل شاب كان طالب ثانوية ثم طرد من الدراسة في حوادث8 ماي 1945 - يوم زجره ونقر رأسه بمسطرة حديدية، وعندما رأى الأخضر دمه سائلا ألقى برئيس العمل أرضا فشج رأسه، وفر هاربا...

---

[170] أرنست: Ernest.

[171] Kateb Yacine: Nedjma, p12.

[172] Kateb Yacine: Nedjma, p13.

[173] Kateb Yacine: Nedjma, p46.

[174] Kateb Yacine: Nedjma, p47.

إن "ارنست" لص محترم سرق أموال جيش بلده وبنى بها دارا، إنه يعيش في خوف دائم[175]، ذاك هو رئيس العمل الذي صوره الروائي بأسلوبه الذي يعتمد على التقطيع، تقطيع المعلومات وذكرها مجزأة في أماكن عديدة ومن زوايا مختلفة، وبذلك جاءت صورته مقنعة رغم هامشيتها ضمن تتابع أحداث الرواية.

المقاول "ريكار"[176] صاحب الشركات والمزارع والمتاجر والحافلات إنسان حريص جدا على مواعيد عمله اليومية، فكل يوم يكون وراء عجلة قيادة حافلته في الساعة السابعة، تلك الحافلة التي تنقل ستين مسكينا لا يكلمهم السيد "ريكار" ولا يكلمونه، فهم يكرهونه ويشتمونه سرا، رغم تلذذه بسماع الشتائم لحرصه على إثارة العرب وإشعال حقدهم[177]، وعندما يصل المدينة يحس قهرها له، فهو لا ينظر إلى الواجهات بل يتوجه مباشرة إلى الحانة التي لا يعرفه فيها أحد، وهناك تحرجه النادلة بسؤال خبيث: (متى زواجكم سيد ريكار؟)[178] وينظر إليها ريكار: (هذه الوغدة تعتقد اني عاجز عن إيجاد امرأة، خرافة نشرها اليهود والعرب رغم علمهم بأني تزوجت قبل أن يولدوا بالمراسلة أيضا، الشيء الذي لا يستطيعون حتى تصوره)[179]؛ إنه يدرك أن هذه الأقاويل لا تصدر إلا من العرب واليهود لأنهم يكرهونه لكنه يعرف كيف يفندها.

عند تناوله الفطور، يراقب عولته اثناء تحضير الخادمة لزاده وهو يرش زاده بالخمرة التي لا تباع، وأمامه على الطاولة لتر من شراب "الروم" الذي لا يذوقه أحد سواه حتى ولو كان اليوم يوم عيد المسيح، إنه يحمل معه زاده لأنه لا يعود من المدينة إلا ليلا ويمكث هناك طوال العشية ليشرب عدة كؤوس حتى

---

(175) Kateb Yacine: Nedjma, p49.

(176) المقاول ريكار: L'Entrepreneur Ricard.

(177) Kateb Yacine: Nedjma, pp13-14.

(178) Kateb Yacine: Nedjma, p14.

(179) Kateb Yacine: Nedjma, p14.

يسكر، وبذلك يظهر الشيخ السعيد الذي كان من الممكن أن يكونه لو لم يرث من والده الشح من أيام العربة.

وعندما تدق السادسة ينتهي من أحلام البارحة، فينهض وقبل خروجه يخنق الخادمة مفتشا ملابسها عن القهوة التي سرقتها[184]، ثم يسرع إلى حافلته التي لا يسمح بالركوب فيها لمن لا يروق له وجهه. لذلك ليس له إلا أعداء[185]. وتمت خطة "ارنست" و"ريكار"، فزوج الأول ابنته لأغنى رجال القرية، وتزوج الثاني من ابنة أحد أثرياء القرية وكاثوليكييها، وحاول "ريكار" التّقليل من الخسائر أثناء عرسه، فلم يدع إلا القلة من المعارف ورغم ذلك قتلته الحسرة على فتح منزله لأولئك المدعوين الذين عاثوا في المنزل فسادا[186]. وتعترض الخادمة على عبث المدعوين وتبذيرهم وانتقامهم من صاحب العرس بإفساد كل شيء، ويثور في وجهها البعض منهم محاولين إسكارها (ليضيعوا عليها فرصة دخول الجنة)[187]، كما قال واحد منهم. وبعد نجاتها من قبضتهم تشتمهم –مع فورة الغضب - فتثير أعصاب العروس –التي ضاعت منها تلك الليلة -، وتهرع إليها حاملة السوط لتأديبها ولكن السيد "ريكار" يسبقها وينهال على الخادمة بالسوط ممزقا جلدها ومفرغا كل حقده: حقده على الخادمة وحقده على المدعوين الذين نهبوه، وحقده على العروس وأهلها الكاثوليك، وحقده على نفسه...[188].

"ريكار" الذي عرض الروائي صورته من خلال كشفه عن أجزاء من شخصيته بذكر عاداته وبعض من أحداث حياته، وآراء الآخرين فيه، ثم أعماله وتصرفاته مع الناس بالاعتماد على عنصر "التداعي" أثناء سرد الأحداث. فالسيد "ريكار وهو جالس، يشرب الخمرة يرفع قبعته من على الطاولة فينتقل الروائي إلى

---

(184) Kateb Yacine: Nedjma, pp17-18.
(185) Kateb Yacine: Nedjma, p25.
(186) Kateb Yacine: Nedjma, p25.
(187) Kateb Yacine: Nedjma, p27.
(188) Kateb Yacine: Nedjma, p27.

الحديث عن خادمته ولجوئها إلى الزريبة لتمكث هناك حتى يستريح سيدها ويبتعد عن الطاولة[189]، ومع التداعي السردي لكل ما يتصل بالشخصية، ونتيجة تعدد زوايا الرؤية وتداخل الأحداث، جاءت صورة المقاول متداخلة الأجزاء، ولا يمكن تصورها إلا بعد الإلمام بكل ما قاله الروائي عنها، أي لا تتم الصورة إلا بتمام كلام الروائي عنها، إنها صورة تتطور مع تطور الكلام حول الشخصية، وتتكشف على مراحل، أثناء تنامي الرواية نفسها.

إن المالك ورب العمل الفرنسي رجل كبير السن جبان يحقد على الأهالي ويخاف منهم ويحتقرهم. إضافة إلى ذلك، فهو بخيل جدا لا يخرج أيّ مليم من جيبه، وهمه الوحيد تجميع المال، أما صفاته الجسمية فلا ذكر لها وكل ما ركزت عليه الرواية في رسم هذا النوع من الشخصية هو البخل والحقد.

وجليٌّ أن الرواية المغاربية لم تتضمّن صور رب العمل حيث لم نجد سوى صورتين في رواية واحدة، وذلك لقلة تأثر الروائيين بمجال العمل.

جدول مكونات شخصية المالك ورب العمل

الرواية، كاتبها شخصياتها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الدور
"نجمة" ياسين 1 - ارنست	لا شيء	حذر من العرب - منافق بخيل - لص - سيء المعاملة - جبان - حقود	رئيس العمال - يعاملهم بحذر ويحقد عليهم ويعنفهم نتيجة حقده عليهم
2 - المقاول ريكار	اشيب الراس	مضبوط المواعيد - بخيل جدا - شكاك - غني جدا معقد جنسيا وماليا	كثير العمل وتزوج من فتاة في عمر حفيدته انتقاما من أسرتها الكاثوليكية لأنه بروتستاني

[189] Kateb Yacine: Nedjma, pp14-15.

6-رجل التعليم

الف الطفل المغاربي من عصور بعيدة رؤية شيخ الكتاب أو الفقيه شيخا كبيرا –كفيفا أحيانا –، جالسا على الحصير ممسكا في يده عود زيتون أو رمان يصل إلى أقصى القاعة ليؤدب به كل من يكف عن التكرار بصوت عال، وبعد رسوخ أقدام الفرنسيين في المغرب "تغير المنظر"، وجاء المعلم والمدير والأستاذ ومدير الثانوية والمفتش وغيرهم من رجال التعليم، وتأثر الأطفال المغاربة إيجابا، وظهر ذلك التأثر في الرواية المغاربية التي عرضت نماذج من رجال التعليم الفرنسي مثل رواية "الماضي البسيط" لإدريس الشرايبي، و"سبات العادل" لمولود معمري و"نجمة" لكاتب ياسين و"السعار في الأحشاء" لمصطفى التليلي.

وفي رواية "الماضي البسيط"، صورة لمدير ثانوية في المغرب الأقصى هو السيد "جوزيف كيسيل"[190] (الأديب والرحالة الكبير؟ وليس المجاز في الآداب أو المستعمر)[191]؛ استدعى إلى مكتبه الطالب "إدريس فردى" –بطل الرواية وطالب الثانوية العامة الذي ثار على والده وأسرته ومجتمعه ودينه نتيجة تأثره بما تلقاه في المدرسة –، بعدما صحح له مقال الفلسفة الذي كتبه في الامتحان التحريري للثانوية العامة، وأعجب بمضمونه أيما إعجاب: (اجلس، سيجارة؟ إذن، أنت هو المصلح المغربي؟ لقد أضحكتني، عندما رأيتك، هزيلا، مصفرا، خجولا... كما ضحكت زميلتي العانس الآنسة "أولير Uller" هي الأخرى.

هذه الفطنة، وهذه النبرة الفقهية هذا العنف الجاد وهذا الطيش المكشوف على امتداد مقالك...)[192]، فالطالب يريد إصلاح الوضع المغاربي بالثورة على

---

(190) جوزيف كيسيل: Joseph Kessel، كاتب فرنسي ولد سنة 1898م بكلارا في الأرجنتين له روايات كثيرة حول مغامرات طياري الحرب العالمية الأولى ثم حول رحلاته شرقا وغربا.

(Larousse T. II, Paris, 1966, p693)

(191) Driss Chraïbi: Le Passé Simple, p202.

(192) Driss Chraïbi: Le Passé Simple, p202.

كل شيء بالتخلي عن كل المكتسبات التقليدية بمحو اللوحة، والبدء من جديد فأثار بآرائه تلك ذكريات السيد "المدير" الذي ترك شبابه ومغامراته مع "فانيي Vannier" –صديق الشباب - وروح المغامرة والبحث عن الجديد، وراح يقص عليه كيف انطلق الصديقان وراء المغامرة وتعرفهما على المغرب، لأنهما كانا طليعة رجال الطيران، ولذلك خالف "المدير" زميلته الآنسة "أولير" التي رأت أن ثورة الطالب مجرد انفعال مشبوب، بينما رأى "المدير" أنها ضرورة ولا بد من حدوثها ثم عاد يذكره بأن المغرب بلد جديد واعد لا يمكن أن يتخلى إنسان عن شمسه وسمائه...[193].

لقد أعجب السيد "كيسيل" بمقال الطالب لأنه وجد فيه شيئا جديدا، وجد فيه علامة تغيير برهانا على كذب ادعاءات "الوطنيين" الذين يقولون أن فرنسا لم تفعل شيئًا في المغرب، لذلك فهو يقترح عليه نشر مقاله في مجلة ليكون ردا على ادعاءات "الوطنيين"، فهذا واحد من أبناء المغرب ثار على الخرافات والأوهام، رغم أن "العربي" لا يتغير ولن يتغير.

وتطور "إدريس" –فهو ظاهرة شاذة ومزعجة - حتى صار "المدير" يسأله عن رأيه في علاقة الفرنسيين بالبيكو –الأهالي - وعن "الوطنيين" الذين شبههم بفرسان العصور الوسطى، الحالمين بخروج فرنسا، دون التفكير في الدولة التي ستخلفها[194]؛ وظهر تطوره في مقاله، فهو ثائر على مجتمعه ولذلك: (لقد أعطيتك 18 أقصى حد، فمن الواضح أن الشباب المغربي الحقيقي هنا، في هذه الورقة أتفهم، أن سياسة الحماية تهدف بالضبط إلى تكوينه... ورن الهاتف)[195]؛ منح المدير الطّالب أعلى علامة لأنه وجد في مقاله بوادر تشير إلى أنّه هو النموذج الذي تهدف الحماية إلى تكوينه، فالحماية تكره السلطان وتسخر منه[196]؛ كما

---

[193] Driss Chraïbi: Le Passé Simple, pp202-203.
[194] Driss Chraïbi: Le Passé Simple, p203.
[195] Driss Chraïbi: Le Passé Simple, p203.
[196] Driss Chraïbi: Le Passé Simple, p203.

تكره "الوطنيين" وتريد استقلال المغرب، بلد الشمس، ورضاها عن طالب يعني أن ذلك الطالب صار يطالب مجتمعه بمطالب الحماية، أي أن السيد "جوزيف كيسيل" مدير الثانوية والأديب وسيلة سخرتها الحماية لحشو ادمغة المغاربة الصغار وإثارتهم ضد مجتمعهم.

وعندما أراد المدير إنهاء المقابلة، سأل فردي "عن مشاريعه في المستقبل"، وهنا جاءت المفاجأة: لقد خاب أمل الطالب في السيد المدير، الأديب، لأنه لم يكن يعتقد أن "جوزيف كيسيل" لا يرى في المغرب إلا الشمس والسماء وحدهما، ولا يجري وراء تكوين أبواق ترد باسم الحماية ولا يؤمن بخرافة غباء العرب وتأخرهم الفطري. وبما أنّ فردي يؤمن بكل ذلك، فعليهأن يكون عربيا، أي غبيا، لدرجة أنه طلب من المدير أن يسمح له بحاجتين: الأولى إشباع نظره من أثاث المكتب –لأن عادة الأغبياء أن يهتموا بالتوافه -، والثانية السماح له بالقيام والخروج.

وبذلك أثار ثائرة المدير، فكيف يسخر منه؟ [197]؛ لقد أخطأ الاثنان ولم يجد المدير إلا التهديد والوعيد (لقد أخطأت في الحكم عليك، كان عليّ أن اضع لك صفرا جميلا، ولكن سأنتظرك في الشفوي، يا صديقي... وسأحطمك يا صديقي)[198].

عرض الروائي صورة "كيسيل" بواسطة حواره مع الطالب فردي، ثم انطلاقه في الثرثرة ساردا تاريخه وآراءه في جمل لا رابط بينها، متنقلا من حديث إلى آخر نتيجة حب الثرثرة وكبر سنه وانشغاله بعدة موضوعات في آن واحد، فهو رجل مشتت الأفكار، هدفه الأخير هو خدمة أهداف الحماية مهما كانت التضحية.

---

[197] Driss Chraïbi: Le Passé Simple, pp204-205.

[198] Driss Chraïbi: Le Passé Simple, p205.

في رواية "سبات العادل" لمولود معمري صورة أستاذ فرنسي هو السيد "بواري"[199]، أستاذ الفلسفة والتربية في دار المعلمين بالجزائر يحبه الطلبة لتواضعه: (الآخرون –كما كان يحب أن يقول - تلاميذي، أما أنتم فزملائي)[200]؛ ولذلك ذهب "أرزقي" و"مدور" –طالبان جزائريان بدار المعلمين، وجندا في صفوف فرنسا في الحرب الثانية - لزيارته قبل التحاقهما بالجيش، وكانت خيبتهما عظيمة عندما لم يجداه، فقد سافر مهربا أسرته، لكنه ترك لهما رسالة طويلة جدا، تتكوّن من ثمانين صفحة بخط صغير[201]، شرح لهما فيها آراءه في الحرب وما يتصل بها: (قال أرزقي: إنه يكتب كما يفكر: بشراسة).

"أبنائي الأعزاء" كادا يلهجان بالامتنان من المؤكد أن هذا الجواب هو الأخير عند الأستاذ، ففي الجزائر المقنبلة كان السيد "بواري" يرى أن الواجب يقتضيه حماية عائلته: (العاقل لا يهرب من الأخطار، ولكنه لا يجابهها اعتباطا.

هذا القول الذي طبقته، أبنائي الأعزاء، ستشعرون بمناسبته للقضية التي يستغربون من دفاعي عنها وأنا الذي حاربت طويلا الحرب، كل الحروب)[202] إنه يدافع عن الحرب بشراسة وهو الكاره لكل الحروب: (بعد سبع صفحات من التعليلات المركزة المبرهنة على أن هذه الحرب ليست مقدسة "فعلا لا وجود لحرب مقدسة" - كما كتب الأستاذ معلما على الجملة بخطين -، وإنما لها مبرراتها... وانتهى السيد "بواري" إلى نصيحة عملية: "لأننا بشر، لسنا ملائكة ولا حيوانات، ولكنّ الشقاء أيقظ الحيوان فينا أثناء الحرب وحري الإنسان الحقّ به أن يوقظ الحيوان دون أن يثير هيجانه، ينبغي عليه أن يكون وحشيا مع شيء من الألفة، يعرف كيف يسمع صوت الملاك بعد صيحات الحيوان في الضجة

---

[199] بواري: M. Poire.

[200] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p115.

[201] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p117.

[202] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p117.

الكبرى...)[203]، وتخدرت أعصاب الرفيقين بكلام أستاذهما، والتحقا بصفوف الجيش، وفي كل واحد منهما ملاك وحيوان، وتوالت أحداث الحرب على الطالبين حتى انتهت، ووجد "أرزقي" نفسه مضطرا إلى أن يكتب لأستاذه، أن يرد على رسالته -ولو بعد مدة طويلة - برسالة يذكر فيها هو الآخر رأيه في بعض الأمور: (وهكذا سيدي بواري، لن ينقصني شيء لمصيري كبطل من أبطال الحضارة... لقد انتهت إذن "يعني الحرب" ونجت "هذه المرة يقصد الحضارة..." ولا بد من إحاطتكم علما ألاّ أحد يفكر فيها فضلا عن الإيمان بها.

ولكن لا بد أن أخبرك أولا بأنني في باريس مدينة النور، مدينة... إلخ، أكمل أنت، ... فقد أصابني ولع اقتصاد الكلمات، زيادة عن نسياني لكل الكلمات التي لا تدل على شيء: ونصف كلماتك غمضت)[204].

بعد انتهاء الحرب، كتب "أرزقي" لأستاذه من باريس مدينة النور الحلم، ليقول له أنه صار لا يفهم نصف الكلمات التي تعلمها منه، أي صار لا يؤمن بها، وكيف يؤمن بها والتجربة أثبتت له أن الغرب والحضارة الغربية والإنسانية... إلخ كلمات جوفاء، والمصلحة هي الحقيقة الوحيدة التي يعمل كل واحد من أجلها، فإذا حارب الألمان من أجل الحضارة والحرية، وحاربت فرنسا من أجل الغاية نفسها، فما هي غاية الجزائريين؟

عرض الروائي صورة هذا الأستاذ بأسلوب أساسه السرد، مازجا بين سرد المؤلف ورسائل شخصيات الرواية، ولذلك جاء الكلام عن السيد "بواري"، فهو غائب دوما، والالتحام بينه وبين بقية الشخصيات غير موجود، إلا أن الكاتب أظهر تأثير الأستاذ في طلابه من كلامهم عنه قبل مشاركتهم في الحرب، ثم بعد مشاركتهم فيها.

---

(203) Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p118.

(204) Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, pp170-171.

في رواية "نجمة" لكاتب ياسين صورة صغيرة جدا لأستاذ فرنسي هو السيد "تومبل"[205]: (عميد الأساتذة وعضو مجلس التأديب، له صوت جهوري متمسك بحرفية دروسه التي لا يرجع إليها، ولا يعفو إطلاقا، ولا يثرثر مع بقية الأساتذة ولا يظهر في شوارع سطيف)[206]؛ أستاذ جاد جدا لا يقبل أخذا ولا ردا، وكأنه إنسان خال من العواطف والإحساسات، ومع ذلك فهو لا يظلم ولا يحتقر بل يعامل الطلبة والأساتذة بالصرامة نفسها التي اتضحت من الجمل القصيرة الحادة النبرات التي رسم بها الروائي صورة الأستاذ.

أما في رواية "السعار في الأحشاء" لمصطفى التليلي، فنجد صورة معلم فرنسي هو السيد "ديفور"[207] الذي أعطى دروسا بلا مقابل للطفل جلال –بطل الرواية –، إنه إنسان طيب[208] ظهرت طيبته من حرصه على إرسال جلال إلى المعهد الصادقي، وبخاصة عندما شاهد مكتبة الأسرة: (عندما رأى السيد "ديفور" كتبنا لأول مرة دهش وحينذاك قال بصوت قاطع، صوت من يدرك ما يقول: سيدتي، لا بد من إرسال جلال إلى المعهد الصادقي في تونس، لقد علمت في أقسامه الابتدائية. في الصادقية سيلتقي جلال بأسلافه، ومن المؤسف أن يأتي يوم يجد فيه نفسه عاجزا عن تقدير الثروة الموروثة، إنكم تملكون ماضيا عريقا يا سيدتي)[209]، إنه حريص على أن يتقن لغة أجداده ويستفيد من المكتبة الموروثة، ومن المستبعد أن يفعل معلم فرنسي مثل ذلك، لأن رسالته تتنافى مع إحياء اللغة العربية، ومن يفعل مثل ذلك لا بد أن يكون من أطيب الناس وأعلمهم.

---

[205] السيد تومبل: M.Temple.

[206] Kateb Yacine: Nedjma, pp219-220.

[207] السيد ديفور: M. Dufour.

[208] Mustapha Tlili: La Rageaux Triples, P113.

[209] Mustapha Tlili: La Rageaux Triples, P115.

وعرض الروائي صورة هذا المعلم الفرنسي الطيب جدا من خلال كلام "جلال" الذي عرض كل أحداث الرواية بواسطة التداعي والتذكر، دون أية إشارة إلى صفاته الجسمية.

لم تقدم الرواية المغاربية الفرنسية صورة موحدة لرجل التعليم الفرنسي، لكن الروايات التي أشارت إليه اتفقت على سمة واحدة هي الإهمال التام للأوصاف الجسمية والنفسية –عدا صورة جوزيف كيسيل التي ذكر فيها الروائي كرش المدير المدورة ووجنتيه الحمراوين - ثم التركيز على هدف كل واحد من عمله. وهنا نجد صورتين لرجل التعليم الفرنسي، الذي لا هدف له إلا غرس أفكار بسيطة لتكوين جيل من الأتباع المخدوعين، ضاربا عرض الحائط بالقيم العملية والخلقية والتربوية، مثل المدير في رواية "الماضي البسيط" والأستاذ في رواية "سبات العادل".

والطيب الذي لا يظلم أحدا، وهدفه الوحيد إيصال المعلومات إلى اذهان التلاميذ دون أية محاولة للتأثير عليهم أو توجيههم إلا فيما ينفعهم وينفع بلدهم، مثل الأستاذ في رواية "نجمة" والمعلم في رواية "السعار في الأحشاء".

كما اشتركت الروايات في أسلوب السرد لعرض صور الشخصيات، مع بعض الخصائص التي اعتمد عليها كل روائي كالحوار في "الماضي البسيط"، والرسائل في "سبات العادل"، والتداخل في "نجمة" والتداعي في "السعار في الأحشاء".

جدول مكونات شخصية رجل التعليم

الرواية، كاتبها شخصياتها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الـــدور
"الماضي البسيط" الشرايبي 1 - جوزيف كيسيل	كرشه مدورة وجنتان حمروان	اديب مشهور – رحالة يؤمن بجمود العرب منافق لا امانة علمية ولا تربوية ولا خلقية له، مسخر	يريد خلق جيل من الأهالي اذنابا لفرنسا ضاربا بعرض الحائط العلم والأخلاق

"سبات العادل" معمري 1 - السيد بواري	لا شيء	متواضع- شخصية قوية ذكي مقنع - منافق مسخر	علم طلابه مفاهيم خاطئة خدمة للسلطة
"نجمة" لكاتب ياسين 1 - السيد تومبل	صوت جهوري	قاطع- لا يظلم ولا يعفو لا يثرثر	أستاذ نزيه ومحترم
"السمار في الأحشاء" التليلي 1 -السيد ديفور	لا شيء	طيب جدا - يقدر العلم يقدر العربية وأهلها	لا هم له إلا نجاح تلاميذه بغض النظر عن جنسيتهم

7- الطالـب

في البدء، قاوم المغاربة التعليم الفرنسي -كما أسلفنا - ثم بدأ الإقبال عليه ينتشر، وكثر عدد الأطفال المغاربة في المدارس الابتدائية الفرنسية، ثم في الثانويات وأخيرا في الجامعات الفرنسية، فاحتك الأطفال المغاربة بالفرنسيين ونشأت بينهم علاقات كثيرة، فظهر أثر تلك العلاقات في الرواية المغاربية التي عرضت صور التلاميذ والطلبة الفرنسيين مثل:

"تشيتشو"[210] الذي ورد ذكره في رواية "الماضي البسيط" واسمه الحقيقي: "فيترول فرانصوا"[211] طالب في الثانوية العامة مواظب على مراجعة دروسه واستذكارها استعدادا للامتحان بعد أيام قليلة، ذهب إليه صديقه وزميله في الدراسة "إدريس فردي" بعدما طرده والده، وحاول "تشيتشو" أن يتبالد متظاهرا بالجهل، ولكن يكشف نفاقه، فهو يعلم بثورة "إدريس" على والده كما يعلم بزيارته لزميله "برادة"، وعراكهما. ذلك أنّ والد "إدريس" كلمه في الهاتف وأمره ألا

[210] تشيتشو: Tchitcho.

[211] فيترول فرانصوا : Vitrolle FranÇois.

يستضيفه، وبذلك لم يجد من الاعتراف مفرا بمحادثة الوالد معه، لكنه ابعد نفسه من المشكلة صراحة: (اريد ان تعلم انني لا احكم عليك باي حكم مسبق ولا احاكمك، وإذا تخاصمت مع والدك فلست مشجعا ولا وسيطا، اما إذا اردت معرفة رأيي في وضعك الحالي، فأحب ان تلاحظ -إذا لم تكن تعلم ذلك - اولا بانني ابن محام في المجلس وكونتيسه كورسيكية (شرف موروث من عهد الإمبراطورية) ولدت ونشأت وساعيش ايضا في بيئة محدودة: (الأبعاد، التوجّه، وعامل الذوق، اللون وكل ما يتبع ذلك...)[212]. وادرك "إدريس" انه يريد ان يقول: (إذا ما جاء عامل من خارج هذه البيئة لن تهتم بفهمه، بل ولن تعترف له حتى بالوجود)[213] ولذلك ستحدثني بأسلوب مهذب لأنك تظن انني مجهد وستسرد علي نصائح الكنيسة ثم تغلق الباب متنفسا الصعداء بعد التخلص مني لتعود إلى مراجعتك[214]. ورغم إدراك "إدريس" لخطئه الفادح عندما اعتقد أن زميله المسيحي الفرنسي، رفيق الدراسة لمدة سبع سنوات سيساعده[215]، لكنه لم يستطع فهم السبب الذي جعل "تشيتشو" -ابن المحامي في المجلس وابن الكونتيسة وابن الحماية كلها - يخضع لطلب والد "إدريس" ويتخلى عن صديقه: (بماذا أمرك والدي في الهاتف حتى صرت نذلا...)[216] وجاء السبب مدهشا: (أبي محام، كلفه والدك بقضية الشاي، الأتعاب خرافية، فإذا ما انجرفت وراء الصداقة سيسند القضية لمحام آخر)[217].

ببساطة عرف "إدريس" لماذا باع "تشيتشو" صداقتهما ورغم ذلك كله لم يتخل "تشيتشو" عن "إدريس" وبقي يتتبع اخباره حتى جاء يوم الامتحان، فأسرع إليه يوقظه خشية التخلف عن الامتحان، ونزل الصديقان من غرفة "إدريس" –في

---

(212) Driss Chraibi: Le Passé Simple, pp112-113.
(213) Driss Chraibi: Le Passé Simple, p173.
(214) Driss Chraibi: Le Passé Simple, p173.
(215) Driss Chraibi: Le Passé Simple, p174.
(216) Driss Chraibi: Le Passé Simple, p175.
(217) Driss Chraibi: Le Passé Simple, p189.

أحد الفنادق - ولاحظ أنّ "تشيتشو": (طويل، أطول مني، نحيف، أنحف مني، أدار عنّي ظهره قليلا، يسير مثل السرطان)[218] وندم "إدريس" على ما بدر منه اتجاه "تشيتشو" وسوء معاملته، وعندما سأله إن كانت لديه أخبار عن الأسرة قال له: أعتقد أنك سترجع عما قريب، ثم ناوله الجريدة، وجد فيها خبرا يهمه أحاطه بالقلم الأحمر[219].

فتشيتشو طيب القلب، لا يفرط في أصدقائه حتى لو لم يساعدهم، وربما يكون ذلك ناجما عن ضعف في شخصيته، فهو وفيٌّ لصديقه، لكنه لا يستطيع مواجهة والده للفصل بين صداقاته وبين أعمال الوالد. إنه ابن مرفه، والمرفه لا يستطيع مجابهة مصدر رفاهيته.

عرض الروائي صورة "تشيتشو" بالسرد مستعملا جملا حادة متضمنة أفكارا ساخرة على لسان "إدريس" الذي سرد أحداث الرواية، وحكى عن شخصياتها المختلفة...، "جان بول بلاي"[220] طالب جاء من مدينة بوردو إلى ثانوية فرساي بضاحية باريس، وكان ينظر إلى الحياة نظرة مغلقة مثل بصره الضعيف[221]. أعجب كثيرا بتلك الجملة التي كتبها "يحيى" –بطل الرواية وهو طالب في الثانوية - داخل درجه: (شساعة العالم التي في ذهني، لا أعرف كيف أتحرر وأحرره بغير انفجار؟ والانفجار ألف مرة خير من كبته، فأنا موجود هنا من أجل ذلك دون أدنى شك)[222] وبلغ إعجابه بهذه الجملة حدا صرفه عن طلب أي استفسار حولها وكأنها تنزيل حكيم[223] ورأيه في الحياة جلي وواضح: (لا أهتم كثيرا بوجودي في العالم، ولست موجودا من أجل مجد أي أحد إنما خلقت من

---

[218] Driss Chraibi: Le Passé Simple, p193.

[219] Driss Chraibi: Le Passé Simple, p193.

[220] جان بول بلاي: Jean Paul Balis.

[221] Nabil Fares: Yahia pas de Chance, p90.

[222] Nabil Fares: Yahia pas de Chance, p91.

[223] Nabil Fares: Yahia pas de Chance, p91.

اجل الحب، يا للشقاء أن يوجد المرء في الثانوية)[224]، فالحب هو الغاية الوحيدة من الحياة، وعندما أراد أن يجرب الحب سألته الفتاة التي خاطبها إذا كان يملك مالا [225]، وهكذا لم يتحقق غرضه من الحياة.

وعندما اجتاز امتحان الثانوية العامة، والتحق بعمل، اشترى بذلة صار يلبسها كل مساء، وهام حبا بالمغنين الذين كان يسمعهم في محل عمله...[226].

عرض الروائي صورته من خلال حديث "يحي" -بطل الرواية - عنه بأسلوب سردي عادي.

"جان كلود"[227] في رواية "السعار في الأحشاء"، هو صديق "جلال بن شريف" بطل الرواية، وهو صحفي مراسل لجريدة فرنسية من نيويورك، خاب أمله في الثورة الجزائرية والحركة التقدمية العالمية ولم يجد حلا إلا في الانضمام إلى صفوف الثورة الفلسطينية، وأصبح من كبار المحامين، يكسب أموالا ضخمة ويشغل عنده مجموعة من المحامين[228]. هكذا قالت "ناطالي" -أخت جان كلود - لجلال عندما التقيا في نيويورك، وعادت الذاكرة بـ"جلال" إلى عهد الدراسة الجامعية في باريس: (وفكرت في جان كلود (...) وكيف كان كل شيء بسيطا بالنسبة إلى جان كلود، كيف توزع المناشير، وتنظم المظاهرات، وتتخذ القرارات بسرعة، من وجهة نظره فقط، ومن ناحية أخرى وصم كل رأي معارض له بالبرجوازية أو البرجوازية الصغيرة، كيف كان العلم برجوازيا عنده، وكيف كان يقترح القضاء عليه.

كانت طبقة المثقفين عنده أخطر طبقة بعد عصابة الرأسمالية، والشعراء لا أهمية لهم عند البروليتاريا المستضعفة والفلاحين، فالعمل هو الشعر،

---

[224] Nabil Fares: Yahia pas de Chance, p101.
[225] Nabil Fares: Yahia pas de Chance, p101.
[226] Nabil Fares: Yahia pas de Chance, p135.

[227] جان كلود: Jean Claude.

[228] Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, pp28-29.

العامل ينتج، إذن يخلق، وذاك هو الشعر الحق عند جان كلود وما عداه مجرد أوهام ورذائل برجوازية)[229]. عجيب أن يكون جان كلود المحامي الثري هو صاحب تلك الأفكار الواضحة البسيطة، ولكن لا عجب في ذلك، فجلال هو الذي مكنه من إجادة تلك المهزلة بسكوته المستمر عندما كان "جان كلود" يتخذه مثلا حيا على آرائه، وهو ابن الجزائر الثائرة المناضلة التي ستكون الدولة المثلى عند "جان كلود" دون أن يصرخ في وجهه: (لا، يا رفيق جان كلود أرى أنك بالغت كثيرا في دجلك، وأنت الذي تتنقل بسيارة، وتسكن ساحة فيكتور هوغو وتسهر عند كاستيل بدراهم امتصها الأب من زنوج إفريقيا الجنوبية المساكين وتعاشر الأخت الصغيرة)[230]؛ لقد كان سكوت جلال دعامة كبرى لرفع شعارات الوصولي إلى مرتبة الحقيقة الصرفة، ولذلك كان يحبه[231] ومع ذلك فقد كان "جان كلود" يتمتع بكل شيء: (الشباب والجمال والمال والطموح، طموح جامح، والحيلة، والحيوية، والتعابير عند اللزوم، تعابير مبللة بإحساسات التفوق الفطرية، إحساس عميق بواجبات العالم والآخرين نحوه. كان يتمتع بكل ذلك وبغيره)[232].

كان يعرف جيدا ما يريد وكيف يحصل عليه، وصولي[233]؛ لذلك فهو يعلل كل شيء فحتى معاشرته لأخته وجد لها تعليلا مشرفا، فمن الممكن أن يتصل بأية فتاة ساقطة ويعاشرها –كما يفعل الكل - ولكنه لا ولن يفعل ذلك فتلك مورثات برجوازية، ولكن عليه أن يكون ثوريا حتى في الجنس، ولن يجد أفضل من تحطيم جدار المحرمات، منتهى الثورية والإقدام، فمن يستطيع مباشرة

---

(229) Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, pp32-33.
(230) Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, P33.
(231) Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, pp33-34.
(232) Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, p92.
(233) Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, p101.

اخته كما فعل هو[234]، ثم يعترف بان ما حدث بينه وبين اخته "قدر" عجيب[235] وغريب ان يؤمن ماركسيٌ بالقدر...

وبقي "جلال" يفكر في "جان كلود": (افكر في شاب غريب في الرفيق "جان كلود" الزاني بالمحرمات، الماركسي، على حد قوله (...) افكر فيه وفي كل الماركسيين، الزانين (...) الذين انتهوا إلى أسِرّة أخواتهم الصغيرات)[236].

ذاك هو الطالب الفرنسي الماركسي "جان كلود" الذي اصبح محاميا يدافع عن المظلومين، صوره الروائي بواسطة تداعي افكار "جلال" مركزا على نفاقه، ومهملا أوصافه الجسمية –عدا الإشارة إلى جماله - لأنه حالة لها مثيلاتها...

كما نجد في رواية "السعار في الأحشاء" صورة طالب فرنسي هو الطالب "مورو"[237] الذي كان يبشر –زمن الدراسة - بمستقبل عظيم كأنه المشهور السريع وكأنه البرق الخاطف، وكان "جان كلود" يرى فيه وهو ابن عامل في مصنع السيارات، أكبر منافس له نتيجة ذكائه واجتهاده، فبينما كان "كلود" يعاشر أخته، كان "مورو" يحضّر امتحانات تمهيدية لدار المعلمين العليا، زيادة عن تحضيره شهادة ليسانس في الفلسفة، وأخرى في الاقتصاد، فهو الوحيد الذي كان يحرج "بوردو" حول بعض المسائل النظرية للماركسية، عندما كان يعتبر أكبر مفسر لكتابهم المقدس –رأس المال - لقد كان "مورو" أذكى أفراد المجموعة وأوسعهم اطلاعا[238]؛ وتعجب "جلال" من إحجام "مورو" عن مواجهة الوصولي "جان كلود" وفضحه، وهو القدير: (وبعينيه الصغيرتين الزرقاوين اللامعتين من شدة الذكاء (...) وزيادة عن ذلك، فهو يتقن عرض المسائل بهدوء ودون انفعال،

---

[234] Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, pp101-102.

[235] Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, pp103-104.

[236] Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, p109.

[237] مورو: Moreau.

[238] Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, p35.

مع وضوح تام ومنطق مقنع، كم كان بعيدا عن هذيان الفشاش[239] ولو فعل ذلك –وهو المثقف ثقافة تاريخية شاسعة - لعرف افراد المجموعة، ولأدركوا جيدا لماذا قالت الجزائر "لا" بعد مائة ونيف وثلاثين سنة من الاحتلال[240]؛ ولكنه لم يفعل لأن همّ المجموعة الوحيد وقتذاك هو "الجزائر"، وكان يعتقد ان "جلال" متواطئ مع "جان كلود" الوصولي، فماذا سيفعله والجزائري الوحيد في المجموعة متواطئ مع زعيمها الانتهازي[241]؛ ورغم ذلك، فلماذا لم يحاول جذب "جلال" إليه، وهو المعروف بطبع وحضور فريديْن؟ فهو يعرف ما يريد وله هدف محدد في الحياة، إنه يتمتع بخصائص الزعماء.

وزيادة عن توفر خصائص الزعامة فيه، فهو جذاب جدا، طويل، رشيق، شاب جميل، حيوي، ولوع بالحياة والفتيات الجميلات[242]؛ فلماذا لم يحاول جذب "جلال" إليه؟ بل لماذا بقي حريصا على لقاءات الجماعة الغارقة في أعمال صبيانية؟. لم يجد "جلال" تفسيرا لذلك إلا فرضا واهيا، فربما كان حرص "مورو" على لقاء الجماعة، أملا في أن يدرك "جلال" وضعه وينفر من الوصولي[243]، لكن "جلال" بقي يتذكر تعليلا غريبا قدمه "موريس" زميل الدراسة حول تلك المشكلة.

فهو يرى أن "مورو" يواظب على حضور الاجتماعات دون مواجهة الزعيم الوصولي، طمعا في أخت الزعيم الجميلة التي زعم أنه لقيها مع اسرتها في سهرة عند "كاستل"، واضطر أخوها "جان كلود" أن يقدمها له، فتعلق بها، وصار يداهن أخاها طمعا فيها[244]؛ لكن هذا تفسير مستبعد عند "جلال" لأن "مورو": (يتّجه مباشرة إلى اهدافه، ويأخذ الحياة بين ذراعيه بعنف، فهو يحب ان يقول

(239) Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, p37.
(240) Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, pp37-38.
(241) Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, pp38-39.
(242) Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, p39.
(243) Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, pp39-40.
(244) Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, pp40-41.

دائما: الحياة امرأة، ومع المرأة إما ان تكون الشعلة او لا تكون، فإذا لم تكن، فثمة الف احتمال في انتظارنا... اي انه غير عاطفي)[245]، والدليل على ذلك موقفه من "جلال" بعد انتهاء الحرب الجزائرية، وعودته إلى باريس بعدما خسر كل شيء –أمه وحبيبته وصديقه وآماله –، فاستقبله في مكتبه –صار رئيس تحرير اكبر جريدة تقدمية في العالم – دون لوم أو عتاب تشفٍ، بل استقبله وكان شيئا لم يحدث لأن المهم عنده أن يستمر الإنسان، فالإنسان إما رابح أو خاسر، وتلك قاعدة اللعبة، والمهم الا يتوقف المرء بل يستمر لأن الماضي مضى والمستقبل اهم[246].

ويقي "جلال" حائرا من "مورو" زميل الدراسة –سابقا – ورئيسه في العمل –حاليا –، ولم يستطع معرفة حقيقته إلا بعد عدة سنوات، عندما صار مراسلا لجريدة "الإنسانية الاشتراكية" وكان "مورو" رئيس تحريرها من الأمم المتحدة. وفي نيويورك لاحظ تردد "مورو" على "ناطالي" –اخت جان كلود – كلما زار نيويورك فبرز في ذهن "جلال" رأي "موريس" حول طمع "مورو" في اخت "جان كلود" أيام الدراسة، وتخليه عن مواجهة "جان كلود" بسبب ذلك: (مورو الوغد، الوصولي، إنه وصولي أكثر من الوصولي وأوسخ من كل وسخاء العالم، بنظرياته الجاهزة والصالحة لكل شيء)[247]، لقد اتضحت حقيقته، فهو مثل غيره، أولئك الذين يستغلون البؤساء لتحقيق رغباتهم المختلفة ولذلك (صار "جلال" يكرهه من كل قلبه)[248]، لأنه غالطه باسم الاشتراكية، واستمر في مغالطته ليسخره لخدمة أغراضه مهما كانت تافهة[249].

عرض الروائي صورة هذا الطالب من خلال حديث "جلال" عنه بواسطة تداعي أفكاره، مفرقا المعلومات. وبذلك لم تتضح صورة "مورو" إلا عندما انتهى

---

[245] Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, p42.

[246] Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, pp43-45.

[247] Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, pp230-231.

[248] Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, p238.

[249] Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, pp238-239.

الحديث عنها، فجاءت صورة مقنعة لطالب ماركسي منافق، ولكن نفاقه يمتاز بالذكاء الشديد حتى كاد لا يظهر.

وفي رواية "السعار في الأحشاء"، صورة أخرى لطالب آخر هو "باتريك فيلوماني"[250] صديق عزيز، بل أخ لجلال، كان طيبا جدا ويعرف الكثير، فهو سيتذكر هيجل وماركس وراينر وريلكه وديسنوس عن ظهر قلب، ويأخذ في المقال الفلسفي ثمانية عشر دائما، ولكنه مات مخرما بالرصاص في ليلة باردة في الأوراس[251].

تعرف عليه "جلال" في قسم الثانوية العامة، وبعد أيام معدودة من تعارفهما استضافه للعشاء عند والديه، ثم تناقشا في مسائل متعددة لم يكن "جلال" يعرفها جيدا، وكان "باتريك" يعرفها جيدا، وفرح "جلال" بذلك التعارف[252].

"باتريك" هو مثال الطالب الفرنسي الطيب المحبوب لبعده عن النفاق، واهتمامه بدراسته دون أن يحاول استغلال ظروف الآخرين الصعبة لتحقيق مطامحه، فهو طالب مجتهد يكره الظالمين والمنافقين، وعرض الروائي صورته من خلال مناجاة "جلال" لأمه فجاءت صورته مثل طيف باهت الملامح، فلا تعرف عنه إلا اجتهاده وسعة معلوماته وكرهه الظالمين والمنافقين وإعجاب "جلال" به.

الطالب الفرنسي في الرواية المغاربية الفرنسية طويل القامة، رشيق، ذكي أو حاد الذكاء، مجتهد أو واسع المعلومات، منافق وانتهازي ووصولي، وبخاصة إذا كان ماركسيا، فبعد لف ودوران تتضح شخصيته ويظهر على حقيقته؛ فالماركسية عند الطالب الفرنسي كلام نظري، أما الحياة اليومية فشيء آخر، فهو يضحّي بصداقته من أجل صفقة أو يضحّي بعقيدته من أجل فتاة، أو يكذب

---

[250] باتريك فلوماني: Patrick Villemange.

[251] Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, p114.

[252] Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, pp114-115.

على الناس ليحافظ على الزعامة، أما إذا لم يكن منافقا فهو تافه الفكر، لا يهتم إلا بالجنس والغناء واللباس، ولم يرد ذكر طالب مستقيم إلا مرة واحدة.

ورسمت صورة الطالب بالاعتماد على السرد في الروايات الأولى مثل رواية "الماضي البسيط"، و"يحي لا حظّ لك"، مع قليل من الحوار ثم الاعتماد على التداعي والمناجاة في رواية "السعار في الأحشاء".

وطريقة عرض صورة الطالب هي طريقة التعارض أو التناقض، ففي البدء تعرض صورة -غالبا ما تكون حسنة -، وبعد تقدم الأحداث يكتشف المغربي صورة أخرى لزميله الطالب الفرنسي، وغالبا ما تكون صورة حقيقية إلا أنها سيئة.

جدول مكونات شخصية الطالب

الرواية، كاتبها شخصياتها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الـدور
"الماضي البسيط" إدريس الشرايبي 1 - تشيتشو	طويل- نحيف - منحني الظهر - يسير مائلا	مواظب على الدراسة - مجتهد منافق- ميال إلى التباهي - مادي- ضعيف الشخصية	يتخلى عن صديقه من أجل قضية يترافع عنها والده المحامي
"يحي لا حظ لك" نبيل فارس 1 - جان بول بلاي	ضعيف البصر	تافه- تفكيره بسيط جدا وينبهر بكل شيء	لا هم له من الدنيا إلا الحب والتمتع
"السعار في الأحشاء" مصطفى التليلي 1 - جان كلود	لا شيء	يدعي الماركسية وصولي معقد مرفه يرتكب المحرمات انتهازي - منافق - استغلالي	يدعي أمام زملائه الثورية والتقدمية مبرزا ذلك في معاشرته لأخته ثائرا على الأخلاق والموروثات

2 - مورو	جذاب- طويل - رشيق- شاب - جميل جدا حيوي - ولوع بالحياة	ذكي جدا -مجتهد جدا - مكافح واسع الأفق - يتمتع بمنطق تتوفر فيه كل خصائص الزعامة مستقيم- منافق ماهر استغلالي	طالب ماركسي مثال في الماركسية وبعد التخرج اتضح إنه انتهازي وصولي سكت عن أكاذيب من أجل الوصول إلى الفتاة
3 - باتريك	لا شيء	طيب جدا -واسع المدارك غير منافق - مجتهد - نزيه يكره الظلم	زميل جلال وصديقه الوفي الصادق الذي لم يخيب ظنه

8- المثقف

سبق الحديث عن رجل التعليم الفرنسي والطالب الفرنسي[253]، والطالب يتخرج من الدراسة ليكون صحفيا أو ناشرا أو شاعرا أو كاتبا أو سياسيا، فهو يصبح مثقفا مهما كانت نظرته إلى الأمور، وفي الصفحات الآتية سنحاول رسم صورة للمثقف الفرنسي في الرواية المغاربية.

في رواية "الماضي البسيط"، صورة لمثقف فرنسي هو السيد "روش"[254]، بدأ ظهوره في الرواية بواسطة آرائه التي كان "إدريس" -بطل الرواية - معجبا بها ودائم الترديد لها، فهو لا يؤمن بالله: (السماء لا تخيفني، فهي تعج بالغازات النادرة والمماحكات البشرية، روش قال لي ذلك)[255] ولا يؤمن بالعدالة الإنسانية، وهو غير راض عن سياسة فرنسا في المغرب، لأنها تهمل الأطفال المغاربة وتتركهم ينغمسون في الرذائل لترسلهم إلى المحاكم ثم إلى السجون أو إلى الطرق لكسر الحجارة لمصلحة الحماية، وقبل ذلك لا يكلمهم أحد[256]. فالإنسان -في رأيه -

---

(253) Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, pp142-143.

(254) روش: Roche.

(255) Driss Chraibi: Le Passé Simple, p13.

(256) Driss Chraibi: Le Passé Simple, p13.

منافق، وإذا كان المثل الفرنسي يؤكد أن "اللباس لا يخلق الراهب"، فهو يرى عكس ذلك و"اللباس يخلق الراهب"[257] لأنه يرى أن الناس لا يؤمنون إلا بالمظاهر وبالتالي، فمن لبس لباس راهب، فهو راهب، ونقمة "روش" على البشر عامة لأنه لا يحب الركود، كما وقع للعرب: (منذ عهد الخلاقة لم تكفوا معشر العرب عن الأكل والنوم ولا بد لكم من ثورة صغيرة)[258]؛ "روش" لا يحب إلا الحياة النقية الصافية، الحياة الخالية من كل الأوهام -بما فيها الدين- الخالية من كل ظلم أو استغلال، الخالية من كل رياء ونفاق، الخالية من الركود والكسل، كل تلك الأفكار علمها لـ"إدريس" -طالب الثانوية العامة-، وغرس فيه روح الثورة على الخرافات والظلم... والنفاق والركود. وثار "إدريس" على رمز كل تلك المصائب، ثار على والده المتدين، المؤمن بالخرافات، الظالم للأسرة، المنافق مع أسرته والناس، الجامد الفكر... وعندما ذكر "إدريس" أسباب ثورته لـ"روش" أوصاه بالحفاظ على تلك الأسباب ليكون منها -فيما بعد- رواية[259]؛ ثورة لأجل رواية! ولكن الأغرب من ذلك هو رفض "روش" مساعدة "إدريس": (أستضيفك؟ أين؟ ولماذا؟ لو كنت ما زلت جامدا.. ولكنك لا تريد إلا أن تكون ...

لكن يا سيد "روش"، أين تعاليمك؟ وانتقاداتك التشريحية، وحكاياتك المسلية، وضرباتك الدبوسية، وفوضويتك؟ لقد كنت أعتبرك معلمي الحقيقي...

وبعد؟ إنني أثق بك: فهذا البلد في حاجة إلى فوضويين، ومن يدري؟ قد يفوق التلميذ يوما أستاذا...)[260]؛ إذن فهو فوضوي، رغبته الوحيدة نشر الفوضى، لأنه يكره النظام، ولكنّ بعض مواقفه تعارض ذلك، فهو يدافع عن فرنسا ومن

---

[257] Driss Chraibi: Le Passé Simple, p39.

[258] Driss Chraibi: Le Passé Simple, p43.

[259] Driss Chraibi: Le Passé Simple, p187.

[260] Driss Chraibi: Le Passé Simple, p190.

رسالتها الحضارية في البلدان المستعمرة: (نحن الفرنسيون نعمل على تحضيركم معشر العرب، بنية سيئة ودون أي رضا فلو صرتم -صدفة - أكفاء لنا، فإنني أسألك: بالنسبة لمن سنكون متحضرين؟)[261]؛ إنه يعلم أن فرنسا لا تعمل على رقيّ العرب، حتى تبقى متحضرة ويبقى العرب متخلفين، والسيد "روش" المثقف الفوضوي فخور بذلك، ولا يقبل مساعدة "مريده" لأنه أراد أن يكون مثل الفرنسيين؛ وهكذا نرى أن "روش" أصاب عندما قال أن "اللباس يخلق الراهب"، فلقد أوهم "إدريس" وملأ فكره بأفكار غريبة عنه، وعندما طلب منه الضيافة فقط قال له: آسف. وكان موقفه ذاك رجة "لإدريس" جعلته ينتبه ويسلك طريقا لا يلتقي مع طريق "روش"[262].

وعدا خيانته لمبادئه الزائفة لا نعرف عنه شيئا، فصفاته الجسمية غير معروفة، وظيفته مجهولة وإحساساته مجهولة أيضا، ولقد عرض الروائي صورته بواسطة ترديد آرائه ومواقفه من طرف "إدريس" وكأنها حكم، ثم كشف حقيقته عندما خان مبادئه ولم يساعد "مريده" في ثورته، أي عرض له الروائي صورتين متعارضتين: الأولى صورة المثقف النزيه الداعي إلى العدالة الإنسانية، والثانية صورة المثقف الذي يؤمن برسالة فرنسا الاستعمارية، وبإيراد الصورتين المتعارضتين ظهرت حقيقته التي تتلخص في النفاق...

وفي رواية "التيوس" لإدريس الشرايبي، صورة مثقف فرنسي هو "ماك أوماك"[263] الناشر والسياسي والصحفي ممثل المضطهدين والأديب، ذهبت إليه السيدة "سيمون" زوجة "والديك" -بطل الرواية وهو شاب جزائري مثقف عمل في فرنسا، ثم قرر أن يتفرغ للكتابة حتى يفضح أعمال الفرنسيين ويكشفهم - لتستفسر عن مصير رواية زوجها "التيوس"؛ والمقصود بالتيوس المغاربة أو عرب

(261) Driss Chraibi: Le Passé Simple, p197.
(262) Driss Chraibi: Le Passé Simple, pp206-207.

(263) ماك أوماك: Mac O' Mac.

شمال إفريقيا. وأثناء زيارتها له فكر "والديك" فيما سيقوله لها: (ربما لم يقل ماك شيئا من هذا ولم يفكر فيه، إلا انني أسمعه يقول: انه لا يعمل. ويعتبر رغباته واقعا فكثيرا ما أقرأ رسائله، النموذج الحي لمثقف أو لمثقف جديد آت من قارة أخرى، من قيمة تاريخية أخرى، مستعملا لغتنا بطلاقة ومماحكاتنا الأوروبية بسهولة، أما تاريخنا زبدة مجهود الفرنسيين خلال ألفي سنة كون قطرة فقطرة وفكرة بعد فكرة، ومؤسساتنا المتوالدة عن بعضها البعض فكلها غريبة عنه لأنه لم يكن نتيجة لها مثلك ومثلي، بل إنه ليس في مستوى مشكلة شمالي إفريقيا التي تجثم على قلبه، لأنه ينسى انه يتوجه إلى جمهور فرنسي معتاد على الرجعية الفرنسية، ولا يحتاط لذلك بأي شيء بعد الحاجة المطبوعة. وتكمن في حياته الخاصة أكبر أخطائه تجاهك: فهو لا يكتفي بعدم تصرفه كأوروبي جديد، ولا يكتفي بتحطيم مفاهيمنا حول "البيكو" –الجديان أي العرب - وينسى أن المطلوب منه أن يكون "بيكو" –جديا - لا غير: بل يدعي، ويطمح بسذاجة (رسائله تدل على ذلك بوضوح) إلى فرض الشرق أمام الغرب.

وكانت النتائج وخيمة وتأملي نفسك: (فتاة أم، لا عمل، لا استقرار، لا مال، لا عائلة، لا مستقبل، لا أمل، إلا الرصيف أو الاتجار أو الذل اليومي (...) وحسب علمي البسيط عنبر المدينة اليهودية ملكك. وعندما عرفت خليلك – وكان خارجا من السجن -، التهم كل مدخراتك ولم يعطك مقابل ذلك إلا كلمات، وصرير أسنان أحد من عواء القط (...) ولكن يا صغيرتي، التحضير مسؤوليتنا نحن، ولن أسمح لعربي أن يبربر[264] واحدة من ممثلات الشعب الفرنسي؛ هكذا قال تقريبا)[265].

إذن "والديك" يعتقد أن "ماك أوماك" المثقف الفرنسي سيعمل على تأليب "سيمون" ضده وإثارتها عليه، بتنمية الروح العنصرية فيها، فهي ابنة فرنسا

---

[264] بمعنى جعل إنسان يتصف بصفات بربرية أي وحشيته حسب المفهوم الفرنسي الاستعماري للبربر.

[265] Driss Chraibi: Les Boucs, pp75-77.

العظيمة المتحضرة ذات التاريخ العريق، وهو ابن شمال إفريقيا المتوحش، فكيف تعيش إنسانة رقيقة مهذبة مع إنسان متوحش لا يملك شيئا؟ ثم يتأكد "والديك" فيما بعد من ظنونه حول "ماك أوماك" فعندما تخاصم الزوجان "والديك" و"سيمون" وهربت "سيمون" سأل عنها "والديك" عند الناشر، وأخبره بأنها كلمته وأنه -أي ماك - نصحها بالطلاق حتى لا تقع جريمة قتل[266].

فهو يخشى أن يقتلها زوجها المتوحش؛ ولما تطرقا إلى الحديث عن "الرواية"، راح "ماك أوماك" يتحدث بإسهاب عن إشكال الكتابة والفن القصصي ممثلا بروايته الأولى "الأسرة المقدسة" وساردا العوامل التي ساعدته على النجاح، ثم تطرق إلى القراء والرأي العام[267]...إلخ، حتى صار رأس "والديك" يغلي: (رفعت رأسي لأول مرة ونظرت إلى "ماك أوماك" لم يكن وجهه لينا فقط بل خداعا أو مشوشا ولم يكن ثمة جلد رخو يغطي لحما رخوا وغضاريف بدل العظام، بل لم تكن ثمة إمكانية تمييز جلد، ولحم وعظام كما هو الشأن مع أي وجه آدمي، ولكن: من الممكن القول أن الرأس كلها "بما فيها الشعر والنظارة" سلقت بعناية)[268] وهكذا شعر "والديك" بالقرف من الناشر الذي يرى أن إنتاجه هو الأدب الحق، كما شعر "ماك أوماك" بالقرف هو الآخر من هذا العربي الذي يريد أن يكون أديبا، ولم يجد وسيلة يتخلص بها منه إلا دفع ثمن تذكرة الرجوع إلى بلده – الجزائر -وبذلك سيتخلص منه[269].

وخرج "والديك" من المكتب، وفي البهو أثارت انتباهه ظاهرة أهملها أثناء دخوله، فالبهو يعج بأبناء جلدته وكل واحد منهم يحمل "إناء من الفخار" أو "أثاثا عربيا" أو "زربية" أو "عراجين تمر"، وكاتب "ماك أوماك" يقودهم فرحا. إنهم

---

[266] Driss Chraibi: Les Boucs, p88.
[267] Driss Chraibi: Les Boucs, pp97-98.
[268] Driss Chraibi: Les Boucs, p98.
[269] Driss Chraibi: Les Boucs, pp99-100.

يقدمون مطالب، لأن "ماك" هو ممثلهم ولا يحق لهم الكلام إلا بواسطته، ولكي يتكلم عن مظالمهم وفقرهم واستغلالهم، لابد أن يستغل الامهم وآمالهم[270].

إنه يستغل المضطهدين، ولا عجب في ذلك فهم لا يشبهونه جنسا ولا دينا ولا حضارة، إنما العجب في أن يستغل ممثل فرنسا -الأديب المشهور والسياسي المعروف والرجل العظيم -سيمون زوجةَ والديك التي اعلن لها انه سيحميها من زوجها المتوحش، حين ذهبت تستشيره عمّا ينبغي ان تفعله، بعد ان بلغت الأزمة بينها وبين زوجها ذروتها؛ فأدرك أنها منهارة نفسيا وحملها إلى بيته الجديد ليخفف عنها أزمتها وهناك ... هناك بهرها باللوحات والأضواء والأثاث الفاخر والعطور الفوّاحة والسيجار الفاخر والشراب العتيق، وراح يرثي حالها وفقرها وضياع جمالها، ولم تفق إلا بعدما فات الأوان...[271]، بعدما اشبع نزوته، ولم يطلق زوجته، ولم يتزوجها فقد أشبع رغبته منها، وانتقم من العربي المثقف المعروف؛ إنه مثقف استعماري يعمل على استمرار الوضع الاستعماري ليمتص دماء المضطهدين.

عرض الروائي صورته باستعمال طريقة "التأكيد"؛ ففي البداية ذكر ظن "والديك" في "ماك أوماك"، ثم راح فيما بعد يثبت ذلك الظن بالكشف عن مبادئه وآرائه وإظهار أعماله، حتى ثبت رأي "والديك" وأكثر، ولإيضاح تلك الصورة استعمل أساليب عديدة مثل المناجاة والحوار والسرد مركزا على مواقف "ماك أوماك" من العرب ومهملا الأوصاف الجسمية، ومع ذلك جاءت صورة المثقف "ماك أوماك" نموذج المثقف الاستعماري الذي يحقد على العرب ويحتقرهم ويعمل على استمرار عذابهم.

أما رواية "سأهبك غزالة" لمالك حداد، فتحوي صورتين لمثقفين فرنسيين: أولهما "جان دوروك" مثقف فرنسي متعاطف مع ثورة الجزائر، ويكره

---

[270] Driss Chraibi: Les Boucs, pp100-101.

[271] Driss Chraibi: Les Boucs, pp130-133.

أبناء جلدته المؤيدين لاستمرار احتلال الجزائر، ولذلك فهو يحاول -كلما سمحت الفرصة -أن يلقي خطبا في الاجتماعات، فإذا ما منع يخرج ساخطا: (لعنة الله على هؤلاء الفاشيين الأنذال، لعنة الله على هؤلاء الفاشيين الأنذال)[272].

و"جان دوروك" إنسان طموح: (وكان "جان دوروك" يطالع صحيفة "لوموند" كل مساء، وكان قد انبهر وخانته قواه من شدة ما تملق المجد وسعى إلى ذيوع الصيت، وعلى ذلك الانبهار فقد كان مصابا بداء الخناق، ولقد أعوزته خصلة لازمة هي عين ما يلزم لكي يصبح الإنسان شيئا يذكر الا وهي أن يعرف كيف يكون لا شيء و أن ينظر إلى الشارع..."[273]؛ إنه طموح و لكنه لا يعرف كيف يكون لا شيء ولا يتجه ينظره إلى الناس، بل ينظر إلى نفسه وكأنه طاووس مغرور، والغرور عدو المجد والشهرة، زيادة عن الغرور فهو مراء ومنافق: (كان الزائر "جان دوروك" وكان مبتسما كما تبتسم صورة إشهار إعلان معجون الأسنان)[274]؛ وصورة الإعلان لا غرض منها إلا إظهار بياض الأسنان، وبالتالي فابتسامة "جان دوروك" لم يظهر منها إلا بياض أسنانه، لقد ذهب إلى زيارة "فرانصوا دي ليزيو" -شاعر مشهور - ليضمن رأيه في آخر فصل كتبه، ويوقع على ورقة توضح الموقف فيما يتعلق بدبابات "بودابست" وهناك انغمس مع الشاعر في مجاملات لا نهاية لها: (تطبيلة لي وتطبيلة لك، تطبيلة لي وتطبيلة لك، إن جميع جلود دواب الأرض والقمر لن تكفي لذلك)[275].

"جان دوروك" مثقف فرنسي وكاتب يجري وراء المجد، إلا ان غروره ونفاقه لم يمكناه من النجاح، ولقد قدم الروائي صورته بأسلوبه الإيجابي الذي يعتمد

---

[272] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص47.

[273] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص131.

[274] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص77.

[275] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص77.

على الجمل ذات الإيحاءات، فهو يعبر عن مجاملة "جان دورك" و"فرانصوا دي ليزيو" بتبادل "التطبيل"؛ يطبل الأول تطبيلة لزميله، فيرد عليه الثاني بمثيلتها وهكذا... ويعبر عن غروره بأنه "لا يعرف كيف يكون لا شيء" اي لا يعرف التواضع... هذه الإيحاءات التي تشبه موجات الضوء رسمت صورة مثقف منافق لا هم له إلا الشهرة والنجاح، ومن كانت غايته تبرر وسائله، فضرره أكثر من نفعه. أما صفاته الجسمية فلم يذكر منها الروائي شيئا، واكتفى بالتركيز على اخلاقه ومبادئه.

أما الثاني فهو "فرانصوا دي ليزيو"؛ شاعر فرنسي مشهور جدا ينتمي إلى أسرة عريقة واسمه يدل على ذلك، فهو "فرانسوا دي ليزيو"[276] ولم يكن يعرف حقيقته أحد (وكان قد قضى أكثر من ثلاثين سنة وهو يلقي على العالم نظرة الملاحظ المزورة، ولم يكن في الحقيقة ينظر بل كان يثقب ويرقّي وينبش ويبلبل، ولئن إزْوَرّ نظره فذلك لأنه كان لا يظهر للناس إلا على جنب)[277]. لم يكن "فرانصوا دي ليزيو" يظهر كلية، بل يظهر جزئيا ذهب المؤلف –بطل الرواية، وهو كاتب جزائري يعيش ازمة كتابة رواية بعنوان "سأهبك غزالة" –، لزيارته، فاستقبله بسعادة ظاهرة على خلقته الجميلة[278].

فقد كان "فرانصوا" الشّاعر معجبا بالمؤلّف ويودّه، وكان المؤلف مسرورا بجمال الشاعر لأنه يرى أن من واجب الرسول أن يكون شبيها بموضوع رسالته[279]، ولذلك اعجب بجمال "فرانصوا" لأن جماله يشبه شعره، إضافة إلى جمال باطنه: (إن ظاهر "فرانصوا دي ليزيو" كان شبيها بباطنه وكان بذلك عليما، إذ كان

---

[276] دي: علامة توضع قبل اللقب لتدل على الشرف العريق.

[277] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص71.

[278] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص71.

[279] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص71 -72.

يعرف نفسه عن ظهر قلب)[280]. ومن علامات جماله دقة شفته السفلى، ونحالتها وتصويرها المحكم، فهي تدل على كبرياء الشاعر وغضبه لكنه يعرف كيف يبتسم ابتسامات متفرقة ومناسبة[281]؛ كما كان "فرانصوا" لسانا يتقن استعمال النبرات والفواصل والنقط، كثير الكلام، حتى صار من أولئك الذين يؤكدون ويثبتون وحدهم[282]. وكان يهتم بجماله فحتى شعره الأشيب اهتم به: (وكان شعره أبيض مشربا بزرقة)[283]. لقد كان المؤلف معجبا به شديد الإعجاب، وكان ينشد شعره منذ زمن طويل، لأن شعره كان زاخرا بالأغاني، أبياته تعبق بأريج عبق الفتى، وكيف لا يعجب به، واسمه انتشر في العالم كله[284]؛ وسأل الشاعر المؤلف عن روايته، فأخبره بأنه انتهى منها وسلمها إلى ناشر، وجاء ذلك الخبر طعنة في صدر الشاعر، فهو متعود على إبداء رأيه في مؤلفات المؤلف قبل نشرها. وها هو الآن ينهي "روايته" ويسلمها للنشر دون استشارته، لقد شب على الطوق وصار لا يأبه بآراء الشاعر[285]؛ لقد أصبح يتمتع بوجود لا يحتاج إلى وجود آخر يسنده، أي لقد ضعف وجود الشاعر مع وجوده، واستقل بنفسه عنه: (... إذن يا بني فقد أصبحت سيد نفسك الآن... وضحك "فرانصوا دي ليزيو" ضحك بدون أن يحرك شفتيه كالمرأة، تخشى أن تفسد هيئة أحمر شفتيها(...). ولكن المؤلف قرأ في نظر "فرانصوا دي ليزيو" وقرأ في يديه وفي ابتسامته وفي جبهته العريضة الملساء وفي صوته المتقطع لجمله)[286]؛ لقد قرأ

---

[280] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص72.

[281] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص72.

[282] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص72.

[283] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص72.

[284] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص73.

[285] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص73.

[286] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص74.

المؤلف في أعماق الشاعر مرارة الانفصال والاستقلال، وترجم الشاعر تلك المرارة برد فعل عنيف عندما قال له الشاعر: إن المطر دائم النزول في بلادك (وتكدر خاطر "فرانصوا دي ليزيو"، تكدرا عظيما؛ وشعر بأنه مسؤول عن نزول المطر ببلاده وفاه بالكلمات التالية: إنني فرنسي إلى حد الاستقباح.

وردد المؤلف بعده كالصدى: فرنسي إلى حد الاستقباح)[287]، بما أن المؤلف استقل بشخصيته عن الشاعر العظيم، فلا حق له في انتقاد بلد الشاعر؛ وكان يستطيع الانتقاد عندما كان جزءا من الشاعر أو تحت حمايته، لأنه انتقل من الملازمة إلى المواجهة، وعلى الشاعر أن يدافع عن كل شيء يراه يمس شخصيته حتى وإن كان ذلك غير خليق به... وكيف لا يفعل وقد تم بينهما الانفصال (وخيم صمت إنه صمت لن ينقطع أبدا)[288].

وأمام ذلك المشهد، حزن المؤلف لما وصل إليه الشاعر: (إنه رجل مسنٌّ ومسنٌّ جدا، وهو كالشجرة الملتوية والثمار؟ أين الثمار؟ إن كتب "فرانصوا دي ليزيو" كانت تتجول في العالم منذ أكثر من ثلاثين سنة. إن العشاق قد تغنوا على قيثارة "فرانصوا دي ليزيو" بصوت خافت. إن المقاومين قد رددوا صوته بين الغربان السوداء والأغلال، إنه قد رفع ذراعيه الكريمتين. وغاص في سماء فرنسا وحرث السحب(...) مسكين "فرانصوا دي ليزيو"؛ لقد كان يحسب أن أكاليل النجاح لا يشذبها الشاذب أبدا، إنه مسنّ ومسنّ جدا، إنه أخ أكبر لم يجد عملا يعمله رغم مكتبه الفخم ولوحات الرسامين "بيكاسو" "ليجي" المعلقة به والتليفونات)[289]؛ كيف لا يحزن وهو يرى الشاعر العظيم يتهاوى، وينغمس في تفاهات مثل غضبه من استقلال المؤلف بشخصيته ومصانعة "جان دوروك" من

---

[287] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص75.

[288] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص75.

[289] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح الفرمادي)، ص76.

أجل توقيعه على ورقة توضح الموقف فيما يتعلق بدبابات "بودابست"[290]، بل وتخلّيه عن أورع مبادئه: (وذكر المؤلف قول "فرانصوا دي ليزيو"... لأن يصير الكاتب عاهرة تتجول على قارعة الطريق أفضل عندي من أن يبيع قلمه...

يا له من رجل "فرانصوا دي ليزيو" هذا، بأناقته التي لا تشوبها شائبة ومكتبه وزرابيه وتليفوناته الجدلية. إنه شاعر لم يعد يفهم قيمة قرص من أقراص التليفون...)[291]؛ شاعر العشاق والمناضلين والعمال يفضل العهر على بيع القلم قول جميل جدا وموقف مشرف ولكن.

لكي يحقق الشاعر ذلك المبدأ، لا بد أن يتخلى عن الغيرة، فالغيرة عدوة النضال والثورية، وأن لا يدافع عن بلده إلى حد "الاستقباح"؛ فالدفاع عن شيء إلى حد الاستقباح عناد، والعناد سبيل الخطأ.

وأن يقبل النقد لأن النقد وسيلة التقويم، وأن يتمسك بمبادئه، فلا يدعو إلى الالتزام ثم ينسى ذلك عندما يغوص في أبهة مكتبه، ومن يخالف مبادئه يكون منافقا وكذابا، وبما أن الشاعر الجميل الأنيق غارق بين التليفونات والزرابي، ويجامل من أجل إمضاء؛ فلا شك أن مواقفه كلها تتحكم فيها المصالح، وأنه صار أنانيا لا هم له إلا مصلحته المادية أو المعنوية.

ولقد رسم الروائي صورته بأسلوبه الإيجابي، معتمدا على الجمل الموحية مجزِّئا لكلامه عنه، وكاشفا كل مرة عن جزئية صغيرة بواسطة لغته، وبذلك عرض الخطوط العامة للصورة، ثم صار يركز من حين إلى آخر على إيضاح جزئية، وبذلك استعمل الطريقة الإيضاحية في رسم الصورة، مركزا على الشخصية مهملا الصفات الجسمية عدا الإشارة إلى الجمال المفرط والتحذلق في الابتسامة.

---

[290] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص77 -78.

[291] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص89.

كذلك، نجد صورة مثقفين فرنسيين آخرين في رواية "رصيف الأزهار لا يجيب" لمالك حداد.

أولهما هي شخصية "سيمون"[292] المحامي، تعرف عليه "خالد" –بطل الرواية وهو شاعر جزائري يسافر إلى فرنسا أثناء الثورة هربا من الموت ويذهب عند صديق الدراسة -؛ في الثانوية زمن الدراسة تعرف عليه في قسم الفلسفة بالثانوية العامة وعلى مقعد الدراسة: (درسا برجسون وديكارت وأهملا الشيخ ابن باديس والشعراء الجزائريين الذين لا أسماء لهم ولا لغة)[293]؛ وكان "سيمون" ابن حلاق يسكن رحبة الكسرة، ومن ذلك اليوم جمعت الصداقة بين التلميذين اللذين صارا بلبلين يغنيان الجزائر، وفي يوم من الأيام خرس أحدهما[294]. خرس عندما انهمك في فرنسا يجري وراء الدراسة ثم الزواج ثم الاستقرار حتى صار "سيمون قج" محام في المحكمة، يمتلك شقة جميلة ويعلن عن نجاحه في لوحة النحاس التي تلمعها الخادمة كل صباح، ويغير السيارة ويشتري منزلا جميلا في "سان لونير" ببريطانيا للعطلة ويتزوج بـ "مونيك" الجميلة ابنة العائلة العريقة[295]، وينسى انه كان –قبل أن يصير سيمون قج المحامي - يغني بلده، أحزانه وآماله وتغنّى الكثير من أبناء الجزائر بأشعاره، وقص "خالد" على أمه الأمية قصص "سيمون قج"[296] وعندما يسأله صديق الدراسة: (عزيزي سيمون، أتعتزم العودة يوما عندنا؟ - عندنا ؟

كرر "سيمون" هذه الكلمة، وكأنها خالية من كل معنى، من كل محتوى ظاهر[297]؛ فقد أخرج نفسه من "عندنا" وتعجب من ضم "خالد" له

---

(292) Simon Guedj

(293) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus.

(294) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, pp10-11.

(295) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p17.

(296) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p17.

(297) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p16.

واشتراكهما في وطن واحد، فقد تخلى عن مسقط رأسه بعدما وجد غايته: (في قاعة الاستقبال يلعب "سيمون" البريدج دوما، إنه في بيته، مرتاح في عالمه، وبين أهله (...) هكذا كان هذا الأحد، وهكذا ستكون بقية أيام الآحاد. الصيف في "سان لونير" حيث تؤخذ صور تعرض على الأصدقاء، وتغير السيارة مرة أخرى، والشتاء في "ميجيف" (...) ويمر الزمن كنهر السين متشابها وستغير "مونيك" زينتها عندما تغير السيدة فلانة زينتها، وفي يوم من الأيام، عندما تصير الوحدة ثقيلة جدا على الزوجين، لن تقول لا للسيد المتشبث المتاني، ثم تعترف بعد ذلك لإيفلين -احسن صديقة لها بل أختها - ما العمل إنها الحياة)[298] خان أفكاره ومبادئه التي نادى بها حقبة من الزمن.

عرض الروائي صورة "سيمون فج" بأسلوبه الإيحائي ذي الجمل القصيرة ذات الإيحاءات، مركزا على وضعه الحالي مشيرا كل مرة إلى ماضيه وأفكاره السالفة مبرزا التناقض الموجود بين مبادئه وأفكاره في عهد الشباب وبين تصرفاته وكلامه بعدما صار محاميا مشهورا، والردة التي حدثت في مبادئه مع إهمال الصفات الجسمية.

وثانيهما هو "لوي لا بورط"[299]: الناشر، رجل جاد وكأنه قائد عسكري، مكتبه يغمره الهدوء مع إشرافه على بقية المكاتب، يعمل دائما في شبه عتمة، وكأنها تساعده على إجادة التفكير والمراقبة[300].

زاره المؤلف "خالد" - بطل الرواية - في مكتبه للاستفسار عن روايته، فاستقبله ببشر وترحاب ومجاملة: (ولكن ذلك لم يكن يدل على أسلوب مهذب يستعمله رجل له نسب مؤدب في تفكيره أثناء الحفل الذي رآه البارحة أو في الاستقبال الذي سيقوم به مساء (...) فقد كان السيد "لا بورط" في جوه.

---

(298) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p100.

(299) لوي لا بورط: Louis Laporte.

(300) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p89.

والظاهر أن التليفون المقاطع له وسط جملة كان يزعجه، إلا أنه لم يتخل كثيرا عن مجاملته، فصوته ناعم، دافئ بهيم شيئا ما، وعندما يظهر وكأنه يبحث عن مفرداته، فذلك ليس ناجما عن التردد، وإنما لإعطاء المفردات لفتات ووزنا لتقويتها)[301].

ثم دخل السيد "لا بورط" مباشرة في الموضوع - (السيد "لوي لا بورط" لا يحب المقدمات ولا التمهيدات وشعاره هو: "الأمان يكمن في السرعة" إنه يدخل مباشرة في لب الموضوع)[302]. وبعد فراغه من الحديث غرز سبابتيه في ثنايا سترته متكئا على مقعده وكأنه يقول: "إليك الآن"[303] وذلك بعدما أعلن إعجابه بكتاب المؤلف، متبعا ذلك الإعجاب بذكر كل ملاحظاته وآرائه حول الرواية وانتقاداته لها، ولما فرغ، أدرك المؤلف أنه لم يقل شيئا بين تلك الاستثناءات والاستدراكات والتأكيدات... إلخ، بل نسي أنه جاء يطلب نقودا[304]، وكيف يطلب نقودا من قائد لبق، استثناءاته واستدراكاته وتأكيداته غالبا ما تكون على صواب[305]، وودع الناشر المؤلف: (يد عريضة وضحكة عريضة.

- حظا سعيدا خالدي الصغير.

"خالدي الصغير" هذه قيلت دون أبوة وكلفة.

ووجد المؤلف نفسه في البهو، ثم فكر: كيف تطلب نقودا من ناشر يناديك باسمك؟[306]. "لوى لا بورط" ناشر فرنسي يقرأ كثيرا ويعمل بجد، يجامل كثيرا حتى وهو يزعج، لبق الحديث، لا يترك الفرصة لمحادثه، بل يهجم عليه مغرقا إياه وسط استدراكات واستثناءات وتأكيدات حتى يظهر أنه على صواب، وبتلك الطريقة يتهرب من دفع حقوق المؤلفين.

---

(301) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p89.
(302) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p89.
(303) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p90.
(304) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, pp90-91.
(305) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p91.
(306) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p91.

عرض الروائي صورته بأسلوبه الإيحائي مهملا صفاته الجسمية والخلقية، وعدا ذلك لا نعرف عنه شيئا. ولقد استعمل الروائي الطريقة الإيضاحية لتبيان نقطة واحدة في شخصية الناشر هي "طريقته في التهرب من دفع مستحقات الناس". ولذلك جاءت الصورة باهتة شيئا ما.

وفي رواية "الأفيون والعصا" لمولود معمري، صورة مثقف فرنسي هو الشاب الثائر الذي انظم إلى صفوف الثورة الجزائرية سعيا وراء تحقيق مبادئه إنه الشاب "اوبير"[307] الذي اجهد نفسه في شرح معنى الثورة واسباب ثورة الشعوب على الاستعمار وما ينبغي عمله، والمخاطر المحدقة بالثورة والأوغاد الخطرين الذين ينبغي رميهم بالرصاص[308]. قدم إلى الدكتور "بشير الأزرق" -بطل الرواية - ليناقشه، فهو مثقف ثقافة عليا، اي باستطاعته مناقشة ذلك المثقف الذي جاء يتفلسف حول الثورة مع أمين فاعتقد انه شيوعي: (قال: انت شيوعي؟

- لو كنت شيوعيا، لما كنت هنا.

- لماذا؟

- لأن الشيوعيين لا يساعدون إلا الثورات التي يشرفون عليها.

- إنك من صنف أولئك الذين يلطخون انفسهم ليخسروا على الوجهتين.

- أوه ! الخسارة... الخسارة .. المسألة متعلقة بمفهومك للخسارة... ثم انني افضل الذي يخسر على الوجهتين على الذي يربح على الكل.

- أنا جائز.. ولكن الأخرون؟ أولئك الذين اعمل من أجلهم؟ فكر بشير: من المفروض انه كائن منذ عهد المسيح هذا الحواري التائه بيننا.

- طيب وماذا ستعمل بعد الحرب؟

---

(307) اوبير: Hubert.

(308) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p194.

- هذا يتعلق بكم أنتم.

- بنا نحن؟

- نعم، إذا عملتم ثورتكم، سأبقى معكم وأدفع العجلة، أما إذا سلمتموها للبرجوازيين مثل الآخرين...

- من هم؟

- كل بلدان إفريقيا، وبالتالي يا عزيزي... لا شيء من عندي... إلى اللقاء وشكرا...)[309]

أوبير عنده مبادئ يريد تحقيقها، وخلاصة تلك المبادئ أنه يساعد كل ثورة على البرجوازية، فإذا ما استمرت تلك الثورة في مسيرتها الثورية فهو معها وإذا ما حادت، يلم متاعه مودعا لمساعدة من يستحق المساعدة، غير طالب جزاء ولا شكورا أو غير آبه بما يلحقه من الخسران، لأن ربحه العظيم أن يربح من يساعدهم وتلك هي غنيمته... عرض الروائي هذه الصورة المثالية بواسطة أسلوب حواري أبرز به مبادئ الشاب الفرنسي المثالية حتى شبهه الطبيب بحواري تائه، وأين نحن من الحواريين؟

أما في رواية "الرب في بلاد البربر" لمحمد ديب، فنجد صورة مثقف فرنسي هو الشاب: "جان ماري إيمار"[310] أستاذ رياضيات في الجزائر-بعد الاستقلال -، وهو يرى أن الحرية تكمن في تعدد التجارب وتتابعها، الفرد والشعب في ذلك سواء، ولذلك فالشعب الجزائري حر في رأيه، لكن تجاربه متأثرة بتجارب قوى كبرى تعمل وتوجه، ودليله على ذلك المناقشة القائمة بينه وبين الدكتور برشيق وكمال[311] -شخصيتان هامتان في الرواية - رأي بعيد عن التحيز لأية دولة

---

(309) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, pp195-196.

(310) جان ماري إيمار:Jean Marie Aymard.

(311) Mohamed Dib: Dieu en Barbarie, pp22-23.

كبرى، وبعيد عن التطبيل والتهريج، وليس هذا غريب عند "جان ماري إيمار" فمنذ سنوات الدراسة الجامعية وهو معروف بعقيدته المنطقية، بل كانت هي السبب في تقاربه مع كمال –بطل الرواية – وهو شاب تخرج من الجامعة وعين كاتبا عاما للولاية. ثم بدا يتساءل عمن دفع له مصاريف الدراسة وهو اليتيم، وبعد بحث مضن اكتشف ان الطبيب برشيق هو الذي كان يرسل لأمه النقود لتعلمه، ثم عمل على تعيينه كاتبا عاما للولاية ليستعمله وسيلة في تحقيق مآربه –حيث تعارفا أثناء مناقشة فيلم ياباني واختلفا حول مسألة ما إذا كان باستطاعة غربي أن يفهم نفسية الشرق والشرقيين على حد قول كمال[312] أم لا؟. ومن تلك المناقشة ومحاولات "جان ماري" المستميتة في إقناع كمال، توطدت العلاقة بينهما واستمرت إلى ما بعد التخرج وبقي إعجاب كمال بـ"جان ماري" يتزايد: (إنه بسيط وجاد وسيبقى دائما بسيطا جادا، إنه يؤمن بما يقال لأنه تعلم أن أي راي التزام، أما نحن الآلهة الكبار، فنتسابق في اختلاق البهتان الأنفع وبغير سبب)[313]؛ وتتضح بساطة "جان ماري" من تصرفاته مع كمال. ففي يوم من أيام الدراسة أقبل ومعه بنية متعلقة بذراعه، مقدما لكمال زوجته "ناطالي" هكذا بكل بساطة، ثم زاده علما بأنهما يناضلان معا في خلية[314]. وبعد عام أقبل "جان ماري" بضحكته النصف تين والنصف عنب، معلنا لكمال طلاقه من "ناطالي" دون اية مشاجرة أو سوء معاملة، بعدما اكتشفا فتور عواطفهما، إنه "جان ماري" دائما. ثم سافر إلى الجزائر بعد تخرجه مباشرة حيث عين أستاذا، ولما تأكد من السفر للعمل في مدينة صديقه كمال طلب منه –بكل بساطة – أن يهيئ له الجو[315].

---

(312) Mohamed Dib: Dieu en Barbarie, pp31-32.
(313) Mohamed Dib: Dieu en Barbarie, pp36-37.
(314) Mohamed Dib: Dieu en Barbarie, pp37-38.
(315) Mohamed Dib: Dieu en Barbarie, p39.

أما جديته فتتضح من آرائه ومواقفه، فبعد مدة قضاها في الجزائر أحبها وأعلن حبه: (أنا... أنا لن أغادر الجزائر لن أغادرها ولو في العطلة الصيفية)[316]. لن يغادر الجزائر لأنه اعتبر نفسه مناضلا من مناضليها.

والنضال عنده يبدأ من الوضوح والفهم التام لكل شيء[317]، والالتزام بالمبادئ. ونضال "جان ماري" من أجل بناء مجتمع جزائري متطور له أسبابه، فهو يؤمن بمبدأ واضح جلي هو عدم تقدم البشرية متفرقة، ولن يكون ثمة تقدم إلا إذا كان شاملا: (اعترف "جان ماري" قائلا: إنني لا أجهل المشاكل بل بسببها أعتقد في عالم اليوم –وأكثر من عالم الأمس - إما أن ننجو معا أو نقفز معا ولا يقبل من البعض التخلي عن الآخرين بحجة تقدمهم ببطء شديد أو بسرعة كبيرة)[318]، فالبشرية كل لا يتجزأ؛ فكيف يتقدم البعض منها بينما البعض الآخر يعيش في حماة التخلف؟

كما تظهر جديته وبساطته في تصرفاته اليومية، فهو لا يزور أحدا إلا لسبب ظاهر وبعد موعد ولو كان الشخص المزار من معارفه، فهو لا يحب إزعاج الناس[319] وإذا ما زار أحدا، فديدنه الصراحة والمباشرة في القول دون لف ولا دوران، ولذلك فهو يسخر من أولئك الذين يتعبون أنفسهم في اللف والدوران واستعمال الوسائط لقول رأي معين أو لطلب شيء ما[320]. فعندما قرر البقاء نهائيا في الجزائر أعلن ذلك لزملائه بكل بساطة: (لقد قررت البقاء هنا (...) ولو رفض طلب تمديد إعارتي من قبل وزارتنا، سأبقى. فأنا أفضل العمل في هذا البلد لأنني أريد أن أشارك... وسقطت خصلة شعر على صدغه كلما حرك رأسه تتمايل ولم يرفعها فكان يهيأ للناظر أن وجهه يعبر عن نوع من التحدي، وأن نظره ينظر إلى

---

(316) Mohamed Dib: Dieu en Barbarie, p71.

(317) Mohamed Dib: Dieu en Barbarie, p111.

(318) Mohamed Dib: Dieu en Barbarie, p112.

(319) Mohamed Dib: Dieu en Barbarie, pp112-113.

(320) Mohamed Dib: Dieu en Barbarie, pp120-121.

ما وراء الأشياء)[321]. فقد اقتنع برايه ذاك نتيجة مناقشات عديدة وتاثر بالبلد والناس ذوي النفوس الطيبة، فاعلن رايه دون شرح أو لف أو دوران[322].

وعرض الروائي صورة "جان ماري" بطريقة توضيحية، فقد بدأ من نقطة ثم استمر -في خط مستقيم- يضيف معلومات حول مبادئ "جان ماري" وتصرفاته حتى اتم الصورة، مستعملا السرد والحوار في تبيان صفات "جان ماري" الخلقية مهملا الصفات الجسمية، وبذلك جاءت صفات "جان ماري" عامة، فهو شاب مثقف إنساني النزعة إلا انه لا ينفرد باية علامة تميزه سوى مبادئه وحرصه على تطبيقها.

من كل هذا، نرى أن المثقف الفرنسي الذي يهتم بالسياسة والمشاكل الاجتماعية والفكرية الفرنسية عدا "فرانصوا دي ليزيو" في رواية "سأهبك غزالة"، فهو جميل الخلقة رقيق الشفة السفلى.

أما صفاته الخُلقية، فهو إنسان منافق أو انتهازي يقول شيئا أو كان يقول شيئا ويعمل شيئًا آخر مناقضا لأقواله، فالسيد "روش" يدعو العرب إلى الثورة، وعندما ثار "إدريس" وطلب منه المساعدة رفض لأن "إدريس" يريد أن يتساوى مع الغربيين المتحضرين. و"ماك أوماك" يثير "سيمون" على زوجها "والديك" العربي المتوحش القذر، وما أن التجأت إليه لمساعدتها حتى أسرع يشبع رغبته منها ثم يتخلى عنها وقد انتهك شرف عربي قذر. و"جان دوروك" تقدمي يدافع عن الثورات بالخطب والإمضاءات، ولا يتورع عن فعل اي شيء في سبيل تحقيق مطامحه التي عجز بسبب غروره عن تحقيقها. و"فرانصوا دي ليزيو" يعلن عن مبادئ فكرية رائعة ثم يعمل عكسها. و"سيمون فج" يتغنى بالجزائر مسقط رأسه، ثم ينكر صلته بها وبأهلها من أجل بعد الصيت والمنزل والسيارة والمرأة الجميلة التي حصل عليها. أما "لوي لا بورط"، فانتهازيته تافهة جدا لأنه يتحايل

---

(321) Mohamed Dib: Dieu en Barbarie, pp130-131.

(322) Mohamed Dib: Dieu en Barbarie, pp131-132.

على المؤلفين حتى لا يدفع لهم مستحقاتهم، ولم ينج من هذه الصفات الخلقية إلا مثقفين فرنسيين هما: "أوبير" في رواية "الأفيون والعصا"، و"جان ماري إيمار" في رواية "الرب في بلاد البربر". فالأول، ثائر على البرجوازية يساعد كل ثائر عليها غير مبال بما يلحقه من أضرار. والثاني، إنسان مثقف بسيط واضح، وجدي في كل أعماله وأقواله، ولا يؤمن إلا بتقدم البشرية جمعاء، وفي سبيل مبدئه ذاك قرر البقاء في الجزائر للمشاركة في نهضتها.

أما تقنيات رسم صورة المثقف الفرنسي فثمة طريقتان:

الأولى التعارض، وذلك بإبراز صورة معينة للشخص ثم إبراز صورة معارضة أو مناقضة للأولى، وبذلك تتضح حقيقة الشخصية مثل صورة "روش" و"فرانصوا دي ليزيو" و"سيمون قج" و"لوى لا بورط"، بالاعتماد على السرد في رسم صورة "روش" والإيحاء في رسم بقية الشخصيات السابق ذكرها.

الثانية التوضيح، وذلك بالبدء من نقطة معينة في رسم الصورة ثم الاستمرار في التوضيح بإضافة معلومات لزيادة إيضاح الصورة إيجابا أو سلبا؛ حسنا، مثل صورة "أوبير" في رواية "الأفيون والعصا" و"جان ماري أيمار" في رواية "الرب في بلاد البربر"، أو قبحا مثل صورة "أوماك" في رواية "التيوس" و"جان دوروك" في رواية "سأهبك غزالة"، وذلك اعتمادا على السرد والحوار والمناجاة أي بتعدد زوايا النظر.

جدول مكونات شخصية المثقف

الرواية، كاتبها شخصياتها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الـــدور
"الماضي البسيط" الشرايبي 1 - روش	لا شيء	منافق- يدعي الفوضوية والثورة وهو الاستعماري	يعمل على تحريض شاب مغربي وإثارته على مجتمعه ثم يتخلى عنه ويظهر على حقيقته

"التيوس" الشرايبي 1 - ماك اوماك	لا شيء	اديب – سياسي – منافق يعمل على تثبيت الاستعمار	مشهور يحارب والديك ويفتن بينه وبين زوجته الفرنسية حتى ينتقم من ذلك المغربي
"سأهبك غزالة" مالك حداد 1 -جان دوروك	لا شيء	طموح – غير متواضع منافق – الغاية عنده تبرر الوسيلة	اديب لا هم له إلا الشهرة فيثير اشمئزاز المؤلف
2 - فرانسوا دي ليزيو	جميل– انيق	شاعر مشهور – غيور ومتعصب	اقواله شيء وافعاله شيء فخيب ظن البطل فيه
3 - سيمون قج	لا شيء	منافق – محب للمال والرفاهية	يتحايل على المؤلفين كي لا يدفع لهم مستحقاتهم
4 - لوي لا بورط	لا شيء	لبق – مهذب – جشع هاضم للحقوق	كان يتغنى بمبادئ ثم خانها فتنكر لماضيه
"الأفيون والعصا" مولود معمري 1 - اوبير	شاب	يكره البرجوازية ويحقد عليها واضح المبادئ – يضحي بكل شيء في سبيل مبادئه	همه الوحيد مساعدة كل ثائر على البوجوازية والتخلي عن كل متعاون معها
"الرب في بلاد البربر" محمد ديب 1 - جان ماري إيمار	شاب	صريح جدا واضح الأفكار بسيط– إنساني النزعة	يعمل من أجل رقي الإنسانية جمعاء ولا يؤمن بتقدم البعض وتخلف البعض الآخر ولذلك اعجب به البطل

9- رجل الدين

الشعب المغاربي شعب مسلم –مهما كانت درجة فهم افراده للإسلام وتطبيقاتهم له –، وجد نفسه بعد دخول فرنسا امام دين غريب عنه –يمثله القديس أو الأب أو "البباص" كما يقول المغاربة –، ذلك "البباص" راح يسخر من

الدين الإسلامي ويدعو الصغار إلى المسيحية ليصيروا أصحاء يتمتعون بالجاه والمال والملذات التي حرمهم منها الإسلام.

لم تحفل الرواية المغاربية الفرنسية بذلك "البباص" كثيرا، إلا أنها لم تهمله بتاتا. ففي رواية "ابن الفقير" لمولود فرعون صورة أب مسيحي، مثلما توجد صورة أخرى للأب المسيحي في رواية "الماضي البسيط" لإدريس الشرايبي. فنجد السيد لامبير[323] في رواية "ابن الفقير" أبا مسيحيا بروتستانتيا، يدير مركزا لرعاية التلاميذ الفقراء الذين لا يجدون المأوى لمتابعة دراستهم الثانوية في المدينة بعيدا عن قراهم النائية، قال عنه "فورولو" بطل الرواية وهو معلم يقص تاريخ حياته عندما آواه: (السيد لامبير رجل رائع، قامته الطويلة منحنية شيئا ما، مشيته صلبة مثل مشية ضابط لحيته الطويلة تزين وجهه الجميل وتوحي باحترام ممزوج بالخشية، له صوت قوي، خفيض، موزون.

معه يتحول الاحترام إلى ثقة عمياء عندما ينظر إليك بعينيه المليئتين صراحة وعذوبة وسذاجة، إنه يستولي عليك ببساطة ويأخذ بثقة حقّ تسييرك والقدرة على ذلك، فتسايره بفرح...)[324].

ما يهمّ آباء التلاميذ، هو نجاح أبنائهم لتعويض معاناتهم، أما آباء أولئك الذين يشرف عليهم الأب "لامبير"، فلا همّ لهم لأنّ الأب "لامبير" يتحمل كل المسؤولية، وذلك بتوفير الجو اللازم لدراسة التلاميذ، موفرا عليهم كل تعب إلا رضاه، وإذا ما رَضِي الأب "لامبير"، فمن الصعب الا يكون أي أب كذلك[325] (فهو معلم شديد، وأب متان، وصديق الألعاب لكل أولئك المنبتين الذين يسكنون عنده)[326].

---

[323] لامبير: M. Lambert.

[324] Mouloud Feraoun: Le Fils du Pauvre, p122.

[325] Mouloud Feraoun: Le Fils du Pauvre, pp122-123.

[326] Mouloud Feraoun: Le Fils du Pauvre, p123.

استقبل "منراد فورولو" استقبالا جادا، وأعطاه التعليمات اللازمة؛ ثم نصحه بالجد والاجتهاد، وكلما مر الزمن يتزايد إعجاب "فورولو" بالأب "لامبير"[327].

عرض الروائي صورته محددا صفاته الجسمية والخلقية وأعماله، بواسطة السرد التقريري مع شيء من الحوار العادي، مستعملا الطريقة التوضيحية البسيطة.

أما الأب "بلوط"[328] في رواية "الماضي البسيط"، فقد ذهب إليه "إدريس" -بطل الرواية - في ديره حانقا على الإسلام، طالبا مشورته: (حقيقة إنه لمشكل يصعب حله لثلاثة أسباب: أولا لأنه لم يطرح جيدا، وثانيا لأنني لم أعشه، وثالثا لأنني أنظر إليه بعيني أوروبي وأب)[329]؛ وشده "إدريس" فالأب المسيحي، الكاهن، الزاهد ينظر إلى المشكل بعيني "أوروبي" أولا و"أب" ثانيا.

فما الفرق إذن بينه وبين أي أوروبي آخر؟

لا فرق، ما دام الكل ينظر إلى مشاكل الأهالي نظرة "أوروبية"، وانتبه "إدريس" إلى ملامحه الجسمية، فهو يتمتع بملامح مضبوطة وحيوية ظاهرة، إنه جميل، يبلغ الثلاثين من العمر مع ضخامة في الجسم ورشاقة في الحركات[330]؛ وتساءل "إدريس" عن السبب العاطفي أو الظرف القاهر الذي دفعه ليكون مواسيا للنفوس، وهو الذي لا يصلح إلا لإرواء الأجسام[331] ومن تأملات "إدريس" في قوة الأب "بلوط" الحيوانية، وإجاباته حول مشكلة "إدريس"، تأكد لديه أن الأب "بلوط" مزيف[332] لا غير.

---

[327] Mouloud Feraoun: Le Fils du Pauvre, pp123-125.

[328] الأب بلوط: Le Père Plot.

[329] Driss Chraibi: Le Passé Simple, p182.

[330] Driss Chraibi: Le Passé Simple, p182.

[331] Driss Chraibi: Le Passé Simple, pp182-183.

[332] Driss Chraibi: Le Passé Simple, p183.

وبالتالي، عرض الروائي صورته مبرزا بعض صفاته الجسمية والخلقية مركزا على زيف مبادئه، وذلك بالاعتماد على الطريقة التوضيحية مستعملا السرد والمناجاة. إن رجل الدين المسيحي قليل الوجود في الرواية المغاربية عدا اثنين ورد ذكرهما عرضا في روايتين اثنتين لا غير.. ؛ لقد صور الروائيان الرجلين بطريقة واحدة هي الطريقة التوضيحية إلا ان الأولى إيجابية والثانية سلبية، معتمدين على السرد...؛ والملاحظ أن ثمة فرقا بين الشخصيتين، فصورة الأب الأول مرسومة من خلال نظرة طفل فقير بريء لا يدرك عقله الصغير ما وراء الأفعال بينما صورة الثاني مرسومة من خلال نظرة طالب ثانوية عامة له مستوى من الإدراك والتفكير، استطاع أن يكتشف حقيقة الأب "بلوط". فإذا ما تساءلنا عن أهداف الأب "لامبير" الحقيقية المرجوة من مساعداته الجمة المقدمة للتلاميذ البؤساء، فالجواب يكون إما وإما، فقد يكون هدفه نبيلا وقد يكون خبيثا، وبذلك يكون جوهره أقبح من جوهر الأب "بلوط" فيشتركان في المظهر والجوهر.

10- الفرنسيون عامة

رأينا نماذج من صور الفرنسي: صورة الحاكم، والعسكري، ورجل الأمن، والمعمر، ورئيس العمل، ورجل التعليم، والطالب، والمثقف، ورجل الدين، وبقيت صور عامة للفرنسيين أو صور لفرنسيين لا يدخلون تحت إطار النماذج التي ذكرت. لقد جمعت تلك الصور العامة لتكون صورة للفرنسيين بصفة عامة، فاتضح لي انها تنقسم إلى قسمين: فرنسيون طيبون يحبون الأهالي أو لا يظلمونهم على الأقل، وفرنسيون اشرار يظلمون الأهالي بشتى أساليب الظلم.

أما الأشرار، ففي رواية "الحريق" لمحمد ديب، يشاهد "حميد سراج" – مثقف جزائري يعمل على توعية الشعب ليثور -. في مدينة الجزائر –ليلا – مجموعة من الفرنسيين يتقاذفون جثة طفل جزائري مثل كرة لأنهم يريدون تنظيف البلد من العرب القذرين، فبدأوا بذلك الطفل التعيس، وعندما استفسر

"حميد" عن الجرم الذي اقترفه الطفل حتى يفعل به تلك الفعلة، سخروا من ذلك "البيكو" الجدي الذي تحضر وصار يفهم، والتفوا حوله ليلحقوه بالطفل، ولم ينج منهم إلا بقوة ذراعيه أولا ورجليه ثانيا[333].

أما في الريف، فهم ينتزعون الأراضي ويقتلون الأهالي إما بالرصاص أو بالتجويع لأن الأهالي مذنبون جميعا في نظرهم، فيطردونهم من الضوء إلى ظلمات السجون، ثم من ضوء الحياة إلى ظلمة القبر[334] إنهم مذنبون يزاحمونهم ويزعجونهم. صور "محمد ديب" أولئك الفرنسيين الظالمين ساردا أعمالهم، موضحا بشاعتها بأسلوب سردي، تقريري واضح ممزوج بقليل من الحوار العادي.

وفي رواية "التيوس" لإدريس الشرايبي، وصف الفرنسي لعامل جزائري بأنه الهدوء والنظام والمنطق، كما يرى نفسه؛ في حين يرى غيره -أي العربي- الضعف والخمول والفوضى، ولذلك يجب على العربي أن يحترمه ويحرص على راحته وعدم إزعاجه، لأنه لن يهتم بأي إنسان غير أوروبي، فمن واجب أي إنسان – ولو كان صبيا - أن يركع لأوروبا للمنطق، للنظام والهدوء الأوروبي... منتهى الغطرسة ومنتهى الغرور[335]؛ ولقد عرض الروائي هذه الصورة بسرد وصفي قوي العبارات.

وفي رواية "نجمة" لكاتب ياسين، نجد صورة فرنسي محتال هو السيد "برونو"[336] الذي يعمل سائقا للحاكم الإداري، تنبه إلى غباوة الطاهر -بقال القرية - وولهه بغسالة فرنسية في مدينة سطيف، تنظم لقاءات مشبوهة في بيتها، فراح يكذب عليه، مؤكدا له ولعها به -بالاتفاق معها طبعا - وهيامها به

---

[333] Mohamed Dib: L'Incendie, pp111-112.
[334] Mohamed Dib: L'Incendie, pp140-141.
[335] Driss Charaibi: Les Boucs, p31.

[336] برونو: Bruno

عندما تراه مع رجال السلطة –أي معه هو - واعتزازها بمعارفه، فهو العربي الوحيد الذي يركب سيارة الحاكم –مع السائق خفية -؛ وبذلك جعل "برونو" "الطاهر" يجري وراءه جريا كلما رآه مسافرا إلى المدينة، ويروح يسترضيه بالهدايا المتعددة حتى يسافر معه في سيارة الحاكم، وعندما يرضى "برونو" يركب "الطاهر" سيارة الحاكم –خارج القرية طبعا - وفي المدينة يتعاون "برونو" مع "الغسالة" على سلبه وبخاصة عندما يسكر... ولم تُجدِ شيئا دموع زوجة "الطاهر" ولا توسلاتها[337].

وعرض الروائي صورة "برونو" بأسلوبه القوي ذي الجمل الواضحة ساردا ما دار بينه وبين "الطاهر".

وفي رواية "سأهبك غزالة" لمالك حداد، يشير الكاتب إلى مجموعة من الفرنسيين في اجتماع حول القضية الجزائرية، صاحوا بآرائهم علنا فقال البعض منهم: (اطردوا من باعوا مستعمراتنا بثمن بخس...)[338]. وقال البعض الآخر: (ليتبوأ جنود المظلات الحكم)[339]، إنهم ينادون بالحكم على من دعا من الفرنسيين إلى استقلال المستعمرات، ثم يطالبون بإعطاء السلطة إلى جنود المظلّيات، وسلطة المظليّين لا تحتاج إلى شرح. حتى الشيوعيون الذين يدعون مساندة الجزائر سئم المؤلف –بطل الرواية - سماع كلامهم، فالخطيب الذي وقف في الاجتماع معتمدا على حزبه منوها بكفاح الشعب الجزائري قال كلاما أحس المؤلف أنه شبيه بكرم جارٍ كثير حب الاطلاع[340].

---

[337] Kateb Yacine: Nedjma, pp196-197.

[338] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص42.

[339] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص42.

[340] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص42 -43.

وعرض الروائي تلك الصورة بأسلوبه الشاعري ذي الجمل الإيحائية، لإيضاح ظلم الفرنسيين، وفي رواية "التلميذ والدرس"، يصيح "عمر" في وجه حبيبته فضيلة: (لقد صوتوا مع الأحكام الخاصة... نعم يا فضيلة لقد صوتوا مع الأحكام الخاصة، نعم يا فضيلة، نعم، إنهم النواب الشيوعيون إنهم الوهم المزيف لعقيدة عتيقة إنهم... (...) حتى هم.

لا يغتفر شيء لمن نحب. لمن أحببنا. إنها مسألة حياة عباد. إنها مسألة موت عباد)[341]؛ لقد كانت صدمة "عمر" عنيفة، فالرفاق الفرنسيون صوتوا مع الأحكام الخاصة مع بقية الفرنسيين، مثل اليمينيّين والبوجوازيين و... و... أيدوا جلادي رفاقهم في الجزائر بعدما كذبوا عليهم، إنهم منافقون يقولون أشياء ويفعلون غيرها، أولئك هم الشيوعيون الفرنسيون، كما صورهم الروائي في "التلميذ والدرس" بأسلوبه الشاعري وجمله الإيحائية.

وفي رواية "رصيف الأزهار لا يجيب"، لا يجد "مالك حداد" وصفا يصف به الفرنسيين إلا الحمقى، ففي يوم من الأيام سيكون الجو بديعا، وسيترك الحمقى المنزل نظيفا ويرحلون، فليرحلوا... "[342].

وفي رواية "أبناء العالم الجديد" لـ "آسيا جبار"، صورة شاب فرنسي يدعى "بوب"، غازل فتاة جزائرية ساقطة فبادلته الحديث، فتشبث بها، مدفوعا بحب الاستطلاع والرغبة، فقد كانت أول فتاة يكلمها، معتمدا على كرم والديه وعطفهما عليه، فهو مدعو إلى الالتحاق بالجيش، ولن يرفضا أي مبلغ يطلبه، ملحا عليها قبول السفر معه إلى المدينة ليمضيا يوما بعيدين عن الأنظار، ثم أسرع عند والديه ليأخذ منهما الدراهم[343]. شاب فرنسي يعتقد أن الفتاة العربية شيء مناقض للأنثى الأوروبية تعلق بأول فرصة معتمدا على عطف والديه.

---

(341) Malek Haddad: L'Elève et la Leçon, pp23-24.
(342) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p30.
(343) Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, pp148-152.

عرضت الروائية صورته بأسلوبها السردي مع قليل من المناجاة.

كما وردت في رواية "أبناء العالم الجديد"، صورة فرنسي تخونه زوجته، إنه صاحب فندق يستقبل فيه الضباط موفرا لهم النساء وما يتبعهن، هربت زوجته – فرنسية – مع جزائري وأغلقا على نفسيهما محلا، وبعد أيام من البحث والتفتيش تنبهت الشرطة إلى محل العشيق المغلق، فأقبلت لكسره، وجاء الزوج مع الشرطة يصيح ويحتج؛ فلا شك أن زوجته المسكينة تقاوم ذلك الوحش الهائج، بينما تدعي الشرطة بأنها هربت معه. إنه مظلوم، فكيف لا تحمي الشرطة زوجته المسكينة[344]، المثل الحي للفرنسي الديوث، تخونه زوجته، ويدري أنها تخونه، ثم يدافع عن كرامتها وشرفها المهانين من طرف الشرطة. صوّرته الروائية بأسلوب سردي تقريري.

أما "مولود معمري" في روايته "الأفيون والعصا"، فلا يرسم صورة الفرنسيين بل يتتبع تطورها: (جرّب معنا الفرنسيون في البدء التضليل.. ولإقناعنا استعملوا كل مفاتنهم: كرروا لنا في جرائدهم وإذاعتهم وخطبهم الرسمية بأننا محبوبون، وفي كتبهم علمونا "فيرسان جيتوريكس" "جان دارك، نابليون..."، ....اختاروا القياد[345] والباشاغات[346]... وعلى بطاقات هويتنا بأننا فرنسيون، وعندما يحتفلون يأخذون واحدا منا معهم ليعلنوا أننا غير منسيين... (...) إنهم لم يتمكنوا من جذب أنظارنا الهاربة، وعندما يحدث ذلك صدفة لا يرون إلا بريق الكراهية؛ ولذلك خابت آمالهم وأحسوا بالضياع والخيانة تقريبا، واعتقدوا بأننا جاحدون ولم يتبق لهم إلا استعمال الطريقة الأخرى.

---

(344) Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde,pp 165-167.

(345) القياد: جمع قايد رتبة إدارية تركية الأصل تشبه العمدة.

(346) الباشاغات: رتبة أدنى من رتبة القايد.

منذ ثلاث سنوات ونحن نبحث، نسجن، نضرب، نعذب، نقتل بمختلف الطرق، لكي نرضخ... للعقل أو للقوة، نفتن أن نقتل (...) "الأفيون أو العصا"[347]، وسبب ذلك بسيط جدا: (الروم لا يحبوننا يا أخي "محند" إنهم يكرهوننا... يكرهوننا... يكرهوننا)[348]. إنهم يكرهوننا، ومع ذلك يدّعون محبتنا، يدعون مساواتنا، يدعون ثقتهم فينا، يدعون كل شيء معنا، فهم منافقون، ولا هم لهم إلا السيطرة علينا، باللين أولا، فإذا لم نرضخ فثمة القوة ولو أدت إلى الموت.

لا غرض للفرنسيين فينا إلا مصلحتهم، وكل ماعدا ذلك كذب ونفاق، أولئك هم الفرنسيون الأشرار كما وردت صورتهم في رواية "الأفيون والعصا" رسمها الروائي معتمدا على السرد التقريري، مؤكدا فكرته، وموضحا لها، مستعملا التزاوج في الجمل، فهم يقولون بأننا محبوبون ثم يعلموننا تاريخهم.

الفرنسيون الأشرار أو المغضوب عليهم من قبل المغاربة في الرواية المغاربية، لا هم لهم إلا محق المغاربة، فهم يكرهونهم ويحقدون عليهم، لاعتقادهم بالتفوق عليهم سلاليا وحضاريا ودينيا واجتماعيا، ولا بد من التخلص منهم حتى يصفو الجو، وللتخلص منهم تسلك طرق شتى مثل القتل بلا مبرر، كما ورد في رواية محمد ديب أو انتزاع أراضيهم وتجويعهم أو الزج بهم في السجون أو ابتزاز أموالهم، وأهون الشرور خيانة من كانت الآمال معقودة عليهم مثل الرفاق الفرنسيين.

والقول الفصل، أن الفرنسيين الأشرار في الرواية المغاربية لهم أسلوبان في معاملة المغاربة: إما الرضوخ باللين وإلا فالقوة، ومعنى ذلك أن الرضوخ لا بد منه ومن لا يقبل ذلك فالمصير معروف، إنه الظلم المجسم.

عرض الروائيون تلك الصورة بتدرج، فـ "محمد ديب" يذكر سلب الأراضي والقتل، ثم يذكر "إدريس الشرايبي" الاحتقار والتعالي -بعدما تمت السيطرة -، ثم يعرض "كاتب ياسين" الطرق الملتوية لابتزاز أموال الشعب، وبعد

---

[347] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, pp11-13.
[348] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p372.

الابتزاز تأتي مرحلة النفاق والكذب، يجسمها الرفاق الذين أيدوا الأحكام الخاصة؛ وبذلك تنكشف كل الأوراق، ويتضح الأسلوبان عند "مولود معمري"، فيقرر بصراحة تامة أن الفرنسيين لا يستعملون مع المغاربة إلا طريقين: "الأفيون" أو "العصا".

لتوضيح هذه الصور المتتابعة والمتكاملة، اعتمد كل الروائيين على السرد التقريري أولا، ثم الحوار في بعض الأحيان، والمناجاة في القليل من الحالات، وذلك لأنهم يريدون تأكيد بشاعة أعمال الفرنسيين ثانيا.

أما الفرنسيون الطيبون: فهم صفة يتصفون بها، لأنهم لا يظلمون الأهالي ولا يحتقرونهم. في رواية "الحريق" لمحمد ديب"، يصف فلاح جزائري، الفرنسي بإعجاب، فهو في نظره يشبه السلف الصالح لأنه أنشأ المزارع، وزرع الكروم، وبنى المخازن، وأجهد نفسه في العمل، وغير وجه البلد[349]. إنه إنسان عامل نشيط لا يشبه العرب الخاملين، إلا أن هذا الراي كثير الورود على ألسنة الفرنسيين أنفسهم.

والإعجاب بعمل الفرنسي، يتكرر عند امرأة جزائرية، فهي تقول لزميلاتها أن الفرنسي إنسان عامل ومجد. ففي الوقت الذي كان فيه العربي يتمدد على الحشايا ويرتشف الشاي، كان الفرنسي يعمل، ولا يضيع أية لحظة من وقته. والآن يطالب العربي بأرضه التي لو لم يتخل عنها وأهملها، لما أخذت منه[350].

الفرنسي الطيب في رواية "الحريق"، إنسان عامل، ومجد، يحرث ويبني ويشيد، -بغض النظر عن صدق هذا الراي أو عدم صدقه -؛ ويستغل كل لحظة من وقته. صوّره الروائي بأسلوب سردي تقريري لتأكيد راي الشخصية المؤمنة بتلك الفكرة.

---

[349] Mohamed Dib: L'Incendie, pp66-67.

[350] Mohamed Dib: L'Incendie, p153.

كما نجد صورة فرنسي طيب، هو السيد "ديبون –Dupont" رئيس مصلحة البطالة، أدرك زيف وعود الإدارة، فثار وصرح برايه علنا لشاب جزائري، ذهب إليه باحثا عن عمل: (اسمع يا صفيري لا ترجع غدا (...) لا ترجع بالمرة، فلا عمل، ولا مأوى، ولا مساعدة، ولا أخوة، ولا وجود إلا للافتات نحاسية، واستجوابات حول الهوية وبطاقات بطالة ووعود ولا شيء غير ذلك، وأنا لست سوى قربة شحمة وخمرة معلقة في خصر الإدارة)[351].

لقد سئم السيد "ديبون" من كذب الإدارة على الأهالي البؤساء، سئم من الشعارات المزيفة وأدرك أنه مجرد حجرة وضعت في طريق المغاربة، دفعه ضميره إلى البوح بتلك الحقيقة فقالها، وبذلك أراح الأهالي وأراح نفسه.

وعرض "إدريس الشرايبي" صورته من خلال كلامه هو، فجاءت جمله حادة مثل احتداد أعصابه، جلية المعنى خالية من اللف والدوران.

وفي رواية "سبات العادل"، يصف "تودير" –طالب الثانوية العامة – الفرنسيين، مبينا إعجابه بهم وداعيا لهم بالانتصار على الألمان، فقبل تواجدهم في الجزائر، لم يعرف الأهالي لا الأطباء ولا الطرق المعبدة ولا المدارس، بل كانوا يعيشون مثل حيوانات الغابة: القوي يأكل الضعيف[352]. ورغم صحة جزء كبير من هذا الرأي، فإن المؤكد أن الكثير من الطلاب كانوا يؤمنون بمثل تلك الآراء، ثم عرفوا الحقيقة فيما بعد، فغيروا الصورة. وعلى العموم، فهذا الطالب يرى أن الفرنسيين مصدر رقي وازدهار، لأنهم علموا الأهالي الحياة.

وفي رواية "سأهبك غزالة" لمالك حداد، صورة فرنسي طيب جدا هو السيد "موريس" صاحب الخمارة التي يرتادها البطل، رأى الشرطة تفتش بحثا عن الجزائريين فتنهد متأسفا، عندما أحس بصعوبة افتخار المرء بأنه فرنسي[353].

---

[351] Driss Charaibi: Les Boucs, pp122-123.

[352] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, p8.

[353] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص27 -29.

فالسيد "موريس" رجل طيب جدا ذو حياء واحتشام... بل إنه الأمير ولكنه امير متواضع[354]. وزيادة عن طيبته وحيائه، فهو فنان يعشق الأدب والأدباء، ويفرح كثيرا باستقبال المؤلف في خمارته، حتى بلغ به الأمر حد إقراض المؤلف مبالغ نقدية بفرح وسرور، وكاد يشكر المؤلف على طلب القرض، فهل ثمة رجل يقرض إنسانا بفرح وسرور؟[355].

وحب السيد "موريس" للأدب جعله إنسانا رقيق الإحساس يقدر كل اديب ويحزن لحزنه، ويعمل كل ما في وسعه للتخفيف عنه[356].

إنه إنسان رقيق، طيب لا يؤمن بالأفكار العنصرية... وعرض الروائي صورته بأسلوبه الشاعري الإيحائي، موضحا رأي المؤلف فيه من حين لآخر بلمحة خفيفة جدا، ولذلك جاءت صورة السيد "موريس" خفيفة الظل رقيقة مثل رقة إحساساته.

كما يعرض "مالك حداد" صورة فرنسي طيب آخر في روايته "التلميذ والدرس" هو الدكتور "كوسط"[357] زميل "الدكتور صالح إيدير" –بطل الرواية –، أصيب بالسرطان، وأدرك من خلال عيون زميله "صالح" أنه مصاب بالسرطان، وراح الدكتور "صالح" يتأمل "كوسط" الجرّاح المعروف الذي كان يردد دائما أنه لا دخل له في العمليات، بل الله هو الملهم، ويتذكر جهاده في سبيل إنقاذ عشرات المرضى، ولكن ها هو الآن يأخذ دوره ولن يعيش إلا ساعات.

ولما توفي الدكتور "كوسط" أحس "صالح" أنه فقد زميلا حبيبا إلى النفس، وعندما هم بالخروج من منزله اكتشف وجود "عمر"، – وهو شاب ثائر على السلطات الفرنسية، وحبيب ابنة الدكتور "صالح" – في البيت، حيث كان

---

[354] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص59 –60.

[355] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص89 –90.

[356] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص186.

[357] الدكتور كوسط: Docteur Cost.

يختبئ في منزل الدكتور "كوسط"، وبذلك زاد حبه لزميله "كوسط" الجرّاح المعروف، والمؤمن بالله والمساعد للثورة والثوار(358)، فهو نموذج الإنسان المجدّ المؤمن بالله والإنسان.

وعرض الروائي صورته، مازجا بين السرد والحوار والمناجاة من خلال نظرة الدكتور صالح معتمدا على الجمل الإيحائية، ذات الإيقاع السريع.

كما يورد "مالك حداد" في رواية "رصيف الأزهار لا يجيب" صورة فرنسي طيب نبيل المشاعر هو السيد "بيم بو" الذي تعرف عليه "خالد" -بطل الرواية - في الجنوب الفرنسي، عندما ذهب هناك ليستريح. تعرف عليه عند حلاق القرية، وكان "بيم بو" قصير القامة رصاصي الشارب عيناه تلمعان فطنة، يلبس قبعة أميرال ويحمل معه عصا. يعمل حمالا، حيث يذهب كل يوم إلى محطة السكك الحديدية لمساعدة المسافرين في نقل أمتعتهم بعربته... ولاحظ "خالد" سكوته وحزنه، وفي يوم من الأيام، باح السيد "بيم بو" لـ"خالد" بسره الخطير؛ فقبل الحرب العالمية الثانية، كان يملك حمارا يعمل به وكان يفهم حماره كما يفهمه حماره؛ ولما جاءت الحرب لم يعد ثمة جزر يقدمه لحماره، ثم لم يعد يجد شيئا يأكله هو نفسه، وأخيرا أكل حماره، أكل رفيقه، ولكن أكله وهو يبكي(359)، ومن ذلك اليوم لم يتوقّف عن الإحساس بالذنب والندم لأنّه أكل حمارا، بل لأنه أكل حماره ورفيقه المخلص.

عرض الروائي صورته بسرد كل المعلومات المتصلة به، ذاكرا بعض صفاته الجسمية مركزا على حالته النفسية، مستعملا أسلوبه الإيحائي.

والفرنسيون الطيبون أو المرضيُّ عنهم في الرواية المغاربية الفرنسية، عمال ممتازون أنشأوا المزارع وبنوا المباني وشقوا الطرق والمدارس. ومن التمعن جيدا في صورة الفرنسيين الطيبين، نلاحظ تطورا بسيطا في الصورة، ففي البداية اتجهت

(358) Malek Haddad: L'Elève et la Leçon, pp19-124-125.
(359) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, pp52-55.

انظار الأهالي إلى امتداح عمل الفرنسيين الطيبين، ثم صراحة البعض منهم عندما بدأت مرحلة النفاق، ثم التنويه بحسن معاملة البعض الآخر ومساعدتهم، مثل مساعدة "موريس" المادية للمؤلف، ومساعدة الدكتور كوسط للثوار، وأخيرا طيبة بعض الفرنسيين حتى مع الحيوانات.

والملاحظ، أن ثمة تقابلا بين تطور صورة الفرنسيين الأشرار وصورة الفرنسيين الطيبين، فصورة اغتصاب الأراضي والقتل بلا سبب، تقابلها صورة زرع الأراضي وفلحها، وإنشاء الطرق والمدارس عند الروائي نفسه وفي الرواية نفسها "الحريق ". وتقابل صورةَ الاحتقار والتعالي والابتزاز صورةُ المتذمرين من نفاق السلطة وخداعها للأهالي، وإرضائهم لضميرهم بكشف الحقيقة؛ والخجل من أعمال السلطات الاستعمارية. وصورة الرفاق المنافقين الذين تخلوا عن رفاقهم من الأهالي وأيدوا الأحكام الخاصة، تقابلها صورة الفرنسيين الطيبين الذين ساعدوا الثورة وساعدوا المحتاجين من الأهالي بلا مقابل؛ وأخيرا صورة الاختيار بين الخضوع باللين أو بالقوة، تقابلها صورة ندم "بيم بو" على فعلته مع حماره.

وهكذا، نلاحظ تقابلا بين الصور. فالفرنسيون –بصفة عامة - قسمان: قسم شرير، وقسم طيب. وبذلك، تكون صورتهم ذات وجهين: وجه شرير، ووجه طيب، ومعنى ذلك أن الروائيين المغاربة صوروا الطيب طيبا، والشرير شريرا، ولم يندفعوا وراء عاطفتهم، بل أعطوا لكل فئة حقها.

لم تورد الرواية المغاربية صورة واحدة للرجل الفرنسي، بل أوردت صورا متعددة جدا، لكنّ ذلك التنوع أو التعدد كوّن الميزة الكبرى التي تمتاز بها صورة الفرنسي في الرواية المغاربية وأعطاها قيمة فنية.

والملاحظ، أن الفرنسيين في الرواية المغاربية لا يتشابهون حتى في إطار النموذج الواحد، فهناك إهمالٌ كبير للصفات الجسمية من قبل العديد من الروائيين، حيث جاءت شخصيات كثيرة خالية من الصفات الجسمية، مثل الحاكم، والعسكري، وصاحب العمل، ورجل التعليم، والمثقف. والشخصيات

القليلة التي وصفت جسميا لم توصف بدقة، فالشرطي أنيق، قصير أو طويل، نحيف، رشيق، ورجل الدين جميل، طويل، متين الجسم. وإذا ما وردت صفات ما لدى شخصية، فمستبعد جدا ورودها لدى شخصية ثانية.

أما الصفات المعنوية فهي متنوعة جدا في إطار النموذج الواحد، فالعسكري مثلا قد يكون عنيفا، غضوبا، حقودا، يكره المغاربة... إلخ. وقد يكون مغررا به كارها للحرب، لا يحمل أية كراهية أو حقد للمغاربة، وقد يكون لا مباليا ينفذ ما يؤمر به دون تفكير، وقد يكون عطوفا على المغاربة، بل متعاونا معهم. لكننا نستطيع تقسيم صفات الفرنسيين المعنوية إلى نوعين: صفات مرفوضة من قبل المغاربة، مثل مداراة الحكام وعنف العسكريين ورجال الأمن، وظلم المعمرين وأصحاب العمل، وخبث بعض رجال التعليم، ونفاق بعض الطلبة والمثقفين، وبخاصة الماركسيين وكذلك رجال الدين؛ ثم صفات مقبولة من طرف المغاربة مثل ذكاء الحكام، وحنكة بعض رجال الشرطة، وجدّ المعمرين وأصحاب العمل، وطيبة بعض رجال التعليم، والقلة من المثقفين المؤمنين بمبادئ إنسانية.

ولا يشترك الفرنسيون إلا في الدور الذي يقوم به كل واحد منهم، عدا القلة القليلة، فهم الحاكم المحافظ على استمرار الوضع، والعسكري والشرطي المنفذ لرغبات الحاكم، والمعمر للاستيلاء على الأرض وامتصاص العرق، وصاحب العمل، ورجل التعليم لغرس مبادئ السلطة -عدا القلة -، والطالب للنفاق والمتاجرة بشعارات خاوية لخدمة مصالحه الخاصة مثل المثقف، ورجل الدين لتحطيم الإسلام، وتجريد المغاربي من كل المقومات الروحية.

كل تلك المصائب ينزلها الفرنسيون على كاهل المغاربي، فدور الفرنسي في الرواية المغاربية تحطيم المغاربي وإنزال البلاء به بصورة مباشرة، مثل الحاكم، والعسكري، والشرطي، والمعمر؛ أو غير مباشرة، مثل رجل التعليم، والطالب المثقف، ورجل الدين؛ إلا أن النتيجة واحدة.

والأساليب المستعملة من قبل الروائيين المغاربة في عرض صور الرجل الفرنسي متعددة؛ فالبعض منهم استعمل أسلوب التأكيد او التوضيح، تأكيد سلبي أو إيجابي، بإيراد معلومات لعرض صورة سلبية أو قبيحة، وتأكيد إيجابي، وذلك بإيراد مجموعة معلومات أيضا لعرض صورة إيجابية أو حسنة، وفي الحالتين يكون العرض مستمرا في اتجاه واحد.

وأغلب الصور، رسمت بذلك الأسلوب مثل الحاكم والعسكري والشرطي والمعمر وصاحب العمل ورجل التعليم عموما، ورجل الدين والفرنسي بصفة عامة.

والبعض الآخر، استعمل أسلوب التعارض وذلك بعرض صورة حسنة عادة أو قبيحة لشخصية ما، وفي الختام يكتشف الراوي صورة أخرى مناقضة للأولى، فيعرضها؛ وبذلك تتضح الصورة الحقيقية، مثل صورة الطالب والمثقف بصفة خاصة، ورجل التعليم ورجل الأمن نوعا ما.

والملاحظ، أن أسلوب التعارض مرتبط بالشخصيات المثقفة أو المتعلمة التي تقول، ثم تعمل؛ ولذلك لا غرابة من استعمال التعارض في رسم صورها لأن كلامها يسبق افعالها. أما الشخصيات الأخرى، فغالبا ما ترسم من خلال أعمالها والأعمال عادة ما تكون متتابعة، فنادرا ما يعمل إنسان أعمالا طيبة ثم يعمل عكسها، إلا إذا كان غير سوي الشخصية، ولذلك رسمت الشخصيات العاملة - لا المتكلمة - بأسلوب التأكيد أو التوضيح.

وتقنيات العرض متعددة عند الروائيين، فقد استعمل -جلهم - السرد، ثم الحوار، ثم المناجاة، ثم التداعي؛ وتطورت تلك التقنية مع الزمن، فالسرد التقريري هو الغالب عند "محمد ديب" في "الحريق"، و"مولود معمري" في "سبات العادل"، و"آسيا جبار" في "ابناء العالم الجديد". ويغلب السرد الممزوج بالحوار عند "إدريس الشرايبي" في "الماضي البسيط" و"التيوس"؛ و"كاتب ياسين" في "نجمة"؛ في حين يغلب السرد ذو العبارات الإيحائية الشاعرية النغمات عند "مالك حداد" في "ساهبك غزالة"، و"التلميذ والدرس"، و"رصيف الأزهار لا يجيب"؛ أمّا الحوار،

فنجده عند "مولود معمري" في "الأفيون والعصا"، وبقية الروايات المتأخرة زمنيا. وتغلب المفاجأة عند "الشرايبي" في "التيوس"، والتداعي عند "مصطفى التليلي" في "السعار في الأحشاء"...

يتضح لنا من الموازنة بين صفات الفرنسي الجسمية وصفاته المعنوية، أن الرواية المغاربية الفرنسية أبرزت صفاته المعنوية أكثر من الجسمية، حيث برزت صفة النفاق والزيف، ثم الاستغلال والعنف والحقد وسوء المعاملة والجبن والبخل والخبث والغرور... إلخ.

كما برزت صفة قوة الشخصية، والنزاهة، ولطف المعاملة، والذكاء، والطموح، وبعد النظر، والاجتهاد؛ والمرجّح أنّ تركيز الروائي المغاربي على صفات الفرنسي المعنوية، ناجم عن التأثير المباشر لمعنويات الفرنسي على تصرفاته مع المغاربي، ولذلك نجد الفرنسي في الرواية المغاربية الفرنسية إما قوة محطمة للمغاربي، أو قوة ضاغطة عليه معرقلة له، أو قوة خائنة له مغررة به، أو قوة مثيرة للقلق أو الاشمئزاز، أو غير مؤثرة عليه أو مساعدة له أو مثال يحتذى .

وبجمع نسب الأدوار المضرة بالمغاربي، وغير المضرة به، نلاحظ أن أعمال الفرنسي مضرة بالمغاربي بنسبة ثلاثة أرباع إلى ربع؛ ولا تحتاج هذه النسبة إلى شرح لتوضيح تألم المغاربي من الفرنسي، وتبقى أعمال الفرنسي أهم مؤثر في المغاربي، ويكون ذلك مصداقا لما ورد في الفصل الثاني حيث سبق القول أن الصورة العكسية تتأثر أكثر بأفعال المؤثر.

الفصل الرابع

صورة الفرنسية في الرواية المغاربية الفرنسية

صورة الفرنسية في الرواية المغاربية الفرنسية

1- زوجة الفرنسي
2- الفتاة
3- صاحبة المحل أو العمل
4- المعلمة أو المدرسة
5- زوجة المغربي أو حبيبته



للمرأة صورة محددة المعالم عند المغاربي، صورة تضرب جذورها في الزمن البعيد فهي محجبة ماديا ومعنويا نتيجة ظروف تاريخية ودينية واستتبع هذا وجود عادات وتقاليد تحوطها كثير من الممارسات تفرض مزيدا من التحجب، حتى صار اسم المرأة عورة عند فئات كبيرة من الشعب إلى وقت قريب جدا، وربما لحد الآن في بعض الأرياف والمجتمعات البدوية، ثم جاء الاحتلال الفرنسي، وجاءت معه المرأة الفرنسية فوقف المغاربي أمامها مشدوها.

إنها أبعد ما تكون عن صورة المرأة المتعارف عليها، إنها تختلف عن المغاربية في كل شيء، فهي سافرة أولا، ولباسها غريب ثانيا، وتمارس أعمالا ثالثا، وتتصرف بحرية رابعا.

أعجب البعض بها، ونفر البعض الآخر منها، ولكنهم جميعا اضطروا إلى التعامل معها بشكل أو بآخر، فظهر ذلك في الرواية الفرنسية التي زخرت بالعديد من الشخصيات النسائية الفرنسية والتي تلعب في الرواية دورا هاما في أغلب الأحيان.

وبعد حصر شخصيات المرأة الفرنسية الواردة في الرواية المغاربية الفرنسية، أمكننا تقسيمها إلى خمسة نماذج:

-الزوجة (زوجة الفرنسي)، وملاحظة تصرفاتها من بعيد، فأول عمل يقوم به المرء الملاحظة.

- الفتاة العادية التي تشاهد في الشارع أو الأماكن العامة، ويلاحظها المغاربي دون الاقتراب منها، مثل الزوجة.

-المعلمة أو صاحبة المحل أو العمل، وغالبا ما تكون صاحبة متجر أو فندق.

-المعلمة أو المدرسة، التي تعتبر نافذة المغاربي الأولى للتعرف على المرأة الفرنسية.

-زوجة المغاربي أو حبيبته أو عشيقته، وهي رمز أو مثال التأثير والتأثر بين فرنسا والمغرب العربي.

تلك هي نماذج المرأة الفرنسية التي ستكون محور هذا الفصل، رتبت حسب علاقتها بالمغاربي، فهو يرى زوجة الفرنسي وابنته أو أخته رؤية عادية، ثم يشتري من فرنسية أو يقيم عندها، ثم يدفع إلى التعلم عندها، وبذلك يتحطم الحاجز بينهما، فيتجرأ البعض ويعقدون مع الفرنسيات علاقات عاطفية قد تنتهي بالزواج وقد لا تتجاوز مرحلة الحب أو العشق أو المتعة، وبذلك يصل العنصران البشريان –المغاربي والفرنسية - إلى الالتحام أو الترابط على الأقل.

1- زوجـة الفرنسـي

تختلف العلاقات الزوجية من مجتمع إلى آخر باختلاف العادات والتقاليد، واختلاف مكونات المجتمع المادية والمعنوية، لذلك اهتم المغاربة بالعلاقات الزوجية السائدة بين المرأة الفرنسية وزوجها، وبخاصة من حيث علاقات الإخلاص والخيانة، فالمغاربي يعطي لقضية الخيانة أهمية كبرى، وساعدته الزوجة الفرنسية على الاهتمام بتلك القضية وتتبعها بتحررها وجرأتها.

ولذلك، فزوجة الفرنسي في الرواية المغاربية غالبا ما ينظر إليها من ناحية الإخلاص والخيانة؛ والزوجات الفرنسيات اللائي وردن في الرواية المغاربية الفرنسية اللغة هن: "السيدة ليوني Madame Léonie" في رواية مالك حداد "رصيف الأزهار لا يجيب" تعمل في خمارة، قرأت قصة قصيرة لـ "خالد" ، بطل الرواية، وهو صحفي وكاتب هرب من وطنه إلى فرنسا أيام الحرب الجزائرية، بعنوان "بيم بو" وتأثرت بأحداث القصة تأثرا شديدا حتى بكت، وحاولت مرارا معرفة مدى واقعية القصة من الكاتب نفسه الذي كان يرتاد الخمارة، إلا أنه

كان يتهرب بلباقة من إرواء غليلها[1]، متعجبا من شدة اهتمامها بـ "بيم بو" البئيس –حمال فرنسي أكل حماره أيام الحرب العالمية الثانية وهو الصديق الوفي –، وتأثرها لحزنه على رفيقه: (لقد قلت لك سيدة ليوني أنني لن أتكلم حتى في حضور...، أعرف أعرف، حتى في حضور محاميك.

أمام هذه السيدة الصغيرة الطيبة ذات الشعر الناصل والعينين الصبيانيتين، هذه القديسة ذات الستين سنة على الأقل قديسة طلّعة بلباقة ولطافة، فمن المؤكد أن كل قديسة على الأرض لها عيب صغير، تأثر خالد، وسألها بدوره: لماذا بكيت، أثناء قراءة قصة المسكين "بيم بو")[2] وجاءه السبب عجيبا غريبا.

فقد بكت لأن القصة تذكرها بخيانتها لزوجها أثناء الحرب العالمية الثانية، أصاب زوجها داء في معدته وكفَّ تماما عن الأكل، وبواسطة الطبيب حصل على لتر من الحليب كل يومين، ولشدة ولعها بالحليب، كانت تسرق منه فنجانا صغيرا كل مرة، ثم توفي زوجها السيد ليوني، وكانت المرة الأولى التي تخون فيها زوجها بعد ثلاثين سنة من الزواج[3].

وبذلك عرف "خالد" سبب بكائها تأثرا بقصة "بيم بو" الذي أكل حماره من شدة الجوع، مثلما سرقت "السيدة ليوني" الحليب من نصيب زوجها المريض، وبقي الإحساس بالخيانة والإثم يعذبها، إنها خائنة نظريا أو عقليا، أما واقعيا فهي مثال الإخلاص.

عرض الروائي صورتها مبرزا شيخوختها من خلال شعرها الناصل وعينيها الصغيرتين وعمرها الذي تعدى الستين سنة، من حيث صفاتها الجسمية،أما من حيث صفاتها المعنوية فقد ركز على حبها للاطلاع ووفائها

---

(1) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, pp63-64.

(2) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p64.

(3) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p65.

لزوجها، وندمها الدائم وطيبتها وذلك بالمزاوجة بين الحوار والسرد، اعتمادا على الجمل القصيرة ذات الإيحاءات الشاعرية، مستخدما طريقة التوضيح للكشف عن مختلف مكونات الصورة. نجد زوجة صاحب فندق تخون زوجها مع عربي في رواية آسيا جبار "أبناء العالم الجديد" في محله مدة ثلاثة أيام متواصلة، حتى اكتشفت الشرطة المكان، والقي القبض على العربي، وعندما خلا الشارع وقت القيلولة من المارة، أخرجت من المحل لتذهب إلى بيتها صحبة زوجها الخائف عليها من العربي المتوحش[4]: ((...) خرجت صحبة زوجها وشرطي، رأسها مربوط بخمار أبيض، ونظارات واسعة سوداء تغطي نصف وجهها. سليمان وراء مصراع النافذة يهمهم فاركا يديه: "يا له من ردف، الصدر عريض وكريم مثل الفرس! إنه يحسن الاختيار سعيدي الماكر".

برأس خفيض، تتبع زوجها طوال الشارع المستقيم، في هذه المدينة المضجرة التي ستموت فيها من السأم بعد أيام السكر الثلاثة، وتنهدت، لقد أسكرني... أسكرني عنفا، وحبا، و...)[5] إنها آسفة نادمة لا على فعلتها، ولكن على انتهاء الفعلة، فالمدينة مضجرة، وستموت من السأم لأنه لن يحدث لها أي شيء البتة عدا افتقادها لعنف "سعيدي" وحبه و... فهي تخون زوجها غير خائفة ولا وجلة... فلا هم لها إلا إرواء رغباتها...

عرضت الروائية صورتها مهملة الصفات الجسمية عدا الصدر الهائج هيجان صاحبته والردف الثائر ثورتها، مع تغطية الرأس والوجه حتى لا تخجل من الناس أو لتبقى في عالم السكر، ومبرزة عدم اكتراثها بزوجها أو بالعلاقة الزوجية، ضاربة عرض الحائط بالأخلاق، في سبيل إرواء رغبتها وكأنها ما خلقت إلا لذلك... عرضت الروائية تلك الصورة المستمرة للمعلومات...

---

(4) Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, pp165-169.

(5) Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, pp169.

أما ناطالي Nathali -في رواية مصطفى التليلي "السعار في الأحشاء" -، فقد تزوجت من أمريكي هو" ستيف فوستر"، وبذلك صارت "ناطالي فوستر"، التقى بها "جلال بن شريف" بطل الرواية، في نيويورك عندما عين مراسلا للجريدة الفرنسية "الإنسانية الاشتراكية" من قبل رئيس تحريرها "مورو" الرفيق وزميل الدراسة، التقى بها بعد غيبة دامت سنوات، وتوطدت بينهما صداقة وصار يزورها في بيتها. وهناك لاحظ غطرستها مع زوجها وانتقاداتها المرة له، فهي تعيب عليه -مثل بقية الأمركيين - اهتمامه بالكلاب والكرة وذوقه المنحط في اللباس، فكم تعبت معه حتى صار يهتم بأناقته، حتى استساغ بذلات "كردان Gardin[6] وأربطة ديور Dior"[7] متخليا عن سراويل رعاة البقر[8] فالأناقة والرشاقة والذوق من مميزات الفرنسيين -كما ترى - وحدهم.

وتعجب "جلال" من "ناطالي" وتطورها السريع! "ناطالي" الغبية التي طردت من الدراسة مرتين -كما أخبره بذلك أخوها "جان كلود" أيام الدراسة الجامعية - مرة من القسم الثالث ثانوي بثانوية "لافونتين"، والمرة الثانية من درس "دوتيلول" الحر، مسببة مشكلة عويصة لوالديها، فكيف لا تستطيع الاستمرار في الدراسة وهي ابنة السابعة عشر حتى تقبض كما قال أخوها على واحد[9] على عريس محترم. وعادت الذاكرة "بجلال" إلى أيام الدراسة بباريس إلى المدة الأولى التي رأى فيها صورة "ناطالي" وانبهاره أمام شفتيها المثيرتين، الواعدتين باللذة التامة، وشعرها الفاحم السواد الناعم نعومة أكثر من شعر أخيها، شعر طليق ينسدل بروعة، محتضنا وجها مثيرا وجها أجمل ما فيه بعد الشفتين الرقيقتين وجنتان عاليتان ملساوان تتجهان نحو نبع اللذة الأصلي.

---

(6) مصمم أزياء فرنسي.

(7) مصمم أزياء فرنسي.

(8) Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, p25.

(9) Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, p83.

أما العينان فهما كبيرتان شديدتا السواد، ولولا اتساع الجبهة لصعب تصور عينين بمثل ذلك الاتساع في مثل ذاك الوجه دون تشويه، إنهما يسبحان في اللذة مثل الشفتين، وكأنهما لا يفكران إلا في ذلك ولا يعيشان إلا من أجل ذلك.

عينان كبيرتان سوداوان تنغلقان ببطء وليونة للانقضاض على الفريسة، وعندما تقع هذه الأخيرة تتمسكان بها بقوة لحد الذوبان فيها[10] الشفتان والوجنتان والعينان والشعر، كلها تدعو إلى اللذة، بل كل ما في "ناطالي" يدعو إلى اللذة حتى عاشرت أخاها "جان كلود" غير مكترثة بذكرى تلك العلاقة الشاذة[11].

ثم انتبه "جلال" إلى الواقع، فناطالي التي كانت جميلة في الصورة من زمن الدراسة بباريس ما زالت جميلة بل إنها أجمل من الصورة، فالفارق الزمني زاد ملامحها وضوحا، مغيرا هيئة المراهقة إلى امرأة ناضجة واعدة.

إنها زهرة رائعة جدا صديقة "مورو" بانطلاقها ورشاقتها، والأريج المسكر الذي ينبعث منها أريج؛ شانيل؟ ديور؟ أو غيرها؟[12] "ناطالي" المراهقة الرائعة الجمال الفارقة في الخطيئة مع أخيها، صارت امرأة أجمل وأروع من المراهقة، ازدادت مفاتنها تفتحا وكرما وزادها فتنة لبسها لأرقى الأزياء واستعمالها لأحسن العطور، تزوجت من "ستيف فوستر" الأمريكي مع تعلقها بـ"مورو" رئيس تحرير الجريدة التي يراسلها "جلال" والماركسي المثالي زمن الدراسة الجامعية، بل عشيقته.. وبالتالي فـ"ناطالي" الرائعة الجمال والزانية مع أخيها -أيام الشباب - لم تهدأ فورتها بالزواج، بل بقيت تجري وراء اللذة لإرواء جسمها الفائر.

---

(10) Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, pp90-91.
(11) Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, pp92.
(12) Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, pp184-185.

عرض الروائي صورة "ناطالي" مبرزا صفاتها الجسمية أيام الشباب، ثم زاد تلك الصفات تأكيدا عندما صارت امرأة ناضجة متزوجة، إضافة إلى الانطلاق والرشاقة والأناقة الشديدة... كما أبرز صفاتها المعنوية فهي متغطرسة، تسخر من أناقة الأمريكيين ونمطهم المعيشي، ومغرورة بتحضر الفرنسيين. والجنس هو لب حياتها منذ عهد المراهقة.

استعمل الروائي أسلوب السرد لتصوير الصورة في إطار التداعي مقطعا أجزاء الصورة، وموضحا مكوناتها باستمرار من خلال رؤية "جلال" لـ"ناطالي" وبذلك جاءت صورة "ناطالي" جامدة، لأنها بقيت في الظل لا تتحرك أثناء الوصف.

"أم ناطالي" –في رواية مصطفى التليلي "السعار في الأحشاء" - زوجة فرنسية شديدة الغطرسة، ذهبت إلى أمريكا لزيارة ابنتها "ناطالي"، فنفرت من الأمريكيين مفضلة عليهم الهنود الحمر لتظهر معهم إحسانها، وكلما ذهبت إلى محل تتخاصم مع العديد من الأمريكيين والأمريكيات، وبخاصة عندما يدفعها أحدهم، فتجد فرصة إفراغ غضبها وثورتها، مثلما فعلت مع شابة ضخمة الجثة عندما لامستها[13].

لقد عرض الروائي صورتها مهملا صفاتها الجسمية –فالحديث عنها جاء عرضا - ومركزا على غطرستها وكرهها للأمريكيين وحب التظاهر بالإحسان والنظام والذوق، وذلك بسرد أفعالها... والملاحظ أن "أم ناطالي" أثرت في ابنتها خلقيا وأورثتها عقليتها المتغطرسة، إن الزوجة الفرنسية الواردة في الرواية المغاربية الفرنسية تختلف من حيث الصفات الجسمية فهي طيبة تعدت الستين وتساقطّ شعرها مع صغر عينيها عند مالك حداد، وهي ردف مثير وصدر كريم عريض عند آسيا جبار، وهي جميلة شديدة الجمال عند مصطفى التليلي.

---

[13] Mustapha Tlili: La Rage aux Tripes, p128.

أما من حيث الصفات المعنوية فثمة تشابه كبير، فالزوجات الفرنسيات ثرثارات، شديدات حب الاستطلاع، خائنات مع اختلاف في نوعية الخيانة تتمثل ذروتها في خيانة زوجة صاحب الفندق، ثم "ناطالي" وإذا ما راعينا سن الزوجات الوارد ذكرها، فالخيانة عامة بينهن لأن "أم ناطالي" عجوز والسيدة "ليوني" قالت لـ "خالد" أن سرقة الحليب لزوجها كانت المرة الأولى التي تخونه فيها بعد ثلاثين سنة، أي أنها خانته بعد ذلك، وبالتالي فالخيانة سمة أساسية عند الزوجة الفرنسية وثمة صفات معنوية اخرى بعد الخيانة تتصف بها الزوجة الفرنسية مثل الغطرسة، وحب المظاهر، والتظاهر، وغرورها بالذوق الفرنسي.

رسم الروائيون المغاربة الزوجة الفرنسية بالمزاوجة بين السرد والحوار، وبالاعتماد على الجمل القصيرة الشاعرية عند مالك حداد، والسرد التقريري عند آسيا جبار، والتداعي –ضمن سرد تقريري - عند مصطفى التليلي من خلال رؤية بطل الرواية أو إحدى شخصياتها المغاربية الهامة، ونتيجة قلة الاهتمام بشخصية الزوجة الفرنسية جاءت صورتها ضعيفة باهتة.

لم ترد صورة الزوجة الفرنسية في الرواية المغاربية الفرنسية إلا أربع مرات في ثلاث روايات "رصيف الأزهار لا يجيب" لمالك حداد، "وأبناء العالم الجديد" لآسيا جبار، و"السعار في الأحشاء" لمصطفى التليلي. من بين الزوجات الأربعة، اثنتان خائنتان عمدا وعن رغبة، وواحدة خائنة معنويا ومضطرة، والأخيرة لم ترد الإشارة إلى خيانتها إلا أنها سيئة الأخلاق والسلوك.

جدول مكونات شخصية الزوجة الفرنسية

الرواية ومؤلفها وشخصياتها	الصفات الجسمية	الصفات الخلقية	الدور
"رصيف الأزهار" حداد 1 - السيدة "ليوني"	شعر ناصل عينان صبيانيتان ستون سنة على الأقل	طيبة – طلعة – لبقة لطيفة- خائنة معنويا	تتأثر بقصة الكاتب لأنها تتحدث عن الخيانة، فتتذكر خيانتها لزوجها نادمة
"أبناء العالم الجديد" جبار 1 -زوجة صاحب الفندق	ردف مثير صدر عريض كريم - انيقة	جريئة- شهوانية – خائنة	تخون زوجها مع عربي دون خوف أو ندم
"السمار في الأحشاء" التليلي 1 - ناطالي	جميلة جدا -عينان شديدتا السواد والاتساع – الجبهة نقية عريضة - الشعر حرير أسود - الكتفان ابيضان كالعاج الوجنتان عاليتان ملساوان كالمخمل رشيقة - انيقة	ثرثارة – متغطرسة – غبية شهوانية – خائنة –فاسقة منذ صغرها – مغرورة – متعصبة لفرنسا وكل ما هو فرنسي	تعاشر اخاها في صباها عندما تتزوج تخون زوجها
"أم ناطالي"	لا شيء	متغطرسة- متظاهرة متعصبة لكل ما هو فرنسي	تزور ابنتها في أمريكا فتشمئز من الأمريكيين لأنهم غير متحضرين

2 - الفتـاة

رأى المغاربة الفتاة الفرنسية في الشارع والمحلات العامة ومع أسرتها، ولاحظوا تصرفاتها تجاههم، ورغم ذلك لم يرد ذكرها في الرواية المغاربية الفرنسية سوى مرتين اثنتين هما:

الأولى: "سوزي –Suzy –" في رواية "نجمة" لكاتب ياسين –ابنة السيد "أرنست" رئيس فريق من العمال الجزائريين –، تحمل الغذاء لوالدها كل يوم إلى مقر العمل الساعة الحادية عشر بالضبط، وبذلك عرفها "مراد" –شاب مثقف يعمل مع الجماعة –، ولاحظ نشاطها وحيويتها، وعندما أمره والدها بالذهاب معها إلى البيت لنشر الحطب تهربت من السير إلى جانبه أو بقربه وحاولت الابتعاد عنه ما أمكن فهو عربي، والعربي وحشي يحذر منه[14]. وكلما أبطأ السير لتصل إليه تبطئ أكثر أو تعرج من ناحية أخرى ساعدها على ذلك نشاطها، فهي مثل الفرس الهائجة لا تستقر في أي مكان في القرية إلا لثوان لا غير، ولا يراها الناظر إلا مسرعة تتحدى الدنيا بصدرها الثائر على المشد، إنها تقفز وكأن وحشا فاجأها وعضها من عرقوبها[15] تقفز حتى لا تقترب من العربي، لأنها تعتقد أنها تختلف عنه وهو العامل البائس التعيس، فهي ليست من عالمه، عالم الفقراء والعمال والفلاحين وكأنها من عالم خال من العمال والفلاحين؛ لذلك اجتاحت "مراد" رغبة شديدة في أن يعتصر ثدييها أو أن يهجم عليها بالضرب المبرح حتى تسقط على الأرض ثم يقيمها ويضربها ثانية حتى تفيق من غفوتها الملأى خرافات، وتدرك أن العالم ليس عالمها النظيف ولا عالم "مراد" القذر، بل هو العالم وكفى، عالم لا يحتفظ طويلا بآثار البشر البسيطة، ولا ذكرياتهم الشاحبة، فما هم سوى ذرة صغيرة فيه[16]. إنها لا تدرك ذلك لأنها فرنسية في

---

[14] Kateb Yacine: Nedjma, pp12-13.

[15] Kateb Yacine: Nedjma, pp 18-19.

[16] Kateb Yacine: Nedjma, pp 19-20.

مستعمرة، وابنة رئيس العمال يعاملهم كما يشاء، ملأ الغرور صدرها وتسربت النزعة العنصرية، ويظهر ذلك جليا في موقفها من العمال، فهي تأتي كل يوم حاملة غذاء والدها لابسة فستانا خفيفا قصيرا مزينة أجفانها وعينيها الواسعتين اللامعتين، تسير بدلال وعندما تشعر بحدوث معركة أو خصومة بين والدها وعامل، تثور في وجه العامل وكأنها تحاول إثبات ذكائها وقدرتها على معرفة أن العامل عوقب من والدها، الرجل القوي الذي يعاقب ويعفو[17].

سوزي فتاة فرنسية لها صدر كبير وعينان واسعتان لامعتان بأهداب طويلة، تلبس ثيابا خفيفة قصيرة وتزين اظافرها، تكره العرب وتحتقرهم لدرجة الاشمئزاز ولا تقبل حتى مجرد السير بالقرب من عربي، لأنها تعتقد أنه وحش قذر... رسم الروائي صورتها بذكر صفاتها الجسمية والمعنوية السالف ذكرها مستعملا أسلوب السرد التقريري لإبراز صورة الفتاة من خلال مناجاة "مراد"، وذلك بالتوضيح والتأكيد المستمر لصفاتها المعنوية.

أما الثانية: فتاة الزاوية في رواية "سأهبك غزالة" لمالك حداد، واسمها "جوزيت"، وقد أسماها المؤلف -بطل الرواية - فتاة الزاوية، لأنها دائمة الجلوس في زاوية الخمارة تحتسي الخمر الحمراء الرديئة وتستمع دوما إلى أغنية واحدة... فتاة فارعة القامة، هادئة إلى درجة البرود، كل يوم تأتي إلى الخمارة لتستمع إلى أغنية واحدة ألف مرة[18] وكانت تزعم أنها ممرضة ولعلها كانت ممرضة فعلا في فترة ما من حياتها[19].

وفي يوم من الأيام، اقتربت من مجلس المؤلف مستأذنة في أخذ "سيجارة" عارضة عليه كأسا من الخمر، ولإتمام المتعة أراد أن يستمع إلى أغنية فتاة الزاوية

---

(17) Kateb Yacine: Nedjma, pp 50.

(18) مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص119 -120.

(19) مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص121.

ولكنه لم يستطع القيام، فطلب منها أن تضع له أغنيتها! نعم أغنيتها، أغنية فتاة الزاوية لا أغنية جورج براسانس[20] "الحب الشقي" من كلمات لويس أراغون[21].

لقد صارت أغنية فتاة الزاوية: (لقد ألفتها "فتاة الزاوية" منذ أن ذهب الرجل بدون رجعة، فغادرها حبلى بعد أن تعايشا مدة ثلاث سنوات، لقد ألفتها عند أول رفض منها، عند أول "لتر" أراقته من دمها على يدي القابلة الاختصاصية في عمليات الإجهاض، وعند أول لتر من الخمر الحمراء شربتها في الحانات هنا وهناك، ثم ألفتها مع أعوان الشرطة وعلى حجارة أرض الشوارع الحزينة، وفي فصول الربيع المرة الطعم، وفصول الشتاء الشديدة الطبع، وفي المستشفى حيث انقطعت عن العمل وحيث ستدخل لتموت في جناح المرضى بالكبد من جراء إدمان معاقرة الخمر والكحول، إن القصيدة لم تعد قصيدة "لويس" أراغون شاعر فرنسا المحب لفرنسا ولزهر الليلك حبا جما)[22].

وجيء بالكأس واستمعت "فتاة الزاوية" إلى الأغنية في خشوع، ثم مالت على أذن المؤلف سائلة إن كان يعرف حقاً "لويس أراغون" كما أخبرها السيد موريس صاحب الخمارة[23]، وتنهدت فتاة الزاوية قائلة (مسكين هو! ما أشد توجعه وتألمه)[24] وتعجب المؤلف من فتاة الزاوية ورقة إحساسها، وتألمها لآلام الآخرين، فهي تتألم لآلام شاعر فرنسا "لويس أراغون"؛ وبذلك تأكد المؤلف أن "فتاة الزاوية" سيدة محترمة ماجدة، تزورها كل ليلة آلامها فتدور وتدور بدون انقطاع في رأسها وعلى الأسطوانة[25].

---

[20] جورج براسانس: من أشهر مغنيي فرنسا في الوقت الحاضر، الجادين.

[21] لويس أراغون -Louis Aragon-: شاعر فرنسا العظيم.

[22] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص126.

[23] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص126.

[24] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص126.

[25] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص126 -127.

"جوزيت" أو "فتاة الزاوية" فارعة الطول هادئة الطّبع تذهب كل مساء إلى خمارة السيد "موريس" لتعب الخمر الحمراء الرديئة وتستمع إلى أغنية "الحب الشقي" التي أنشدها "لويس أراغون" ويتغنى بها "جورج براسانس" لتخفف عن نفسها آلامها وأوجاعها بعدما حلت بها الكوارث.

فبعد حب وهيام دام ثلاث سنوات، هجرها الرجل دون عودة، ولذلك سال دمها أثناء عملية إجهاض وأدمنت الخمر لتنسى وعرفت أعوان الشرطة، كما عرفت أرصفة الشوارع، بعدما طردت من عملها في المستشفى الذي ستعود إليه لتموت فيه عندما يتشمع كبدها من جراء الإدمان على الخمر.

ورغم كل ما حل بها، فهي ترثي حال "أراغون" كاتب الأغنية وتتألم لآلامه، إنها تنسى آلامها عندما تتذكر آلام الشاعر الذي كتب الأغنية، فهي تعتقد أنه ما كتبها إلا بعد ما تألم وعانى، إنها طيبة جدا وحسنة النية إلى أبعد الحدود.

تلك هي "فتاة الزاوية" أو "جوزيت" التي رسم الروائي صورتها بواسطة أسلوبه السردي ذي الروح الشاعرية المعتمد على الجمل القصيرة البسيطة ذات الإيحاءات، مهملا صفاتها الجسمية -عدا قامتها الفارعة -، ومركزا على صفاتها المعنوية فهي هادئة جدا صبورة، لها شخصية قوية ومواقف ثابتة، تتألم لآلام الآخرين فهي مثال الطيبة.

يتضح لنا مما سبق أن الفتاة الفرنسية العادية -بالنسبة للمغاربي - نادرة الوجود في الرواية المغاربية، فلم يرد ذكرها إلا مرتين.

والفتاة الفرنسية لا تتصف بصفات جسمية دقيقة، فهي فارعة الطول، ذات صدر كبير نافر، وعينين براقتين، وأهداب طويلة، وأظافر مطلية.. صفات جسمية لا تحدد شخصية مميزة، وحتى تلك الصفات العامة لا تتفق فيها الفتاتان حيث ركز "كاتب ياسين" على تلك الصفات للإيحاء بحيويتها وغرورها الذي يوحي به انطلاقها عبر الحقول، مثيرة بجسمها الممتلئ العمال المحرومين لتزيدهم عذابا

على عذاب والدها، بينما أهمل "مالك حداد" معظم الصفات التي أشار إليها "كاتب ياسين"، لأن فتاته حزينة منزوية في ركنها تسمع الموسيقى، فلم ترتسم في ذهنه صورتها الجسمية لأنه تأثر بحزنها لا بجمالها وبديهي أن يتأثر الحزين بحزن غيره.

أما الصفات المعنوية، فالفتاتان الوارد ذكرهما تكونان فريقين: الأولى تتصف بصفات استعمارية فهي حقودة على العرب، تحتقرهم ويملأ صدرها الغرور. والثانية تتصف بصفات الفتاة الطيبة الضحية التي بنت حياتها على الحب فقوبل حبها بالخيانة والغدر.

الأولى يكرهها المغاربة والثانية يرثى لحالها، وفرق شاسع بين شخص مكروه لا يتمنى له المرء سوى الشر والويل، وشخص يرثى لحاله يتمنى له المرء الخير والتوفيق.

ولقد عرض الروائيان الصورتين، فكان العرض اعتمادا على أسلوب السرد التقريري الغاضب عند "كاتب ياسين"، والسرد الإيحائي الشاعري عند "مالك حداد"؛ فالأسلوب التقريري الغاضب مناسب لدور الفتاة المشبعة بالتعصب العنصري والمساندة لقسوة أبيها على العرب، بينما الأسلوب الشاعري الإيحائي مناسب لخيبة الأمل في الحب، والضياع الرومانسي للفتاة المهجورة التي ما زالت تحب وإن قاست وضحت.

جدول مكونات شخصية الفتاة الفرنسية

الرواية ومؤلفها وشخصياتها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الدور
"نجمة" ياسين 1 - سوزي	صدر كبير عينان كبيرتان براقتان اجفان طويلة اظافرها مزينة	تكره العرب وتحقد عليهم عنصرية مغرورة	تثير العمال الجزائريين بغرورها وتكبرها واحتقارها لهم
"سأهبك غزالة" لمالك حداد 1 - جوزيت او فتاة الزاوية	فارعة الطول	هادئة لحد البرود مدمنة على الخمر وسماع اغنية حب حزينة لها شخصية قوية صبورة- طيبة جدا تتألم لآلام الآخرين	هجرها حبيبها الذي اعطته كل شيء فأجهضت وتخلت عن عملها وأدمنت الشراب وسماع اغنية حزينة لتخفف عن نفسها

3-صاحبة المحل أو العمل

عندما بدأت الهجرة المغاربية إلى فرنسا، تعامل المغاربة مع الفرنسيات اللائي يملكن محلات أو يدرنها، كالفنادق، والمطاعم، والخمارات، والأماكن الخاصة؛ ثم انتقلت تلك الظاهرة إلى المغرب العربي، وعرفت هناك صاحبة المحل -بغض النظر عن نوعية المحل -؛ واحتك بها المغاربي، ولذلك وردت إشارات خفيفة في الرواية المغاربية الفرنسية إلى "ربّة العمل" أو صاحبة المحل، راسمة صورا خفيفة لربّة العمل الفرنسية كما سنرى.

فهذه "إيفون Yvonne" في رواية "الأرض والدم" لمولود فرعون، وهي صاحبة فندق ومطعم بفرنسا ينزل عندها المغاربة[26]: (بيضاء قوية، ذات ضحكة مرتفعة، إلا أنها تعرف كيف تغضب وكيف تخضع معظم سكانها البخلاء أو قليلي الأدب (...) لقد كانت صديقة رابح، ومنذ مدة طويلة، غير أن رابح كان يتستر واتخذ الاثنان سلوكا فاترا، بينما كانت "إيفون" تسمح للآخرين بشيء من العبث، أو بحركة مشبوهة وربما بلمسة)[27]؛ فهي ذات شخصية مرحة قوية تعرف متى تعبث مع زبائنها، ومتى تغضب، ومتى تتجبر، كما تعرف إخفاء علاقتها مع "رابح" لأنه يشبع رغبتها الهائجة[28].

ولم تتخل عنه منذ أن عرفته قبل زواجها من أندري، إلا أنها تشترط عليه الستر والسرية، وإلا فهي قادرة على قتله وبسهولة[29]، لأنها لا تحب المشاكل وعندما اكتشف زوجها العلاقة بينها وبين "رابح"، لم تخف بل وقفت في وجه زوجها -لأنه قتل "رابح" - وطردته من بيتها[30]، فهي لا تحب الخضوع لأحد.

---

(26) Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p58.

(27) Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p58.

(28) Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p59.

(29) Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p59.

(30) Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p67.

"إيفون" صاحبة فندق، قوية البنية، وكأنها لبؤة، بشرتها بيضاء وشعرها اشقر، وتتميز بشخصية مرحة قوية جدا، فهي تعبث مع زبائنها وتضحك معهم، إلا انها لا تفرط في حقها ابدا وتحسن التصرف في شتى الظروف. كما تتمتع بقدرة جنسية، وفي سبيل إروائها لا يقف أمامها حتى زوجها الذي طردته عندما ادركت انه قتل عشيقها، القادر على ما لا يقدر عليه الزوج.

عرض الروائي صورتها بالسرد المباشر، موضحا معالم شخصيتها وتعلقها بـ "رابح"، لإشباع رغبتها الثائرة.

وأما السيدة "غاري" في رواية "الأرض والدم" لمولود فرعون، فهي صاحبة فندق بباريس ايضا: (ترتدي السواد، قصيرة ممتلئة، ولكنها نزقة سريعة)[31] نزل بفندقها "عامر" -بطل الرواية وهو عامل جزائري بفرنسا -، فاستقبلته بحفاوة، لأنه كان يعمل في قرية شمال فرنسا، كانت هي من سكانها، واستذكرا الأيام الخوالي[32]؛ وساعدته مرات عديدة وبخاصة في بحثه عن ابنة خاله، حتى عثر عليها بعدما تأكدت من حسن نواياه[33].

فالسيدة "غاري" صاحبة فندق، تتمتع بجسم ممتلئ وقامة قصيرة وتمتاز بطبع حاد اندفاعي، ولكنها لا تقدم على عمل، إلا بعد تأكدها من حسن النوايا. عرض الروائي صورتها من خلال كلام "عامر" عنها، بواسطة السرد المباشر.

وهناك أيضا صاحبة خمارة في رواية "التيوس" لإدريس الشرايبي، دخل خمارتها يوما، "والديك" -بطل الرواية وهو عامل جزائري في فرنسا مثقف ناقم على الوضع -، يحمل عدة زرابي يتاجر بها، ولما رأت حاله تأثرت وتذكرت أن الإحسان المسيحي لا يستثني حتى تجار الزرابي المساكين، ولذلك اشترت منه زربية، وقبل الدفع ثرثرت قليلا معه، وطلبت منه أوراقه ملاحظة عدم حصوله على

---

(31) Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p71.

(32) Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p72.

(33) Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p73.

رخصة بيع؛ ثم برهنت له -ببرود تام - أن زرابيه من محجوزات الجمارك، وأنه سرقها من هناك، ثمّ انتزعت منه أكبر وأفخم زربية حاشية في جيبه مبلغ كيس بطاطس، وقدمت له كاس خمر ليرفع معنوياته[34].

إنها خبيثة استغلالية، رسم الروائي صورتها مهملا صفاتها الجسمية مركزا على صفاتها المعنوية، فهي بخيلة استغلالية، عرض الروائي صورتها بأسلوب سردي بواسطة التعارض، فالإحسان المسيحي دفعها إلى مساعدة التاجر المسكين، ولكن إحسانها ومساعدتها زيادة للهم والبلوى والاستغلال.

- "مارسيل -Marcelle" في رواية "نجمة" لكاتب ياسين، صاحبة أو رئيسة "محل عمومي": (ضخمة لم تلد إطلاقا، سمينة للغاية، مارسيل مشعّرة تفوح منها رائحة الفحم، يداها تغطّيهما الأساور، يرسمان ظلالا على الجدران، رجلاها فائضان عن الخفين وكأنهما يدفعان القطيفة دفعا.

الكل يتمنى هلاكها في السلم لأنها لا تحب الضوضاء ولا تقبل دينا، ولكن زوارها -من سن معينة - الذين توجه كل واحد منهم بمجاملة وسطوة نحو مخلوقة يقولون في الغداة لمعارفهم أن مارسيل سيدة)[35].

عرض الروائي صورتها بالسرد التقريري المباشر، واصفا جسمها جملة وتفصيلا ومشيرا إلى شخصيتها القوية في السيطرة على زبائنها...

والملاحظ، أن ربّة العمل الفرنسية أو صاحبة المحل تمتاز بشخصية قوية جدا مع إتقان للعمل -بغض النظر عن نوعيته - وعدم التفريط في حقها، بل تستغل الآخرين.

أما من الناحية الجسمية، فهي ضخمة سمينة أو ممتلئة على الأقل قوية الجسم.

---

[34] Driss Chraïbi: Les Boucs, pp142-143.

[35] Kateb Yacine: Nedjma, pp34-35.

ورسم الروائيون المغاربة صورتها بأسلوب سردي مباشر لتأكيد آرائهم وإبراز مدى قدرتها على السيطرة والاستغلال.

ونتيجة للأدوار الهامشية التي تقوم بها ضمن جملة الأحداث، حيث لا تقوم ربّة العمل بأدوار هامة ولا تمثل علامة هامة في طريق البطل أو الشخصية المغاربية، وبالتالي يكون مجال رسمها ضيقا جدا، لا يسمح للروائي بتسليط مختلف الأنظار عليها، ويكتفي بالإشارة إليها أو إلى عملها أو أعمالها ضمن جمل سردية خبرية بسيطة، تخبر بما حدث أو بما شوهد، ولذلك عم الأسلوب السردي المباشر في تقديم ربّة العمل.

جدول مكونات شخصية ربة العمل الفرنسية

الرواية ومؤلفها وشخصياتها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الدور
"الأرض والدم" لمولود فرعون 1 - إيفون	جسم قوي جدا مثل جسم لبؤة - بشرة بيضاء - شعر أصهب	شخصية قوية - تتقن تسيير محلها مرحة - جنسية	تدير محلها بنجاح ثم تطرد زوجها عندما قتل عشيقها
"السيدة غاري"	قصيرة - ممتلئة ترتدي السواد	نزقة - حادة الطبع تتقن عملها	تدير فندقها وتستقبل فيه البطل وتساعده
"التيوس" الشرايبي 1 - صاحبة الخمارة	لا شيء	استغلالية جدا - بخيلة جدا	تشتري زربية من تاجر جزائري ثم تحتال عليه وتأخذها بثمن بخس
"نجمة" كاتب ياسين 1 - مارسيل	ضخمة جدا سمينة جدا رائحتها كريهة	تتقن عملها- تستغل زبائنها شخصية قوية	تدير محل بغاء، باعثة الإعجاب في نفوس زوارها

4-المعلمة أو المدرسة

فرض تعلم اللغة الفرنسية على المغاربة، وأنشئت مدارس خاصة بأطفال الأهالي يدرس فيها معلمون فرنسيون، وبذلك احتك الأطفال المغاربة بالمعلمة الفرنسية والمديرة والأستاذة.

ورغم ذلك، فالرواية المغاربية الفرنسية اللغة لم تتضمن شخصيات معلمات فرنسيات. ومجمل ما جاء في الروايات معلمة واحدة في رواية "نجمة" لكاتب ياسين" هي: "الآنسة بول دوباك"[36] معلمة نظيفة جدا حتى شبه "مصطفى" -من الشخصيات المهمة في الرواية -منديلها بكرة ثلج وهام بها،وهو التلميذ الذي لم يدخل بعد طور المراهقة، وتمنى أن يستنشق رائحة عرقها أو يركب في سيارتها أو تصطحبه معها فترة العطلة، ولم لا وهو تلميذها الممتاز[37] و وكيف لا يتمنى ذلك وهو يرى فيها أميرة الأحلام بعيونها الزرقاء، كما يرى زملاءه يتمنون رؤيتها فقط، ويقومون بأعمال عجيبة من أجل التجسس عليها وهي في بيتها الفخم، ورغم ذلك فهي لا تكره الأهالي الصغار، بل تعرف أسماءهم جميعا، إلا انها تكره رؤية الملابس الممزقة[38] وعندما سمعت بمرض مصطفى، ذهبت لزيارته في بيت والديه، وقبلته قبلة أطارت عنه الحمى؛ ويوم امتحان الشهادة الابتدائية اصطحبته إلى المدينة، ولم تغضب عندما تبللت جواربها نتيجة رمي أم مصطفى الماء وراءهما لطرد النحس عن ولدها[39].

عرض الروائي صورتها بسرد مصطفى لبقية معلوماته عنها أثناء تذكره لطفولته، وبروح شاعرية تعتمد على الجمل ذات الإيحاءات البعيدة.

---

[36] الآنسة بول دوباك- Melle Paul Dubac.

[37] Kateb Yacine: Nedjma, pp 204-205.

[38] Kateb Yacine: Nedjma, pp 207-208.

[39] Kateb Yacine: Nedjma, pp 212.

وبالتالي، لم ترد صورة المعلمة الفرنسية إلا مرة واحدة، وفي رواية مغاربية واحدة، تأتي دون عرض لصفاتها الجسمية -عدا الجمال والنظافة وزرقة العينين -، وحتى المعنوية، فهي لا تكره الأطفال المغاربة وكفى.

إنها صورة بسيطة جدا لنموذج لعب أدوارا هامة في حياة المغاربة...

5- زوجة المغاربي أو حبيبته

بعد اختلاط المغاربي بالفرنسية في الشارع والمتجر والمدرسة وفي أماكن أخرى، بدأ الحاجز السميك ينهار بينهما، حتى فكر فيها وفكرت فيه وتمناها وتمنته، وبعد التمني بدأت خطوات التقارب في كل الأماكن التي يلتقيان فيها، ونشأت بينهما أول الأمر علاقات حيية، علاقات أثارت المجتمع المغاربي والفرنسي على حد سواء. ثار المجتمع المغاربي على الابن الذي يتزوج أو يرتبط بفرنسية، بنصرانية، بمسيحية، بكافرة، بآكلة الخنزير.

وثار المجتمع الفرنسي على الفرنسية التي تتواضع -وهي ابنة الحضارة والتقدم والرقي -وتتعلق بمغاربي، بعربي، بهمجي قذر، بمسلم يبيح له دينه الزواج بأربع نساء. ولكن الزمن سار، وخفّت حدة المشكلة، وصارت الأسرة المغاربية التي تُنْكَبُ بزواج ابنها بفرنسية، تبكي وتحزن مدة قصيرة، ثم تتلاءم مع الفرنسية أو يبتعدان عن بعضهما، كما صارت الأسرة الفرنسية تعارض البنت المتعلقة بمغاربي، فإذا ما تم الأمر ترضخ للأمر الواقع أو تفتر علاقتها بابنتها، وبذلك تهدم الحاجز بين المغاربي والفرنسية.

وصارت علاقة المهاجر المغاربي إلى فرنسا مع الفرنسية مسألة عادية، وقلما لا يرتبط مغاربي مهاجر إلى فرنسا -عاملا أو طالبا كان - بفرنسية بعلاقة عاطفية، قد تؤدي إلى الزواج وقد لا تؤدي، كما تعوّد المغاربة الشبان - وبخاصة المثقفون - في أقطار المغرب على التعلق بالفرنسيات والارتباط بهن

بعلاقات متنوعة: علاقة جنسية صرفة، علاقة حب شامل، علاقة حب بريء، علاقة زواج...إلخ.

ونتيجة لكل ذلك، جاءت الروايات المغاربية الفرنسية اللغة تزخر بشخصية الفرنسية حبيبة أو زوجة، وفي الصفحات الآتية سنرى الصور المختلفة للفرنسية حبيبة أو عشيقة أو خليلة أو زوجة مغاربي، عازبة أو متزوجة مع فرنسي، فالمهم هو تعلقها بالمغاربي أو تعلقه بها أو تعلق بعضهما ببعض.

1 - "ماري –Marie" في رواية "الأرض والدم" لمولود فرعون، زوجة "عامر" العامل الجزائري بفرنسا، تزوجها عامر ثم اصطحبها إلى الجزائر إلى قرية نائية في منطقة القبائل الكبرى، ودخلت القرية البئيسة مبتسمة وكأنها ملكة تدخل مدينة[40].

وقابلت حماتها بلقاء حار محتضنة إياها[41] وقبلتها وأثارت شفقة القبائليات على "عامر"[42] مثلما[43] أثارت إعجابهن بها. فهي تختلف عنهن تمام الاختلاف. تختلف عنهن بجمالها ودقة ملامحها وتناسقها وصفاء بشرتها ووجهها الزاهي الألوان، ورقة يديها ونوعية أقمشتها، فهي لا تعتبر أجنبية فحسب لأنها من عالم آخر يختلف عن عالمهن، ولذلك فهي لا تشترك معهن إلا في شيء واحد في (...)[44]، وأعجبت "ماري" بالطبيعة المحيطة بالقرية وأسرعت لتنعم بها فلبست ملابس خفيفة، وخرجت مع زوجها إلى الحقول...[45].

---

(40) Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p8.

(41) Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p10.

(42) Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p33.

(43) أشفقت القبائليات على "عامر" الشاب الجميل عندما تأكدن من زواجه بفرنسية "بمدام" كما تسمى الفرنسية لإيمانهن بأن الفرنسية تلتصق بالرجل ولن يستطيع الفكاك منها، فإذا ما حاول ذلك يكون مصيره القتل من قبلها، ولكنهن لا يدركن سبب ذلك فآنذاك –الأربعينيات وبداية الخمسينات -كانت الفرنسية لا تتزوج بمغاربي إلا عن حب وبثورة ضد أسرتها، فإذا ما تخلى عنها يكون بذلك قد خان حبها وخيب أملها؛ ولذلك تنتقم منه. وساعدها على ذلك الحرية التي نشأت عليها، على عكس المغاربية.

(44) Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p34.

(45) Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, pp43-44

كانت هيفاء، شعرها الأصهب ينسدل على عنقها الممتلئ، عيناها الزرقاوان يذكران بالزهر الأزرق، وشفتاها تشبهان الشقائق، ووجهها ممتلئ لطافة وجراة، يميل إلى الطول أكثر من الاستدارة: جبهة كاملة، انف قصير مع دقة في الفرس، حاجبان مرتبان مقوسان، ثم وضوح وبروز لخطوط الوجه من الأسفل يوحي بالتسلح للحياة[46].

لم تثر ماري على مصيرها ولم تصدم، فقد كانت مستعدة للأسوا، بل إنها راضية عن مصيرها فلم تخسر شيئا إنما ربحت أشياء، لقد ارتاحت من الإهانة والاحتقار، وارتاحت من الشعور بالعبودية، ارتاحت من الغرفة رقم أربعة بالفندق الرخيص، وأصبحت أجمل امرأة في القرية، تتمتع بملابس أجمل من ملابس غيرها، وبأمتعة أرقى من امتعة غيرها، ومع ذلك لم تفتر ورضيت بوضعها الجديد[47] ولم تعد أيام التشرد والعهر والعبودية إلا ذكرى[48] وفكرت "ماري" في الخروج من عزلتها والاندماج مع نساء القرية، فكان لابد لها من التكيف مع المجتمع، وبدأت تندمج مع النساء بالعيش مثلهن والبعد عن التميز، ثم بالحديث معهن مستعملة الإشارات وكل الوسائل المساعدة على إيصال الأفكار. وشيئا فشيئا، أدركت أسرار حياة القرية، وفهمت عقلية النساء ثم اتضحت لها الأمور جلية منطقية ولم تعد ترى شيئا غريبا[49]. ورغم ذلك كان الحنين إلى فرنسا، إلى الحياة الأخرى يراودها من حين لآخر، فترى نفسها في عطلة ثم ستعود بعدها إلى العالم الآخر إلى الحياة الحقيقية، وتكاد تندم على وجودها في تلك القرية المجهولة، ويغمرها جو من الحزن والكآبة، ثم سريعا ما تفيق وتدرك الحقيقة، فتحمد ربها على ما هي عليه، تحمد ربها على الاحترام والتقدير والشعور بالإنسانية والطمأنينة التي وجدتها مع زوجها "عامر" في تلك القرية النائية،

(46) Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p44-45.
(47) Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p45-46.
(48) Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p73.
(49) Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p92-95.

وبين أولئك الناس القانعين بمصيرهم، ولم تجدها في بلدها فرنسا، بل وفي باريس مدينة العلم والنور والحرية[50].

ومما زادها رضا بوضعها الجديد، حب حماتها لها ورضاها عنها، بعدما تأكدت -الحماة - من تمتعها بخصال عديدة أهمها بعدها التام عن الخبث[51]، وهكذا نزعت "ماري" فكرة العودة من رأسها نهائيا، وتعرفت على كل أهل الحي، إلا أنها لم تصادق سوى "شبحة" لبساطتها وسذاجتها[52] وأحبتها حبا قويا جدا، وصارت تفهمها جيدا، ولذلك لم تثر -ماري - عندما لاحظت وله "شبحة" "بعامر" -زوج ماري - وجوعها الشديد، بل راحت تتخيل صديقتها مروية تغمرها السعادة لو يتم ذلك في ساعة فقط إلا أنها لم تستطع التعبير[53]. ومرت السنون "بماري" في القرية القبائلية، ويوم قتل زوجها حزنت عليه حزنا شديدا وأتمت حياتها في تلك القرية، بين هؤلاء الناس الذين وهبوها الطمأنينة والاحترام[54].

رسم الروائي صورة "ماري" بأسلوب سردي، يعتمد على الوصف التقريري المباشر، فالحديث دائما "عنها" أي أنها موضوع منفصل ينظر إليه القاص ويتحدث عنه. ويتضح ذلك من كلام المؤلف عنها أثناء وفاة زوجها: (كانت السيدة جالسة على الكرسي، مديرة ظهرها للباب، ورأسها بين يديها قرب رأس "عامر" تنتحب بهدوء واستمرار، كانت غرقى في آلامها بعيدة جدا عن الحضور)[55]؛ فكل شيء يذكره القاصّ ابتداء بالوصف التام لجسمها وانتهاء بتحديد صفاتها المعنوية.

---

[50] Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p96.
[51] Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p96.
[52] Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p150.
[53] Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p171.
[54] Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p252.
[55] Mouloud Feraoun: La Terre et le Sang, p252.

أبرز الروائي كل ذلك بالسرد الوصفي، مع استخدام طريقة التقديم والتأخير أثناء سرد وقائع حياتها التامة، وبذلك استطاع أن يجعل صورة "ماري" تتمتع ببعض الحيوية والإقناع.

2 - "جيرمان –Germaine" في رواية "سبات العادل" لمولود معمري، تعرف عليها "أرزقي" –بطل الرواية وهو شاب جزائري مثقف جند في صفوف جيش فرنسا في الحرب العالمية الثانية وثمة تبخرت من ذهنه كل الأوهام التي تعلمها في المدرسة الفرنسية، وأدرك الحقيقة– في الجبهة الفرنسية الألمانية، عندما قاد فرقة استطلاع، ووجدها صحبة أمها في مزرعة قرب خط النار، وعجب من وجودها هناك، وحاول مرارا وبشتى الطرق أن يعرف منهما مكان الألمان ولكن الخوف والرعب منعهما من الكلام[56].

وشيئا فشيئا، عرف أن الألمان رحلوا عن الناحية –بعدما اطمأنت وتأكدت أن أولئك الجنود فرنسيون –، كما عرف أنها لم تكن مريضة، بل كانت تدّعي المرض لبعث القرف في نفوس الجنود. وعندما حاول التهكم بها، أجابته بقوة وعنف، وبخاصة عندما ناداها "ألفريد" كما سمع أمها تناديها أثناء دخوله –لأنها لا تحب ذلك الاسم الذي أطلقه عليها الألمان رغم رفضها – وصارت أمها تناديها به خوفا عليها منهم[57].

ونشأت بين "جيرمان" و"أرزقي" علاقة ألفة، ظهرت جلية أثناء وجود "أرزقي" في المستشفى –بعدما أصيب في الجبهة – فكانت تزوره باستمرار وتحمل له أشياء –كما كانت تسميها – كالكتب والمجلات والفواكه وتخفف عنه[58].

---

(56) Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, pp155-156.
(57) Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, pp157-158.
(58) Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, pp172-173.

وبعد خروجه من المستشفى، توطدت بينهما العلاقة وصار يزورها في بيتها، وقلّما يفترقان فهي لا تهتم بشيء إلا بشخصه، أما جنسيته ولونه ومعتقداته، فتلك أمور لا أهمية لها عندها[59].

ولذلك، لم تعترض عليه عندما قرر السفر إلى الجزائر –رغم عدم رضاها - لأنها لا تريد ربطه إليها بالقوة. وفي المحطة، كان "أرزقي" ينتظر مجيئها لتوديعه، وتتبعها للقطار بعينيها الواسعتين الزرقاوين، وتخيلها نازلة من التاكسي –فنادرا ما تركب المترو –، ثم دخلت المحطة والريح يرقص شعرها الأصهب إلا أنها لم تأت[60]، إنما جاءت أمها وقريبتها معتذرتين له عن عدم مجيئها وانشغالها بالبحث عن عمل وقضاء بعض الأمور، وتعجب "أرزقي" من ذلك الكلام، لا تأتي لتوديعه بدعوى البحث عن عمل –وهي الثرية جدا! - وقضاء بعض الحاجيات! ولم يجد شيئا يقوله، فمن خلال كلام "أم جيرمان" أدرك أن وجوده في فرنسا كان يبعث الأمل في نفس "جيرمان" بالزواج منه، والآن عليها البحث عن زوج[61]. وسافر "أرزقي" إلى الجزائر وغرق في دوامة الأحداث حتى دخل السجن.

وفي يوم من الأيام، جاءته رسالة زرقاء، وعندما فتحها وجدها من "جيرمان" تخبره فيها عن حزنها على سفره المفاجئ دون رؤيته، فقد كانا متواعدين على اللقاء في المحطة قبل الثامنة ليلا، ولكن أمها أخبرتها أنه كلمها هاتفيا لإخبارها بأنه غيّر موعد سفره إلى الظهر، وبذلك لم تتمكن من رؤيته! وأدرك "أرزقي" أن "أم جيرمان" هي التي أفسدت خطة وداعهما لتفرقهما عن بعضهما[62]؛ وأن جيرمان لم تكن مشغولة بالبحث عن عمل ولا بقضاء بعض الحاجيات، ولم تفكر في الزواج بل خدعتها أمها بدعوى البحث عن مصلحتها.

---

[59] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, pp190-192.
[60] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, pp195-196.
[61] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, pp198-199.
[62] Mouloud Mammeri: Le Sommeil du Juste, pp242-243.

رسم الروائي صورتها بأسلوب سردي تقريري معتمدا على التقطيع، لجعل الصورة تتكامل شيئا فشيئا، ففي البداية كانت خائفة، ثم محبة لـ"ارزقي"؛ وفي الأخير ذات شخصية قوية، ولم يرد ذكر صفاتها الجسمية عدا عينيها الزرقاوين الواسعتين وشعرها الأصهب، موظفا ذلك توظيفا رائعا. فالعينان الزرقاوان الواسعتان ستتسعان أكثر أثناء انطلاق القطار والشعر الأصهب يرقصه الريح أثناء دخولها المحطة.. وبذلك جاءت صورة "جيرمان" حبيبة "ارزقي" مقنعة ومؤثرة، فهي فتاة تخاف في موقف الخوف، وتحب مثل غيرها، ولا تربط حبيبها بل تتركه يتصرف بحرية وتحزن على فراق حبيبها.

3 - "سيمون – Simone" في رواية "التيوس" لإدريس الشرايبي، خليلة "والديك" -بطل الرواية وهو عامل جزائري مثقف هاجر إلى فرنسا، وهناك يحاول الدفاع بقلمه عن مئات الآلاف من المهاجرين المغاربة -، استقبلته في بيتها وآوته وعاشرته معاشرة الأزواج حتى ولدت منه مولودا، رغم إحساسها الواضح بأنها تعيش مع عربي متوحش من شمال إفريقيا، يدل على ذلك قولها المهذب لـ"والديك" من حين لآخر، أن رائحة التوحش تفوح منه[63]. وكان "والديك" يشعر بإحساسها ذاك، فهو جزء من الشعور العام، شعور بالحقد والكراهية نحو "الجديان" -البيكو - نحو العرب، ولذلك كان يستغرب منها وهي الشابة الجميلة اللطيفة الرقيقة تعلقها به[64] (لم أكن أدرك لماذا وهبت لي نفسها، وحبلت مني، ورضيت بعيشة الخليلة وبالفقر المدقع، والمستقبل مسدود أمامنا بصخور وإسمنت الكراهية، لماذا كانت تحبني)[65].

وفي يوم من الأيام، حملت مسودة رواية "التيوس" التي كتبها زوجها في السجن وتطوعت بالذهاب عند الناشر "ماك أوماك"[66] عله يقبل نشر الرواية،

---

[63] Driss Chraïbi: Les Boucs, p19.

[64] Driss Chraïbi: Les Boucs, pp20-22.

[65] Driss Chraïbi: Les Boucs, pp22-23.

[66] سبق الحديث عنه في فصل الرجل الفرنسي ضمن نموذج "المثقف الفرنسي".

وبذلك يتحقق هدف "والديك" ويعرف العالم وضعية "التيوس" في فرنسا، ثم تخف عنهما الأزمة المادية. ولم يكن "والديك" راضيا عن ذلك لأن الولد مريض، ولا يعرف ماذا عساه يفعل له، إلا أن "سيمون" لم تكترث للأمر، وذهبت عند "ماك أوماك" حاملة المسودة وامتدت غيبتها يومين كاملين[67]، وفي صبيحة اليوم الثالث، دخلت الغرفة نشيطة حية مبتسمة وكأنها ارتوت لتعلن لزوجها أن "ماك أوماك" جاء لزيارته، وأثناء محادثة "ماك" لـ "والديك" لاحظ الأخير أن الناشر لم يقرأ "المسودة" كما لاحظ إشارات تفاهم بين "سيمون" و"ماك أوماك"[68]، واستشاط غضبا عندما أدرك أن الناشر يضحك عليه وزادت "سيمون" في غضبه بجلوسها على السرير هادئة غير سائلة عن ولدها المريض –وكان قد حمل إلى المستشفى في حالة خطيرة – تحمر شفتيها، وتدعي التعب في الوصول إلى الناشر[69]، وفي تلك اللحظة دخل "راوس" –صديق "والديك" – ليسخر من الناشر الذي سأل عن الطفل ومن الأم التي لم تسأل قائلا، أن الولد مريض جدا وقد يموت، ثم سأل "سيمون" أكان سفرك ممتعا يا سيدتي؟[70]؛ وهنا انفجرت "سيمون" في وجه "راوس" صارخة بأنه سيجننها ورأى "والديك" "سيمون" عارية من كل التربية والحضارة الغربية وكل المبادئ والعادات، ولم تعد سوى حقد قديم متجسم، وحاول "ماك" تهدئتها، ثم اصطحبها خارج البيت –وزوجها يرى – ولم يسمع "والديك" سوى انطلاق السيارة[71].

إن ثورة "سيمون" على "راوس" وهجومها عليه ثورة على زوجها "والديك" وهجوم عليه، فلا فرق بين "راوس" و"والديك" كلاهما "بيكو" وعربي متوحش، أي مظهر واحد وجوهر واحد، ولو نام "راوس" مرة في سرير "والديك" لما لاحظت

---

(67) Driss Chraïbi: Les Boucs, pp38-41.
(68) Driss Chraïbi: Les Boucs, pp36-39.
(69) Driss Chraïbi: Les Boucs, pp40-42.
(70) Driss Chraïbi: Les Boucs, pp42-43.
(71) Driss Chraïbi: Les Boucs, pp43-44.

"سيمون" الفرق في القيمة، فالرائحة واحدة، ولذلك فهجومها على "راوس" هجوم على زوجها[72].

في المساء عادت إلى البيت كئيبة، وعلم منها زوجها أن حالة الولد لم تتحسن بعد، ثم اندست في السرير، وعندما سألها عن روايته ذكرت له أن "ماك" معجب بها وربما سيكتب له مقدمة، فقد فهمت منه ذلك عندما رافقته إلى مطعم صيني -بعد إلحاح شديد منه - بالحي اللاتيني[73]؛ إذن، فبعد خروجها معه، ثائرة وغاضبة، ذهبت معه إلى مطعم في الحي اللاتيني. وأثناء ذلك لا شك أنهما تحدثا، وقبل ذلك لا شك أنهما تعارفا جيدا وزالت بينهما الكلفة.

وفي الظلام، أراد "والديك" الوصول إلى الحقيقة فبدأ يستثيرها لتتكلم، وراح يطلب منها الصفح والعفو -ماسحا على جبيها وخدّها لأنه كان السبب في تحطيمها وإضاعة مستقبلها، فهي لا تستحق الفقر والجوع، بل تستحق الحياة الرغدة والنعيم وكل خير، وأثناء ملاطفته لها -في الظلام - أدرك أنها خائفة، وعندما أشعل المصباح رأى الرعب في عينيها واشتم منها رائحة الخوف[74].

ثم أطفأ المصباح، وراح يستثيرها لتتكلم، فقد خرج من السجن منذ يومين ووجدها وراء الباب تنتظره، وكان يحمل تحت إبطه "مسودّة" الرواية وقدمها لها هدية ووفاء بعهد، فقررت حمل "المسودة" بسرعة إلى "ماك أوماك" الذي لم تكن تعرفه، تاركة وراءها ولدها المريض، وكان من المفروض أن تستقبل والد الذي دخل السجن من أجلها هي، فقد شتمها أحدهم، وكان جزاؤه التهشيم، وبذلك حكم على "والديك" بالسجن. ولم يبق أمامه إلا حكم واحد بالسجن ويطرده من فرنسا نهائيا.

---

(72) Driss Chraïbi: Les Boucs, pp51-52.

(73) Driss Chraïbi: Les Boucs, pp61-62.

(74) Driss Chraïbi: Les Boucs, pp66-67.

فماذا قال لها "ماك" حتى صارت ترتعش من زوجها؟ ذاك هو السؤال الذي طرحه عليها "والديك"، وأجابته بصيحة رعب مخيفة لأن قطرة عرق سقطت على وجهها باردة مثل الرصاص[75].

لقد خرج من السجن ليبدأ حياته من جديد، وها هي قريه جامدة مثل الخشب، لقد تعرف عليها منذ اربع سنوات وكلمها أولا عن "التيوس"، ولاحظ الإنسانية البريئة في عينيها الإنسانيتن، فلم تكونا جميلتين ولا جذابتين ولا أنثويتين، بل كانتا عينين إنسانيتين، رأى فيهما ملاذه وملجأه. والآن يشعر بتغير شيء ولا بد من إدراكه[76]، فقد كانت تصيح في وجه "راوس" عندما حدثها عن ولدها، وظهرت عنصريتها وظهر سأمها، ألا يقبع "ماك" وراء تلك العنصرية وذلك السأم؟[77].

وحاولت "سيمون" التهرب من الإجابة راجية من زوجها أن يتركها تنام، إلا انه صمم على إدراك الحقيقة؟ واستمر يرهقها بأسئلة اربعة أيام متتالية بلياليها حتى ملت وطردته في اليوم الرابع طردا[78]، ولما عاد مرة أخرى ظانا انها عاصفة مرت وجدها مصممة على طرده، بل وجدها تمسح الغرفة بالمياه المطهرة[79].

سار "والديك" إلى الجزائر، وبعد مدة عاد إلى فرنسا ولم تفق "سيمون" إلا عندما وضع الحقيبة على الأرض، وبعد ثرثرة قصيرة بينهما، اندفعت تقص عليه ما حدث بينها وبين "ماك" وكيف خانته، وفي ختام كلامها أخبرته أنه لا يحسن "المعاشرة" ثم سكتت[80].

---

[75] Driss Chraïbi: Les Boucs, pp67-69.
[76] Driss Chraïbi: Les Boucs, pp70-72.
[77] Driss Chraïbi: Les Boucs, p73.
[78] Driss Chraïbi: Les Boucs, pp73-84.
[79] Driss Chraïbi: Les Boucs, pp91-92.
[80] Driss Chraïbi: Les Boucs, pp135-137.

حقيقة لم تخنه عمدا -كما قالت - فقد ضحك عليها "ماك" وخدرها بما قدم لها من شراب وسجائر ومأكولات وكلام معسول، حتى جعلها لا تدرك ما تفعل. وعندما أدمن "والديك" الخمر، وصار لا يعود إلى البيت في المساء إلا حاملا زجاجة خمر، لم تثر "سيمون" فقد أدركت أن الحبل ضاع من يدها، وأن زجاجة الخمر تمثلها هي، وكلما أدار في يده الزجاجة تحس أنه يخضها هي؛ إنها تريد التكفير عن غلطتها، ولذلك لم تستجب لنصائح جاراتها اللائي حرضنها على شكوى "والديك" أو غلق الباب في وجهه.

لم يعد أمامها مستقبل، ولم تعد ترغب في شيء فقد أصبحت وحيدة، وتضغط "سيمون" على "دوّاسة" آلة الخياطة، وتندمج المرأة مع الآلة تزمجر والمرأة تصيح: أنا مجنونة... أنا مجنونة... أنا مجنونة...(81).

لقد جنت "سيمون" لأنها خسرت الزوج أو الخليل والولد، خسرتهما لأنها خانت خليلها وسعت وراء وهم، ولم تدرك الحقيقة إلا بعدما تم كل شيء.

عرض الروائي صورتها بأسلوب سردي مع قليل من الحوار، موزعا أجزاء الصورة على مساحة واسعة من الرواية، فهو يبدأ بالإيحاء بكراهية "سيمون" له، وكراهيته لها ثم يتعجب من حبها له، وبعد ذلك ينتقل إلى غيبتها عن البيت وحملها الرواية إلى الناشر ومرض ولدها، ثم ثورتها على صديقه عند رجوعها، ولا يعلل سبب كل ذلك إلا بعد مدة، ثم يبدأ في البحث عن سبب ثورة "سيمون" على صديقه وعليه أيضا، وأثناء ذلك يذكر كيف تعرف عليها وسبب تعلقه بها وآماله بعد خروجه من السجن، ثم يوجه تهمة إثارتها إلى الناشر، وبذلك تتم ثورتها وتطرده من البيت ولا يعرف الحقيقة إلا بعد رجوعه من الجزائر، وختاما يشير الروائي إلى ندم "سيمون" برفض شكوى "والديك"، وتمنيها وضع حزام أمان بين فخذيها لتسدّ سبب مصيبتها.. يعرض الروائي كل ذلك مهملا صفاتها

---

(81) Driss Chraïbi: Les Boucs, pp169-175.

الجسمية، عدا كونها جميلة لطيفة، رقيقة، بشعر أصهب، ومركزا على صفاتها المعنوية، فهي كانت تحب "والديك" ولم تكن عنصرية، ثم صارت عنصرية بإيحاء من "ماك" ومعنى ذلك أنها ضعيفة الشخصية لا تدرك الضار من النافع وتغتر بالمظاهر المادية، وأهم صفة معنوية أبرزها الكاتب هي الندم على فعلتها ودفعها الثمن، فقد أخطأت وقررت دفع الثمن.

4 - إيزابيل في رواية "التيوس" لإدريس الشرايبي، فتاة صادفت يوما "والديك" سكرانا مرميا في الشارع، فأوقفته، ثم أجلسته على مقعد، لم تهتم به لإشفاقها عليه، فلم تكن تدري ما الشفقة ولا ما الخير والشر، لأن نظرتها إلى العالم بسيطة جدا: الرجل يساوي وردة، والعالم حديقة زهور كبيرة، وكل ما عدا ذلك هراء وخيالات لا تؤمن بها "إيزابيل"، وبعدما استمعت إلى شكواه[82]، وأفرغ كل ما في قلبه، أنهضته قائلة: تعال[83]، في غرفتها جلسا يتدفآن ولما راحت يداه تتجولان قالت له: (إذا كنت تظن أنني اصطحبتك إلى هنا لإشفاقي عليك، أو لأن جسدي يبحث عن الجديد أو لأن الخطيئة تجتذبني فأنا شيء آخر، ثم أخذت رأسه بعنف بين يديها)[84].

وفي الليل نامت بين أحضانه.. وقبل أن تنام قصت عليه ما حدث لها في الحرب العالمية الثانية، وذكرت له كل ما فقدت حتى بقيت وستبقى هيكلا فارغا من الكالسيوم، ومع ذلك لا تحقد على أحد، وندم "والديك" على صفعه إياها فقد صفعها مرة، ولم يجد بدا من معاقبة اليد التي صفعت تلك المرأة الضعيفة النقية، فراح يخبط يده على الرخام حتى أدماها وتركته يخبط يده حتى ينفس عن نفسه، ويرتاح من عذابه وخوفه، الخوف من الموت مرتين -كما قال -، فهو لا يريد أن يحبها لأنه صار يخاف الحب[85]. وبشخصيتها القوية وصراحتها راحت

---

[82] انظر ما حدث له مع "سيمون" في الصفحات السابقة.

[83] Driss Chraïbi: Les Boucs, pp176-177.

[84] Driss Chraïbi: Les Boucs, p178.

[85] Driss Chraïbi: Les Boucs, pp178-180.

تواجهه وتجابهه وتكشفه أمام نفسه بعدما لاحظت تمسكه بهمومه وأفكاره وصرخت فيه، إنها لا تؤيد استغلال الأوروبي للعربي بل تدينه وتخجل من كونها أوروبية. ومع ذلك، فهي تدين العرب أكثر لرضوخهم للاستغلال منذ أقدم العصور، ولا يهمها شيء من كل ذلك، فيوم التقطته كانت تظن أنها لم تلتقط البؤس لكن التقطت رجلا، واليوم أدركت أنها مخطئة، ولذلك فهي تتخلى عن البؤس ودفعته خارجا ثم تشبق بها وطلب منها زيارة "راوس" لتحكم عليه، وبعد تفكير قررت أن تجرب[86].

وزارت إيزابيل "التيوس"، وبمجرد وصولها اندمجت ترقص معهم، فتأكد "والديك" من زيادة عدد التيوس فردا ثم صافحتهم واحدا واحدا، ولما صافحت رئيسهم استبقى يدها في يده وهمس لها بأن تأخذه -أي والديك - وتعطيه الهدوء والاستقرار وحياة الرجل المتحضر، فذلك هو مطمعه، ولم تشعر إلا وهي تجيبه: نعم[87].

لقد تفهمت "إيزابيل" آراء "والديك" ولم تر مانعا من مآكلة "التيوس" والرقص معهم.

فما المانع أن تكون مثلهم تعيش مع واحد منهم، وقد عرفت أقسى البؤس حتى بقيت هيكلا فارغا من الكالسيوم، لقد أحبت "والديك" وجعلته يتطهر من ماضيه العاطفي ويدرك الحقيقة، ثم يحبها ويقبل المغامرة مرة ثانية، تلك هي "إيزابيل" الطويلة، الضعيفة، الصغيرة، ذات الثقبين اللماعين بدل العينين...[88].

عرض الروائي صورتها بأسلوب سردي متضمنا شيئا من الحوار ومقطعا أجزاء الصورة مقدما البعض ومؤخرا البعض الآخر، فلا تكتمل الصورة إلا بنهاية الحديث مع إهمال الصفات الجسمية تقريبا: فهي طويلة، رقيقة غائرة العينين.

---

(86) Driss Chraïbi: Les Boucs, pp180-183.

(87) Driss Chraïbi: Les Boucs, pp191-192.

(88) Driss Chraïbi: Les Boucs, p175.

والتركيز على صفاتها المعنوية التي تكون شخصية قوية مستقيمة، فهي لا تحقد على أحد ولا تحب الظلم أو الاستغلال كما لا تحب الخضوع والذل والمسكنة، ولا تقبل شيئا ينغص عليها حياتها، ولذلك فهي لا تشفق على أحد ولا تعرف معنى الخير والشر.

استطاع الروائي أن يبرز صفاتها المعنوية من خلال موقفها مع "والديك" وكلامها معه، وبذلك جاءت صورتها قوية قوة شخصيتها.

5 - جيزال دوروك في رواية "سأهبك غزالة" لمالك حداد، سيدة مسؤولة عن قراءة الكتب المقدمة إلى دار النشر التي تعمل فيها، وجدت يوما مسودة رواية بعنوان "سأهبك غزالة" فوق مكتبها ولم تر صاحبها، ولم تستطع معرفة صاحب الرواية لأن العمال لم يروا أحدا دخل إلى مكتبها ولم يهدها تفكيرها: (جيزال دوروك تبدو كالجميلة عندما تأخذ في التفكير والتأمل.

فكان الناس عندئذ يغفرون لها كبر جبهتها المفرط وشحوب لونها المفرط وتلك العجوة اللطيفة في وجهها التي كانت ترسم قوسا صغيرا على ركن شفتها وحول سيجارتها، كانت كثيرة التدخين وكانت إذا أخذت في التفكير تبدو وكأنها في عراك وخصام مع أفكارها ولشد ما كان الغضب يواتيها. لقد كان يعيد إليها شبابها)[89] لقد أعجبت بتلك الرواية منذ السطور الأولى.

فجوها شاعري وجملها موحية، ولذلك حملت معها الرواية إلى البيت لتقرأها بتمعن وسعة بال[90]، وبعدما قرأت قسطا كبيرا من الرواية تأكدت من صعوبة الحكم عليها إنها ليست رواية، إنها مناجاة ولا يمكن للمرء الحكم عليها ولا يحق له أن يحكم عليها[91]؛ وكم كانت رغبة "جيزال" في التعرف على صاحب

---

[89] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص17 -19.

[90] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص20.

[91] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص39.

الرواية شديدة! ولم يشعر المؤلف إلا وهو يوافقها على لقاء خارج المكتب ليتحدثا أكثر[92]، وعندما التقيا طلبت منه أن يحدثها عن نفسه، فقال لها أنه لا يحب الأثاث العصري، ولاحظت "جيزال" أنه يتكلم كما يكتب طلبت منه أن يحدثها عن نفسه فقال لها أنه يحب الأثاث القديم الذي يمثل رمزا حضاريا محددا، فهو منقوش بأناة ودقة[93]: (وفجاة رغبت في التعرف عليه، وليس معنى ذلك أنها رغبت في معرفة سنه ولا مكان سكناه ولا هل هو أعزب أم متزوج أم أرمل ولا هل كانت زوجته تخدعه مع غيره من الرجال)[94]. إنها تريد معرفته تريد فهمه ولقد استطاعت أن تفهمه وتدخل في قاموسه[95]. لقد أعجبت بكلامه وصارت تعيش في أجوائه حتى في بيتها: (وكانت "جيزال" تبحث في شبه ظلمة الغرفة على خديها وجه المؤلف حتى إذا ظفرت منه بنظرة أو هيئة جسدية ما، أو ابتسامة بالأخص سالت على خديها علامات تأثر مائع كأنه ماء مسحور، فكانت تخلق بجميع حواس بدنها ذلك التاجر الفارع القامة البائع للرمال، فينقلب الزمان الذي مضى وفات ويصبح شيئا مفقودا، كانت عاشقة.

لقد اختارت السمة الطافحة سمة المغامرة الناطقة، فكانت المأساة لذيذة الطعم، وصار المؤلف دويا كدوي القطار في المفازة الخراب الحزينة، وكان المؤلف حاضرا معها هناك)[96].

لقد عشقت المؤلف عشقت أجواءه وشطحاته الغريبة، وساعدها على الاندفاع في ذلك الطريق حياتها الزوجية الراكدة التي تشبه رواية قصصية من تلك الروايات التي يتقن أصحابها تحريرها وتركيبها، رواية ليس فيها إفراط في

---

(92) مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص57 -58.

(93) مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص91 -92.

(94) مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص94.

(95) مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص96 -98.

(96) مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص130.

الادعاء ولا إفراط في التواضع، كانت حياتها اندفاعة إلى الأمام بدون هدف مراد، تشرق عليها الشمس أحيانا إلا انها خالية من كل شيء باطني، إنهم يسمون ذلك السعادة الزوجية إنه التوازن الراكد في مرافق الرفاهية التقريبية.

لقد كانت حياتها كذلك وليس شيئا آخر اي شيء بالمرة[97] (وفجأة شعرت "جيزال" بأنها في حاجة إلى مقابلة المؤلف، وكان المؤلف قد حدثها مرارا عديدة عن خمارة السيد "موريس" الصغيرة ليؤول المؤلف ذلك كما يشاء، ولكنها كانت تشعر برغبة شديدة في الخروج وفي رؤيته)[98]؛ وخرجت تبحث عنه ليلا في الحي اللاتيني حتى اهتدت إلى الخمارة، وبقيت تنتظره حتى جاء: (وابتدات الرواية القصصية التي لم تكن بالحسبان (...) كانت "جيزال" قد وضعت يدها على يد المؤلف، فقال المؤلف: (بها) أي بتلك -التي من أجلها يقبل الإنسان - الإيمان، بتلك التي تكفي لتعمير القفر.

ووضع السيد "موريس" تلك -التي -من -أجلها -يقبل -الإنسان - الإيمان على الطاولة -فرفعها المؤلف بلطف وقال لـ "جيزال":

- أني أهبك غزالة.

ولم تكن حية بل كانت محشوة تبنا، ومع ذلك فإن أملا حاضرا كان يعدو منزلا القفر.

كانت جيزال قد وضعت يدها على يد المؤلف فكانت واحة النخيل)[99]؛ لقد فهم المؤلف "جيزال"، وادرك أنها تعتبره واحتها التي تهرب إليها من رتابة ومن ركود حياتها الزوجية[100]؛ ولكنه لم يستجب لها (لقد كان يحترمها احتراما لم

---

[97] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص132.

[98] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص133 -134.

[99] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص139 -141.

[100] مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص161 -166.

يكن في وسعه معه أن يكون لها كالواحة الصدفية في صحراء الاتفاق. لقد كان هناك قريبا جدا وبعيدا كل البعد وكان متكئا على نفس السترة معها، ولكنه كان قد ارتحل بعد إلى ضفة أخرى)[101].

وتأكدت "جيزال" أن المؤلف لن يكون واحتها، ورغم ذلك لم تحزن ولم تحقد عليه، بل راحت تهيء ظروف طبع روايته، وإذا به يدخل عليها يوما مكتبها ليسحب روايته، فقد تخلى عن فكرة نشرها. وذهلت "جيزال" ثم بذلت كل ما في وسعها لإقناعه بنشرها، إلا أنه رفض وأصر على الرفض حتى سحب الرواية، ولم تجد تبريرا لذلك سوى الجنون[102].

تلك هي "جيزال دوروك" التي عشقت "المؤلف" بطل الرواية، رسم الروائي صورتها بأسلوبه السردي الإيحائي ذي الجمل الشاعرية، مشيرا إلى القليل من صفاتها الجسمية فهي ليست جميلة، كبيرة الجبهة لحد الإفراط شاحبة اللون لحد الإفراط أيضا، ومركزا على صفاتها المعنوية :إنها جادة في عملها تتمتع بروح شاعرية، وتحترم عواطف الناس، تنفر من رتابة الحياة وتميل إلى الجديد والغريب، أرادت أن تحتمي بالمؤلف من حياتها الزوجية الراكدة ولما أفلت المؤلف من بين يديها، لم تحقد عليه –كعادة الأنثى - بل تمسكت بعلاقة الصداقة التي ربطتها حول الرواية وبذلت كل ما في وسعها لطبع تلك الرواية ونشرها.

والملاحظ أن رسم صورة "جيزال" تم بواسطة تتابع منطقي: وجدت على مكتبها رواية أعجبت بها، دفعها الإعجاب إلى البحث عن صاحبها، ولما التقت به، أعجبت بأفكاره وإحساساته الحية التي تناقض الإحساسات الجامدة بينها وبين زوجها، وبذلك زاد شعورها بثقل ركود حياتها الزوجية، فاندفعت نحو المؤلف

---

(101) مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص166 -167.

(102) مالك حداد: سأهبك غزالة (ترجمة صالح القرمادي)، ص187 -193.

ليكون واحتها، ولما أدرك هدفها وبواعثها رفض أن يكون "واحة" فلم تحقد عليه... إنها صورة مقنعة.

6 - جيرمان في رواية التلميذ والدرس لـ "مالك حداد"، تعرف عليها الدكتور "صلاح إيدير" -بطل الرواية وهو طبيب جزائري وقف حائرا أمام ثورة ابنته - زمن الدراسة الجامعية في ملهى وأعجب بها لأنها كانت (عاقلة وعاطفية)[103].

تتحدث عن الأدب أكثر من حديثها عن الطب، ولذلك تحول إعجابه بها إلى حب حتى ارتسمت داخل نفسه، ولو نزع أحد عيني "صلاح" لوجد "جيرمان" خلفهما[104]، ونشأ بين الاثنين حبٌ طافح.

وفي موسم جني العنب دعته عند أسرتها، في جنوب فرنسا، وهناك شهدت الحقول عاشقين يجنيان النجوم. وفوق الحشيش سألت "جيرمان" "صلاح" إن كانت السّماء في قريته زرقاء مثل تلك التي يريانها، فأجابها أن سماء قريته أكثر زرقة من تلك التي يريانها، وستتأكد من ذلك يوم تصير زوجته -وكان قد اعتزم مصارحة والدها وخطبتها وبخاصة عندما لاحظ اهتمام والدها بعلاقتهما -، واهتزت لسماع تلك الكلمات ضاغطة على يده حتى آلمته[105]؛ وعندما بدأ الجو يبرد قفلا عائدين إلى المنزل لا يحسان بشيء وكأنهما يسيران في فراغ.

وتساءل "صلاح": أيتجاسر ويقبلها؟ أيقفز على جدار الخجل؟ وأغلقت عينيها وذاب الوجود من حولهما[106] وتابعا سيرهما، وكلما حاولت "جيرمان" الحديث يخونها صوتها ولما قال لها "صلاح" أن البئر سيكون أول شاهد على

---

(103) Malek Haddad: L'Elève et la Leçon, p75.
(104) Malek Haddad: L'Elève et la Leçon, p75.
(105) Malek Haddad: L'Elève et la Leçon, pp76-77.
(106) Malek Haddad: L'Elève et la Leçon, p77.

زواجهما ابتعدت عنه صائحة: (لا يا صلاح لا إن خطيبي سيصل بعد أسبوع، وأسرعت تعدو نحو المنزل)[107].

إذن فهي مخطوبة، بل سيصل خطيبها بعد أسبوع، فلماذا تعلقت به؟ ولماذا أوهمته بحبها له؟ سؤال لم يجد له "صلاح" جوابا آنذاك وبعد سنوات، وفي قريته التي صار طبيبها، قدم له الحاكم الفرنسي في حفلة زوجته، وإذا بها "جيرمان"[108].

وبعد أيام دخلت عليه المكتب وكانا يحسان بالشلل، ولم يتركها تشرح له أي شيء فما الفائدة وكل شيء فات وانتهى[109]؛ وبقيت جيرمان ذكرى تأتي ذاكرة الدكتور صلاح إيدير كلما خلا إلى نفسه[110].

رسم الروائي صورتها بأسلوب سردي إيحائي ذي جمل شعرية، من خلال مناجاة "صلاح" لنفسه وانهمار ذكرياته، وكأنها الجنة الضائعة، مهملا تحديد صفاتها الجسمية والمعنوية، فلا نعرف عنها إلا تعلق "صلاح" بها ثم اصطدامه بخطبتها إلى غيره؛ وعندما أرادت فيما بعد أن تشرح له موقفها لم يقبل فقد فشلت العلاقة ولا فائدة بعد ذلك.

7 - مونيك في رواية "رصيف الأزهار لا يجيب" لمالك حداد، زوجة "سيمون" صديق "خالد" وزميله زمن الدراسة[111] -، يشير إليها الروائي إشارات موحية ضمن الوصف العام للجو ولنفسيته عشية زار زوجها بعد وصوله من الجزائر مباشرة: (فقد كانت في غرفتها تتعرى (...) صدرها يريد أن يصرخ... "مونيك" تعرف كيف تكون جميلة، إنها تغتسل من خجلها.. تتسرب في الليل. صدارها وردي والكرز وردي (...).

---

(107) Malek Haddad: L'Elève et la Leçon, p79.

(108) Malek Haddad: L'Elève et la Leçon, pp86-87.

(109) Malek Haddad: L'Elève et la Leçon, pp91-95.

(110) Malek Haddad: L'Elève et la Leçon, pp100-101et107.

(111) وردت صورته في الفصل الثالث ضمن نموذج المثقف الفرنسي.

"مونيك" تتأمل صدرها (...) تداعب وركيها وكأنهما سنوات، انكشف الحجاب وظهرت المرأة. إنها تعلم أن بطنها معطاة. فخذاها ينتظران السيطرة التي لا تأتي إلا من القوة، الصدار صار الآن أسود مغرورا شيئا ما (...) وها هي "مونيك" عارية، لقد رقصت على خرافات إنها ما زالت تداعب وركيها، إنها معجبة بنفسها[112].

إنها بركان ينتظر الانفجار، وأثناء حديث "خالد" مع "سيمون" حملت "مونيك" ابنتها لترقدها، وعند عودتها إلى قاعة الاستقبال: (لاحظ "خالد" أنها غيرت هندامها لبست جبة بطيات سوداء، مزينة بأزهار حمراء، وصدارا أبيضا بسيطا واضحا (...) كما لاحظ "خالد" أنها تزينت مرة أخرى، ولاحظ على الخصوص يدها الطويلة الشاحبة التي وضعتها على كتف "سيمون" مظهرة ألفة اعتبرها عدوانية، إنها الحرب الباردة أعلنت بين سيدة صغيرة جميلة جدا وشاعر يحج، واستيقظت نزعة الانتصار في "خالد". بدأ التحدي.

اختار أسلحته في حدود قدراته: الطيبة (...) انتقدت "سيمون" كتاب "خالد" الأخير نقدا لاذعا فتسلى "خالد" لأن سوء النية ظاهرة عندما تصير امرأة مجحفة، فمن المؤكد أنها لا بد أن تخسر)[113].

لقد بدأ التحدي بين "مونيك" الجميلة وبين "خالد" الشاعر، بدأ عندما عاملت "مونيك" زوجها بألفة أمام "خالد" الذي لم تكن تعرفه. وعندما هاجمت كتابه بعنف، وبعد أيام وجد "خالد" ورقة في صندوق غرفته بالفندق (ولقد كتبت تلك الليلة، إنني أحب كتابكم الأخير حبا شديدا، ولذلك أرجو السماح لي بمقابلتكم، لأُقبِّل يدكم التي تكتب)[114].

---

[112] Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, pp12-13.
[113] Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, pp15-16.
[114] Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p19.

لقد أدركت "مونيك" منذ الوهلة الأولى، أن "خالدًا" خطر على زوجها، فهو يمثل الماضي، ويمثل الذكريات ولذلك أعلنت عليه الحرب[115]؛ التقت "مونيك" بـ"خالد"، وخرجا إلى ضاحية من ضواحي "باريس" وهناك جلسا تحت خميلة قرب واد (كان "خالد" يرمي أحجارا في الوادي فيحدث سقوطها علامات تعجب، كانت لدى "مونيك" رغبة في أن تضمّه، كان "خالد" يفكر في أمه فلا الفخذان الممتلئان ولا الثدي الصغير (...) ولا القمر المتعطش إلى الأسرار المجسمة، ولا الصدر الذي لا يحسن الاحتواء، ولا الوادي الحار، المتدفق في عروق المرأة... "خالد" يفكر في أمه والريح يرفع الفستان، لقد كان ريحا متواطئا ولا يستطيع شيئا، لا الريح ولا اليمامتان المقدمتان إلى يدين إمبرياليتين)[116].

لقد أثارت "مونيك" "خالد" بأساليب مختلفة، ولكنه لم يستجب ولم يرضخ، إنه يريد قهرها ولكنها لم تيأس فأثناء عودتهما -كان "خالد" يسوق السيارة - لم يشعر إلا والسيارة تكاد تصطدم بشجرة، لقد قبلت يده التي يكتب بها عنوة[117]؛ وأخيرا وعد "خالد" "مونيك" بلقاء في المدينة، وعندما التقيا راحت تحدثه عن الجزائر وتناقشه حتى انزعج وسألها بصراحة: (ماذا تنتظرين مني يا مونيك؟).

وجاء الجواب بسيطا جدا: أنت[118]، إنها تريده هو، هكذا قالت له بصراحة تامة، ومنذ ذلك اللقاء صارت "مونيك" تتحين الفرص للضغط على يد "خالد" أو تقبيله بقوة[119]؛ وصارا يلتقيان هنا وهناك، وفي بيت "مونيك" "خالد" يحاول التهرب و"مونيك" تحاصره من كل جانب: (أعتقد أنني سأعطيك مولودا عما قريب...

---

(115) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p19.
(116) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, pp20-21.
(117) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, pp21-22.
(118) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p27.
(119) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p45.

ثم اسمع: إنني أحبك، سيدي الغائب.

لم تكن "مونيك" تكذب)[120]، إنها تريد الوصول إلى هدفها، ولذلك استمرت في مطاردتها حتى وصلت إلى مقر الصحيفة التي يعمل فيها، وعندما سألها عما تفعل هناك، أخبرته أن زوجها غائب لمدة ثلاثة أيام، وعندما سألها: (أتسمحين أن أسالك لماذا لم ترافقيه إلى "سان لونير"؟

لقد كان مؤدبا جدا (...) وكانت "مونيك" واثقة من نفسها، تلك الثقة لم تكن غرورا فهي تدرك تماما أنها أنثى وذلك يكفي، أنها أنثى مرتين لأنها عاشقة، لم تكن مغرورة وإنما سليطة، عدوانية وإنما عفوية، إنها توجه اهتمامها إلى الهدف مباشرة (...) إنها لا تنتقي كلماتها ولا تركب جملها.

ركزت عينيها في عيني "خالد" (...) لقد تملكها هدوء الفكرة الثابتة، كانت بسيطة بساطة رغبتها بعيدا عن الأخلاق، وبعيدا عن الكرامة... – سيدي الغائب، إنني أريد منكم هذه الأيام الثلاثة.

لم يصفع "خالد بن طوبال" امرأة قط، ولكنه فعل، لم تهتز "مونيك" بل راحت تداعب خدها بتلذذ طويلا، ثم طويلا، لتقول أخيرا في ابتسامة مهزوزة لطفل مشدوه: سيدي الغائب كما ترى لقد بدات تألفني(121)، لقد صفعها لأنها أهانته، فهي تطلب منه أن يعطيها الأيام الثلاثة التي غاب فيها زوجها وكأنه عاهر.

ورغم صفعه لها، لم تتخل عن هدفها بل استمرت تسعى لتحقيق هدفها مثل النملة، ولم يجد "خالد" حيلة إلا الابتعاد عن "سيمون" و"مونيك"، وعن رصيف الأزهار بحجة الانشغال بإتمام روايته، وبذلك خفت ثرثرة الهاتف[122].

---

(120) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p58.

(121) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, pp66-67.

(122) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p71.

وبقيت "مونيك" تلمح بحبها لـ "خالد" كلما حانت فرصة. فيوم عزم على السفر وأراد توديعها وزوجها: (شربت الخمرة البيضاء لأن "خالد" يشرب الخمرة البيضاء، إنها لا تحب الخمرة البيضاء ولكنها تحب "خالد" كلما ابتلعت جرعة تشمئز اشمئزازا لطيفا تحاول إخفاءه)[123]، بل جعلت ابنتها الصغيرة تسلم عليه -قبل نومها - قائلة له (أحقا انت مسافر؟ إذن ساقبلك قبلة كبيرة سيدي الغائب)[124].

لقد حفظت نيكول -البنت - الدرس جيدا، وعرضته جيدا، وصارت "مونيك" تستغل تعلق ابنتها بـ "خالد" لتظهر له حبها صراحة، وأثناء توديعه لم تستطع مصافحته، وهربت إلى البيت دون أن تنبس بكلمة وزوجها "سيمون" يرى، ولكنها لم تستطع كبت عواطفها[125].

رسم الروائي صورتها بأسلوبه الشاعري المعروف ذي الإيحاءات، موضحا منذ البداية وفي خط مستقيم تعلق "مونيك" بـ "خالد"، مازجا بين صفاتها الجسمية التي تدفعها لاتخاذ صفات معنوية، فهي جميلة وصدرها ثائر، ولذلك تتملكها الرغبة أثناء تعريها تتلذذ بمداعبة أجزاء جسمها لأنها عطشى تبحث عن الارتواء، هذا البركان الهائج انفجر في وجه "خالد" الذي لم يكن يعرفها.

صفات "مونيك" الجسمية وطاقاتها الجسدية الفائرة دفعتها لمواجهة "خالد"، وكان يمثل خطرا في البداية ينبغي التصدي له، وتحول ذلك التصدي إلى تعلق لإرواء تلك الطاقات الجديبة، وبذلك ظهرت صفاتها المعنوية فهي تتمتع بشخصية قوية جدا امام زوجها وغيره، أثناء سعيها وراء هدفها كما تتمتع بصلابة أعصاب وجرأة وثقة في النفس وطول النفس.

---

(123) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, pp79-80.

(124) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, p80.

(125) Malek Haddad: Le Quai aux Fleurs ne répond plus, pp99-102.

ونلاحظ أن الروائي رسم الصورة بنجاح، وذلك بتوظيف الصفات الجسمية لخدمة الصفات المعنوية التي كانت الأساس والمحور لقيام "مونيك" بدور الزوجة التي ملت ركود زوجها، وتسعى وراء صديق زوجها "خالد" لإرواء رغباتها، إنها سلسلة من التفاعلات أدت إلى إبراز صورة واضحة ومقنعة لفرنسية عشقت مغاربيا.

7 - سوزان في رواية "أبناء العالم الجديد" لآسيا جبار، صديقة ليلى من الشخصيات الهامة في الرواية، وهي شابة مثقفة التحق زوجها بالثورة وبقيت وحدها، تتمنى أن تكون مثل صديقتها "ليلى": (سوزان تنظر إلى صديقتها. كيف تهدأ. إنها منهكة إنها تريد هي الأخرى أن تغتسل بالدموع مثل "ليلى"، أن تغرق في وهم نصف حقيقي، أن تجد نفسها مجردة من الماضي وظله، إنها تحسد زميلتها على تلك القوة التي تنشطها فجأة بعدما تظهر منهوكة وضائعة في آلاف الدوامات النفسية (...) الا ليتني أظهر مثلها لحظة مقهورة.. لحظة عمياء، مشلولة... ثم أفيق..)[126]؛ إنها تحسد زميلتها على قدرة الانهيار التام ثم النهوض، وكأن شيئا لم يكن، بعد التنفيس عن النفس. ولكن "ليلى" تريد هي الأخرى أن تكون مثل "سوزان": ((التي تعتبرها ليلى"قوية" (إنك ناضجة (...) امرأة حقيقية، مثلما أريد أن أكون مليئة جدية وهدوء أعصاب، ذلك هو النضوج، أليس كذلك؟ أي التحكم في النفس، نعم إنني أحسدك)[127]، فعلام تحسد "سوزان" "ليلى" و"ليلى" "سوزان"؟

إن "سوزان زوجة "عمر" -محام جزائري - رفضت السفر معه من الجزائر إلى فرنسا لأنه يريد الفرار والتخلي عن واجبه في الدفاع عن المناضلين ضد السلطة أمام المحاكم، وتمسكت ببقاء ابنتها معها وسافر "عمر" وتركها وحيدة ولم تلتحق به لأنها متمسكة بمبادئها ولن تخرج من الجزائر إلا بعد

---

(126) Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, pp123-124.

(127) Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, p124.

استقلالها، ولذلك تتمنى أن تنفس عن نفسها بالبكاء مثل "ليلى"، فزوجها الذي ثار من أجله ضد والديها وأسرتها، يتخلى عنها دون مبرر ويتخلى عن الدفاع عن المناضلين، فهو يتخلى عنها مرتين: يتخلى عنها زوجة ويتخلى عنها مناضلة[128].

اندمجت "سوزان" في المجتمع وصارت تدرك جيدا العلاقات التي تربط الأسر الجزائرية، ولذلك أسرعت لمساعدة "سليمة" -شخصية هامة في الرواية معلمة مناضلة ألقي عليها القبض وسجنت - فور علمها بحبسها[129]؛ وبذلك توثقت العلاقة بينهما وأعجبت "سليمة" بـ "سوزان" المرأة النشطة المتحررة المتكاملة الواثقة من نفسها، التي تضحك بسرور وتعطف على ابنتها بلطف[130]؛ وما كانت مساعدتها لـ"سليمة" وغيرها من المناضلين والمناضلات، إلا حصولها على موافقة "خالد" -صديق زوجها ومحام بمدينة أخرى - بالترافع نيابة عن زوجها مرة في الأسبوع، بعدما تدرس هي القضايا وتجهز له كل شيء، وبذلك يبقى باب مكتب زوجها مفتوحا أمام الثوار في تلك المدينة الصغيرة[131].

إنها فرنسية آمنت بمبادئ الثورة الجزائرية، فالتزمت بالمشاركة فيها، ولذلك رفضت مرافقة زوجها إلى فرنسا هروبا من المشاكل وصممت على البقاء حتى يستقل البلد، وبعد ذلك تكون في حل من التزامها. رسمت الروائية صورتها بأسلوبها السردي التقريري معتمدة على تناقض الصور، لإبراز الصورة النهائية وتعليل الأحداث. "ليلى" تتمنى أن تكون قوية الشخصية مثل "سوزان" و"سوزان" تتمنى أن تكون صبيانية المشاعر مثل "ليلى" لتخفف عن نفسها.

"سوزان" تريد التخفيف عن النفس و"ليلى" تريد قوة الشخصية والصمود، وذلك لأنهما تعانيان من مشكل واحد هو تخلي أزواجهما، ولكن ثمة فرق بين

---

(128) Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, pp126-128.

(129) Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, p133.

(130) Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, p180.

(131) Assia Djebar: Les Enfants du Nouveau Monde, p243.

تخلى زوج "ليلى" وزوج "سوزان". فالأول تخلى عنها أو تركها ليلتحق بالثورة والثاني تخلى عنها ليهرب من المشاركة في الثورة ولذلك شتان بين الموقفين.

وجدير بـ "سوزان" أن تبحث عن السلوى وقد أصيبت مرتين: مرة بهجران زوجها لها، ومرة بتخليه عن مبادئ النضال؛ وبذلك تكون الروائية قد رسمت صورة مثالية للفرنسية زوجة المغاربي، ولا تعليل لتلك المثالية وذلك التشبث بالجزائر وقضيتها إلا بسببين متناقضين: إما أنها مثالية حقا، وإما أنها لا تريد العودة عند أسرتها التي عادتها من أجل زوجها وقضية بلده.

8 - كلود في رواية "الأفيون والعصا" لمولود معمري، خليلة الدكتور بشير الأزرق -طبيب جزائري تخاذل عن المساهمة في الثورة أول الأمر ثم التحق بها - تعيش معه في مدينة الجزائر.

على الخامسة والنصف مساء، وقف "بشير" ينتظرها لأنها ستدق الباب كعادتها بعد ثوان وستبدأ في مداعباتها السخيفة التي يكرهها مثل كرهه الروايات البوليسية وكتب الرحلات والمنشورات الخفيفة، وأساليبها في الكلام دون أن يجرأ على الاعتراض عليها[132]؛ ستدخل وتطلب منه الإجابة التي انتظرتها منذ أربع وعشرين ساعة، فبعد لف ودوران، وأقصد، وأعني، وكما تعرف... إلخ، قالت له أنها صارت كثيرة القيء رغم متانة معدتها وصحتها الحديدية بمعنى أنها تظن.. أو تعتقد.. فرغم كل الاحتياطات.. وكما يعرف فهو طبيب وكان يعرف حقيقة. كان يعرف أنها تريد ربطه[133].

والوسيلة الوحيدة الناجعة هي الإنجاب، ولا ترى في ذلك أي مشكل: (فمن السهل إنجاب مولود ويكفي حشوه بالفيتامينات والمضادات وكل التلقيحات والحقن، وإحاطته بالرعاية الكافية ليكون فيما بعد من الأصحاء، وعدا ذلك فليس ثمة مشكل، فالآنسة لا تتساءل كيف سنسميه ولا ما هو المجتمع الذي

---

[132] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, pp14-15.

[133] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p16.

سيعيش فيه، مع أو ضد من سيعيش...)[134]؛ وهو متأكد من ذلك، ومن تلك المناورة، لأنها أخبرته برغبة عمتها في المجيء إلى الجزائر لقضاء بضعة أيام، ومعنى ذلك أن العمة أجابت على رسالة من "كلود": (رسالة تشرح فيها "كلود" قائلة: كما تفهمين يا عمتي ففي الوضع الذي أعيشه "لا شك أنها كتبت الوضع المغاربي، كان يشمئز من تلك الطريقة التي تتحدث بها كلود طريقة تفوح بالرضا والخطيئة المزهرة والتمييز الخاطئ والفجور، لا بد من اتخاذ قرار وهو كما تعرفينه: متردد، غير دقيق، انفعالي وأناني مميت... وإذن فتعالي عمتي العزيزة، تعالي بسرعة، فهو يستمع إليك، وأنت تحسنين الكلام إليه.

أما أنا فلست ذكية بما فيه الكفاية أو لست خبيرة أو .. (...) إنني لم أستطع إقناعه)[135]. عمتها التي عرفته بها عندما عرضت عليه زيارتها في مزرعتها[136]؛ ولذلك فهو متخوف من مواجهتها، ولكنها لم تأت إلا بعد ما حضر رمضان -أستاذ جزائري مناضل في صفوف الثورة -، فلم تناقش "بشير" في القضية ولم يخرج "رمضان" إلا مع "بشير"، فقد انكشفت خلية "رمضان"، واتهم "بشير" بالعمل في الخلية حسب تصريح الراديو الذي التحق بالثوار. وبعد عدة أشهر زار "بشير" بيته فوجد "كلود" هناك وكم كانت فرحتها شديدة -لم تكن حاملا طبعا - بلقياه، وكم دهشت لمنظره وقد صار بطلا في نظرها، حتى صارت تخجل منه[137]. "كلود" المستهترة، التافهة، الأنانية، أثارت إعجاب الدكتور "بشير" عندما هجم فوج من الجنود الفرنسيين على الشقة: (رافقت الجنود في كل مكان فتشوه، واستطاعت إجلاءهم عن الشقة. انتهى بشير من ارتداء ملابسه.

قال لكلود: الوداع

فردت عليه: إلى اللقاء، سأنتظرك، لا تتأخر.

---

(134) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p22.

(135) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, pp22-23.

(136) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, p124.

(137) Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, pp147-149.

ورفعت رأسها نحوه وبهدوء قالت: الآن لا أستطيع أي شيء.

أمسك رأسها من الشعر الأشقر الذي يحبه وهوى بشفتيه على شفتيها المبللتين بالدموع المالحة.

جذبه الرقيب من ذراعه قائلا لأحد رجاله: خذ، قده عند بذرة(138) العنف، ثم التفت نحو كلود: أنت فرنسية، يا سيدتي؟

- نعم يا سيدي، فرنسية، لكنني حقيقية.

أغلق الرقيب الباب بخبطة من حذائه: - ما أنت إلا فاجرة [139]، لم يكن "بشير" يتوقع موقفا مثل ذلك الموقف الصلب من "كلود" مع الجنود الفرنسيين، "كلود" التي ما كانت تهتم سوى بربط بشير وقراءة الروايات البوليسية وكتب الرحلات والمنشورات الخفيفة والتمتع بالألبسة الراقية والمأكولات النادرة دون أي اهتمام بالمواقف والمبادئ.

وفي لحظة محت تلك الصورة من ذهن بشير وأثارت إعجابه، فهي فرنسية حقا، إلا أنها ليست مثل أولئك الفرنسيين الظالمين، بل إنها فرنسية حقيقية، لا تحب الظلم والاعتداء على الناس وحريتهم، إنها فرنسية حرة من خلال موقفها مع الجند الفرنسي.

رسم الروائي صورتها بتناقض الصور، فهي في البداية أنانية وتافهة وبعد عودة "بشير" خجولة منه لأنه بطل وليست في مستوى الأبطال وفي النهاية بطلة حقيقية تتحدى الجنود الفرنسيين وتعيرهم بأنهم دخلاء على فرنسا، وبذلك ظهرت حقيقتها من موقفها، إنها فتاة تبحث عن مصلحتها، فإذا ما جد الجد تقف مع الحق، وربما يكون سبب ذلك تعلقها بـ"بشير".

والأسلوب السائد في رسم صورة "كلود" هو المزج بين السرد والحوار السريع، السرد أثناء مناجاة "بشير" لنفسه وبين جمل الحوار، والحوار أثناء تجابه

---

[138] ورد الحديث عنه في الفصل الثالث ضمن نموذج الجندي الفرنسي.

[139] Mouloud Mammeri: L'Opium et le Bâton, pp150-151.

الشخصيات، وبذلك جاءت شخصية "كلود" حية رغم إهمال الروائي لصفاتها الجسمية فهي صهباء الشعر وكفى، ورغم صفاتها المعنوية الباهتة نتيجة الاعتماد على الإشارة إلى تصرفاتها العادية مع "بشير".

9 - الآنسة روش في رواية "الطلاق" لرشيد بوجدرة، ممرضة، يتحدث عنها "رشيد" -بطل الرواية - أثناء سرد ذكريات طفولته، قائلا: (كانت تتمتع بالكسكس الناعم الحراق الذي كانت تحضره أمي لها. ونحن أطفال، وجدنا الأب مع ممرضته (...) كانت تحب أن تناديه "سيدي" وتقبل يده علامة على احترامها العميق له، والحقيقة أنها كانت شغوفة بتاجرها الثري والمعاشر الذي لا يتعب(...) أما نحن، فالمهم أن تعطينا شرابا عذبا.

لقد كنا معجبين بممرضتنا ذات البشرة الطرية الحمراء وغير العنصرية وذات الثديين المنتصبين دائما تحت ملابسها النظيفة...)[140]، إذن فالممرضة كانت تدعي احترام الأب وتأكل الكسكس الذي تحضره الأم وتلاطف الأطفال وتلبي رغباتهم الصبيانية لتكسب ودهم، إلا أنها كانت تفعل كل ذلك من أجل شيء آخر، من أجل هدف خفي، يتلخص ذلك الهدف في تعلقها بالأب التاجر الثري الذي لا يمل من المعاشرة، وتعلقها به يرجع إلى سببين: الأول تلبيته مطالبها المادية والثاني تلبيته مطالبها الجنسية، لقد وجدت فيه مصلحتها فتعلقت به حتى صارت تقبل يده.

تلك هي الآنسة "روش" التي رسم الروائي صورتها من خلال ذكريات "رشيد" عن والده أثناء سرده لأحداث طفولته مشيرا إلى نهمها المثلث: نهم في الأكل، ونهم في الدراهم، ونهم في الجنس الذي أشبعته بواسطة "سي الزبير" - الأب -، ثم إلى صفاتها الجسمية: فهي ذات بشرة طرية حمراء وثديين منتصبين وملابس نظيفة، أما صفاتها المعنوية فبالإضافة إلى نهمها وجشعها، فهي منافقة

---

[140] Rachid Boudjedra: La Répudiation, pp84-85.

وانتهازية، تدعي احترام الوالد وتقبل يده وتناديه سيدي وتلاطف أولاده وتأكل طعام زوجته حتى تحقق مطامعها دون مشاكل وبسهولة تامة، ومعنى ذلك أنها ذكية في تحقيق أهدافها والحصول على مبتغاها.

10 - سيلين في رواية "الطلاق" لرشيد بوجدرة، خليلة "رشيد" -بطل الرواية -، وهو شاب مريض نفسيا بسبب طفولته المعقدة، فهو لم يستطع تجاوز عقده النفسية. ولذلك كانت "سيلين" تحاول دفعه للحديث عن أمه وقد طلقها والده لأنه ملها،كلما اجتاحته الأزمة، مستعملة لطافتها وليونتها وإثارتها الجنسية له كي يستجيب لها ويفرغ ما بنفسه[141]؛ ولم تكن إثارتها له لمجرد دفعه للحديث عن طفولته، بل لتستمتع هي الأخرى، فقد كانت جنسية جدا لا تمل ولا تسأم، وكلما أوجعها زادت رغبتها التي يكون إشباعها مزيجا من الارتواء والمرارة[142].

لقد كانت تعرف كيف تتصرف معه وكيف تثير عواطفه وكيف تبهجه[143]، فقد كانت تتمتع بقدرة على الإثارة بفخذيها الممتلئين وردفيها الضخمين ونهديها المثيرين تحت قمصانها البنفسجية والصفراء والسوداء، وبهيئتها الجسور الحربية التي أثرت في رشيد أول ما أبصرها، ثم بكلامها المثير وشفتها السفلى المبللة بلسانها إلى وسط سحنتها الهادئة[144].

وكم كانت رغبة "رشيد" شديدة في حجبها عن الأنظار الوالهة، ولكنه ما كان ليجرأ على ذلك، فهو لا يستطيع السيطرة عليها ولذلك رضخ لها، رضخ لها لأنها كانت الإنسان الوحيد الذي يهتم به ويزوره في المستشفى، رغم خجله منها، فقد كانت ملابسها قصيرة جدا وذات ألوان صارخة[145]. وكان يدرك

---

[141] Rachid Boudjedra: La Répudiation, p9.

[142] Rachid Boudjedra: La Répudiation, p11.

[143] Rachid Boudjedra: La Répudiation, p12.

[144] Rachid Boudjedra: La Répudiation, pp13-14.

[145] Rachid Boudjedra: La Répudiation, p15.

هدفها الذي تسعى إليه، فهي تهدف إلى إفراغه من الذكريات التي تثيره وتشل قدرتها على السيطرة عليه لتجعل منه فضالة مفرزة ومدخنة، ولذلك بقيت متشبثة به رغم سوء معاملته لها[146]. واستمرت تحثه على الهذيان -وهي لا تؤمن بما يقول ولا تستمع إليه -، ليبقى بعيدا عن العالم وسجين هذيانه[147]، ولم تبذل أي جهد في تنظيف غرفته القذرة جدا حتى يمل غرفته ويقبل الانتقال إلى شقتها الفخمة، ولذلك كانت تنشر الفوضى في الغرفة و تمزق غطاء السرير.

فهي لا تستطيع التخلي عنه وهو العربي الذكي الوحيد، ولم تستطع إقناعه بالانتقال إلى شقتها ولكنها أزعجته ووسعت شقة الخلاف بينهما، فهو لا يريد أن يسكن في بيتها ويكفي أنه لا يستطيع السيطرة عليها[148] بما أنه لم يقبل الانتقال إلى سكنها، ولم تستطع إفراغه من ذكرياته، رضيت بمعاشرته لها، وكانت كلما جلدها تزوره تثيره إلى أقصى حد، فيثير بدوره رغباتها وتروح تتوسل إليه ان يلحس جلدها وبخاصة الأماكن الحساسة حتى تتقلص بعض عضلاتها بالألم وتحس بالألم في أماكن معينة ولا تستطيع شيئا -خوفا من زملائه المجانين - بل تخرج مبتسمة والدموع تملأ عينيها الذليلتين[149].

رسم الروائي صورتها بأسلوب سردي من خلال هذيان "رشيد"، ولذلك جاءت كلماته وصيفه مزيجا من الكلمات البذيئة والصور القذرة، ليبرز تهالكها على الجنس وكأنها "كلبة" ملتصقة "بكلب" إلا أنّ تشبثها "برشيد" ومحاولاتها المستميتة في نقله إلى بيتها، لا تدل على جوعها الجنسي فحسب، وبذلها كل شيء في سبيله، بل تدل ايضا على نزعة في الفرنسية، فهي غالبا ما تجذب إليها

---

(146) Rachid Boudjedra: La Répudiation, pp18-19.

(147) Rachid Boudjedra: La Répudiation, p33.

(148) Rachid Boudjedra: La Répudiation, pp198-199.

(149) Rachid Boudjedra: La Répudiation, pp219-280.

الرجل المغاربي وتسكنه بيتها وتعطيه نقودها لتبقى حرة في تصرفاتها ولتبقى سيدة الموقف متى شاءت.

11 - كلودين في رواية "يحيى لا حظ لك" لنبيل فارس، طالبة جامعية وأستاذة لغة إنجليزية، تعرف عليها "يحي" بطل الرواية و هو طالب بالثانوية العامة، يوم العطلة وتوطدت بينهما علاقة غرام؛ وبعد سنوات تذكرها"يحيى"، تذكر كلودين الفتاة الناعمة على مشارف مرحلة الحب(150)؛ تعرف عليها في يوم شديد البرودة وكانت مغطاة من أعلى رأسها إلى أسفل قدميها، وبعدما عبثا ولعبا في الثلج دعاها لتناول مشروب حار(151). وردت الدعوة بدعوته إلى غرفتها لتناول الغذاء وبعد ذلك جلسا على السرير وراحا يتلاطفان وكان ختام الرحلة على السرير تحت الملاحف حيث راحت يد "كلودين" تعبث بشيء لم تكن تعرفه، مثلما راحت يد "يحيى" تعبث بأشياء لم يكن يعرفها(152) وبذلك نشأت بينهما علاقة عاطفية جنسية حبية.

رسم الروائي صورة "كلودين" الطالبة والمدرسة بأسلوب سردي تقريري، مهملا صفاتها الجسمية والمعنوية أيضا، فهي تريد معرفة الجنس الآخر، وقد أتيحت لها الفرصة ففعلت، ولذلك جاءت صورتها باهتة لا تتميز بأية علامة أو ميزة.

12 - الآنسة غرانجتو من رواية "يحيى لا حظ لك" لنبيل فارس، عاملة ببريد القرية، أعجب بها "يحي" صبي مراهق وكان شديد التأمل لها، يجلس على الرصيف قرب بيتها ويتأملها في غدوها ورواحها حتى انتبهت إليه، وفي أمسية كانت عائدة من السوق ولاحظت تأمل "يحيى" لها، فكلمته عارضة عليه أن يشرب كأس حليب عندها، فاستجاب لها وقد تملكه الارتباك والخوف، ودخل بيتها

(150) Nabil Farès: Yahia pas de chance, pp89-90.
(151) Nabil Farès: Yahia pas de chance, pp109-110.
(152) Nabil Farès: Yabia pas de chance, pp120-122.

وشرب الحليب ثم فرجته على كل ما اراد رؤيته وكم كانت دهشته كبيرة، فلم يكن يتصور أن ذلك ناعما كل تلك النعومة ! ولم يشعر إلا وهو يقول لها انها اجمل فتاة في القرية، فراحت تداعب خده، ثم قبلته على شفتيه كما لم يقبله أحد[153]؛ آنسة وحيدة في قرية لاحظت اهتمام مراهق بها، فشفت غليله، وشفت غليلها.

رسم الروائي صورتها بأسلوب سردي تقريري ساذج، مهملا صفاتها الجسمية والمعنوية ولذلك جاءت صورتها باهتة نكرة.

13 - مارط في رواية "الرب في بلاد البربر" لمحمد ديب، زوجة "حكيم مجار" شاب جزائري مثقف يقود دعوة لتعمير الوطن بعد الاستقلال اعتمادا على الفلاحين والفقراء المطالبين بنصيب الله من الأغنياء وذلك تحت شعار: "طلاب الرب" دخلت إلى المنزل من الشارع فرحة نشيطة وارتمت على زوجها لاهثة وكأنها ستختنق مثلما حدث لها أول مرة دخلت فيها الحمام التركي[154]؛ وأثناء تناولهما الغذاء أخبرته أنها التقت بالسيد "أيمار"[155]، وأنه قرر البقاء في الجزائر، وأنه سمع بحركة "طلاب الرب" ويريد أن يتناقش مع حكيم حول تلك القضية، ولما لاحظت جمود حكيم، بررت الموقف قائلة أن السيد "أيمار" لا يمثل الفرنسي المتدخل فيما لا يعنيه، بل إنه رجل مؤمن وطيب، ثم أحضرت لـ"حكيم" القهوة، وراحت تلاطفه وتداعبه دون أن تنبس بكلمة[156] وبعد خروجه، ارتمت على السرير وراحت تفكر في ذلك الإحساس الغامض الذي كان ينتابها من حين لآخر، إحساس بأن العالم يتسع من حولها رغم أنها تعيش وزوجها بين معارف كثيرين

---

(153) Nabil Farès: Yahia pas de chance, pp94-97.

(154) Mohamed Dib: dieu en Barbarie, pp73-75.

(155) سبق الحديث عنه في الفصل الثالث ضمن نموذج المثقف الفرنسي.

(156) Mohamed Dib: dieu en Barbarie, pp75-77.

لا تحس بمعايشتهم لها حتى في مسقط رأسها "مودون" بفرنسا، مسقط رأسها الذي بقيت تحن إليه من وقت لآخر، وبرز حنينها جليا في حلمها المتكرر.

فقد حلمت عدة مرات، بأنها عادت إلى مسقط رأسها والتقت بمعارفها وبخاصة صديقتها "دونيز" وباحت لها بكل شيء وفي تلك اللحظة تحس بالرغبة في عدم الرجوع إلى الجزائر فثمة عقبات عديدة تمنعها من العودة ليس لديها نقود، والمحطة التي ستسافر منها اختفت، إنها محجوزة دون رضاها. وينتهي الحلم بالصراع وفقدان الأمل والنحيب أحيانا، ولا يخلصها من حلمها ذاك إلا نور الفجر الجزائري، وتقفز إلى ذاكرتها الآيات القرآنية التي حفظتها من حكيم: "قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد"، وعند ذلك تنام ثانية مطمئنة النفس والبال[157].

صارت "مارط" تقبل ما يقدم لها من أزهار وورود من الناس، وبخاصة العجائز اللائي كن معجبات بها لأنها امرأة طيبة[158] ومن الناس الذين كانوا يحبونها لأنها طيبة الفتى "لعبان" الذي كان زوجها يحدب عليه ويعطف عليه لأنه مريض عقليا. زار زوجها يوما -وكان خارج البيت - وبقي يتحدث معها، فخافت منه لأنه صرح لها بأنها طاهرة واستمر في مديحها حتى اعتبرها قديسة جاءت لتخلصهم وركع أمامها، وبذلك أثار في نفسها شعورا بالرهبة واحتضنت رأسه بين يديها فقد عرفت حالات كثيرة لمرضى عديدين، وأدركت سبب عطف زوجها عليه ورعايته له، فهو مريض يحتاج كل رعاية وعطف[159]. "مارط" زوجة "حكيم مجار" فرنسية مؤمنة بالله وبدعوة زوجها إلى بناء مجتمع جزائري حسب

---

[157] Mohamed Dib: dieu en Barbarie, pp77-79.

[158] Mohamed Dib: dieu en Barbarie, p80.

[159] Mohamed Dib: dieu en Barbarie, pp81-84.

صريعة الله، تشبعت بالروح الدينية، فاعجب بها العديد من المساكين والمسكينات الذين يبحثون عن الإنسان الطيب.

رسم الروائي صورتها بأسلوب سردي أساسه لغة متينة مبرزا طاعتها لزوجها وحبها له وهدوءها ولطافتها معه ومع كل الناس ومكافحتها للأسباب التي تجذبها إلى ماضيها، ليعرض صورة فرنسية اقتنعت بزوجها الجزائري الفقير، فرضيت بالعيش معه ومقاسمته الحلو والمر كما يقال.

وخلاصة القول، أن الفرنسية المتعلقة بمغاربي -زوجة أو عشيقة أو حبيبة أو خليلة - تمتاز عموما بالجمال، ودقة الملامح، وصفاء البشرة، والشعر الأصهب، والعينين الزرقاوين، والفم الأحمر، والثديين المنتصبين، والوركين الضخمين، والفخذين الممتلئين؛ ولا غرابة في ذلك فالفرنسية سافرة -عكس المغاربية التي لا يظهر منها شيء -، وكل ما فيها يختلف عن المغاربية، فشعرها أصهب وشعر المغاربية أسود أو شبيه، وملامحها دقيقة بينما ملامح المغاربية غير دقيقة، نتيجة الفقر والوسخ والتشويهات وقلة الاهتمام. والبشرة بيضاء أو حمراء صافية بينما بشرة المغاربية سمراء أو شاحبة بسبب سوء التغذية وقلة الرعاية والأعمال المتعبة وكثرة الإنجاب، وغير ذلك من الأسباب المعروفة. والعينان زرقاوان بينما عينا المغاربية سودوان أو عسليتان أو بنيتان، والفم أحمر بسبب أحمر الشفاه، ولم تكن المغاربية تعرف آنذاك سوى السواك، والثديان منتصبان بالمشد وثديا المغاربية يتدليان كقربتين فارغتين، فالمشد ما كان معروفا لديها آنذاك. أما الوركان الضخمان والفخذان الممتلئان، فلم يكونا أضخم ولا أكثر امتلاء من وركي المغاربية وفخذيها ولكن لباسها الفضفاض هو الذي أخفى كل شيء.

كما تميزت الفرنسية عموما بقوة الشخصية والحيوية والجدية والقدرة على الإثارة وحب التسلط والجوع الجنسي الفظيع وجريها وراء الرجل.

إنها قوية الشخصية لأنها مثقفة، وعادة ما تكون متحررة تستطيع أن تناقش وتفرض نفسها، بينما المغاربية محجوبة لا حق لها حتى في الكلام فكيف تظهر قوة شخصيتها او ضعفها.

والفرنسية تمتاز بالحيوية لأنها حرة وهي جادة لأنها تتمتع بالقدرة على التصرف وقادرة على الإثارة لأنها سافرة ولباسها يكشف عن المفاتن ومن السهل الاختلاط بها، بينما المغاربية لا تملك شيئا من ذلك؛ أما حب التسلط فهي مسألة نسبية لأن المغاربية لا تستطيع فرض شيء، لذلك ظهرت الفرنسية متسلطة أمامها.

أما شبقها أو جوعها الجنسي، فهو غرور من المغاربي ورد اعتبار، لقد تسلط عليه الفرنسي ولم يجد منفذا يثأر منه إلا معاشرة الفرنسية، وجريها وراءه لأن الفرنسي عاجز جنسيا، ولذلك فكل الفرنسيات اللائي تعلقن بالمغاربة هن البادئات وهن الساعيات.

والأسلوب السائد في رسم صورة الفرنسية المتعلقة بمغاربي هو السرد التقريري الوصفي في "الأرض والدم" و"سبات العادل" و"التيوس"، ثم السرد الشاعري ذو الروح الإيحائية في "سأهبك غزالة" و"التلميذ والدرس" و"رصيف الأزهار لا يجيب"، ثم السرد التقريري في "أبناء العالم الجديد"، والسرد التقريري مع الحوار السريع في "الأفيون والعصا"، والسرد التقريري الفوري اللغة في "الطلاق" و"الرب في بلاد البربر"، وختاما السرد الساذج في "يحي لا حظ له"؛ وبذلك كان السرد هو الأسلوب الأغلب عند الروائيين في رسم صور الفرنسية المتعلقة بالمغاربي مع اختلافات بين كل روائي وآخر في فنياته اثناء السرد.

وقد وردت صورة الفرنسية المتعلقة بالمغاربي في أحد عشرة رواية.

جدول مكونات شخصية زوجة المغاربي أو حبيبته

الرواية وكاتبها والشخصيات الواردة فيها	الصفات الجسمية	الصفات المعنوية	الـــدور
"الأرض والدم" مولود فرعون 1 - ماري	جميلة – دقيقة الملامح متناسقة صافية البشرة وجه زاه – يدان دقيقتان – هيفاء –شعر اشقر عنق ممتلئ – عينان زرقاوان شفتان حمروان – جبهة كاملة أنف قصير– حاجبان مقوسان	محبة للطبيعة – بسيطة متواضعة – خالية من الخبث قنوعة – هادئة محترمة– ساذجة زوجة صالحة	تزوج بها عامر وقبلت العيش معه في قريته النائية واستطاعت التكيف هناك حتى آخر عمرها
"سبات العادل" مولود معمري 1 - جيرمان	عينان واسعتان زرقاوان شعر اشقر	شخصية قوية لا تهتم بالسياسة والدين والجنسيات – محبة	احبت ارزقي حبا نقيا وبقيت وفية حتى بعد سفره
"التيـوس" إدريس الشرايبي 1 -سيمون	شابة – جميلة – شعر اشقر	خليلة– ضعيفة الشخصية جبانة– عنصرية	احبت "والديك" وأنجبت منه ثم غرر بها ناشر فرنسي فخانت خليلها وثارت عليه
2 - إيزابيل	طويلة– ضعيفة – صغيرة عينان غائرتان	شخصية قوية مستقيمة غير حقودة لا تحب الظلم والركون – محبة	ساعدت والديك فأحبها وقبلت العيش معه في البؤس
"سأهبك غزالة" لمالك حداد 1 - جيزال دوروك	جبهة كبيرة شاحبة اللون تبدو جميلة	كثيرة التدخين – حيوية تكره الركود – جادة عاشقة	مسؤولة بدار نشر اعجبت بأسلوب المؤلف ثم عشقته

"التلميذ الدرس" مالك حداد 1 - جيرمان	لا شيء	عاقلة- عاطفية متزنة- عاشقة	عشقت "صلاح" واستدعته عند أسرتها ولما تعلق بها اخبرته بخطبتها
"رصيف الأزهار لا يجيب" مالك حداد 1 - مونيك	صدر ثائر - وركان ممتلئان فخذان مثيران - فم متعطش جميلة	جنسية نرجسية - مثيرة وقحة- شخصية قوية جريئة- عاشقة	لاحظت ان "خالد" يهدد أمنها الأسري بتذكير زوجها بما مضى فأعلنت عليه التحدي ثم عشقته حتى فر منها
"أبناء العالم الجديد" آسيا جبار 1 - سوزان	لا شيء	مثقفة- شخصية قوية صلبة الأعصاب - جدية مناضلة مع الثورة متمسكة بمبادئها مثالية، زوجة	رفضت الهروب إلى فرنسا مع زوجها "عمر" لتبقى في ميدان النضال
"الأفيون والعصا" مولود معمري 1 - كلود	صهباء الشعر	بسيطة التفكير - سوقية لا تحب الظلم أنانية -خليلة	تريد الالتصاق "ببشير" بشتى الطرق ولكنها وقفت موقفا شريفا أمام الجند يوم قبض على بشير
"الطلاق" رشيد بوجدرة 1 - الآنسة روش	بشرة طرية حمراء ثديان منتصبان	أكولة، جنسية- غير عنصرية ذكية في الحصول على بغيتها خليلة مرتزقة	ممرضة تدعي احترام الوالد ولكنها تنهب فلوسه وتشبعه رغباتها كما يشبع هو
2 - سيلين	فخذان ممتلئان - ردفان ضخمان نهدان مثيران - هيئة جسورة شفة حمراء مبللة - سحنة هادئة ملابسها قصيرة ومثيرة	مثيرة- لطيفة جنسية جدا لحد التألم - خليلة	وجدت متعتها الجنسية مع رشيد فتشبثت به رغم جنونه محاولة جذبه إلى بيتها

"يحيى لا حظ لك" نبيل فارس 1 - كلودين	فتاة ناعمة	لا خبرة لها جنسيا باحثة عن المعرفة والمتعة الجنسية	تعرف عليها "يحي" وفي غرفتها عرفت معه الجنس
2 - الآنسة فرانجتو	جميلة	وحيدة تريد إرواء غليلها	عاملة بالبريد - اعطت لمراهق ما اراد واخذت منه ما ارادت
"الرب في بلاد البربر" محمد ديب 1 - مارط	لا شيء	مؤمنة بالله وبزوجها ومبادئه، زوجة هادئة	تبعت زوجها لتعيش معه في السراء والضراء

صور الروائيون المغاربة الفرنسية في رواياتهم، وتضمنت الرواية المغاربية خمسا وعشرين صورة لفرنسيات، ويمكن تقسيم الصّور إلى خمسة نماذج هي: الزوجة، الفتاة، التاجرة أو صاحبة المحل، المعلمة أو المدرسة، زوجة المغاربي أو حبيبته أو عشيقته؛ وهذه النماذج الخمسة هي المرأة الفرنسية التي أثرت في الروائي المغاربي ورسم صورتها في رواياته.

والملاحظ، أن صفات الفرنسية الجسمية التي يركز عليها الروائي المغاربي هي: الجمال، والنظافة، والعينين الزرقاوين، والصدر المثير، والقامة الطويلة، والأناقة، والشعر الأشقر، والأجفان الطويلة، والأظافر المطلية، والردفين الممتلئين المثيرين؛ ولا شك أن المتمعن في الفرق بين نسبة هذه الصفات ونقيضها سيلاحظ تركيز الروائي المغاربي الشديد عليها واهتمامه بها، وذلك دليل على إعجابه الشديد بالفرنسية من الناحية الجسمية لأنه رأى فيها ما لا يراه في المغاربية، نتيجة الفارق المادي الكبير بين المرأتين واستغلال الفرنسية كل الإمكانيات المادية للحفاظ على جمالها أو تنميته، ثم الفارق الاجتماعي أو الحضاري ويتمثل في حرية الفرنسية وتحررها واستغلال ذلك في جذب الذكر إليها، بينما لا تتمتع المغاربية بأدنى شيء من ذلك.

لقد تعددت صفات الفرنسية المعنوية في الرواية المغاربية، إلا أننا نلاحظ تركيزا شديدا على بعض الصفات المستحسنة من قبل المغاربي وأخرى مستهجنة.

الصفات المعنوية التي أعجب بها المغاربي هي: العاطفة، وشدة الإحساس، ثم قوة الشخصية، ثم الرقة، ثم الروح الإنسانية، ثم الطيبة، ثم إتقان العمل، ثم الهدوء واللباقة، وحسن الاستقبال، والصبر، والحب، والحيوية.

أما الصفات التي استهجنها المغاربي أو عابها على الفرنسية فهي: الرغبة الجنسية الجامحة، والخيانة للزوج أو الحبيب، والنزعة العنصرية ضد العرب، وحب الادعاء والتباهي، ثم الغطرسة والاستغلال، وإدمان الشرب.

عندما نتمعن في الصنف الأول من الصفات المعنوية، نلاحظ أن المغاربي أعجب بالصفات التي أساسها التعلم والتثقف والتحرر أي أنه يفضل المرأة المتعلمة المثقفة المتحررة، وإلا فمن أين ستتعلم رقة الإحساس وقوة الشخصية وحب الإنسانية وإتقان العمل واللباقة والظرف، قد لا تكون الثقافة العنصر الأساسي في اكتساب هذه الصفات إلا أنها عنصر أساسي.

وعندما نتمعن في الصنف الثاني من الصفات -أي المستهجنة -، فسنلاحظ أن المغاربي يرفض أو يستقبح أمورًا تمس كرامة الرجل العربي المسلم، فهو لا يقبل الجموح الجنسي والخيانة، ولا شرب الخمر إلا معه فقط، ولا يقبل العنصرية ضد العرب أو التباهي أو الغطرسة أو الاستغلال لأن تلك الأعمال تمس شخصيته الفردية بالذات.

وإذا ما جمعنا سبب قبول الصفات الأولى ورفض الثانية لأدركنا بسرعة أن ذلك القبول وذلك الرفض سببهما الميراث الحضاري للرجل العربي بما فيه من عادات وتقاليد وأحكام دينية مشوهة.

وكما تعددت آراء المغاربة في صفات الفرنسية -الجسمية والمعنوية -، تعددت في الدور الذي تقوم به اتجاه المغاربي، فهي مثار شفقته بما تعانيه من تعب وظلم اجتماعي، وهي مثال المرأة الكاملة؛ وهي حبيبة المغاربي الصادقة وهي

المناضلة الصادقة مع المغاربة، وهي الجانية على المغاربي بعدما كان يظنها جنته المفقودة، وهي الفاسقة التي لا هم لها إلا إرواء رغباتها الجنسية،وهي الممقوتة من طرف المغاربي نتيجة معاملتها السيئة له أو استغلالها وهي المساعدة له.

واضح أن آراء المغاربة في دور الفرنسية متعددة، فالبعض يشفق على حالتها، والبعض معجب بها الإعجاب كله، والبعض يحذر منها، والبعض يتقزز من تصرفاتها.

لقد تأثر الروائيون المغاربة بالفرنسية وبخاصة الزوجة أو العاشقة أو الحبيبة، ثم صاحبة المحل أو التاجرة، ثم زوجة الفرنسي، ثم الفتاة، وأخيرا المعلمة أو المدرسة[160]. وهذا الترتيب لنماذج الفرنسية حسب كثرة وجودها في الرواية المغاربية له بعض المبررات، فالزوجة أو العشيقة أو الحبيبة تجربة جديدة ومثيرة عاشها المغاربي مع المرأة التي تختلف في كل شيء عن المرأة المألوفة لديه، إضافة إلى كون الزوجة أو الحبيبة مصدر إلهام للأديب، ولذلك فهي دائمة الالتصاق بذاكرته وعاطفته.

كما أن اهتمام المغاربي بالفرنسية التي تعلقت به يعتبر سبة للفرنسي المتسلط ورد اعتبار وثأر للكرامة والشرف، وفخر وشرف، فهو أحسن من الفرنسي والدليل على ذلك تعلق الفرنسية وهيامها به وتفضيلها إياه على الفرنسي، لدرجة أن الفرنسيات اللائي تعلقن بالمغاربة كن البادئات والساعيات والعاشقات والباذلات الجسد والمال والمأوى، هروبا من ركود الفرنسي وهدوئه وبروده إلى فتوة المغاربي وشاعريته وأطواره الغريبة.

وصاحبة المحل -صاحبة فندق أو خمارة أو ماخور - هي ملجأ المغاربي الضائع، يلجأ إلى فندقها الرخيص إذا سافر أو اغترب، وإلى خمارتها الصغيرة الزهيدة الأسعار إذا زادت عليه الهموم وأراد النسيان والتنفيس عن النفس، وإلى

---

[160] الفصل الرابع، ص377 -379.

ماخورها إذا هاج وهو العامل المغترب أو البئيس الذي لم يستطع الزواج لسبب من الأسباب أو الشقي الذي تعود الأجواء العفنة، وصارت متعته الكبرى تنفس العطن.

ولاحظ المغاربي زوجة الفرنسي من بعيد لأنها نموذج يختلف تمام الاختلاف عن أمه أو زوجته، فأثارت انتباهه بتصرفاتها المتحررة مع زوجها، وبهندامها الأنيق وجمالها رغم كبر سنها.

أما الفتاة فالاهتمام بها قليل، لأن المغاربي يراها في الشارع تمشي وكفى ولكن ضآلة نسبة ورود المعلمة أو المدرسة[161] هي التي تستحق علامة استفهام كبيرة، لماذا لم ترد صورة المعلمة أو المدرسة الفرنسية كثيرا في الرواية المغاربية وكل الروائيين تقريبا درسوا عند معلمات أو مدرسات أو أستاذات؟!

سؤال لا جواب له، إلا إذا كان الروائيون المغاربة معقدين من دراستهم عند نساء، وذلك أمر مستبعد ولا تسانده سوى نرجسيتهم الشديدة أثناء حديثهم عن الفرنسية المتعلقة بالمغاربي. فمن الممكن أن يكون تأكيدهم الشديد على ولع الفرنسيات بهم نرجسية أو انتقاما من المعلمات الفرنسيات اللائي علمنهم وضربنهم وشتمنهم وعيرنهم بالتخلف والتوحش... إلخ.

ودراسة نفسية لتلك القضية يقوم بها دارس هي أفضل وسيلة وأضمنها للإجابة عل ذلك السؤال.

يلاحظ أن نماذج المرأة الفرنسية تؤثر في أحداث الرواية المغاربية وبنائها عدا نموذج زوجة المغاربي أو عشيقته أو حبيبته الذي كان له بالغ الأثر في أحداث الرواية وبنائها. وبقية النماذج –زوجة الفرنسي، صاحبة المحل، الفتاة المعلمة - ثانوية جدا ولا تمثل من مساحة الأحداث غير جزء ضئيل جدا، وعادة ما يرد ذكرها ضمن ذكر شخصية أخرى أكثر أهمية أو إلى جانبها.

---

[161] الفصل الرابع، ص383.

أما الزوجة أو الحبيبة أو العشيقة فهي عكس ذلك، إنها إما تقتسم البطولة مع المغاربي -سلبا أو إيجابا -، وإما تقوم بدور هام بالنسبة لبطل الرواية "فماري" شاركت "عامر" في أغلب الأحداث، و"جيرمان" شاركت "ارزقي" في الأحداث التي عاشها في فرنسا ضمن أهم فترة من فترات حياته، و"سيمون" قامت بنصف بطولة أحداث الرواية، وكل ما وقع للبطل كان بسببها، و"إيزابيل" كانت مكمّلة لدور "سيمون" الذي لم تستطع القيام به، أما "جيزال دوروك" فقد كانت السبب المباشر في عدم نشر الرواية التي تعتبر لب الموضوع أي كانت السبب في تيه البطل.

و"جيرمان" تحتل جزءا كبيرا من ذكريات البطل، أما "مونيك" فقد كانت اللعنة التي حلت "بخالد" وفصمت نهائيا عرى صداقته بزوجها.

كما كانت "سوزان" بديلا لـ"عامر"، وعملت ما ينبغي أن يعمله هو كما كانت "كلود" الفترة السلبية في حياة "بشير" النضالية، أما "روش" و"سوزان" فهما الوجه الآخر للمرأة التي تعقد بسببها "رشيد" أي كانتا الاثنتين اللتين تُذَكِّرانه بأمه المطلقة والمخدوعة قبل الطلاق، أما "كلودين" و"غرانجتو" فهما الذكرى العادية البسيطة، ولذلك كانت صورتاهما باهتتين، وتبقى "مارط" التي تعتبر تكملة لزوجها المناضل المؤمن بالله ورفيقته في قيادة حركة "طلاب الله".

وهكذا، نلاحظ أن زوجة المغاربي أو حبيبته أو عشيقته كانت من أهم شخصيات الرواية المغاربية، ونتيجة لأهميتها بين شخصيات الرواية جاء دورها هاما في بناء الرواية، فهي تقوم بأدوار أساسية في تطور الأحداث فإما أن تكون سندا للبطل مثل "ماري" و"إيزابيل" و"سوزان" و"مارط"، وإما أن تكون عثرة مثل "جيرمان" و"كلودين" و"غرانجتو".

عندما نتمعن في تطور شخصية زوجة المغاربي أو حبيبته أو عشيقته[162]، لا نجد تسلسلا منطقيا في نمو العلاقة بينها وبين البطل المغاربي، أي لا نجد خطًا أو خطوطا تتدرج فيها علاقة الفرنسية بالمغاربي، بل نلاحظ تذبذبا أو تنوعا، فالأولى زوجة مطيعة استطاعت التكيف مع المجتمع الريفي الفقير، والثانية محبة ومخلصة، والثالثة خليلة خائنة من أجل المظاهر المادية، والرابعة محبة صاحبة مبادئ تعيش حسب مبادئها، والخامسة مرهفة تبحث عن الغرابة، وتحب المغاربي لأنه يختلف عن زوجها الفرنسي، والسادسة عاشقة مولهة رغم علمها باستحالة الزواج مع عشيقها، والسابعة جسورة عنيدة تحب التحدي والمغامرة، فتحب "خالد" صديق زوجها غير مكترثة بشيء، والثامنة زوجة مناضلة فضلت النضال على مصاحبة زوجها الجزائري إلى فرنسا، والتاسعة لا هم لها إلا الالتصاق بالبطل والزواج...

وهكذا، نلاحظ تعددا في نوعية العلاقة التي تربط الفرنسية بالمغاربي، ولا نجد نمطا واحدا يحدد نوعية العلاقة في كل الروايات أو جلها أو حتى نمطين، بل نلاحظ أن لكل علاقة نوعها الخاص وأسبابها ومبرراتها. ولا شك أن ذلك يدل على إحساس كل روائي بالعلاقة التي صورها بعيدا عن النمطية، وذلك يعني صدقا واقعيا وفنيا إلى حد ما من قبل الروائيين، إذ لا نجد صورة تتكرر في رواية أخرى عدا بعض الملامح العامة التي يشترك فيها الروائيون نتيجة اشتراكهم في الزمان والمكان والظروف، وتشابه نمط معيشتهم عموما.

نستطيع القول أن الفرنسية -زوجة المغاربي أو عشيقته أو حبيبته - أثرت كثيرا في الروائيين المغاربة، وظهر تأثرهم بها جليا في أحداث الروايات وبنائها، ورسموا لها صورا متعددة ومتنوعة فيها جوانب مستحسنة وأخرى مستهجنة، وطبيعي أن يحدث ذلك فمن الصعب أن يتقبل إنسان كل شيء في

---

[162] الفصل الرابع، ص377 -379.

إنسان أجنبي عنه، ومن الصعب أيضا أن يرفض كل شيء أيضا، لقد أعطى الروائيون المغاربة للفرنسية حقها، فذكروا مالها وما عليها بأساليب فنية متعددة فرضتها عليهم تجاربهم وثقافتهم.

الفصل الخامس

صورة الفرنسي والفرنسية بين الرواية العربية والفرنسية المغاربية (مقارنة)

في هذا الفصل، نحاول استخلاص الصورة العامة للفرنسي في الرواية المغاربية بمقارنة النماذج الفرنسية في الرواية المغاربية العربية، بمثيلاتها في الرواية المغاربية الفرنسية، مع الحرص في عملية المقارنة، على إبراز أوجه التشابه والاختلاف بين كل نموذجين جسميا ومعنويا وفعليا، لملاحظة مدى تأثر كل فئة من الروائيين بالفرنسي وتعليل ذلك، وذلك بالاعتماد على الصورة الواردة في الفصول السابقة؛ ثم تبيان الأسلوب السائد في رسم كل نموذج وأثر النموذج في أحداث الرواية وبنائها، وبذلك سنستخلص صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية، وللوصول إلى ذلك سنتبع الخطوات الآتية:

1- مقارنة نماذج الرجال في الرواية المغاربية العربية بمثيلاتها في الرواية المغاربية الفرنسية، ورسم صورة للفرنسي في الرواية المغاربية بصفة عامة.

2- مقارنة نماذج النساء في الرواية المغاربية العربية بمثيلاتها في الرواية المغاربية الفرنسية، ورسم صورة الفرنسية في الرواية المغاربية بصفة عامة.

3- الصورة العامة للفرنسي رجلا كان أم امرأة في الرواية المغاربية...؛ وللتقليل من التقسيمات المشوشة للذهن، جمعت نماذج الفرنسي ضمن نماذج عامة تحت قسم واحد، ونماذج الفرنسية تحت قسم ثان، وبذلك جاء تقسيم النماذج كالتالي:

أولا: الفرنسي بين الرواية العربية المغاربية والفرنسية المغاربية

1- نموذج السلطة الرسمية (ويضم الحاكم والقاضي والجندي ورجل الأمن).

2- نموذج السلطة الاقتصادية (ويضم المعمر ورب العمل).

3- نموذج السلطة الثقافية (ويضم رجل التعليم والطالب والمثقف ورجل الدين والفرنسيين عموما).

ثانيا: الفرنسية بين الرواية العربية المغاربية والفرنسية المغاربية:

1- نموذج فرنسية الفرنسي (ويضم زوجة الفرنسي والفتاة والتاجرة أو صاحبة المحل والمعلمة أو المدرسة).

2- فرنسية المغاربي (ويضم زوجته الفرنسية أو حبيبته أو عشيقته أو خليلته)

ثالثا: النموذج العام للفرنسي

أولا- صورة الفرنسي بين الرواية العربية المغاربية والفرنسية المغاربية

لم تهتم الرواية العربية المغاربية كثيرا بشخصية الحاكم الفرنسي، ولم تحفل كثيرا بصفاته الجسمية[1]، فهو أحمر الوجه أزرق العينين منتفخ الأوداج، ضخم الجثة، كرشه مدورة، ويلبس بذلة عسكرية، له شعر أشيب وشارب مفتول وعاجز جنسيا؛ أما صفاته المعنوية فقد ركزت الرواية على عنفه وظلمه ونزعته الاستعمارية وحقده وتجبره وتعصبه وأخيرا التعقد والغرور والشذوذ الجنسي[2].

ولا تتفق نماذج الحاكم إلا في الدور الذي تقوم به مع المغاربي، فالحاكم الفرنسي قوة -اعتمادا على السلطة التي يتمتع بها -، محطمة لنشاط المغاربي بكل الوسائل والأساليب. أما الرواية المغاربية الفرنسية، فهي أقل اهتماما بشخصية الحاكم الفرنسي من الرواية العربية المغاربية، ولم تورد أية صفة جسمية له[3]؛ أما صفاته المعنوية؛ فهو بعيد النظر، ذكي، خبيث، لبق، متحضر، منافق، عصبي، قاس[4]؛ أما تصرّفاته مع المغاربي فهو محطم، أو ضاغط، أو معرقل، اي عقبة أمام المغاربي[5].

وبمقارنة صفات الفرنسي في الرواية العربية المغاربية بمثيلاتها في الرواية المغاربية الفرنسية، نلاحظ أن الاهتمام بشخصية الحاكم ضعيف في الجهتين، ويعود السبب في ذلك إلى تركيز الرواية المغاربية (عموما) على النضال، فالمناضل لا يصطدم مباشرة مع الحاكم، بل يصطدم مع الجنود أو الشرطة، أما الحاكم فأعماله تكاد تكون خافية عن عامة الناس. ولذلك، لم تورد الرواية المغاربية

---

[1] الفصل الثاني، شخصية الحاكم.

[2] الفصل الثاني، شخصية الحاكم.

[3] الفصل الثالث، شخصية الحاكم.

[4] الفصل الثالث، شخصية الحاكم.

[5] الفصل الثالث، شخصية الحاكم.

الحاكم الفرنسي خصما بارزا للمغاربي، فهو لا يظهر إلا في ختام الصراع أو بدايته للتنبيه والتحذير. وزيادة عما سبق، فالحاكم يكاد يكون غير معروف لعامة المغاربة، لأنه يتعامل معهم بواسطة "القيّاد والخوجات"... إلخ.

وهذا يفسر لنا اهتمام "عبد الكريم غلاب" بشخصية الحاكم في روايته "دفنا الماضي" و"المعلم علي"، ووصفه جسميا ومعنويا عكس بقية الروائيين الذين صوروا الحاكم. حيث كان "عبد الكريم غلاب" صحفيا وشخصية بارزة في حزب الاستقلال المغربي، يرى رجال السلطة الاستعمارية ويحتك بهم في ظروف مختلفة، وعندما كتب روايتيه رسم في كلتيهما صورة واحدة للحاكم[6] رغم أنه لم يركز إلا على الصفات الجسمية الظاهرة للعيان. أما الصفات الجسمية الخاصة والدوافع النفسية فلم يذكر منها شيئا، لأنه لم يحتك احتكاكا مباشرا وقريبا بشخصية الحاكم، بل وصفه من بعيد واشترك مع غيره في الصفات المعنوية والأفعال، لأنها السبب المباشر في تأثر الروائي المغاربي بشخصية الحاكم.

وتأثر الروائي المغاربي بأفعال الحاكم ضده، جعله يركز على صفاته المعنوية، وافعاله، فركز الروائيون عموما على ظلم الحاكم الفرنسي وعنفه وعصبيته؛ وانفردت الرواية العربية بالتركيز على حقده ونزعته الاستعمارية وتعقده وغروره وشذوذه الجنسي؛ بينما انفردت الرواية المغاربية الفرنسية بالتركيز على نفاقه وذكائه وخبثه وبعد نظره وتحضره ولباقته.

وجلي أن الصفات التي أوردتها الرواية المغاربية الفرنسية اقرب إلى الصدق الواقعي والفني، إذ من المعقول جدا تصور حاكم بعيد النظر، ذكي، خبيث، منافق، لبق، لأن هذه الصفات هامة جدا حتى ينجح الحاكم في مهمته. أما الحاكم الذي يكون حقودا استعماريا، معقدا، مغرورا، شاذًا جنسيا، فمن الصعب

---

[6] الفصل الثاني، شخصية الحاكم.

تصوره، لأن صفاته المذكورة لا تساعده البتة على القيام بمهمته الدقيقة، رغم أن إلصاق هذه الصفات به يرضي عاطفة عدوه ويبرر ثورته عليه.

تبقى أفعال الحاكم التي ركزت الرواية المغاربية على كونها تحطيما وعرقلة للمغاربي فلا غرابة في ذلك، إذ الحاكم مسؤول عن بقاء الاستعمار ويعمل على إبقائه، والمغاربي يريد التخلص منه، وبذلك يكون الحاكم عقبة في وجه المغاربي، وذلك هو دوره الطبيعي الذي جاء طبيعيا ومقنعا في الرواية المغاربية الفرنسية، لأن الصفات المعنوية التي وصف بها الحاكم كونت خلفية واقعية ترتكز عليها الشخصية، فالحاكم البعيد النظر الذكي الخبيث المنافق... إلخ، يستطيع عرقلة المغاربي وتحطيمه بأساليبه المختلفة.

وجاء ذكر الحاكم باهتا شيئا ما، في الرواية العربية المغاربية، ولعل هذا الاختلاف في دقة رسم الحاكم يرجع إلى سببين: الأول وهو احتكاك الروائيين الذين يكتبون بالفرنسية كثيرا بالفرنسيين، والثاني وهو اطلاعهم على الروايات الفرنسية والعالمية المترجمة إلى الفرنسية، بينما كان حظ الذين يكتبون بالعربية من السببين المذكورين قليل.

ويظهر الفارق بين الفئتين في دقة رسم شخصية الحاكم كذلك، في أثر نموذج الحاكم في أحداث الرواية، حيث نلاحظ أن نموذج الحاكم في الرواية العربية المغاربية أضعف من الرواية المغاربية الفرنسية، فلا يظهر الحاكم في روايتي "دفنا الماضي" و"المعلم علي"، إلا في ختام الأحداث ليوقع عقابا بأبطال الروايتين، فهو لا يؤثر كثيرا في الأبطال ولا في سير الأحداث، بل يزيدهم غضبا وثورة وتحدّيا[7]، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الحاكم في رواية "بامو"، فهو يحاول الاعتداء على البطلة، ولكنه لا يستطيع معها شيئا، ولا يحصل إلا على الخيبة

---

(7) الفصل الثاني، شخصية الحاكم.

وسوء السمعة وغضب السلطة[8]. أما في رواية "الحريق"، فيتمكّن الحاكم - بواسطة الشرطة والجنود - إخماد إضراب الفلاحين ويشتتهم ويزرع الشكوك بينهم، فيكون السبب في استمرار عذابهم وكفاحهم[9]. وفي رواية "سبات العادل"، يرهب الحاكم أسرة البطل ويشتتها ويكون السبب في دمارها، وبذلك يكون السبب في تطور الأحداث، حيث يفر البطل من القرية بسببه ويتغير أمين القرية بسببه أيضا، ولولا تدخله، لما نمت أحداث الرواية فقد كان هو المرض الذي أصاب القرية[10].

أما في رواية "التلميذ والدرس"، فلم يكن للحاكم أثر كبير في تطور الأحداث لأن الروائي ذكره بمناسبة الحديث عن زوجته، وبذلك اقتصر أثره على السبق بالزواج من "جيرمان" التي أحبها البطل، فكان السبب في تحطيم البطل - عاطفيا - وتجمده[11].

إن الحاكم الفرنسي شخصية قليلة الأهمية في الرواية المغاربية، صفاته الجسمية مهملة، وما ذكر منها سطحي لا يعين كثيرا على تمثله أو التنبؤ بتصرفاته. أما صفاته المعنوية، فتتلخص في الظلم، والعنف، والقسوة، والحقد، والتجبر، والشذوذ، والنفاق، والذكاء، والخبث، وبعد النظر، والتحضر، واللباقة؛ وتتلخص أعماله وأفعاله في تحطيم المغاربي وعرقلته عن التحرر.

لقد ورد ذكر ذلك القاضي الفرنسي في الرواية العربية المغاربية مرتين، ويؤكّد ذلك قلة اهتمام الروائيين المغاربة بشخصيته[12]. ونلاحظ أن الروائيين أهملوا تماما صفاته الجسمية، ولم يعنوا إلا بذكر ضعف شخصيته ونزعته

---

[8] الفصل الثاني، شخصية الحاكم.

[9] الفصل الثالث، شخصية الحاكم.

[10] الفصل الثالث، شخصية الحاكم.

[11] الفصل الثالث، شخصية الحاكم.

[12] الفصل الثاني، شخصية القاضي.

الاستعمارية وتجبره وعنفه[13]، أما دوره اتجاه المغاربي فلا يتعدى التحطيم[14]. وبديهي الا يتأثر الروائيون بالقاضي الفرنسي، فهو بعيد عنهم والاحتكاك به قليل جدا؛ فالمغاربي الذي يلقي عليه القبض يزج به في السجن مباشرة، ومثوله امام القاضي لا يكون إلا لسماع الحكم، فالقاضي لا يكذّب ابدا كلام الشرطة او الجنود[15]. وبذلك جاءت شخصيته في الرواية العربية المغاربية ضعيفة وباهتة، واثره في تطور أحداثها ضعيف جدا. أما الرواية المغاربية الفرنسية، فقد أهملت القاضي إهمالا تامًا ولم يرد له ذكر في أية رواية رغم احتكاك الروائيين المغاربة بالفرنسيين أكثر من سائر المغاربة، وتعليل ذلك فيما أرى هو ابتعاد القاضي الفرنسي عن المغاربي وعدم وجود الاحتكاك بينهما، نتيجة عدم التجاء المغاربي إلى القضاء الفرنسي لحل مشاكله، فالمغاربي يحل مشاكله الشخصية بين عشيرته، وإذا لم تحل فالثأر هو وسيلته الأخيرة. ولم يعرف المحاكم إلا في فترة النضال حيث كان يجر إلى المحكمة لسماع الحكم عليه، ولذلك لم يحدث بينه وبين رجال القضاء صراع، ولم يتأثر بهم؛ وجاءت الرواية المغاربية خالية من رجل القضاء الفرنسي عدا روايتين اثنتين، ورد فيهما ذكر رجل القضاء الفرنسي لتأكيد ظلم الفرنسيين للمغاربة، وإظهار معاناة المغاربي في سبيل حريته.

في الرواية العربية المغاربية وردت ثماني عشر صورة للجندي الفرنسي موزعة بين إحدى عشرة رواية أي بنسبة (34,6%) من مجموع الشخصيات الفرنسية، وذلك في (73,3%) من مجموع الروايات[16]. توضّح النسبتان المذكورتان جليا اهتمام الروائيين المغاربة بالجندي الفرنسي، نتيجة أهمية الدور الذي قام به لتحطيم الثورات المغاربية. ولردع كل حركة، فقد كان الخطر الأول

---

[13] الفصل الثاني، شخصية القاضي.

[14] الفصل الثاني، شخصية القاضي.

[15] الفصل الثاني، شخصية القاضي.

[16] الفصل الثاني، شخصية الجندي الفرنسي.

أمام مناضل وثائر، يقتل ويعذب ويعتقل ويلوث الشرف، ويستولي على الأموال والأملاك؛ ولتلك الأمور أثرها الشّديد في نفس الإنسان، فلا غرابة إذن، أن ينفعل الروائي المغاربي، فيصور مقترف تلك الأعمال، ليظهر ما قاساه شعبه وما عاناه، وليبرر ظلم الفرنسي وعدالة مطالب المغاربي.

وقد اهتمت الرواية المغاربية الفرنسية للأسباب السابقة نفسها بالجندي الفرنسي، حيث احتوت الروايات المنتقاة على أربع عشر صورة، أي بنسبة (28,4%) من مجموع الشخصيات الفرنسية موزعة بين أربع روايات أي بنسبة (25%) من مجموع الروايات[17]. إلا اننا نلاحظ ان نسبة حضور الجندي الفرنسي في الرواية العربية المغاربية أكثر من حضورها في الرواية المغاربية الفرنسية، ونسبة الروايات العربية المغاربية التي احتوت صور الجندي الفرنسي، أكثر من نسبة الروايات المغاربية الفرنسية. وكان المفروض أن تأتي النسب عكس ما هي عليه، بناء على اقتراب المغاربة المفرنسين من الفرنسيّين أكثر من المعربين؟

وتعليل ذلك، في هذا أولا ظهور الرواية المغاربية الفرنسية قبل ثورات المغرب أي تحت السلطة الفرنسية، فلم تجهر بالإدانة، واكتفت بالتلميح كما هو الشان في رواية "الدار الكبيرة" لمحمد ديب، و"الربوة المنسية" و"سبات العادل" لمولود معمري، و"الماضي البسيط" لإدريس الشرايبي. فالنسبة الكبيرة من الروايات المغاربية الفرنسية ظهرت قبل سنة ستين، وذلك يعني أن أصحابها ما زالوا تحت قبضة السلطة الفرنسية.

أما الرواية العربية المغاربية، فقد تأخر ظهورها إلى ما بعد استقلال أقطار المغرب العربي، وبذلك ألصق الروائيون بالجندي الفرنسي كل العيوب ما صح منها وما بطل، فالمهم هو إبراز بشاعة الاستعمار الفرنسي متمثلا في جنوده المتوحشين.

---

[17] الفصل الثالث، شخصية الجندي الفرنسي.

هذا سبب تاريخي، وهناك سبب فني، وهو أن معظم الروايات المغاربية الفرنسية كتبت أثناء الثورات، بينما كتبت الروايات العربية المغاربية بعد الاستقلال، ولذلك لعب الخيال دوره في الروايات العربية المغاربية، فمعظمها يتحدث عن الثورة بينما تتحدّث الروايات المغاربية الفرنسية عن أثناء الثورة، وما ورد في الروايات يوضح لنا ذلك جليا. فجندي الرواية العربية المغاربية جبان، عنيف، غضوب، غبي، ظالم، دموي، حقود، استغلالي، وقح، سكير، شهواني، مخنث، شاذ، مع إشارات خفيفة جدا إلى حساسيته وطيبته وثقافته؛ إضافة إلى ذلك ركزت الرواية على صفات جسمية معينة، فهو أخضر العينين أو أزرقهما يحمل نظارة، وله أسنان بيضاء، وشفتان حمراوان، وأوداج متهدلة، وبشرة بيضاء، وجثة ضخمة، ويدان قويتان، وقامة متوسطة، وجسم نحيف، وأنامل دقيقة، وملامح نسوية. أما السن، فهو في حدود الأربعين، والجندي الفرنسي عموما قوة محطمة للمغاربي[18]. أما في الرواية المغاربية الفرنسية، فإننا نجد الجندي الفرنسي أحمر الوجه والشوارب متين الجسم أنيقا، ولا شيء غير ذلك من الناحية الجسمية، أما صفاته المعنوية فهي متعددة متنوعة، حيث نجد بينهم العنصري، والجاد، والنزيه، والطيب القلب، والكاره للحرب، والكسول، والغبي، والملحد، والمؤمن بالله، والماركسي، وبذيء اللسان، والعنيف، والذكي، والدقيق في عمله، والصارم، والعصبي، والجاهل، والجامد الفكر، والساذج، والشديد الانضباط، والحساس، والكاره للظلم. ونسبة الجندي الفرنسي المحطم للمغاربي لا تتعدى الثلث بكثير، أما سائرهم فلا أثر لهم على المغاربي بل إنهم يساعدونه أحيانا[19].

عندما نتمعن في جندي الرواية العربية المغاربية وجندي الرواية المغاربية الفرنسية، نلاحظ تركيز الرواية العربية على صفات جسمية عامة هي صفات

---

[18] الفصل الثاني، شخصية الجندي الفرنسي.

[19] الفصل الثالث، شخصية الجندي الفرنسي.

الأوروبي الخارجية، وعدم تركيز الرواية الفرنسية على تلك الصفات، واقتصارها على بعض صفات الجندي الفرنسي، فالوجه أحمر نتيجة كثرة الشراب، ومتانة الجسم شيء ضروري للجندي، والأناقة أمر ضروري في الجيش الفرنسي، وهذا يعني أن الروائيين المفرنسين يعرفون جيدا ما يتصف به الجندي الفرنسي، بينما ركز الروائيون المعربون على صفات يشترك فيها الجندي وصاحب الخمارة، والسبب يعود إلى عدم المعايشة ،لأن أغلب الروائيين المفرنسين تخطوا العشرين من العمر قبل سنة ستين، أي جندوا في صفوف الجيش الفرنسي، ومن لم يجند عاش فترة أو فترات في فرنسا وشاهد الجندي الفرنسي خارج ميدان الحرب، شاهده عن قرب إنسانا يمشي لا عدوا يقاتل.

كما نلاحظ فرقا شاسعا بين صفات الجندي الفرنسي في الرواية العربية والرواية الفرنسية. في الأولى أغلب صفاته قبيحة ومن يتصف بها لا خير يرجى منه، وفي الثانية نجد تنوعا يوحي بشيء من الصدق والواقعية، حيث تتنوع صفات الجندي بين القبيحة والحسنة بل نجد صفات لا يعرفها إلا من عايش الجندي الفرنسي، فكيف يتسنى للمرء أن يعرف أنَّ آخرَ مؤمنا بالله أو كافرا أو ماركسيا أو جامد الفكر، إذا لم يعايشه ويحتك به؟. فهذه الصفات لا تدرك بالمشاهدة ولا بد من الاحتكاك، وعلى العكس من ذلك نجد صفات الجندي في الرواية العربية صفات يمكن ملاحظتها عن قرب ولا يحتاج إدراكها إلى احتكاك ومعايشة؛ فالجبن والعنف والتعطش للدماء والصلف... إلخ، أمور من الممكن ملاحظتها عن قرب من خلال تصرفات الشخص.

وهكذا، نلاحظ أن جندي الرواية المغاربية الفرنسية، أقرب إلى الصدق والواقع من جندي الرواية العربية المغاربية، لقد صورتهم الرواية العربية أعداء في أبشع الصور. بينما صورتهم الرواية المغاربية الفرنسية جنودا يحاربون بمساوئهم العديدة وحسناتهم، جنودا منهم من يحقد على المغاربة ويعمل على تحطيمهم، ومنهم من يفعل ما يؤمر به دون حقد على المغاربة، أو كره لهم، بل منهم من

يحاول مساعدة المغاربة نتيجة إيمانه بالله أو بمبادئ إنسانية[20]. أما جندي الرواية العربية المغاربية فهمه الأكبر هو تحطيم الإنسان المغاربي[21].

ونتيجة لكل ذلك، جاءت صور الجندي الفرنسي في الرواية العربية نمطية[22] غير مقنعة ولا مؤثرة، لأن القارئ لا يجد نفسه أمام شخص يقوم بأعمال نتيجة دوافع نفسية أو حوافز مادية أو مبادئ معينة تدفعه إلى القيام بتلك الأعمال أو بسبب تربية تلقاها في مدرسة عسكرية... إلخ، بل يجد نفسه أمام شخص يقوم بأعمال فظيعة، وعندما يتساءل لماذا؟ لا يجد تعليلا لذلك، سوى أن الشخص جندي فرنسي ظالم أو قاس أو حقود. كل ذلك لتظهر بطولة المغاربي من خلال انتصاره على الجندي الفرنسي، وبذلك لم تؤثر شخصية الجندي الفرنسي في تطور أحداث الرواية، فكل جندي يقوم بأعمال بشعة ولكن الثائر المغاربي ينتصر عليه رغم أميته وقلة سلاحه وعدم تدربه على القتال، وينتصر عليه لأنه جبان أو غبي[23].

أما الرواية المغاربية الفرنسية، فقد أوردت صورا للجندي الفرنسي أقل من الرواية المغاربية. ورغم قلة العدد، فإنها جاءت أوضح وأصدق لأنها متنوعة، فمن الناحية الجسمية لم تركز إلا على الصفات الخاصة بالجيش. أما من الناحية المعنوية، فقد تعددت صفات الجنود بين صفات عامة وخاصة، كما تعددت الأدوار التي يقوم بها الجند اتجاه المغاربة بين التحطيم وعدم التأثير والمساعدة، وذلك بالاعتماد على التعليل وربط كل فعل بسبب، فمن يساعد المغاربة يساعدهم لأنه تقدمي أو إنساني أو مؤمن بالله. ومن لا يساعدهم ولا يظلمهم، يفعل ذلك لأنه لا يؤمن بالحرب، بل سيق إليها كرها، ومن يحقد عليهم ويحاول تحطيمهم يفعل

---

[20] الفصل الثالث، شخصية الجندي الفرنسي.

[21] الفصل الثاني، شخصية الجندي الفرنسي.

[22] الفصل الثاني، شخصية الجندي الفرنسي.

[23] الفصل الثاني، شخصية الجندي الفرنسي.

ذلك لأنه يدافع عن الحضارة الغربية أو الكنيسة، أو يخشى على تقدم البشرية من همجية العرب، كما قالوا له في المدرسة[24]. ولا شك أن السبب في إجادة رسم صورة الجندي في الرواية المغاربية الفرنسية يعود إلى احتكاك الروائيين بالجندي الفرنسي واطلاعهم على الروايات الفرنسية، واكتساب الخبرة منها، إضافة إلى ارتفاع مستواهم الثقافي وتعدد خبراتهم. وبذلك، لم تركز الرواية المغاربية الفرنسية على بطولة المغاربي أمام الجندي الفرنسي المتوحش، بل ركزت على الجندي الفرنسي في المعركة. لماذا جاء؟ كيف يرى المغاربة؟ وكيف يحاربهم ولماذا؟، أي ركزت على عواطفه وإحساساته وأقواله وأفعاله، بينما ركزت الرواية العربية المغاربية على أفعاله مع المغاربي، وهكذا جاءت صورة الجندي الفرنسي في الرواية المغاربية الفرنسية مقنعة، مؤثرة، لأن القارئ يجد نفسه أمام شخص يؤمن بمبادئ أو لا يؤمن، ويعمل أعمالا معينة نتيجة إيمانه بتلك المبادئ أو عدم إيمانه. يجد نفسه أمام إنسان يحس ويتألم ويحب ويكره ويحقد ويتمنى، ولذلك أثر الجندي الفرنسي في تطور أحداث الرواية المغاربية الفرنسية أكثر من تأثيره في الرواية العربية المغاربية، فالجندي الفرنسي كان له أثر كبير في بطل رواية "سبات العادل"، حتى كفر بفرنسا والكنيسة والحضارة الغربية[25]، وكذلك بطل رواية "الأفيون والعصا" الذي قاسى من الجند الفرنسي وضباطه[26].

تضمنت الرواية العربية المغاربية خمس عشر صورة لرجل الأمن الفرنسي أي بنسبة (28,8%) من مجموع الخاصيات المدروسة[27]، بينما تضمنت الرواية

---

[24] الفصل الثالث، شخصية الجندي الفرنسي.

[25] الفصل الثالث، شخصية الجندي الفرنسي.

[26] الفصل الثالث، شخصية الجندي الفرنسي.

[27] الفصل الثاني، شخصية رجل الأمن.

المغاربية الفرنسية ست صور لا غير، اي بنسبة (13%) من مجموع الروايات المدروسة[28].

توضّح النسبتان المذكورتان ان حضور رجل الأمن في الرواية العربية المغاربية أكثر بكثير من حضوره في الرواية المغاربية الفرنسية، فالنسبة الأولى ضعف الثانية تقريبا، ولكن صور رجل الأمن في الرواية العربية المغاربية مكدسة – رغم كثرتها – في أربع روايات[29]، بيما نجد صور رجل الأمن في الرواية المغاربية الفرنسية موزعة –رغم قلتها نسبيا – بين خمس روايات[30]، فإلى اي حد بلغ تأثير رجل الأمن الفرنسي في الروائيين المغاربة حسب الصور المرسومة في الرواية المغاربية؟

لقد رسم الروائيون المغاربة رجل الأمن الفرنسي جسميا ومعنويا، فمن الناحية الجسمية، تركز الرواية العربية المغاربية على: ضخامة الجثة، وانتفاخ البطن، وبشاعة الخلقة، ولبس النظارات، وطول القامة، ثم تشير إلى وجهه الكالح أو المحروق أو المعروق أو الجميل أو البشر وعينيه الزرقاوين أو الذابلتين وحنجرته المبحوحة، وقصره ونحافته وشبابه، وكبر سنه أو بلوغه الثلاثين وصلعه ونظراته الحادة وبنيته القوية.

كما تركز الرواية المغاربية الفرنسية على: ضخامة جثته، وكتفيه العريضين وقامته القصيرة، ووجهه المشعر، وشفته المتدلية، وسحنته الحادة، وأنفه الطويل وشعره القصير وأجفانه السمينة، وتعديه الثلاثين من العمر، وهيئته المميزة كما تشير إلى أناقته وانبساط ملامحه وخطوته اللينة وشبابه.

---

[28] الفصل الثالث، شخصية رجل الأمن.

[29] الفصل الثاني، شخصية رجل الأمن.

[30] الفصل الثالث، شخصية رجل الأمن.

والملاحظ أن الرواية المغاربية -عربية وفرنسية-، تشترك في العديد من صفات رجل الأمن الفرنسي الجسمية، فهي تركز على ضخامته، وبشاعة خلقته أو جماله وأناقته وشبابه وبنيته القوية وخطوته اللينة.

وهكذا نلاحظ أن الرواية المغاربية رسمت صورا -جسمية- متعددة لرجل الأمن الفرنسي ومتنوعة بين القبح والجمال، ولم تقتصر على نمط واحد، بل تنوعت صفاته الجسمية وتعددت، إلا أن الملاحظ هو التركيز على الصفات القبيحة كالنحافة وقبح الخلقة والنظرات الحادة[31]... إلخ.

والمرجّح، أن التركيز على بشاعة رجل الأمن وقبحه، مردُّه إلى نفسية المغاربي الذي لا يرى سوى بشاعة عدوه؛ ومن الصعب عليه أن يلاحظ جمال الذي يعذبه ويريد هلاكه بسهولة. ومع ذلك، لم تهمل الرواية صفاته الجسمية الجميلة تماما، لارتباطها بصفات معنوية حميدة، كما ركزت الرواية العربية المغاربية على: عنفه، وقسوته، ولجوئه المستمر إلى السوط، وجبنه، وشهوانيته، وصلفه، وتعطشه إلى الدماء، وكثرة غضبه، وحقده، وشدة ظلمه؛ كما أشارت إلى حساسيته، وصلفه، وطيبته، وثقافته، ونزاهته أو غبائه، وحب الاستغلال، وشذوذه، وتخنثه، وكثرة شربه.

أما الرواية المغاربية الفرنسية، فقد ركزت على: عنفه، وحدّته، وبذاءة لسانه، وخبثه، وانتهازيته، ثم هدوئه، وإجادته العمل، ورقته، وذكائه، ونزاهته وطموحه، والوثوق من النفس.

وجلي أن الرواية المغاربية -عربية وفرنسية-، اشتركت في التركيز على عنف رجل الأمن الفرنسي، وحدّته، وبذاءةلسانه، وخبثه، وانتهازيته أو حب الاستغلال. كما أشارت إلى ثقافته ونزاهته. إلا أن الرواية العربية المغاربية ركزت أكثر على صفاته الذميمة، حيث انفردت بذكر لجوئه إلى السوط وجبنه،

---

[31] الفصل الثاني، شخصية رجل الأمن.

وشهوانيته، وتعطشه إلى الدماء، وحقده، وشدة ظلمه، وشذوذه، وتخنثه؛ أما الرواية المغاربية الفرنسية، فقد ركزت على صفاته الحميدة أو غير الذميمة مثل هدوئه وإجادة العمل -مع العلم أن إجادته العمل مصيبة لا يقع وزرها إلا على المغاربي، مع ذلك فإجادة العمل محمدة -، ورقته وذكائه رغم أن ذكاء رجل الأمن كارثة على المغربي، وطموحه وثقته بنفسه.

والملاحظ، أن الصفات التي انفردت بها الرواية العربية المغاربية صفات تصدر عن انفعال وغضب؛ ومن الصعب أن ينجح شرطي أو رجل أمن في عمله إذا كانت تلك الصفات هي صفاته المميزة. أما الصفات التي انفردت بها الرواية المغاربية الفرنسية، فهي أحسن سلاح يتسلح به رجل أمن في عمله؛ ولا شك أن شرطي الرواية المغاربية الفرنسية أكثر تأثيرا في القارئ وأخطر على المغاربي من شرطي الرواية العربية المغاربية، فمن الطبيعي أن يكون شرطي الاستعمار قاسيا، ظالما وحقودا ... إلخ، سواء أكان ذلك واقعا معاشا أم واقعا محسوسا، ولا خطر في ذلك ولا غرابة، فالعدو عدو، ولكن الخطر يكمن في العدو الهادئ المثقف المجيد لعمله، الذكي، الرقيق، الطموح، الواثق من نفسه الذي يستطيع أن يحصل على بغيته بسهولة ويسر.

ودور رجل الأمن مع المغاربي في الرواية المغاربية برهان على ذلك، حيث نجد رجل الأمن في الرواية العربية المغاربية عدوا للمغاربي وقوة محطمة له بصفة تكاد تكون مطلقة[32]؛ في حين لا يكون رجل الأمن في الرواية المغاربية الفرنسية عدوا للمغاربي إلا بنسبة ثلثين، أما الثلث الباقي فلا خطر يخشى منه، لأنه إنساني محب للعدل[33].

---

[32] الفصل الثاني، شخصية رجل الأمن.

[33] الفصل الثالث، شخصية رجل الأمن.

ومردّ هذا الاختلاف بين الرواية العربية المغاربية والرواية المغاربية الفرنسية في رسم صورة رجل الأمن الفرنسي، ودوره إزاء المغاربي، سببان، أولهما: صدق الروائيين المفرنسين الواقعي في رسم رجل الأمن، فمن الصعب تصور كل رجال الأمن أشرارا أغبياء... إلخ؛ وثانهما، صدقهم الفني، وتصويرهم لرجل الأمن كما يرون صورته، نتيجة لخلفيتهم الثقافية ومعايشتهم للفرنسيين والاحتكاك بهم، والتأثر ببعض الأفراد.

وظهر الاختلاف بين الروايتين -العربية والفرنسية - في أثر شخصية رجل الأمن الفرنسي في تطور أحداث الرواية وبنائها، فرجل الأمن الفرنسي في الرواية العربية المغاربية عقبة يصطدم بها البطل أثناء تطور الأحداث ولكنه يتجاوزها بالصبر أو الحيلة، ولا يستطيع رجل الأمن أن يؤثر في مسيرة البطل تأثيرا كبيرا لأنه مجرد عاكس يعكس جهاد البطل وبطولته وتضحيته[34]؛ وبالتالي لا يؤثر رجل الأمن الفرنسي كثيرا في تطور أحداث الرواية وبنائها لأنه مجرد مرآة عاكسة لبطولة المغاربي.

أما رجل الأمن في الرواية المغاربية الفرنسية، فله أثر كبير في تطور أحداث الرواية، فالمحافظ "جان" في رواية "أبناء العالم الجديد"، يمثّل بالنّسبة إلى سليمة -إحدى بطلات الرواية - صورة جميلة لرجل الأمن الذي يؤدي واجبه في حدود القانون والمبادئ الإنسانية، بينما يقدّم المحافظ المساعد "مارتيناز" صورة أخرى، صورة رجل الأمن الاستعماري الذي لا هم له إلا تحطيم المغاربي وتحقيق الأمجاد على حسابه بشتى الأساليب، فهو الذي أوقع بالعديد من أبطال الرواية، ولم ينج منه حتى المفتش الجزائري "حكيم" فقد ضايقه كثيرا لمجرد كونه جزائريا[35].

---

[34] الفصل الثاني، شخصية رجل الأمن.

[35] الفصل الثالث، شخصية رجل الأمن.

وكذلك "محافظ" رواية "الأفيون والعصا"، فهو يتناقش مع الدكتور بشير الأزرق –بطل الرواية - بصراحة وينبهه إلى أن يكون مع فرنسا أو ضد فرنسا، أن يلتقيا في صف واحد، أو في صفين متقابلين، أن يعملا معا أو يعمل كل واحد ضد الآخر، إما أن يكون فرنسيا أو جزائريا؛ ويختار أن يكون جزائريا مثلما اختار المحافظ أن يتشبث بفرنسيته. وبذلك يكون للمحافظ دور هام في تطور الأحداث، فقد كلم البطل بصراحة مغلقا أمامه كل الأبواب، وفاتحا أمامه باب فرنسا؛ وبذلك زاده عزما وتصميما على النضال[36]، إنه لم يستطع إيقافه عن النضال ولكنه حاول ذلك فازداد الآخر عزما.

وهكذا، نلاحظ أن لرجل الأمن الفرنسي في الرواية المغاربية الفرنسية أثر في تطور الأحداث، فهو يعمل بذكائه وفطنته وشخصيته القوية وخبثه[37]، على تحطيم المغاربي وعرقلته؛ فيقابل المغاربي أساليبه بالتصميم والمثابرة على النضال. وبذلك تتطور الأحداث ويكون لرجل الأمن دور مهم في تحريكها، وذلك عكس رجل الأمن في الرواية العربية المغاربية الذي يقف حجرة صلبة في طريق المغاربي، ونتيجة لشجاعته وبطولته يقفز على تلك الحجرة ويكمل طريقه المعهود، دون لف أو دوران أو تعب. بينما لا يقدر بطل الرواية المغاربية الفرنسية على ذلك، لأن رجل الأمن الذي يقابله لا يشبه الحجرة بل يشبه ثعبانا وحية خطيرة، لا بد من ملاحظتها وملاينتها والدوران حولها حتى يتمكن من اجتيازها، ولو غير مساره.

نستنتج مما سبق ذكره، أن لرجل الأمن في الرواية المغاربية الفرنسية أثرًا مهمًا في تطور أحداث الرواية على عكس الرواية العربية المغاربية، بسبب الرسم المؤثر لرجل الأمن في الرواية المغاربية الفرنسية وشخصيته ذات القدرات المتعددة.

---

[36] الفصل الثالث، شخصية رجل الأمن.

[37] الفصل الثالث، شخصية رجل الأمن.

وبذلك، تكون صور رجل الأمن الفرنسي في الرواية المغاربية الفرنسية أقوى منها في الرواية العربية المغاربية؛ ويكون تأثر الروائيين المفرنسين بشخصية رجل الأمن أقوى من إخوانهم، فأغلب شخصيات رجل الأمن أوردها "عبد الكريم غلاب" في روايتيه: "سبعة أبواب" و"المعلم علي"[38]؛ بينما نجد شخصيات رجل الأمن في الرواية المغاربية الفرنسية موزعة بين أربعة روائيين: محمد ديب في رواية "الحريق"، وكاتب ياسين في رواية "نجمة"، وآسيا جبار في رواية "أبناء العالم الجديد"، ومولود معمري في رواية "الأفيون والعصا"[39]. وبديهي أن يكون تأثر الروائيين المغاربة المفرنسين برجل الأمن الفرنسي أكثر وأقوى من إخوانهم المعربين، ولذلك فإن كثرة رجال الأمن في الرواية العربية المغاربية كثيرة العدد لا غير، وأثرهم ضعيف نتيجة ضعف شخصياتهم بين شخصيات الرواية.

لم تحتو الرواية العربية المغاربية إلا على صورة واحدة للمعمر الفرنسي، أي بنسبة (1,9%) من مجموع الشخصيات الفرنسية الواردة، وإشارة عابرة في رواية أخرى إلى المعمرين بصفة عامة[40]؛ بينما احتوت الرواية المغاربية الفرنسية على ثلاث صور، أي بنسبة (6,5%) من مجموع الشخصيات الواردة ضمن ثلاث روايات[41]. وتوضّح النسبتان المذكورتان أن اهتمام الرواية المغاربية الفرنسية بشخصية المعمر الفرنسي أكثر من الرواية العربية المغاربية، ويتجلى ذلك الاهتمام أكثر في رسم شخصية المعمر، فالمعمر في الرواية العربية المغاربية لا يتصف بأية صفات جسمية أو معنوية عدا ظلمه الفظيع للمغاربي لدرجة ارتكابه

[38] الفصل الثاني، شخصية رجل الأمن.

[39] الفصل الثالث، شخصية رجل الأمن.

[40] الفصل الثاني، شخصية المعمّر.

[41] الفصل الثالث، شخصية المعمّر.

جريمة القتل من أجل وردة قطفت من حقله، فهو مصيبة حلت بالمغاربي ولا شيء بعد ذلك[42].

أما في الرواية المغاربية الفرنسية، فالمعمر يتصف بصفات جسمية مميزة: فهو سمين، منتفخ، أحمر، له نظرات حادة، ووجنتان صغيرتان، وصوت مرتعش، وفخذان صغيران، مريض بالروماتيزم، في الخمسين من العمر، شعره اشيب[43]، إنه سمين من كثرة الأكل ووفرة النعم لديه والإحساس بالطمأنينة واحمر من كثرة الشراب. والسن المحدد هو انسب سن لإنسان ثري، فمن المستبعد تصور معمر، استقر في مستعمرة وحصل على أراضٍ واصبح معمرا وهو في العشرين او الثلاثين من العمر.

كما يتصف المعمر بصفات معنوية مميزة أيضا: فهو مجتهد، بخيل، منافق، نهم، حقود، عنيف، رهيب[44]؛ فلولا اجتهاده لما حصل على الأراضي وما أثري، ولولا بخله لما جمع الأموال بسرعة، ولولا نفاقه لما استطاع أن يسير مزارعه بمفرده بين أعدائه، ولولا نهمه وكثرة أكله لما انتفخ جسمه وسمن؛ أما الحقد والعنف والرهبة فتلك صفات لازمة لمن يعيش على حساب الغير، ولمن يستولي على الأراضي ويمتص العرق[45].

ومن البديهي أن يكون المعمر الفرنسي قوة محطمة للمغاربي، وكيف لا يكون كذلك؟ وهو الذي استولى على اراضيه بشتى الطرق والأساليب ثم استخدمه في الأرض ممتصا عرقه وهاضما حقوقه[46]. هكذا رسمت الرواية المغاربية الفرنسية صورة المعمر الفرنسي مبرزة صفاته الجسمية والمعنوية وأثره في

---

(42) الفصل الثاني، شخصية المعمّر.

(43) الفصل الثالث، شخصية المعمّر.

(44) الفصل الثالث، شخصية المعمّر.

(45) الفصل الثالث، شخصية المعمّر.

(46) الفصل الثالث، شخصية المعمّر.

المغاربي، ورغم اهتمام الرواية المغاربية الفرنسية بشخصية المعمر وعدم إهمالها - مثل الرواية العربية المغاربية -، فإننا نلاحظ ضعف صور المعمر وضعف أثره في تطور أحداث الرواية. والمرجّح أن السبب في ذلك تركيز الروائيين المغاربة على النضال المسلح، وبعدهم عن المعمرين وقلة الاحتكاك بهم، ذلك أنّ المعمر لا يحتك إلا بالعمال ومن النادر أن يعمل روائي عند معمر، لأن ثقافته تخول له العمل في التدريس أو الإدارة، ولذلك لم يتأثر الروائيون المغاربة كثيرا بشخصية المعمر الفرنسي رغم أهمية الدور الذي قام به في تحطيم المجتمع المغاربي ماديا. ولا شك أن عزلة المعمرين لها أثر كبير في عدم تأثر الروائيين المغاربة بهم، فمن المعروف أن المعمرين عاشوا في مزارعهم محاطين بالحرس وكأن تلك المزارع مستعمرات لا يعلم ما بداخلها إلا من يدخلها، ولا يدخلها إلا العمال البسطاء الذين لا همّ لهم إلا الحصول آخر النهار على أجر يقوم بأود أبنائهم.

تضمنت الرواية العربية المغاربية تسع صور لرب العمل الفرنسي، بنسبة (17,3%) من مجموع الشخصيات الواردة، موزعة بين ثلاث روايات[47]. في حين تضمنت الرواية المغاربية الفرنسية صورتين فقط، بنسبة (4,4%) من مجموع الشخصيات الواردة، وفي رواية واحدة[48].

ويتسم رب العمل الفرنسي في الرواية العربية المغاربية بالأشداق المنتفخة، والبطن المنتفخ، والوجه الأحمر أو القبيح، والساعدين الأشعرين، والفخذين الصغيرين؛ أما صفاته المعنوية فهو: عنصري، حقود على المغاربة، استعماري، استغلالي منافق، سيء الأخلاق والمعاملة، يتقن عمله، ذو نزعة إنسانية في بعض الأحيان، وهمّه الأول هو استغلال المغاربة وامتصاص عرقهم وتحطيمهم، ولا يشذ عن ذلك إلا العشر من أرباب العمل[49].

---

[47] الفصل الثاني، شخصية ربّ العمل.

[48] الفصل الثالث، شخصية ربّ العمل.

[49] الفصل الثاني، شخصية ربّ العمل.

أما الرواية المغاربية الفرنسية، فإنها لم تهتم بصفات رب العمل الفرنسي الجسمية عدا الإشارة إلى شيبه؛ ولكنها ركزت على صفاته المعنوية، فهو بخيل، استغلالي وانتهازي سيء الأخلاق والمعاملة، جبان، حقود، منافق، حذر من العرب وعنصري، مقعد جنسيا، ولكنه حريص على عمله ومواعيده، وهمه الوحيد ابتزاز المغاربي وامتصاص عرقه[50].

نلاحظ من خلال نسبتي حضور رب العمل في الروايات المغاربية أن اهتمام الرواية العربية المغاربية برب العمل الفرنسي أكثر بكثير من الرواية المغاربية الفرنسية. فنسبته في الرواية العربية أربعة أضعاف الرواية الفرنسية. ولكن شخصيات رب العمل التسعة الواردة لم تتضمنها سوى ثلاث روايات، اثنتان تونسيتان "الدقلة في عراجينها" للبشير خريف، و"يوم من أيام زمرا" لمحمد الصالح الجابري؛ والأخرى مغربية –المغرب الأقصى - "المعلم علي" لعبد الكريم غلاب. أما شخصيتي رب العمل في الرواية المغاربية الفرنسية، فتضمنتهما رواية جزائرية واحدة هي رواية"نجمة" لكاتب ياسين؛ ولذلك فلا غرابة من كثرة شخصيات رب العمل في الرواية العربية المغاربية، لأن الكثير من الروايات العربية المغاربية وبخاصة التونسية ثم المغربية (المغرب الأقصى) كُتبت لتمجيد حزب من الأحزاب، وأعماله في سبيل تحرير الوطن، مثل: "دفنا الماضي" و"المعلم علي" لعبد الكريم غلاب، و"حليمة" لمحمد العروسي المطوي، و"حب وثورة" لعبد الرحمن عمار، و"نوافذ الزمن" للمختار جنات، و"في يوم من أيام زمرا" لمحمد الصالح الجابري. وأبرزت تلك الروايات دور رجال الحزب في توعية العمال المغاربة وتحريضهم على إقامة نقابات تحميهم، ولتكون تلك النقابات وسيلة يوجه الحزب العمال بواسطتها.

---

[50] الفصل الثالث، شخصية ربّ العمل.

إضافة إلى ذلك، لا تركز الرواية التونسية والمغربية -المغرب الأقصى- كثيرا على الثورة المسلحة، بل تركز على المقاومة، ذلك أن القطرين تحررا من السلطة الاستعمارية بالمقاومة والأساليب السياسية. أما الرواية المغاربية الفرنسية فجلها جزائرية، وهمها الأول الثورة المسلحة، ولذلك لم تركز كثيرا على إظهار مشاكل العمال ومعاناتهم. والرواية المغاربية الفرنسية صنفان:

- سيرة ذاتية للكاتب مثل روايات مولود فرعون وروايتي مولود معمري الأوليين وإدريس الشرايبي... إلخ، من النادر أن يتعرض روائي في سيرته الذاتية لجو بعيد عن جوه.

- أو ثورية نضالية، هدفها الأول فضح الاستعمار وتعليل أسباب ثورة المغاربة، وذلك بالتركيز على أعمال سلطات الاستعمار. وهكذا نرى أن الرواية المغاربية الفرنسية لم تهتم كثيرا برب العمل الفرنسي لا من الناحية العددية ولا الكمية. أما من حيث النوعية، فتتّفق الروايتان -العربية المغاربية والمغاربية الفرنسية- في العديد من صفات رب العمل الفرنسي، فهو أشيب ذو أشداق منتفخة وبطن منتفخ، ووجه أحمر أو قبيح وساعدان أشعران وفخذان قصيران، وهذه الصفات الجسمية مناسبة فعلا لرب العمل، كما اتفقت الروايتان على: عنصريته وحقده على المغاربة وحب الاستغلال وسوء الأخلاق والمعاملة والنفاق، والحرص على العمل والمواعيد، في حين انفردت الرواية المغاربية الفرنسية بالتركيز على بخله، وتلك من أهم صفات رب العمل، والإشارة إلى مشاكله الجنسية.

وتكاد الروايتان تتفقان في دور رب العمل إزاء المغاربي، فهو قوة مستغلة، محطمة[51]؛ ولكن الرواية العربية تستثني بعض أرباب العمل وتصفهم بالعدل وحب الإنسانية والمعاملة الطيبة مع المغاربة، تقابلهم أغلبية أرباب العمل الذين لا

---

[51] الفصل الثاني، شخصية ربّ العمل.

هَمٌّ لهم إلا استغلال المغاربي[52]. وقد عللت الرواية ذلك الاستثناء بعدم تشبع المدير الجديد بالروح الاستعمارية وبثقافته الواسعة، وكرهه النزعة العنصرية[53]؛ وليس من الصعب تصور مهندس فرنسي عين مديرا لشركة يكره الأعمال البشعة التي يقوم بها زملاؤه الذين ملأ الحقد قلوبهم، وتشبعوا بالروح الاستعمارية[54]؛ ولذلك استثنت الرواية العربية المغاربية بعض أرباب العمل.

أما الرواية المغاربية الفرنسية، فلم تستثن أحدا لأنها صورت مالكين، ومن الصعب تصور مالك غير متشبع بالحقد والكراهية وإلا كيف تسنى له أن يمتلك ما امتلك في بلد غير بلده وفي مدة قصيرة وبأدنى التكاليف؟

والملاحظ أن لرب العمل الفرنسي أثر في تطور أحداث الرواية وبنائها في الرواية العربية. يتأثر البطل بمعاملة المدير الحسنة ومساعدته له ويُرقّى من وظيفة عامل يدوي إلى عامل فني، ثم يتابع تعلمه ويصبح مفكر العمال وأحد قادتهم في الحركة النقابية[55]. أما بقية أرباب العمل في الرواية العربية فلا أثر لهم، لأنهم مجرد عقبات سريعا ما يتخطاها المغاربة، وبذلك لا يؤثرون كثيرا في تطور أحداث الرواية وبنائها[56].

وفي الرواية المغاربية الفرنسية يقتسم السيدان "أرنست" و"ريكار" التأثير في أحداث الرواية، فبسبب عنصريتهما وحقدهما على المغاربة، يصطدم "أرنست" بعماله ويشج أحدهم رأسه، ويثير "ريكار" أعصاب بطل من أبطال الرواية عندما يراه يجلد الخادمة لأنه سكران، فيهجم عليه ويطعنه، ويتجمع أبطال الرواية

---

(52) الفصل الثاني، شخصية ربّ العمل.

(53) الفصل الثاني، شخصية ربّ العمل.

(54) الفصل الثاني، شخصية ربّ العمل.

(55) الفصل الثاني، شخصية ربّ العمل.

(56) الفصل الثاني، شخصية ربّ العمل.

للفرار من القرية وقد صاروا مطاردين، ويفرون ليلا، وفي الخلاء يتفرقون على الجهات الأربعة ليبدأ كل منهم أحداثا خاصة به.

وهكذا، نلاحظ أن رب العمل هو السبب في سير أحداث الرواية، وتشتت شمل الأصدقاء[57].

نستنتج مما سبق ذكره، أن رب العمل في الرواية العربية المغاربية لم يؤثر كثيرا في تطور أحداث الرواية وبنائها رغم كثرة وروده، بينما أثر رب العمل في الرواية المغاربية الفرنسية رغم قلة وروده. وبذلك نستطيع القول أن صورة رب العمل الفرنسي أقوى وأوضح في الرواية المغاربية الفرنسية بسبب إجادة رسمها.

حوَت الرواية المغاربية ثلاث صور لرجل التعليم الفرنسي، بنسبة (5,8%) من مجموع الشخصيات الفرنسية الوارد ذكرها، موزعة بين روايتين[58]؛ أما الرواية المغاربية الفرنسية، فقد حوت أربع صور لرجل التعليم الفرنسي، بنسبة (8,7%) من مجموع الشخصيات الوارد ذكرها، موزعة بين أربع روايات[59].

يتسم رجل التعليم الفرنسي في الرواية العربية المغاربية بالشباب والوجه الحليق أو الجميل، يلبس بذلة أنيقة وقبعة ونظارتين، ويكون أحيانا كبير السن وعاري الرأس، ذو بطن منتفخ وله ساقان طويلتان.

كما يتسم بالنشاط والجدية في العمل والهدوء ولطف المعاملة وسعة المعرفة وقوة الشخصية، إنه مثال أمام المغاربي[60].

أمل رجل التعليم في الرواية المغاربية الفرنسية، فيتسم جسميا بالكرش المدورة والوجنتيْن الحمراويّن والصوت الجهوري. كما يتسم معنويا بالنفاق، والروح الاستعمارية، والحقد، والعمل لخدمة أغراض السلطة، ضاربا عرض

---

[57] الفصل الثالث، شخصية ربّ العمل.

[58] الفصل الثاني، شخصية رجل التّعليم.

[59] الفصل الثالث، شخصية رجل التّعليم.

[60] الفصل الثاني، شخصية رجل التّعليم.

الحائط بالنزاهة العلمية. في حين يتسم البعض الآخر بالنزاهة العلمية، والحدة والطيبة، وتقدير العلم وأهله، والبعد عن الروح العنصرية.

ورجل التعليم الفرنسي ذكي قوي الشخصية بصفة عامة. يعمل البعض منهم على تحطيم المغاربي بذكاء، ولا هم البعض الآخر له إيصال العلم بنزاهة[61].

توضح نسبتا رجل التعليم الفرنسي في الرواية المغاربية، أن الرواية العربية أقل اهتماما به من الرواية المغاربية الفرنسية من الناحية الكمية، لكن الفرق بين النسبتين ليس بكبير، والمفروض أن يكون كبيرا، فقد احتك جميع الروائيين المغاربة -المفرنسين - برجل التعليم الفرنسي، وتعلموا على يديه وتأثروا به. بينما لم يتعلّم إلاّ القليل من إخوانهم غير المفرنسين في المدارس الفرنسية، لأنّ أغلبهم تعلم في مدارس القرويين بالمغرب الأقصى أو مدارس جمعية العلماء بالجزائر أو مدرستيْ الزيتونة والصادقية بتونس. لكننا نجد فرقا كبيرا بين الرواية العربية المغاربية والمغاربية الفرنسية في كيفية رسم شخصية رجل التعليم الفرنسي.

تصور الرواية العربية المغاربية رجل التعليم الفرنسي تصويرا رائعا، فهي تركز على نظافته، وأناقته، وشبابه، وحيويته، ونشاطه، ولطفه، وهدوئه، وجديته، وقوة شخصيته، عندما تقارنه بشيخ الكتاب الذي يجلس على الأرض مهددا الصبية بالضرب[62]. وهكذا، ندرك أن صورة رجل التعليم الفرنسي الجميلة في الرواية العربية المغاربية ما هي إلا الصورة المناقضة لشيخ الكتاب، وبالتالي فهي صورة رسمها الروائي من بعيد، دون أن يدرك حقيقة رجل التعليم الفرنسي، ولذلك صوره مثالا يحتذى.

---

[61] الفصل الثالث، شخصية رجل التّعليم.

[62] الفصل الثاني، شخصية رجل التّعليم.

أما الرواية المغاربية الفرنسية، فلم تنهج نهج الرواية العربية المغاربية، رغم أن شيخ الكتاب موجود في كثير من الروايات، مثل رواية الطلاق لرشيد بوجدرة. وصورت رجل التعليم الفرنسي في صورتين: صورة لرجل التعليم الذي يعمل على تحطيم المغاربي بذكاء، وصورة لرجل التعليم الذي لا همّ له إلا العلم وتوصيله، فوصفت الأول بصفات تناسبه، كما وصفت الثاني بصفات تلائمه أيضا. أما الصفات الجسمية فكادت تهملها تماما.

لماذا صورت الرواية العربية المغاربية رجل التعليم الفرنسي تصويرا مثاليا، ولماذا لم تفعل الرواية المغاربية الفرنسية فعلها، على الرّغم من أنّ كتابها أدرى بشخصية رجل التعليم من إخوانهم؟

نستطيع أن نستشف من كلام الروائيين سببين:

-الأول، هو مقارنة المعربين شيوخهم بالمعلم الفرنسي عندما يرونه من بعيد، وبديهي أن ترتسم في أذهانهم صورة مثلى لذلك المعلم الشاب الأنيق الرشيق الذي يحسن إيصال معلوماته إلى أذهان الصغار، مقارنة بالشيخ الأعمى أو الأعور، والذي عادة ما يكون رث الثياب، لا همّ له إلا سماع صياح الصبية.

-والثاني، هو إدراك المفرنسين حقيقة المعلم الفرنسي نتيجة احتكاكهم به، فلم يركزوا على مظهره بسبب تعودهم عليه، وركزوا على هدفه عندما أدركوا الحقيقة التي تأخّروا لكي يدركوها. فبطل رواية "الماضي البسيط" لم يدرك حقيقة مدير الثانوية إلا عندما ثار على أسرته؛ وبطل رواية "سبات العادل" لم يدرك أكاذيب أستاذه المفضل أيضا، إلا عندما شارك في الحرب ولاحظ أن ما سمعه من أستاذه كذب ونفاق[63].

ونستنتج مما سبق، أن الرواية العربية المغاربية رسمت لرجل التعليم الفرنسي صورة مثلى، نتيجة كره الروائيين لشيوخ الكتاب وإعجابهم بالمعلم

[63] الفصل الثالث، شخصية رجل التّعليم.

الفرنسي من بعيد وعن جهل، عكس الرواية المغاربية الفرنسية التي رسمت المعلم الفرنسي على حقيقته، فرسمت صورة المعلم النزيه المحب لمهنته، ثم المعلم المسخر لخدمة أغراض السلطة الاستعمارية.

ونتيجة إدراك الروائيين المفرنسين لحقيقة رجل التعليم الفرنسي، جاءت شخصيته قوية ومؤثرة في أحداث الرواية، على خلاف رجل التعليم في الرواية العربية الذي لا نجد له أثرا في تطور أحداث الرواية أو بنائها. ففي رواية "سبات العادل" لمولود معمري، يلتحق البطل بصفوف الجيش الفرنسي -في الحرب العالمية الثانية - للدفاع عن الحضارة والإنسانية كما أفهمه أستاذه، وفي المعركة يدرك زيف كلام أستاذه وبعده عن الحقيقة، فيدير ظهره للحضارة الغربية والإنسانية، ويكفر بكل المبادئ التي تعلمها في المدرسة الفرنسية.

وفي رواية "الماضي البسيط" لإدريس الشرايبي، يثور "إدريس" -بطل الرواية - على والده وأسرته ومجتمعه ودينه نتيجة تأثره بالأفكار التي تعلمها في المدرسة والكتب الفرنسية، وعندما يطرده والده يدرك حقيقة الأفكار التي تعلمها وحقيقة من علمه تلك الأفكار، وحينذاك لا يجد مفرا من الركوع أمام الوالد والأسرة حتى يتمكن من الوقوف على رجليه[64].

أثر رجل التعليم الفرنسي في أحداث الرواية بسيطرته، على عقلية البطل أوّلا وتوجيهه الوجهة المرغوبة وسير البطل في طريق مرسوم، وشيئا فشيئا يكتشف البطل زيف الأفكار والمبادئ وأغراضها الدنيئة فيغير الطريق؛ ولذلك يرسم الروائي في البداية صورة رائعة لرجل التعليم ثم يبدأ في الكشف عن حقيقته حتى تتضح الصورة بوجهيها: الوجه الظاهر والوجه الخفي، وبين وجهي الصورة يكون البطل المغاربي ممزقا مشتت الأفكار.

---

[64] الفصل الثالث، شخصية رجل التّعليم.

كل ذلك لا نجده في الرواية العربية المغاربية لأن صورة رجل التعليم فيها رُسمت من بعيد ودون احتكاك به، فجاءت سطحية ولا أثر لها في أحداث الرواية.

عرضنا في الصفحات السابقة، للشخصيات الفرنسية المشتركة بين الرواية المغاربية العربية والرواية المغاربة الفرنسية. غير أنّ هناك شخصيات لم ترد إلا في الرواية المغاربية الفرنسية، ومنها:

شخصية الطّالب الفرنسي: وقد تضمنت الرواية المغاربية الفرنسية خمس صور للطالب الفرنسي، بنسبة (10,8%) من مجموع الشخصيات الوارد ذكرها، موزعة بين ثلاث روايات[65].

ويتسم الطالب الفرنسي بطول القامة، والنحافة، والرشاقة، والجمال، والجاذبية، والشباب، وضعف البصر، وانحناء الظهر أحيانا، أو الميل أثناء السير، وأغلب تلك الصفات لازمة للطالب، فالطول والنحافة والرشاقة والأناقة والجاذبية من خصائص الشاب، وضعف البصر وانحناء الظهر من خصائص الطالب نتيجة كثرة القراءة والمطالعة.

كما يتسم الطالب الفرنسي بالحيوية والولوع بالحياة والمواظبة والاجتهاد وسعة الأفق والمعلومات وقوة الشخصية والنزاهة، وكره النفاق والظلم، والطيبة والإيمان بالتقدم والماركسية، أو يتسم بالنفاق والتباهي والتظاهر، والنزعة المادية وضعف الشخصية وتفاهة الفكر والتعقد جنسيا وحب الاستغلال، والتظاهر بالماركسية[66].

---

[65] الفصل الثالث، شخصية الطّالب.

[66] الفصل الثالث، شخصية الطّالب.

وتغلب على الطالب الفرنسي الصّفات المعنوية السيئة، ولذلك ركزت الرواية المغاربية الفرنسية على تغرير الطالب الفرنسي بالمغاربي وخيانته بعد إيمان المغاربي بأفكاره التقدمية ومبادئه الإنسانية التي غالبا ما تكون مزيفة[67].

انفردت الرواية المغاربية الفرنسية برسم صورة الطالب الفرنسي لتأثر الروائيين المغاربة المفرنسين به، نتيجة الاحتكاك والمعايشة طيلة الدراسة الابتدائية والثانوية والجامعية أحيانا، وزوال الكلفة بينهما، ونشوء علاقات ود وتفاهم مبنية على الحب وبُغْضِ أفعال السلطة، وإيمان الطلبة الفرنسيين بمبادئ إنسانية سامية، ولكن سريعا ما يتخلون عنها في سبيل منافع مادية.

رسم الروائيون المغاربة صورا واضحة قوية للطالب الفرنسي، مع التركيز على صفاته المعنوية التي تكون لب شخصيته، فرسموا في البداية صورته الخارجية والداخلية التي يريد أن يعرف بها؛ ومع تطور أحداث الرواية يكتشف البطل المغاربي شيئا فشيئا حقيقة زميله الطالب الفرنسي، حتى تتضح الصورة جلية في نهاية الأحداث، ويظهر الطالب على حقيقته البشعة[68].

والملاحظ أن لشخصية الطالب الفرنسي أثرا على تطور أحداث الرواية وبنائها، ففي رواية "الماضي البسيط" لإدريس الشرايبي، يتلقى البطل "إدريس" أول صدمة عنيفة عندما يرفض زميله "تشيتشو" إيواءه بعد ما طرده والده نتيجة ثورته عليه وعلى الدين، ويزداد عنف الصدمة عندما يعلم "إدريس" سبب تخلي زميله عنه، فقد تخلى عنه مخافة أن يسحب والد "إدريس" من والد "تشيتشو" القضية التي كلفه بالدفاع عنها، تخلى عنه خوفا من ضياع تكاليف الدفاع عن قضية قضائية[69]، وبذلك يبدأ بنيان إيمان "إدريس" بمبادئ الحضارة الغربية يتهاوى.

---

[67] الفصل الثالث، شخصية الطّالب.

[68] الفصل الثالث، شخصية الطّالب.

[69] الفصل الثالث، شخصية الطّالب.

وفي رواية "السعار في الأحشاء" لمصطفى التليلي، يضيع البطل "ابن شريف" سنوات دراسته الجامعية مع زعيم الفرقة "جان كلود" الماركسي المزيف الذي يعاشر أخته بدعوى الثورة على المجتمع والمعتقدات البالية.

ويبقى الندم يحز في نفسه لأنه لم يتبع الطالب "مورو" عبقري المجموعة وابن الأسرة الفقيرة والتقدمي المناضل، ولكنه يكتشف حقيقته بعد سنوات طويلة بعدما صار رئيس تحرير أكبر بجريدة. يكتشف أنه انتهازي مثل الآخرين، وانه سكت عن أكاذيب "جان كلود" طمعا في أخته الجميلة، ويكاد "ابن شريف" يكفر بكل الماركسيين الفرنسيين، لولا ذكرى الصديق والأخ "باتريك" الطالب التقدمي الذي تعلم منه "ابن شريف" أشياء كثيرة[70].

وهكذا، نلاحظ أثر شخصية الطالب الفرنسي في شخصية البطل المغاربي؛ وبالتالي في تطور أحداث الرواية، وذلك نتيجة أهمية الدور الذي يقوم به الطالب الفرنسي، فهو في البداية مثال وقدوة أمام الطالب المغاربي. ومع تطور الأحداث يكتشف المغاربي أن زميله الفرنسي لا يختلف كثيرا عن بقية الشخصيات الفرنسية، وبذلك تكون الصدمة عنيفة على البطل، ويكون الأثر في الأحداث قويا.

أما خلو الرواية العربية المغاربية من شخصية الطالب، فمرده إلى الانفصال التام بين الطالب الفرنسي والمغاربي المعرب وعدم التقائهما البتة. الأول يتعلم في مدارس حكومية، والثاني في مدارس خاصة أو تابعة لمؤسسة دينية، ثم لضعف شخصية الطالب الفرنسي في الحياة اليومية وبخاصة أثناء ثورات أقطار المغرب.

والمعروف أن الرواية العربية المغاربية كرست أهدافها لخدمة ثورات المغرب، ولذلك ركزت اهتمامها على الشخصيات الفرنسية التي كان لها دور في إخماد

---

[70] الفصل الثالث، شخصية الطّالب.

الثورات، أما الشخصيات المدنية البعيدة عن السلطة وما يتصل بها فنادرا ما يرد ذكرها في الرواية العربية المغاربية.

- شخصية المثقّف الفرنسي: وقد وردت في الرواية المغاربية الفرنسية ثماني مرات، بنسبة (17,4%) من مجموع الشخصيات الوارد ذكرها موزعة بين خمس روايات.

لم تهتم الرواية المغاربية الفرنسية بصفاته الجسمية، فلم يوصف فيها إلا بثلاث صفات: الشباب، والجمال، والأناقة؛ ولكنها ركزت على صفاته المعنوية الحميدة والسيئة، فهو: تقدمي مزيف، منافق، متعصب لفرنسا والحضارة الغربية، استعماري، انتهازي، غير متواضع، مادي جشع، أو تقدمي حقيقي، يكره الظلم والاستغلال، واضح الأفكار، صريح، يؤمن بالعدالة والتقدم، إنساني، بسيط، لبق، مهذب، حسن المعاملة، طموح، معروف، وصفاته السيئة تفوق الحميدة بكثير[71]. وكذلك أبرزت الرواية المغاربية الفرنسية دوره الخطير إزاء المغاربي، حيث غرر به وخدعه، وكان ينتهز كل فرصة لاستغلاله. والقلة القليلة من المثقفين الفرنسيين ساعدت المغاربة وكانت دعامة لهم[72].

وقد حظي المثقف الفرنسي بحضور قوي في الرواية المغاربية الفرنسية، حيث بلغت نسبة الروايات التي تضمنته (31,4%) من مجموع الروايات المدروسة، وكانت نسبة المثقف بين بقية الشخصيات الفرنسية عالية، ذلك أن اهتمام الروائيين المغاربة، بالمثقف الفرنسي وتأثرهم به قضية منطقية.

لقد كان المثقف الفرنسي طالبا مع زميله المغاربي، ثم صار صحفيا معه أو صاحب دار نشر يتعامل معه الروائي، أو رئيس تحرير صحيفة يعمل فيها البطل، أو أديبا معروفا يقرأ له ويعجب بأفكاره ويتمنى رؤيته. وبعد تطور أحداث

---

[71] الفصل الثالث، شخصية المثقّف.

[72] الفصل الثالث، شخصية المثقّف.

الرواية، يكتشف البطل شيئا فشيئا الخدعة الكبيرة، فلا فرق بين الأديب المعروف والشاعر الذائع وبين أي تاجر؛ ولا همّ للمحامي الشاعر الذي كان يتغنى بالجزائر إلا جمع المال ولعب الورق، وكذلك الشّان بالنّسبة إلى السياسي المدافع عن حقوق المغاربة جريا وراء الهدايا. وحتى الرفاق الفرنسيّون –كما يسمّون أنفسهم - صوتوا لصالح الأحكام العرفية في الجزائر –أي ضدّ رفاقهم من الجزائريّين -. إنها الكذبة الكبرى، كذبة المثقفين الفرنسيين على المثقفين المغاربة وبخاصة كذبة الرفاق على الرفاق. ولهذا تأثر الروائيون المغاربة بالمثقف الفرنسي، لأنهم رأوا فيه طوق النجاة وعندما تشبثوا به وجدوه حجرا يشدهم إلى القاع، ولولا قلة قليلة من المثقفين الذين عارضوا الظلم ووقفوا مع المغاربة، لجاز القول إن الثقافة الفرنسية خالية من المبادئ الإنسانية السامية.

وقد أثّرت خيبة أمل المثقف المغاربي في زميله الفرنسي أثرا قويا في تطور أحداث الرواية وبنائها. حيث يرى المثقف المغاربي –في البداية - المثقف الفرنسي مثلا يحتذى وطوق نجاة، فيعجب به ويؤمن بأفكاره ويتغنى بأشعاره ويردد أقواله ويتبع مبادئه أحيانا، ومع مرور الزمن يلاحظ المثقف المغاربي صورة أخرى لزميله الفرنسي، كالنّفاق، وعدم العمل على تحقيق المبادئ التي يدعو إليها، ويكتشف أن ما يدعيه مجرد وسيلة لتحقيق مآرب معينة. ومن ثمة يصاب المثقف المغاربي بخيبة أمل كبيرة في زميله الفرنسي. وبذلك يتغير مجرى أحداث الرواية بتغير نظرة البطل وسلوكه مسلكا مغايرا أو مناقضا لما كان يؤمن به، مثلما حدث "لإدريس" في رواية "الماضي البسيط"، ولـ"والديك" في رواية "التيوس"، ولـ "خالد" في رواية "ساهبك غزالة"[73].

ونادرا ما يكون تأثير المثقف الفرنسي في المثقف المغاربي إيجابيا، مثلما حدث لـ "كمال" بطل رواية "الرب في بلاد البربر" لمحمد ديب، حيث أعجب كمال

---

[73] الفصل الثالث، شخصية المثقّف.

بصديقه "جان ماري أيمار" لأفكاره الواضحة ومبادئه الثابتة، ودفعه ذلك الإعجاب إلى كشف الألغاز التي كانت تحيط به، ثم رسم طريقه[74].

وهكذا، نلاحظ أن الرواية المغاربية الفرنسية اهتمت بشخصية المثقف الفرنسي كما وكيفا، حيث وردت صورته عدة مرات، وفي عدد من الروايات؛ وكان له دور هام في تطور أحداث الرواية، بسبب الاحتكاك الشديد بينه وبين زميله المغاربي الذي انخدع به.

أما الرواية العربية المغاربية، فلم تتأثر إطلاقا بشخصية المثقف الفرنسي لأن المثقفين المغاربة –المعربين - بعيدون البعد كله عن أجواء المثقف الفرنسي، فلم يدرسوا معه، ولم يعمل أي واحد منهم في الصحافة الفرنسية، ولم ينشروا في دور النشر الفرنسية، وقراءاتهم الفرنسية قليلة جدا إن لم تكن منعدمة. يضاف إلى ذلك تركيز الرواية العربية المغاربية على أحداث ثورات المغرب ومن بعيد أيضا.

-شخصية رجل الدين المسيحي: وقد وردت صورته في الرواية المغاربية الفرنسية مرتين، بنسبة (4,4%) من مجموع الشخصيات الوارد ذكرها ضمن روايتين. وهو يتسم بالجمال والقامة الطويلة واللحية المرسلة والمشية الصلبة والجثة الضخمة والصوت القوي الخفيض والرشاقة، ويبلغ الثلاثين من العمر، كما يتسم بالبساطة وقوة الشخصية والجاذبية والجدية والصداقة وإثارة إعجاب الآخرين، وأحيانا يتسم بالزيف والنزعة الاستعمارية. إنه مثال أمام المغاربي في رواية "ابن الفقير" لمولود فرعون، واستعماري في رواية "الماضي البسيط" لإدريس الشرايبي[75].

---

[74] الفصل الثالث، شخصية المثقّف.

[75] الفصل الثالث، شخصية رجل الدّين.

نلاحظ أن الاهتمام برجل الدين المسيحي قليل من حيث الكم، والسبب في ذلك يعود إلى مقاومة المغاربة لأي تقارب مع الكنيسة ونفورهم الشديد من رجل الدين المسيحي، وخلو المجتمع المغاربي -تقريبا - من المسيحيين قبل الغزو الفرنسي. كما نلاحظ بساطة في كيفية رسم صورة رجل الدين المسيحي، فهو مثال في نظر بطل رواية "ابن الفقير"، لأنه قدم له المأوى وساعده على متابعة تعلمه دون أن يسائل نفسه: لماذا يفعل كل ذلك ؟! وطبيعي ألا يسأل، فهو طفل صغير يتمنى أن يكمل دراسته ووجد من يساعده على تحقيق بغيته، فلماذا يسأل[76].

أما في رواية "الماضي البسيط"، فالبطل يكتشف حقيقة الأب المسيحي عندما يرفض مساعدته. ويصدم البطل، لأنّه حتى الأب المسيحي يتعامل معه على أساس عنصري، فما الفرق إذن بينه وبين اي أوروبي استعماري آخر؟! طبعا لا فرق. فقد تحقق هدف السلطة وهدف الكنيسة من "إدريس"، ثار "إدريس" على والده وأسرته، فحقق هدف السلطة، وثار على الدين الإسلامي فحقق هدف الكنيسة[77].

وهكذا، نلاحظ أن لرجل الدين المسيحي أثرا في تطور أحداث الرواية، فهو السبب في متابعة "فورولو" دراسته، وهو من الأسباب الهامة في إدراك "إدريس" الحقيقة، ومع ذلك فهو لا يتمتع بتأثير قوي في أحداث الرواية لأنه بعيد عن المغاربي، واحتكاكهما نادر. وينعدم هذا الاحتكاك مع المغاربي المعرب، ولذلك لم يرد له ذكر في الرواية العربية المغاربية.

وتضمنت الرواية المغاربية الفرنسية إشارات متعددة إلى الفرنسيين بصفة عامة ضمن تسع روايات -بنسبة (56,25%) من مجموع الروايات التي شملتها الدراسة، وجلي أن الفرنسيين يتمتعون بحضور قوي في الرواية المغاربية الفرنسية.

---

[76] الفصل الثالث، شخصية رجل الدّين.

[77] الفصل الثالث، شخصية رجل الدّين.

يتقسم الفرنسيون -حسب الرواية المغاربية الفرنسية - إلى نوعين: فرنسيون أشرار أشارت إليهم ثماني روايات (أي50% من الروايات المدروسة)، يتسمون بالظلم والتعدي والاستغلال والاحتقار والنفاق والحقد والغباء، وهمُّهم الوحيد تحطيم المغاربة وكسر شوكتهم بما فيهم الشيوعيون أيضا[78].

فرنسيون طيبون أشارت إليهم ست روايات -أي (37,5%) من مجموع الروايات المدروسة -، يتسمون بالجدية في العمل والاجتهاد والصرامة والتحضر والرقي واللطف وحب الإنسانية وبغض الظلم والبعد عن احتقار المغاربة؛ ولذلك فهم يساعدون المغاربة ولا يعملون على عرقلتهم[79].

والملاحظ أن الرواية المغاربية الفرنسية، عرضت صورتين للفرنسيين: صورة حميدة وأخرى ذميمة. وجاءت الصورتان متعاكستين أو متناقضتين خلقا وأفعالا، وبذلك لم يظلم الروائيون المغاربة الفرنسيين بعرض صورة قبيحة لهم، ولم يمجدوهم برسم صورة رائعة. بل رسموا صورا قبيحة لمن ظلمهم وأخرى حميدة لمن ساعدهم، أو لم يعرقلهم.

ولكننا نلاحظ أن نسبة الروايات التي تضمنت الصور القبيحة، أعلى من نسبة الروايات التي تضمنت الصور الحميدة، وهذا أمر منطقي للغاية، فلو كان الفرنسيون الطيبون أكثر من الظالمين لما استعمروا المغرب العربي، ولما ظلموا المغاربة. كما أن الحكم على الفرنسيين عامة بالظلم لا يستسيغه منطق، فلا وجود لشر مطلق ولا وجود لخير مطلق. لذلك تضمنت الرواية المغاربية الفرنسية صورة كبيرة للفرنسيين مكونة من مجموعة من صور صغيرة فيها القبيحة وفيها الجميلة.

---

[78] الفصل الثالث، الفرنسيون عامة.

[79] الفصل الثالث، الفرنسيون عامة.

وللفرنسيين الأشرار في تطور أحداث الرواية أثر، ففي رواية "نجمة" لكاتب ياسين يهدم "برونو" أسرة جزائرية، وبسببه يتشرد ابن تلك الأسرة ويندفع في مغامرة تستغرق أحداث الرواية كلها، فيكون السيد "برونو" سببا من الأسباب التي قادت أحداث الرواية[80].

وفي رواية "التلميذ والدرس" لمالك حداد يصاب "عمر" –بطل الرواية - بصدمة عنيفة جدا عندما يسمع أن رفاقه الفرنسيين صوتوا مع الأحكام الخاصة ضد الجزائريين بما فيهم رفاقهم، ويقرر الا يغفر لهم شيئا وبخاصة لمن أحبهم ثم خانوا[81]. وبذلك يغير طريقه النضالي.

كما أن للفرنسيين الطيبين أثرا في تطور أحداث الرواية، ففي رواية "سأهبك غزالة" لمالك حداد، يثير السيد "موريس" إعجاب بطل الرواية ويتعلق به. يتعلق به لأنه إنسان حساس رقيق المشاعر، يكره الحرب والظلم، ويساعد كل محتاج إليه، إنه إنسان حقا[82].

وفي رواية "التلميذ والدرس" لمالك حداد، يعجب الدكتور "صالح" - بطل الرواية - بزميله الفرنسي الدكتور "كوسط" الجراح المشهور، لذكائه وفطنته وموهبته في تخفيف آلام الناس؛ ثم يتحول الإعجاب إلى شيء آخر يشبه التقديس. فبعد موت "كوسط" وزيارة "صالح" لزوجته، يكتشف أن الدكتور "كوسط" كان يخفي في بيته "عمر" المناضل الجزائري وخطيب كريمة الدكتور "صلاح" الذي رفض إخفاءه. وتكون الصدمة عنيفة جدا على الدكتور، ولا يخرج من منزل المرحوم زميله إلا وهو ممسك بيد "عمر"[83]. وهكذا تحول الدكتور "صالح" إلى مناضل بفضل الدكتور "كوسط".

---

(80) الفصل الثالث، الفرنسيون عامة.

(81) الفصل الثالث، الفرنسيون عامة.

(82) الفصل الثالث، الفرنسيون عامة.

(83) الفصل الثالث، الفرنسيون عامة.

كما عرض مالك حداد في روايته "رصيف الأزهار لا يجيب"، صورة مؤثرة لفرنسي طيب هو السيد "بيم بو" الذي أكل أعز صديق لديه أثناء الحرب العالمية الثانية، وبقي حزينا على صديقه العزيز، تنهمر دموعه كلما تذكره؛ ويقص قصته على كل إنسان، يقص قصته مع حماره الذي كان صديقه الصدوق ومصدر رزقه؛ والذي لم يخذله ولم يخنه إطلاقا، ولكنه خانه هو وأكله، لقد أكل صديقه.

لقد أثر الفرنسيون في تطور أحداث الرواية المغاربية، وكانوا عنصرا هاما في بنائها، أثروا فيها بتأثيرهم في الشخصيات المغاربية سلبا وإيجابا.

وهكذا، نلاحظ أن الروائيين المغاربة تأثروا بالفرنسيين عامة، ورسموا صورا لهم نتيجة الاحتكاك القائم بينهم بناء على الاشتراك في ثقافة واحدة، وكل ما يتصل بتلك الثقافة. أما الروائيون المصريون فإشاراتهم إلى الفرنسيين عموما ضعيفة ضعف الاتصال الموجود بينهم.

تضمنت الروايات العربية المنتقاة اثنتين وخمسين صورة للرجل الفرنسي، مجموعها سبعة نماذج، وتضمنت الروايات المغاربية الفرنسية ستا وأربعين صورة مجموعها تسعة نماذج؛ ولكل نموذج فرنسي نسبة حضور ضمن مجموع الشخصيات.

من نسبة حضور كل نموذج نحصل على الترتيب التالي للفرنسي في الرواية العربية المغاربية، اعتمادا على الكم: الجندي (34,6%)،رجل الأمن (28,8%)، رب العمل (17,3%)، الحاكم (7,7%)،رجل التعليم (5,8%)،القاضي (3,8%)، المعمر (1,9%).

ونحصل على الترتيب الآتي للفرنسي في الرواية المغاربية الفرنسية: الجندي (28,4%)، المثقف (17%)، رجل الأمن (13%)، الطالب (10,8%)، رجل التعليم (8,7%)، الحاكم (6,5%)، المعمر (6,5%)، رب العمل (4,4%)،رجل الدين (4,4%).

وبالتمعن في نسب نماذج الفرنسي وترتيبها نلاحظ أن:

-الوجود الفرنسي في الرواية العربية المغاربية أكثر من الرواية المغاربية الفرنسية من ناحية الكم.

-نماذج الفرنسي في الرواية العربية المغاربية أقل من الرواية المغاربية الفرنسية، وذلك يعني أن الرواية المغاربية الفرنسية تضمنت شخصيات فرنسية متنوعة أكثر من الرواية العربية المغاربية. وبالتالي يكون الحضور الفرنسي في العالم الروائي المغاربي المفرنس أوسع وأغنى وأخصب من زميله الذي يكتب بالعربية.

-تحتل النماذج الرسمية في الرواية العربية المغاربية (الجندي، رجل الأمن، الحاكم والقاضي) ثلاثة أرباع نسبة الوجود الفرنسي (74,9%)بينما تحتل مثيلاتها (الجندي، رجل الأمن، الحاكم) في الرواية المغاربية الفرنسية اقل من نصف نسبة الوجود الفرنسي (47,9%). وتوضح النسبتان أن الرواية العربية المغاربية غنية بالنماذج الرسمية، فقيرة في النماذج المدنية التي تبرهن على تأثر المغاربة بالفرد الفرنسي أو عدم تأثرهم به.

- لا تكاد النماذج المثقفة في الرواية العربية المغاربية (رجل التعليم) تكون (5,8%)، بينما يحتل المثقف والطالب ورجل التعليم ورجل الدين في الرواية المغاربية الفرنسية مساحة كبيرة من نسبة الوجود الفرنسي (40,9%)؛ وهذا يدل على كثرة اهتمام الروائيين المغاربة المفرنسين بالمثقفين الفرنسيين وتأثرهم بهم، عكس إخوانهم المعربين الذين يكاد تأثرهم بالمثقفين الفرنسيين ينعدم، اي ان تأثرهم بالضمير الفرنسي يكاد يكون منعدما سلبا او إيجابا.

-تأثر الروائيين المغاربة المفرنسين بالفرنسي اقوى واوسع من تأثر زملائهم المعربين الذين لم يتأثروا إلا برجال السلطة نتيجة التصادم معهم، ولذلك جاء تأثرهم سطحيا باهتا رغم كثرة الشخصيات الفرنسية التي حفلت بها رواياتهم.

ولقد كان انعكاس رسم صور الفرنسي قويا على أساليب الروائيين المغاربة المفرنسين ضعيفا على أساليب إخوانهم المعربين. حيث يلاحظ المتتبع لصور الفرنسي في الرواية العربية المغاربية أن الأسلوب السائد في رسمها يعتمد على السرد التقريري المباشر ذي النبرة الخطابية والوصف المباشر المشحون بالكلمات الضخمة التي لا تبرز صورة للشخص، وإنما تبرز رأى القاص في الشخص، ومعنى ذلك أن الروائيين المعربين رسموا صورة الفرنسي كما يرونها ويريدون للغير أن يراها حتى يقتنع بوجهة نظرهم، وسبب ذلك شدة تعاطفهم مع القضية المغاربية وبعدهم عن الاحتكاك بجوهر الفرنسي. أما المتتبع لصور الفرنسي في الرواية المغاربية الفرنسية، فيلاحظ تنوعا وثراء في طرق رسم شخصية الفرنسي. فالتقديم متنوع متعدد، حيث نجد: التقديم المباشر للشخصية عند "مولود فرعون" في روايتيْه "ابن الفقير" و"الأرض والدم"، وعند "مولود معمري" في روايته "سبات العادل"، والتقديم المجزأ عند "إدريس الشرايبي" في روايتيْه "الماضي البسيط" و"التيوس"، والتقديم المتعدد عند "كاتب ياسين" في روايته "نجمة"، ثم التقديم المجزّأ مع النبرة الشاعرية عند "مالك حداد" في روايتيْه... إلخ.

وكما تنوعت طرق رسم شخصية الفرنسي، فقد تنوّعت أساليب رسمها أيضا، فمن التصوير التقريري المباشر والوصف الساذج عند "مولود فرعون"، إلى التصوير الدقيق للواقع عند "محمد ديب" و"مولود معمري"، إلى التصوير العنيف ذي الجمل المتفجرة عند "إدريس الشرايبي" و"كاتب ياسين"، إلى التصوير الإيحائي اللماح عند "مالك حداد"... إلخ، وذلك بالاعتماد على السرد والحوار والتداعي والتذكر، أي استعمل الروائيون المغاربة معظم الأساليب الفنية لرسم صورة الفرنسي نتيجة لثقافتهم الواسعة وبخاصة الأدبية، ثم للاحتكاك الشديد القائم بينهم وبين الفرنسيين في مختلف المجالات.

ونستخلص مما سبق ذكره، أن الفرنسي أثر في حياة المغاربي وظهر ذلك التأثير في الرواية المغاربية -عربية كانت أم فرنسية اللغة - ولكن تأثر الروائي

المغاربي المفرنس بالفرنسي أقوى من تأثر أخيه المعرب نتيجة الاحتكاك الشديد بينه وبين المغاربي المفرنس، والاحتكاك الضعيف جدا بينه وبين المغاربي المعرب. ويرجع ذلك إلى عاملين أساسيْن:

-الأول وهو الرابطة اللغوية التي تربط المغاربي المفرنس بالفرنسي وتبعد المعرب عنه.

-والثاني وهو الاجتماعي أو الحضاري، حيث نجد أغلبية الروائيين المفرنسين من سكان المدن، ثم من أسر متوسطة على الأقل، بينما نجد أغلبية الروائيين المعربين من سكان الأرياف أو القرى، ثم من أسر فقيرة أو متوسطة في أحسن الأحوال. ولا شك أن للمستوى الاجتماعي دخلا كبيرا في التقارب أو التباعد بين الفئات.

ونتيجة لتأثر الروائي المغاربي المفرنس القوي بالفرنسي، جاءت صورة الفرنسي لديه واضحة الملامح مقنعة قوية التأثير سلبا أو إيجابا، وجاءت عند أخيه المعرب باهتة الملامح غير مقنعة لأن الروائي لم يسبر أغوارها ولم يعلل لما يصفها به، فجاءت دمية جامدة ألبست أثوابا.

لقد رسم الروائيون المغاربة -معربون ومفرنسون - الفرنسي، فأجاد البعض الرسم وكاد البعض الآخر، في حين لم يفلح الباقون في ذلك. وجاءت صور الفرنسي متنوعة متعددة، فلم يعط له نمط واحد، بل نجد عند الروائي الواحد نماذج طيبة وأخرى شريرة، وهذا هو المعقول، فمن المستبعد جدا أن يكون قوم أشرارا خلصا أو طيبين خلصا.

ومعنى ذلك أن الروائيين المغاربة لم يغمطوهم حقهم. والبرهان على ذلك أن أغلب الشخصيات الفرنسية الشريرة الواردة في الرواية المغاربية تندرج ضمن نماذج السلطة (الحاكم، القاضي، الجندي والشرطي)، وبديهي أن تعمل تلك النماذج على تحطيم المغاربي لأن هدفها المحافظة على الوضع الاستعماري القائم. ورغم ذلك، لم توصف كل شخصيات تلك النماذج بالشر، بل صُوِّر

البعض منها صورا حسنة مثل محافظ الأمن "جان" في رواية "ابناء العالم الجديد" لآسيا جبار، ومثل الجندي "أوبير" في رواية "الأفيون والعصا" لمولود معمري... إلخ. يجد القارئ انماطا عديدة متنوعة، كما هو الشان في الواقع الحقيقي الذي عاشه المغاربة مع الفرنسيين. ويدلّ تعدد أنماط الفرنسي في الرواية المغاربية على التأثر القوي الذي حدث بين الفرنسي والمغاربي، وبخاصة المغاربي المفرنس الذي رسم صورا دقيقة جدا للفرنسي يمكن أن يقال أنها تمثل الفرنسي أصدق تمثيل بمحاسنه ومساوئه.

ثانيا- صورة الفرنسية بين الرواية العربية المغاربية والفرنسية المغاربية

صورت الرواية العربية المغاربية اثنتي عشرة صورة للمرأة الفرنسية تجمعها خمسة نماذج[84]، وحوت الرواية المغاربية الفرنسية خمسا وعشرين صورة تجمعها خمسة نماذج أيضا[85]، ويوضح العددان السالفا الذكر أنّ وجود الفرنسية في الرواية المغاربية الفرنسية يمثل ضعف وجودها في الرواية العربية المغاربية، بل يزيد بقليل. والنتيجة البديهية لذلك، أن المرأة الفرنسية تحتل مساحة واسعة في العالم الروائي للمغاربي المفرنس، عكس أخيه المعرب. وسنعرض أوجه التشابه والاختلاف بين نماذج الفرنسية في الرواية العربية المغاربية والرواية المغاربية الفرنسية.

1 - تمثل زوجة الفرنسي أهم شخصية أنثوية في الرواية العربية المغاربية، حيث بلغت نسبة توظيفها بين الشخصيات المؤنثة (33,3%)[86]، ورغم كونها أهم شخصية إلا أن الرواية لم ترسم لها صورة واضحة أو قوية. فصفاتها الجسمية

---

[84] الفصل الثاني، شخصية المرأة الفرنسية.

[85] الفصل الرابع، صورة المرأة الفرنسية.

[86] الفصل الثاني، شخصية زوجة الفرنسي.

قليلة، أهمّها: شعر أشقر أو أشيب، قامة هيفاء، أطراف لينة، ساقان أبيضان، نظيفة، جميلة، ناضجة، مجعدة. بينما قلّ ذكر صفاتها المعنوية: طيبة القلب حنون رقيقة، ثرثارة، خائنة لزوجها جنسيا، ولا علاقة بينها وبين المغاربي، فهو إما معجب من بعيد نتيجة جمالها أو طيبتها، وإما محتقر لها نتيجة سوء أخلاقها حسب رأيه[87].

أما في الرواية المغاربية الفرنسية فلا تحظى زوجة الفرنسي بتلك الأهمية التي حظيت بها في الرواية العربية، إذ لا تتعدى نسبة حضورها (16%) من مجموع الشخصيات المؤنثة التي تضمنتها الرواية[88]؛ ولكنها حظيت -رغم ضعف حضورها - بصورة أوضح وأقوى، إذ ذكرت لها صفات جسمية أكثر وأدق من صفاتها في الرواية العربية: إنها جميلة جدا، لها عينان شديدتا السواد والاتساع أو صبيانيتان، وجبهة عريضة، وكتفان أبيضان كالعاج، ووجنتاها ملساوان كالمخمل، وشعر حريري متماوج أسود أو بشع ناصل، وصدر كريم، وردف مثير، وتمتاز بالأناقة والرشاقة، والانطلاق، وتبلغ الستين من العمر.

كما وصفت بصفات معنوية أكثر وأدق فهي: لطيفة، لبقة، فضولية، جريئة، شهوانية، خائنة فاسقة، متغطرسة، محبة للمظاهر، متعصبة لفرنسا، غبية، ثرثارة، مدعية. وربع الزوجات الفرنسيات يثرن شفقة المغاربي لسوء ظروفهن عموما، أما الثلاثة أرباع الباقية فلا يثرن سوى سخطه ومقته نتيجة تصرفاتهن المشينة وفسقهن وخيانتهن[89].

عندما نتمعن في صورة زوجة الفرنسي في الرواية العربية المغاربية ثم في الرواية المغاربية الفرنسية، سنلاحظ أنها لا تحظى في الرواية المغاربية الفرنسية

---

[87] الفصل الثاني، شخصية زوجة الفرنسي.

[88] الفصل الرابع، شخصية زوجة الفرنسي.

[89] الفصل الرابع، شخصية زوجة الفرنسي.

باهتمام كبير مثل الرواية العربية المغاربية من ناحية الكم، ومرد ذلك إلى ضبابية صورة المرأة الفرنسية بصفة عامة عند الروائي المعرب، نتيجة لوجود حاجز لغوي واجتماعي بينهما قلل من احتكاكهما. إلا أننا نلاحظ وضوح صورتها وقوتها في الرواية المغاربية الفرنسية أكثر منه في الرواية العربية المغاربية، حيث تشترك الروايتان اللتان صوّرتاها في التركيز على جمالها وبياض لونها ونظافتها وقامتها الهيفاء وشعرها الحريري وجمال أطرافها، وتتفرد الرواية المغاربية الفرنسية بالتفاصيل التالية: عينان شديدتا الاتساع، جبهة عريضة، وجنتان ملساوان كالمخمل، شعر متماوج أسود، صدر كريم، أنيقة، رشيقة، منطلقة، لها ردف مثير. والملاحظ أن الصفات الجسمية المشتركة بين الروايتين يغلب عليها الطابع العام، حيث تنطبق تلك الصفات على الكثير من الأوروبيات، أما سواد العينين واتساعهما والوجنتان الملساوان كالمخمل، والشعر المتماوج... إلخ، فتلك صفات لا تدرك إلا بالاحتكاك.

كما تشترك الروايتان في بعض صفات زوجة الفرنسي المعنوية، مثل الطيبة وحب الثرثرة والخيانة الزوجية والشهوانية، وتزيد الرواية المغاربية الفرنسية: اللطافة واللباقة وحب التطلع والجرأة والغطرسة وحب المظاهر والتعصب لفرنسا والغباء والادّعاء.

واشتركت الروايتان في صفات تكاد تكون عيوبا كلها لولا ذكر الطيبة.

وترجع طيبة الفرنسية إلى رقة قلبها الذي لم تحجره الظروف، والمرجح أن المغاربي عاب على الفرنسية تلك الصفات لأنها لا تهتم كثيرا بإخفائها، وزادت الرواية المغاربية الفرنسية صفات تدل على إدراك الروائي لحقيقة زوجة الفرنسي؛ فتلك الصفات لا تعرف إلا بالمعايشة والاحتكاك.

ونتيجة لإدراك المغاربي المفرنس حقيقة زوجة الفرنسي، وعدم إدراك أخيه المعرب، جاءت نظرتاهما إلى زوجة الفرنسي متعاكستين؛ حيث رضي المعرب على ثلاثة أرباع الزوجات الفرنسيات نتيجة إعجابه بهن أو مساعدتهن له، واحتقر

الربع الباقي لسوء أخلاقهن وفسقهن[90]؛ بينما غضب المفرنس من ثلاثة أرباعهن لفسقهن أو خيانتهن او بسبب تصرفاتهن المثيرة، وأشفق على الربع الباقي لصعوبة ظروفهن[91]؛ أي لم يعجب الروائي المغاربي المفرنس بتاتا بزوجة الفرنسي.

لقد رسم الروائي المغاربي المعرب صورة زوجة الفرنسي رسما سطحيا او كما يراها من بعيد، ورسمها المغاربي المفرنس رسما أعمق أو كما خبرها، وانعكس ذلك على طريقة رسم الصورتين حيث اعتمدت الرواية العربية على السرد المباشر من قبل البطل المغاربي الذي يصف جمال جسمها وجوعها الجنسي، مقارنا ما أعجبه فيها بما لا يعجبه في المغاربية، وتاركا ما لا يعجبه فيها دون مقارنة[92]؛ أي أنّه ينتقي ما يريد ذكره، ويترك ما لا يريد. وبذلك، لا تتمتع بأي حضور أو اي تأثير في تطور الأحداث أو بناء الرواية، لأن البطل يذكرها إذا أراد ويتركها إذا أراد، ولا يغير ذلك شيئا.

أما الرواية المغاربية الفرنسية، فقد اعتمدت هي الأخرى على السرد من قبل البطل المغاربي، ولكنه لم يركز في رده على جمال جسمها، بل ركز على أعمالها وتصرفاتها معه أو مع غيره، أي لم يصفها بل قص ما حدث له معها؛ فقدمها متحركة لا جامدة، وبذلك شاركت ولو مشاركة طفيفة جدا في تطور أحداث الرواية بواسطة تأثيرها في البطل المغاربي الذي يعتبر محور الرواية[93].

وتضمنت الرواية العربية المغاربية صورتين للفتاة الفرنسية، اي بنسبة (16,7%) من مجموع الشخصيات المؤنثة، موزعة بين روايتين.

وجاءت الصورتان سطحيتين حيث رسمتا رسما خفيفا، فالفتاة الفرنسية لها شعر أشقر ووجه أبيض ضاحك وعينان لامعتان وقامة ممشوقة ولبس رشيق.

---

[90] الفصل الثاني، شخصية زوجة الفرنسي.

[91] الفصل الرابع، شخصية زوجة الفرنسي.

[92] الفصل الثاني، شخصية زوجة الفرنسي.

[93] الفصل الرابع، شخصية زوجة الفرنسي.

وواضح أن هذه الصفات الجسمية عامة لا تخص فتاة معينة، وزيادة على عموميتها فهي من الصفات التي تلاحظ من بعيد بنظرة عابرة.

كما تتصف -معنويا - بقوة الشخصية والطيبة واللطف والتحرر والذكاء والعفة وبغض النزعة الاستعمارية، ولذلك أعجب البطل المغاربي بجمالها وقوة شخصيتها[94].

وتضمنت الرواية المغاربية الفرنسية صورتين للفتاة الفرنسية، أي بنسبة (8%) من مجموع الشخصيات المؤنثة، موزعة بين روايتين. وتتسم الفتاتان بنفس السمات التي اتسمتا بها في الرواية العربية المغاربية، حيث ركزت الرواية على الطول الفارع والصدر الكبير والعينين الكبيرتين البراقتين والرموش الطويلة والأظافر المطلية. إنها صفات عامة خارجية، كما نجد تشابها في الصفات المعنوية مثل قوة الشخصية والطيبة وشدة الحساسية والعاطفية، ثم تزيد الرواية المغاربية الفرنسية الهدوء والغرور والنزعة العنصرية وإدمان الخمر؛ ولذلك اختلف رأي الروائي المغاربي المفرنس في الفتاة الفرنسية عن رأي أخيه المعرب الذي لم يعجب بها، بل أشفق على البعض منهنّ لسوء ظروفهن الاجتماعية، واغتاظ من البعض الباقي لسوء تصرفاتهن معه وسوء أخلاقهن[95].

تشابهت الروايات المغاربية في رسم صورة الفتاة الفرنسية جسميا، واختلفت في بعض الصفات المعنوية، حيث أبرزت الرواية المغاربية الفرنسية صفات لا تدرك إلا بالاحتكاك والمعايشة، فالغرور والعنصرية وإدمان الخمر أمور خاصة بالشخص، ولا يعلمها إلا من يعايشه أو يلاحظ تصرفاته ويدقق فيها ولو من بعيد.

---

[94] الفصل الثاني، شخصية الفتاة.

[95] الفصل الرابع، شخصية الفتاة.

لقد أدرك الروائي المغاربي المفرنس شيئا من نفسية الفتاة الفرنسية - بحكم احتكاكه بالفرنسيين نتيجة ثقافته الفرنسية أو قراءاته في الأدب الفرنسي -، ولم يصل أخوه المعرب إلى شيء من ذلك بحكم الانفصال القائم بينه وبين الوجدان الفرنسي؛ ولذلك جاءت صورة الفتاة الفرنسية في الرواية العربية المغاربية سطحية جدا خالية من أيّ عمق نفسي، وكأنها صورة أو دمية جامدة. فقد رسمها الروائي بسرد تقريري مباشر من قبل البطل المغاربي الذي أعجب بجمالها وقدرتها على الحركة الحرة -على عكس الفتاة المغاربية -، دون أن يدرك أو يذكر أي شيء عن خلفيات ذلك.

أما في الرواية المغاربية الفرنسية، فتختلف صورتها بعض الشيء، حيث رسم الروائي صورتها بأسلوب سردي من خلال حديث البطل المغاربي عنها، ولكنه لم يقتصر على وصف جمالها الجسدي، بل رسم أيضا تصرفاتها مع المغاربة، والدوافع التي تدفعها إلى القيام بتلك التصرفات. وبذلك جاءت صورتها حية ولعبت دورا -ولو بسيطا - في تطور أحداث الرواية، حيث كانت السبب في بعض أعمال البطل المغاربي أو مواقفه، بينما لا تأثير لها في البطل المغاربي في الرواية العربية المغاربية، لأن الروائي لم يتأثر بها حقيقة، وإنما حشرها حشرا ضمن الشخصيات.

التاجرة أو صاحبة المحل هي المرأة الثانية -من ناحية الكم - في الرواية العربية المغاربية، حيث بلغت نسبة حضورها (25%) من مجموع الشخصيات المؤنثة الواردة. ولرسم صورتها ركزت الرواية على كبر سنها وترهل جسدها وبدانتها وشعرها الأبيض أو الأشقر وعينيها الغائرتين. أما من الناحية المعنوية، فقد ركزت على ثرثرتها ومشاكستها وحقدها وكذبها وحب الاستغلال وافتخارها الشديد أو ادعائها، ثم نزعتها الاستعمارية[96]. أما في الرواية المغاربية الفرنسية،

---

[96] الفصل الثاني، شخصية التّاجرة.

فالتاجرة أو صاحبة المحل لا تمثل إلا (16%) من مجموع الشخصيات المؤنثة الواردة، وتتسم بمتانة الجسم أو ضخامته والامتلاء أو السمنة والقصر وبياض البشرة والشعر الأشقر والرائحة الكريهة التي تفوح منها ثم اللباس الأسود؛ كما تتسم معنويا بقوة الشخصية وإتقان إدارة المحل، والمرح، وحسن الاستقبال، والطبع الحاد، والبخل، والاستغلال، والرغبة الجنسية الجامحة.

ولذلك استطاعت استغلال المغاربي بما توفر له، عدا ربعهن، ساعدنه أو لم يعملن على استغلاله[97].

من التمعن في صورتي التاجرة أو صاحبة المحل الفرنسية، نلاحظ أن صفاتها في الرواية العربية المغاربية تنطبق أكثر على العجوز بصفة عامة، فالترهل والبدانة والشعر الأبيض والثرثرة والمشاكسة والإزعاج... إلخ، من صفات العجوز التي لا عمل لها ولا شغل تشغل به نفسها. بينما تنطبق صفاتها في الرواية المغاربية الفرنسية أكثر على التاجرة أو صاحبة المحل، فمتانة الجسم وقوته من مؤهلات التجارة، واللباس الأسود مناسب ايضا للتجارة حتى لا يتسخ بسرعة مثل اللباس الزاهي، وفوحان الرائحة الكريهة أمر طبيعي عند التاجرة التي تبيع الخمور أو التي تدير محلا مشبوها. كما نلاحظ أن صفاتها المعنوية أكثر ملاءمة للتاجرة، فكيف تتاجر المرأة أو تدير محلا إذا لم تكن تتمتع بشخصية قوية وحسن استقبال، وروح مرحة لجذب الزبائن، وبديهي أن تكون بخيلة واستغلالية وحادة الطبع، حتى لا يطمع فيها أحد.

أما رغبتها الجنسية الجامحة، فبديهي أيضا أن تكون فاسقة لأنها تعمل في وسط فسق أولا، واختارت المتاجرة في الفساد نتيجة لميولها واستعداداتها ثانيا. رسم الروائي المغاربي المعرب صور التاجرة الفرنسية أو صاحبة المحل، فجاءت صورتها سطحية مسطحة، خالية من أي عمق نفسي، نتيجة اعتماد الروائي على

---

[97] الفصل الرابع، شخصية التّاجرة .

التصوير من بعيد، واعتمادا على الصفات المظهرية الظاهرة والحركات العامة، وذلك بسبب الانفصال القائم بينه وبين الفرنسية وضعف قدرته على المعايشة الوجدانية بسبب ضعف قدرته الروائية؛ وقد يكون ذلك كلّه مجرّد تصوّرٍ ذهني ناجم عن رؤية مسبقة رسمها الرّوائي نتيجة حرمانه.

أما الروائي المغاربي المفرنس، فقد رسم صورة التاجرة الفرنسية أو صاحبة المحل من خلال أعمالها وتصرفاتها مسخرا صفاتها الجسمية والمعنوية لخدمة غرضه، وبذلك لم تأت صورتها سطحية ومسطحة، بل جاءت مجسمة لكائن حي له حسناته وسيئاته ودوافعه التي تفسر أعماله؛ ولذلك اعتمد الروائي المفرنس على سرد الأحداث المزدوجة أي ما حدث للبطل مع التاجرة أو صاحبة المحل من خلال حديثه هو، بينما اعتمد الروائي المعرب على وصف التاجرة وذكر أعمالها دون أن يحدث أي شيء بينها وبينه. وبذلك نستخلص أن ليس للتاجرة أو صاحبة المحل في الرواية العربية المغاربية أي أثر على الأحداث أو تطورها أو بنائها، بينما لها أثر في تطور الأحداث في الرواية المغاربية الفرنسية رغم ضآلة نسبة حضورها بين مجموع الشخصيات المؤنثة الواردة فيها، وذلك يعني قوة صورة التاجرة في الرواية المغاربية الفرنسية وضعفها في الرواية العربية المغاربية.

-الفرنسية الموظفة في الأجهزة الحكومية من الشخصيات المرسومة في الرواية المغاربية، ولكنها قليلة في الرواية العربية المغاربية، وقليلة جدا في الرواية المغاربية الفرنسية، حيث بلغت نسبة حضورها (16,7%) من مجموع الشخصيات المؤنثة في الرواية العربية، ونسبة و(4%) في الرواية الفرنسية.

وتتسم الموظفة في الرواية العربية بالشعر الأشقر، والوجه السمح، والعينين الزرقاوين أو الخضراوين، والقامة الفارعة، والشباب الغض، واليدين البضتين، والصوت الرقيق؛ وكلها صفات عامة تنطبق على الكثير من الأوروبيات

اللائي يراهن الناظر في الشارع، كما تتسم باللطافة والذكاء والروح الإنسانية. ولذلك، فالمغاربي معجب بها كل الإعجاب[98].

أما في الرواية الفرنسية، فهي تتسم بالنظافة وزرقة العينين والجمال بصفة عامة، والملاحظ أن الروايتين اشتركتا في الصفات الجسمية العامة التي تنطبق على جل الأوروبيات. كما اشتركتا في الصفات المعنوية أيضا، حيث تصفها الرواية الفرنسية بالرقة ورهافة الإحساس والروح الإنسانية الطيبة. ولذلك، أعجب بها المغاربي في الرواية الفرنسية أيضا[99]. وبديهي أن يعجب طفل بمعلمته[100] أو مريض بممرضته، فالطفل المغاربي البئيس تبهره النظافة والأناقة واللباقة في الحديث... وغير ذلك من الصفات التي لا تتوفر في أمه البئيسة مثله، وكذلك يعجب المريض بممرضته التي تخفف عنه الآلام، فلا يرى إلا أفعالها الطيبة.

وكما اشتركت الروايتان -العربية والفرنسية - في صفات الموظفة الفرنسية -عاملة أو ممرضة أو معلمة -، ورأي المغاربي فيها؛ اشتركتا في رسم صورتها رسما سطحيا، وذلك لكونها هامشية جدا، وذكر البطل لها كان صدفة أو شبه صدفة.

2 - الفرنسية زوجة المغاربي أو حبيبته، آخر شخصية في الرواية العربية المغاربية من ناحية الكم، حيث لا تتعدى نسبة حضورها بين مجموع الشخصيات الواردة (8,3%) وصورتها باهتة؛ فصفاتها لا تتعدى الجمال والقامة المديدة وزرقة العينين وبياض الأسنان والرموش الطويلة وبلوغ الثلاثين من العمر، ثم الشجاعة وقوة الشخصية والجرأة والذكاء وسعة الثقافة[101]؛ إنها صفات عامة جدا لا

---

[98] الفصل الثاني، شخصية الموظّفة.

[99] الفصل الرابع، شخصية الموظّفة.

[100] الفصل الثاني، شخصية الموظّفة.

[101] الفصل الثاني، شخصية زوجة المغاربي.

تناسب المرأة التي تربطها بالبطل رابطة الزوجية أو الحب. ولذلك جاءت صورتها في الرواية العربية المغاربية باهتة غير مقنعة غير منطقية، وساعد على ذلك ضعف الرواية التي تضمنتها فنيا[102].

أما في الرواية المغاربية الفرنسية، فالفرنسية زوجة المغاربي أو حبيبته، تمثل أهم شخصية حيث بلغت نسبة حضورها بين مجموع الشخصيات الواردة (56%)،أي فاق حضورها حضور سائر الشخصيات مجتمعة؛ وتوضّح تلك النسبة الحضور القوي لزوجة المغاربي أو حبيبته في عالم الروائي المغاربي المفرنس، وشدة تأثره بها، أو بتلك العلاقة التي ربطت مغاربة عديدين بفرنسيات.

تتسم الفرنسية زوجة المغاربي أو حبيبته بالجمال ودقة الملامح والتناسق والوجه الزاهي والعينين الزرقاوين أو الغائرتين والشفتين الحمراوين والفم المتعطش والجبهة العريضة والوجه الطويل والسحنة الهادئة والشعر الأشقر والأنف القصير والحاجبين المقوسين والعنق الممتلئ والبشرة الصافية والقامة الهيفاء أو الطويلة. إنها شابة، صغيرة، ضعيفة، شاحبة اللون، ناعمة، تبدو جميلة لها صدر ممتلئ وفخذان ممتلئان وردفان مثيران ويدان دقيقتان، تلبس ملابس قصيرة.

والملاحظ، أن الرواية المغاربية الفرنسية تشترك مع الرواية العربية المغاربية في الصفات الجسمية العامة التي أوردتها الرواية العربية: الجمال، طول القامة، زرقة العينين... إلخ، وتزيد عليها صفات جزئية كثيرة جدا، حيث وصفتها الرواية المغاربية الفرنسية من أعلى الرأس إلى القدمين بصفات متعددة لا تخرج عن نطاق الجمال.

وتتسم الفرنسية زوجة المغاربي أو حبيبته بقوة الشخصية والبساطة والتواضع والهدوء، فهي زوجة صالحة أو عاشقة أو خليلة أو محبة أو باحثة عن

---

[102] رواية: ما لا تذروه الرياح، لعرعار محمد العالي وهي روايته الأولى.

اللذة والمتعة أو مؤمنة بالله أو بزوجها أو بمبادئها، إنها مثالية مناضلة مع المضطهدين مثقفة، جريئة، جدية، مثيرة، متزنة، عاقلة، عاطفية، حيوية، كثيرة التدخين، لا تحقد على أحد وتكره الظلم، عنصرية، جبانة، ضعيفة الشخصية، خائنة، ساذجة، تكره السياسة والدين، نهمة جنسيا، أكولة، ذكية، أنانية، سوقية، لا خبرة لها جنسيا، خالية من الخبث، قنوعة، مستقيمة، معجبة بنفسها، وقحة، جسورة.

لقد وصفت الرواية المغاربية الفرنسية زوجة المغاربي أو حبيبته بالصفات المعنوية التي وصفت بها في الرواية العربية المغاربية، وزادت عليها الكثير من الصفات الحميدة والذميمة.

ونتيجة لاتصاف زوجة المغاربي بصفات حميدة وأخرى ذميمة، نظر إليها نظرتين: نظرة حب لمن أحبته وأخلصت له ولقضية وطنه، ونظرة نفور لمن جنت عليه أو لم تهتم به إلا لإرواء رغبتها الجنسية[103].

فرق شاسع بين صورة الفرنسية زوجة المغاربي أو حبيبته في الرواية العربية المغاربية، وصورتها في الرواية المغاربية الفرنسية، فرق من حيث الكم، وفرق من حيث الكيف.

لم ترد ضمن كل الروايات العربية المغاربية المدروسة سوى صورة واحدة لفرنسية تعلقت بمغاربي، وهذا دليل على أن المغاربي المعرب لم يتعلق بالفرنسية ولو ذهنيا أو مجرد تصور؛ وأسباب ذلك معروفة أهمها الحاجز اللغوي، ثم الاجتماعي، ثم الثقافي. ولهذا، جاءت صورتها في الرواية العربية ضعيفة جدا، ورغم اشتراك "فرانصواز" في معظم أحداث الرواية[104]. فهي غير مقنعة، لأن الروائي حملها من الأحداث والأفكار المتعارضة ما لا يمكن قبوله.

---

[103] الفصل الرابع، شخصية زوجة المغاربي.

[104] عرعار محمد العالي: ما لا تذروه الرياح.

إذا كان المغاربي المعرب لم يتأثر بالفرنسية ولم يرتبط بها عاطفيا، فإن أخاه المفرنس تأثر بها تأثرا شديدا، يدل على ذلك عدد الفرنسيات اللائي ارتبطن بعلاقات عاطفية مع المغاربة[105]. وانعكس ذلك التأثر الشديد على الأدوار التي لعبتها الفرنسية في أحداث الروايات وبنائها، ثم على أسلوب التصوير.

تقاسمت الزوجة أو الحبيبة أو العشيقة بعض أحداث الرواية أو جلها مع البطل المغاربي سلبا أو إيجابا، اي وقفت معه أو ضده تعرقله لسبب من الأسباب، أي كانت دافعا لمتابعة البطل مسيرته او عاملا أساسيا في تغيير مسيرته إلى وجهة أخرى[106].

وكان لأهمية الأدوار التي لعبتها الزوجة الفرنسية أو الحبيبة في أحداث الرواية، أثر كبير في أسلوب رسم صورتها، فهي شخصية أساسية في الرواية، ولذلك لم تقدم تقديما عابرا، بل قدمت كما يقدم البطل المغاربي أو معه، قدمت من قبل الروائي في "الأرض والدم" و"سبات العادل" و"التيوس"، بأسلوب سردي، متضمنا الوصف الذي وصفت به الحوار الذي دار بينها وبين مختلف الشخصيات؛ وقدمت مع البطل في "سأهبك غزالة" و"التلميذ والدرس" و"رصيف الأزهار لا يجيب"، من خلال أعمالها وتصرفاتها بأسلوب سردي إيحائي؛ وقدمت في بقية الروايات من زوايا متعددة اعتمادا على أفعالها وأقوالها وأقوال الآخرين عنها بالسرد والحوار.

رسم الروائي المغاربي المفرنس للفرنسية زوجة المغاربي صورة حية ومقنعة، مكنه من ذلك احتكاكه الشديد بها ومعايشته لها واقعيا وفنيا، ولذلك استطاع أن يسبر أغوارها النفسية ويرصد دوافعها ورغباتها ونزواتها، وبذلك استطاع أن يرسم لها صورة حية، مجسمة بمحاسنها ومساوئها، عكس الروائي المغاربي المعرب

---

[105] الفصل الرابع، شخصية زوجة المغاربي.

[106] الفصل الرابع، شخصية زوجة المغاربي.

الذي لم يتأثر بالفرنسية بصفة عامة، ولم يرتبط بها عاطفيا، ولذلك جاءت رواياته خالية من صورها، وحتى الصور التي رسمها لمختلف الفرنسيات جاءت ضعيفة باهتة لا توحي بشيء.

ومن نسب حضور نماذج الفرنسية في الرواية العربية المغاربية، يمكننا ترتيب نماذجها على النحو الآتي:

زوجة الفرنسي (33,3%)، التاجرة (25%)، العاملة أو الموظفة (16,7%)، الفتاة (16,7%)، زوجة المغاربي أو حبيبته أو عشيقته (8,3%).

أما في الرواية المغاربية الفرنسية، فيكون ترتيبها كالآتي: زوجة المغربي أو حبيبته أو عشيقته (56%)بزوجة الفرنسي (16%)، التاجرة أو صاحبة المحل (16%)،الفتاة (8%)، الموظفة أو المعلمة (4%).

وبملاحظة عدد الفرنسيات في الرواية المغاربية (12) والرواية المغاربية الفرنسية (25)، وبملاحظة نسبة حضور كل نموذج من نماذجهن، نستنتج أن الفرنسية تحتل جزءا كبيرا جدا من عالم الروائي المغاربي المفرنس نتيجة تأثره الشديد بها سلبا أو إيجابا، وبخاصة زوجته أو حبيبته أو عشيقته التي ارتبط بها عاطفيا، وأثرت في حياته بالغ الأثر، وجعلته يبذل مساعي كثيرة للتكيف معها ومع نمط معيشتها، ولذلك غالبا ما تترك في نفسه شرخا عميقا بعدما ينفصل عنها مثلما حدث لـ "أرزقي" مع "جيرمان" في رواية "سبات العادل"، ولـ"والديك" مع "سيمون" في رواية "التيوس"، ولـ"المؤلف" مع "جيزال دوروك" في رواية "سأهبك غزالة"، ولـ "صلاح" مع "جيرمان" في رواية "التلميذ والدرس"،... إلخ، وذلك الشرخ هو مصدر الحدة في رسم صورتها والإصرار على رسم تصرفاتها وأفكارها.

وقد تأثر الروائيون المغاربة بالمرأة الفرنسية، فرسموا لها صورا واعتمدوا على مكوناتها النفسية في التعليل لتصرفاتها وأعمالها وآرائها، واستعملوا شتى الأساليب الفنية لرسم صورها، فقدموها من زوايا متعددة ووصفوها وسردوا أفعالها وذكروا الحوار الذي دار بينها وبين مختلف الشخصيات؛ ولذلك جاءت

صورها حية ومقنعة بقبحها وجمالها ومعبرة عن المرأة الفرنسية او موحية بذلك.

ثالثا- النموذج العام للفرنسي

تضمنت الرواية المغاربية عموما ثمان وتسعين صورة للرجل الفرنسي، بعد جمع صور الفرنسي في الرواية المغاربية العربية (53) مع مثيلاتها في الرواية المغاربية الفرنسية (46)،كما تضمنت سبعا وثلاثين صورة للمرأة الفرنسية، بعد جمع صورها في الرواية المغاربية العربية (12) مع مثيلاتها في الرواية المغاربية الفرنسية (25). وبذلك يكون مجموع صور الفرنسي -ذكرا وأنثى - في الرواية المغاربية مائة وخمسا وثلاثين صورة، تضمنتها إحدى وثلاثين رواية.

يدلّ احتواء كل رواية مغاربية على ما يزيد عن أربع شخصيات فرنسية على شدة تأثر المغاربة بالفرنسي، ولذلك رسموا له صورا كثيرة منها الباهت ومنها الواضح، ومنها الجميل ومنها القبيح؛ حيث رسموا الصفات الجسمية الدالة على الفرنسي مثل الشعر الأصفر والعينين الزرقاوين والبشرة البيضاء والقامة الطويلة واللبس الأنيق والنظافة والرشاقة. كما رسموا الصفات الدالة على الشخصية بعينها: بصلع الرأس وضيق العينين وتهدل الأوداج وانتفاخ البطن وقصر الساقين؛ ورسموا الصفات المعنوية العامة أيضا مثل قوة الشخصية وسعة الثقافة والحيوية، ولم ينسوا الصفات الخاصة الفردية مثل الغرور والعنصرية والخبث والجبن والغباء؛ وبنوا على الصفات الحميدة والقبيحة آراءهم في كل شخصية، فاعترفوا للمُجدّ بجده وللذكي بذكائه وللطيب بطيبته، وللمخلصة بإخلاصها، وللمناضلة بنضالها، واستنكروا على الظالم ظلمه، وعلى العنصري عنصريته، وعلى الاستعماري نزعته الاستعمارية، وعلى الاستغلالي استغلاله، وعلى البخيل بخله، وعلى الجبان جبنه، وعلى الفاسقة فسوقها، وعلى الخائنة خيانتها، وعلى الثرثارة ثرثرتها، وعلى الحقودة حقدها... إلخ.

وقد تعددت أساليبهم في رسم كل ذلك بدقة، ولكننا نستطيع القول ان الروائي المعرّب اعتمد في رسم صورة الفرنسي والفرنسية على السرد التقريري المباشر ذي النبرات الخطابية مع جهله التام بأغوار نفسية الفرنسي؛ وبذلك لا نجد صورا قوية واضحة مقنعة للفرنسي أو الفرنسية في الرواية العربية.

أما الروائي المغاربي المفرنس، فقد اعتمد في رسم صورة الفرنسي والفرنسية على مختلف الأساليب الفنية: السرد، الحوار، المناجاة، التداعي... إلخ، والتقديم المتعدد الزوايا للشخصية: من قبل المؤلف، أو من قبل القاص، أو من قبل البطل، أو من قبل الشخصية نفسها... إلخ.

كل ذلك اعتمادا على جمل عنيفة حادة أو جمل موحية بهدف إبراز أغوار نفسية الشخصية التي سبرها الروائي بثقافته الفرنسية والغربية الواسعة، ثم بمعايشته الفرنسيين والاحتكاك بهم أثناء الدراسة، ثم العمل بالاحتكاك اليومي، نتيجة لانعدام الحاجز اللغوي أولا وضعف الحاجز الاجتماعي ثانيا.

وهكذا، استطاع الروائي المغاربي المفرنس أن يرسم للفرنسي والفرنسية صورا حية تمثل الإنسان الفرنسي في المغرب العربي، أو تقنع القارئ بذلك... وقد ساعده على ذلك بلا ريب ثقافته الفرنسية وسعة اطلاعه على نماذج روائية أصيلة تعتبر من الروائع العالمية سواء الفرنسية أو المترجمة إلى الفرنسية، مما أكسبه حنكة في التصرف والتحايل مع مكونات الفن الروائي على مستوى أرقى.

الخاتمة

ما زالت جوانب متعددة في الأدب العربي مهملة دون درس، ومنها التأثيرات التي تعرض لها في العصر الحديث من الثقافات الغربية التي فرضت وجودها على العرب.

ويعتبر الشعب الفرنسي أول شعب أوروبي فرض نفسه وثقافته على جزء كبير من العالم العربي، وأثر تأثيرا بقيت بصماته واضحة عميقة إلى اليوم.

ولقد حاول الباحث في هذه الدراسة أن يبرز تأثير الشعب الفرنسي في الشعب المغاربي وتأثر المغاربي بالفرنسي، وكانت النتائج العامة التي توصل إليها ما يلي:

فرض الفرنسي وجوده على المغاربي بقوة السلاح أولا، ثم بالاستيلاء على كل مصادر العيش ثانيا، ثم بتحطيم الثقافة العربية الإسلامية واستبدالها بثقافة فرنسية موجهة لخدمة الأهداف الاستعمارية ثالثا، وبذلك أحاط بالمغاربي من كل الجهات وجعله أمام اختيارين:

إما الانسلاخ عن الأصالة، والاندماج في الأمة الفرنسية، وإما الاكتفاء بالوجود المجرّد دون التطلع إلى أي شيء بعد ذلك.

-رفض المغاربة الفرنسيين في المراحل الأولى من الاحتلال ماديا ومعنويا، ثم بدأ التعامل بين الفريقين، فأقبل البعض من أبناء المغاربة على المدارس الفرنسية سعيا وراء لقمة العيش، وصاروا فيما بعد الواسطة بين الفرنسيين وأهاليهم وبذلك بدأت عملية التأثير بين الفرنسيين والمغاربة.

-تأثر الروائيون المغاربة تأثرا شديدا بالفرنسيين، واحتل الإنسان الفرنسي حيزا واسعا في عالم الروائي المغاربي. فقد تضمنت الروايات الواحدة والثلاثون المنتقاة مائة وخمسا وثلاثين شخصية فرنسية بمعدل أربع شخصيات

على الأقل لكل رواية، ومن الممكن أن تقوم أربع شخصيات في رواية بجل أحداثها أو بنسبة هامة منها، وهذا دليل على شدة تأثر الروائي المغاربي بالإنسان الفرنسي.

-ركز الروائيون المعربون على الفرنسي الرسمي أو رجل السلطة تركيزا شديدا وبخاصة "الجندي" و"رجل الأمن" و"الحاكم".

-ركز الروائيون المفرنسون على الفرنسي الرسمي أو رجل السلطة "الجندي" و"رجل الأمن"، كما ركزوا أيضا على الفرنسي المثقف بصفة عامة "الطالب" و"المثقف".

-لم يهتم الروائي المغاربي بالمرأة الفرنسية كثيرا.

-اهتم الروائي المفرنس كثيرا بالمرأة الفرنسية وبخاصة زوجة المغاربي أو حبيبته أو عشيقته.

-تركيز الروائي المغاربي على الفرنسي الرسمي وقلة اكتراثه بالمرأة وتركيز الروائي المفرنس على نماذج مدنية من الفرنسيين زيادة عن الفرنسي الرسمي واهتمامه الشديد بالمرأة، دليل على تأثر الروائيين المفرنسين الشديد بالفرنسي وثراء عالمهم الروائي بصور الفرنسيين، ودليل أيضا على ضعف تأثر الروائيين المعربين -نسبيا - بالفرنسيين وضحالة صورة الفرنسيين في عالمهم الروائي.

-لعبت اللغة الفرنسية دورا أساسيا في تأثر الروائيين المفرنسين بالفرنسيين وقلة تأثر المعرّبين بهم، زيادة عن اختلاف بيئة المفرنسين الحضرية عن بيئة المعربين الريفية أو القروية، حيث كانت الأولى عامل تقارب، والثانية عامل تباعد إلى حد ما.

-تضمنت الروايات المغاربية -عربية وفرنسية - نماذج وأنماط متعددة للفرنسي بلغت خمسة عشر نموذجا مع شيء من التساهل، في ضم الشخصيات ضمن نماذج محددة، وهذا دليل على تأثر الروائي المغاربي بقطاعات متعددة من الشعب الفرنسي.

-لا وجود لنمطية جامدة في رسم صور الفرنسي حتى في إطار النموذج الواحد، حيث لا تتشابه شخصيات النموذج إلا في بعض الصفات الجسمية العامة أو الخلقية، وبخاصة عند الروائيين المفرنسين الذين سبروا أغوار نفسية الشخصية، وبذلك أعطوا لمعظم الشخصيات سماتها الفردية.

-للفرنسي دور هام في تطور أحداث الرواية وبنائها وبخاصة "المرأة" و"الجندي" و"المثقف" و"رجل الأمن" و"الطالب" عند المفرنسين، و"الجندي" و"رجل الأمن" و"الحاكم" عند المعربين، حيث يشارك الفرنسي الشخصيات المغاربية في الأحداث سلبا أو إيجابا في الرواية المغاربية الفرنسية وتقوم بينه وبين المغاربي عملية صراع ظاهر أو خفي، تمتد عبر جزء كبير على الأقل من الرواية.

ويكون عقبة أمام المغاربي في الرواية المغاربية العربية، يتخطاها المغاربي دوما أو غالبا، وبذلك يكون الفرنسي نقيض المغاربي أو المحك الذي تظهر بواسطته بطولة المغاربي. وبالتالي يمكن أن نستنتج أن الفرنسي في الرواية المغاربية الفرنسية أكثر فاعلية من الرواية المغاربية العربية، حيث يفرض نفسه على الروائي وأحداث الرواية، وبذلك تظهر صفاته الحميدة والذميمة وأفعاله المستحسنة والمستهجنة مبنية على أسس منطقية.

أما في الرواية المغاربية العربية، فالروائي هو الذي يفرض نفسه على الفرنسي ويرسمه كما يريد له أن يكون لا كما هو كائن، وبذلك غالبا ما تكون صورته بيضاء أو سوداء.

ومثلما تعددت نماذج الفرنسي وشخصياته وأدواره في تطور أحداث الرواية وبنائها، تعددت أساليب رسم صوره وبخاصة عند الروائيين المفرنسين: فالسرد التقريري المفصل المسجل لكل جزئيات الواقع هو السائد في روايات "مولود فرعون" و"محمد ديب" في مراحله الأولى، ثم "مولود معمري" و"آسيا جبار"، وهو الأسلوب المناسب لكل مستكشف جديد داخل على عالم جديد، إذ إنه يُخيل إليه أنه مطالب بأن يسجل كل صغيرة وكبيرة.

والسرد العصبي العنيف ذو الجمل الحادة هو السائد في روايات "إدريس الشرايبي" و"كاتب ياسين" و"رشيد بوجدرة" و"مصطفى التليلي"، وهو الأسلوب المناسب أيضا لكل غاضب على وضع معيّن، ولكل من يريد أن يغير بعنف وبسرعة وبجرأة.

والسرد الشاعري الإيحائي هو السائد في روايات "مالك حداد" الذي غرق قلبه في هموم قومه، وأراد أن يصور كل شيء ضمن عالمه الرومانسي الحساس، وذلك هو السائد في روايات "محمد ديب" الأخيرة.

تلك أهم الأساليب في رسم صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية الفرنسية، وقد استعانت جميعها بالحوار المباشر عند المجموعة الأولى، والحوار العنيف الحاد عند المجموعة الثانية، والحوار الذكي اللماح عند المجموعة الثالثة؛ كما استعانت بالمناجاة وبخاصة عند "مالك حداد" و"محمد ديب" و"رشيد بوجدرة"، ثم بالتداعي وبخاصة عند "إدريس الشرايبي" و"مصطفى التليلي"، ثم بالتقطيع عند "كاتب ياسين" و"آسيا جبار".

-لقد اعتمد الروائيون المعربون في رسم صورهم على السرد التقريري المباشر ذي النبرة الخطابية وبخاصة "أحمد زياد" و"عبد الرحمن عمار" و"محي الدين بن خليفة" و"محمد العروسي المطوي" و"عبد الكريم غلاب"؛ واستعانوا في سردهم بالحوار المباشر الساذج، واستعانت القلة منهم بالتداعي وبخاصة "الطاهر وطار" و"محمد المختار جنات".

وجاءت صور الفرنسي والفرنسية واضحة مقنعة ومؤثرة في الرواية المغاربية الفرنسية نتيجة لتعدد أساليب الرسم عند المفرنسين وغناها الفني. وجاءت مسطحة خالية من الأبعاد في الرواية المغاربية العربية، لاعتماد الروائيين على أسلوب واحد نتيجة فقرهم الفني؛ ونستثني من ذلك شخصية الضابط في رواية "اللاز" للطاهر وطار، فقد جاءت حية واضحة مقنعة.

ولا يرجع الغنى الفني عند المفرنسين والفقر عند المعربين إلى الأساليب في حدّ ذاتها، بل يرجعان إلى ثقافة الصّنف الأوّل الأدبية الرفيعة نتيجة تأثرهم بالآداب الغربية المتطورة، فقد مكنتهم من ذلك دراستهم المنتظمة والمنظمة؛ وإلى ثقافة الصّنف الثّاني الأدبية الهزيلة نتيجة تقوقعهم واعتمادهم كلية على الأدب العربي الذي كان الجمود سمته الكبرى آنذاك، نتيجة التعليم المتقطع غير المنتظم الذي تلقوه في مدارس خاصة ومراكز تعليمية هدفها المحافظة على الثقافة الدينية كما ورثتها عن عهود الانحطاط لا أكثر.

-ميّزت الرواية المغاربية بين الفرنسي المستعمر وفرنسي فرنسا، ونزّهت الفرنسي الحقيقي الحر من النزعة الاستعمارية والتعصب العنصري، وربطت النزعة الاستعمارية والتعصب العنصري بتطور حركة الاستعمار وعملياته.

-رسم الروائيون المغاربة صورة الفرنسي بمحاسنه ومساوئه وأنكروا عليه ما لم يرق لهم وأشادوا بما أعجبهم في شخصيته، وبذلك اتسموا بشيء من الصدق الفني والواقعي في رسم صورة الفرنسي وكان حَرِيًا بهم أن يرسموا له صورة سوداء نتيجة للطريقة التي اثر بها فيهم.

-ركز الروائيون المغاربة على تعلق الفرنسية بالمغاربي وسعيها وراءه ردا لاعتبارهم وثأرا لكرامتهم من الفرنسي.

تلك هي بعض النتائج المستخلصة من هذه الدراسة التي أوحت للباحث ببعض التوصيات علها تفيد الباحثين وتفتح آفاقا في الدراسات الأدبية:

-شملت الدراسة الروايات المغاربية -عربية وفرنسية -، فجاءت الرقعة الجغرافية واسعة، والقائمة العددية للروايات طويلة، لذلك نرجو أن تقوم من بعدها دراسات أكثر تحديدا "بالقطر أو الروائي أو الرواية الفرنسية أو الرواية العربية وحدها"، لتكون أدق وأكثر تركيزا، خصوصا وأنه قد ظهر المئات من الروايات العربية والفرنسية في الأقطار الثلاثة بعد إنجاز هذا البحث.

-دراسة الموضوع من الوجهة النفسية أو الاجتماعية والتركيز على دوافع الروائيين التي جعلتهم يرسمون تلك الصور كما رسموها، ستكشف عن حقائق هامة وظواهر غير مدروسة في علاقة الأديب بواقعه ومشاكل الشكل الروائي بعامة.

-لا شك أن دراسة علاقة كل شخصية فرنسية وردت في البعض من الروايات المغاربية أو كلها بالشخصيات المغاربية مع التركيز على العلاقة فقط، ستفتح آفاقا جديدة.

-ولا شك أن دراسة الشخصيات الفرنسية في الرواية المغاربية اعتمادا على المنهج البنائي ستظهر نتائج أخرى غير التي توصل إليها هذا البحث.

لقد حظيت المرأة الفرنسية وبخاصة زوجة المغاربي أو حبيبته باهتمام كبير في الرواية المغاربية الفرنسية على الأخص، ودراستها في فصل ضمن رسالة لا تكفي بتاتا، بل تحتاج إلى تسليط الكثير من الضوء عليها في دراسة منفصلة.

-تعلق الفرنسية بالمغاربي وسعيها وراءه دون أية مبادرة ظاهرة تحتاج إلى تفسيرات وبخاصة من وجهة نظر المغاربي.

وثمة خصال وصفات كثيرة في الفرنسي والفرنسية أعجب بها المغاربي، وتسليط مزيد من الضوء على أسباب ذلك الإعجاب ودوافعه، ستعينه على تحليل واضح لشخصية المغاربي.

-موازنة صورة الفرنسي أو الفرنسية في الرواية المغاربية العربية أو الفرنسية أو كلتيهما في الرواية المصرية أو الشرقية عامة، قد تؤدي إلى بعض النتائج الهامة.

-تعلق الفرنسية بالمغاربي والإنجليزية بالسوداني أو المشرقي عملية ثأر يقوم بها المستعمر ضد مستعمريه عندما يعجز عن الثأر المسلح، وموازنة هذه الظاهرة بين الرواية المغاربية والمشرقية يمكن أن تكون لها نتائج هامة وبخاصة إذا كان منهج الدراسة نفسيا.

-ثمة الكثير من الصور الأجنبية في الأدب العربي الحديث تستحق الدراسة والكشف عنها، ولكي تعطي تلك الدراسات ثمارا كثيرة ومفيدة لا بد من محاولة استنتاج منهج أو أسلوب محدد يسلكه الدارسون ليركزوا جهودهم على رسم الصورة وبخاصة من الناحية الفنية، حتى تدخل الدراسة في باب الأدب المقارن بشكل واضح وتفيد من تقنياته وأساليبه.

وبعد، فهذا جهد لا يطمع صاحبه في أكثر من أن يكون لبنة قوية في بناء صرح الدراسات الأدبية والفنية في المغرب العربي.

المصادر والمراجع

قسمت المصادر والمراجع إلى قسمين أساسيين:

أولا: -مصادر عربية (الروايات العربية ثم المعربة)

- مراجع عربية (الدراسات الفرنسية)
- المجلات العربية.

ثانيا: - مصادر أجنبية (الروايات الفرنسية المغربية)

- دراسات أجنبية (الدراسات العربية المعربة)

ورتبت المصادر والمراجع على نسق الترتيب الشائع: حسب أسماء المؤلفين مرتبين أبجديا ثم ذكر إنتاجهم رواية أو دراسة حسب تاريخ الصدور في أول طبعة.

أولا ـ المصادر العربية والمراجع

1-المصادر (الروايات العربية)

ابن خليفة (محي الدين)

1 -سوق الكلاب: مطبعة المعارف سوسة، تونس، 1976.

ابن سالم (محمد الحبيب)

2 -وناس: الدار التونسية للتوزيع، تونس، 1973.

ابن ضياف (محسن)

3 -التحدي: الدار التونسية للتوزيع، تونس، 1972.

الجابري (محمد الصالح)

4 -يوم من أيام زمرا: الدار التونسية للنشر، تونس، 1968.

خريف (البشير)

5 -الدقلة في عراجينها: الدار التونسية للنشر، تونس، 1969.

زياد (أحمد)

6 -بامو: دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1974.

عرعار (محمد العالي)

7 -ما لا تذروه الرياح: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972.

العروسي المطوي (محمد)

8 -حليمـة: الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط.ج.ب.ت.
عمـار (عبد الرحمن)
9 - حب وثورة: الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1969.
10 -عندما ينهال المطر: الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، 1975.
غـلاب (عبد الكريم)
11 -سبعة أبواب: دار المعارف، مصر، 1965.
12 -دفنا الماضي: المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، 1966.
13 -المعلم علي: المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، 1971.
المختار جنـات (محمد)
14 -نوافذ الزمن: الدار التونسية للتوزيع، تونس، 1974.
وطـار (الطاهر)
15 - اللاز: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1974.

2 -المصادر (الروايات المترجمة):

حداد (مالك)
16 -سـأهبك غزالـة: (ترجمـة صـالح القرمـادي)، الشـركة الوطنيـة للنشـر والتوزيـع، الجزائروالدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1973.

3-المراجـع العـربيـة (الدراسات العربية والمعربة)

ابن عاشور (محمد الفاضل)
1 -الحركة الأدبية والفكرية في تونس: الدار التونسية للنشر، تونس، 1972.
سعد الله (د. أبو القاسم)
2 -الحركة الوطنية الجزائرية (1900 -1930): دار الآداب، بيروت، ط1، 1969.
3 -منطلقات فكرية: الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، 1976.
الطاهـر (عبد الله)
4 -الحركة الوطنية التونسية: مكتبة الجماهير، بيروت، ط1، 1976.
عصفـور (جابر)
5 -قضية الصورة الفنّية في التراث البلاغي والنقدي، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، 1973.
غـلاب (عبد الكريم)

6 -تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب: الشركة المغربية للطبع والنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1976.
غنيمي هلال (د.محمد)
7 -الأدب المقارن: الأنجلو المصرية، ط2، القاهرة، 1962.
طحان (ريمون)
8 -الأدب المقارن والأدب العام: دار الكتاب اللبناني، ط1، بيروت، 1972.
ناصف (د. مصطفى)
9 -الصورة الأدبية، مكتبة مصر، ط1، القاهرة، 1958.
الخطيبي (عبد الكبير)
10 -الرواية المغربية: (ترجمة محمد برادة) منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المغرب، 1971.
لوتسكي
11 - تاريخ الأقطار العربية الحديث: (ترجمة د. عفيفة البستاني)، دار النقد، موسكو، 1975.

4-المجلات العربية

1 -مجلة المعرفة، السنة الثانية، العدد24، سوريا، 1964.
2 -مجلة لوتس، عدد 1، القاهرة، مارس 1968.

ثانيا ـ المصادر والمراجع الأجنبية

المصادر (الروايات الفرنسية)

I/ LES ROMANS

BOUDJEDRA (Rachid)
1- La Répudiation, Denoël, 2 éd., Paris, 1976.
CHRAIBI (Driss):
2- Le Passé Simple, Denoël, 2 éd., Paris, 1977.
3- Les Boucs, Denoël, 2 éd., Paris, 1976.
DIB (Mohammed)

4- L'incendie: Seuil, Paris, 1954.

5- Dieu en Barbarie: Seuil, Paris, 1970.

DJEBAR (Assia)

6- Les Enfants du Nouveau Monde, Julliard (coll. 10/18), Paris, 1962.

FARES (Nabil)

7- Yahia, Pas de Chance, Seuil, Paris, 1970.

FERAOUN (Mouloud)

8- Le Fils du Pauvre: Seuil (réédition), Paris, 1954.

9- La Terre et le Sang: Seuil, Paris, 1953.

HADDAD (Malek)

10- L'élève et la Leçon: Julliard (coll. 10/18), 2 éd., Paris, 1973.

11- Le Quai Aux Fleurs ne répond plus: Julliard (coll. 10/18), 2 éd., Paris, 1973.

KATEB (Yacine)

12- Nedjma: Seuil, Paris, 1956.

MAMMERI (Mouloud)

13- Le Sommeil du Juste: Plon, 2 éd., Paris, 1975.

14- L'opium et le Bâton: Aurisses Pocket, nouvelle éd., Paris, 1970.

Tlili (Mustapha)

15- La Rage aux Tripes, Gallimard, Paris, 1975.

II/ LES ETUDES

AGERON (Ch. Robert)

1- L'histoire de l'Algérie Contemporaine, P.U.F, 5 éd., Paris, 1974.

AMIN (Samir)

2- Le Maghreb Moderne, éd. De Minuit, Paris, 1970.

BOURNEUF (R) et OUELLET (R)

3- L'univers du Roman, P.U.F (coll. Sup.), Paris, 1972.

BONN (Charles)

4- La Littérature Algérienne de Langue Française et ses Lecteurs, éd. Naaman, Canada, 1974.

CHARRA (Alice)

5- L'image du Colonialisme Espagnol dans le Roman Américain, Marcel Didier, Paris, 1975.

COLONA (Fanny)

6- Instituteurs Algériens 1883-1939, O.P.U, Alger, 1975.

DEJEUX (Jean)

7- Littérature Maghrébine de Langue Française, Naaman, Canada, 1973.

8- La littérature Algérienne Contemporaine, P.U.F, Paris, 1975.

GUYARD (Marius. F.)

9- La Littérature Comparée, P.U.F, 5 éd., Paris, 1969.

10- La Grande Bretagne dans le Roman Français (1914-1940), Marcel Didier, Paris, 1954.

HARDY (Georges)

11- L'histoire Sociale de la Colonisation Française, Larousse, Paris, 1953.

JEUNE (Simon)

12- Littérature Générale et Littérature Comparée, Minard (coll. "Situation"), Paris, 1968.

LAHJOMRI (Abdeljelil):

13- L'image du Maroc dans le Littérature Française, SNED, Alger, 1973.

LARAOUI (Abdallah)

14- L'histoire du Maghreb, F. Maspero, Paris, 1970.

MARANDON (Sylvaine):

15- L'image de la France dans l'Angleterre Victorienne de 1948-1900, Armand Colin, Paris, 1967.

MEMMI (Albert)

16- Portrait du Colonisé, Payot (Petite Bibliothèque), nouvelle éd., Paris, 1973.

MERAD (Ghani)

17- La Littérature Algérienne d'expression française, P.J. Oswald, Paris, 1976.

MICHAUD (Guy)

18- Préface pour le Mythe du Nègre et de l'Afrique Noire dans la Littérature française, Léon Fanoudh Siffer, C Klincksieck, Paris, 1968.

PICHOIS (Claude) et ROUSSEAU (A.M)

19- La Littérature Comparée, Armand Colin (coll. U2), 3 éd., Paris, 1971.

TODOROV (Tzvetan)

20- Littérature et Signification, éd. Larousse, Canada, Paris, 1973.

VANTIEGHEM (Paul)

21- La Littérature Comparée, Librairie Arnaud Colin, Paris, 1931.

WARDY (Charlotte)

22- Le Juif dans le Roman français, Nizet, Paris, 1973.

الفهارس

فهرس جداول النماذج الفرنسية

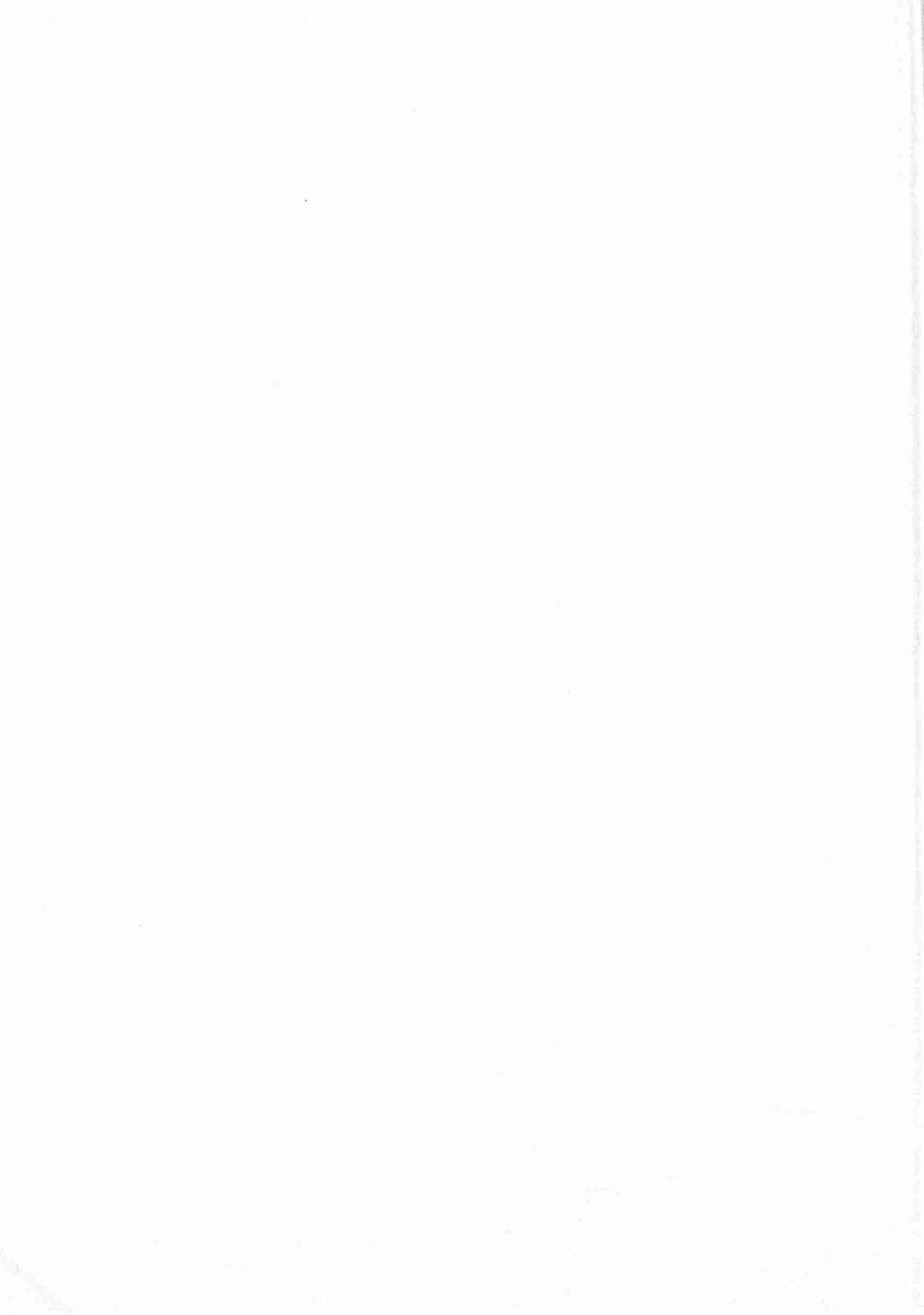
جداول النماذج

فهرس الموضوعات

الفصل الرابع:

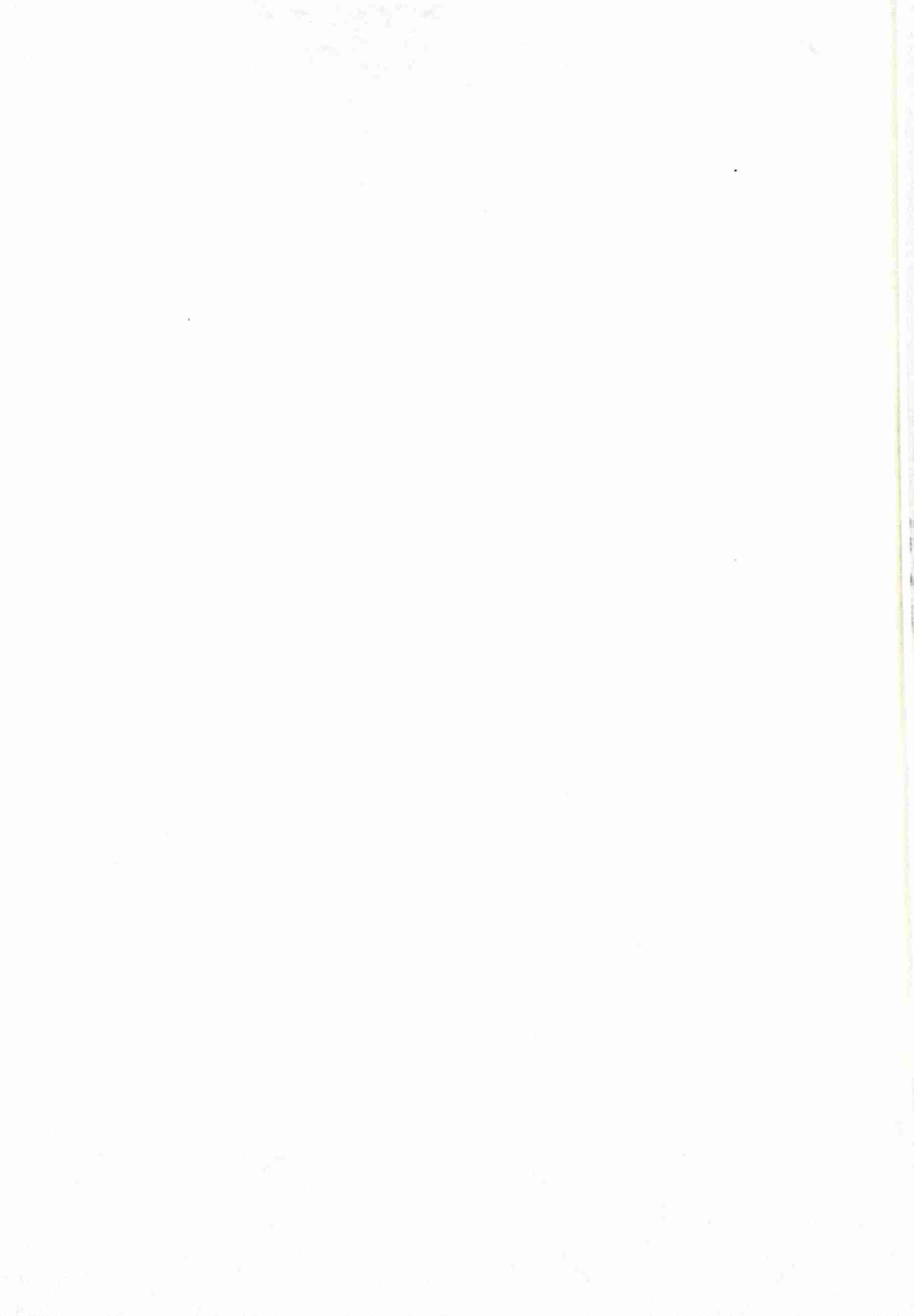
الفصل الخامس:

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية - الجزائر-
2013
Achevé d'imprimer sur les presses
ENAG, Réghaïa
-Algérie-
Bp 75 Z.I. Réghaïa Tél: (023) 96 56 10 /11













عبد المجيد حنون من مواليد 1948م في بلدية الشّقفة، ولاية جيجل (الجزائر). انتقل إلى مدينة عنّابة - بسبب وقائع الثّورة - ، وفيها زاول تعلّمه، وأحرز على شهادة البكالوريا آداب وفلسفة سنة 1971م. التحق بجامعة قسنطينة، وتخرّج منها بشهادة اللّيسانس في الأدب العربي سنة 1974م.

بعد سنة من العمل معيدا في جامعة قسنطينة، التحق بجامعة القاهرة التي أحرز فيها على درجة الماجستير في الأدب العربي الحديث بإشراف المرحومة الدّكتورة سهير القلماوي، سنة 1979م.

التحق بجامعة عنّابة (قسم اللّغة العربية)، وتدرّج فيها في الرّتب العلمية (أستاذا مساعدا، فمحاضرا، فأستاذا للتّعليم العالي حتّى اليوم)؛ وفي المناصب الإدارية والمسؤوليات العلمية (مدير معهد اللّغات والآداب، ومدير مركز التّعليم المكثّف للّغات، ونائب مدير الجامعة للدّراسات العليا والبحث والعلاقات الخارجية، ثمّ عميدا لكلّية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ونائب مدير الجامعة للتّعاون والعلاقات الخارجية، ومدير مخبر الأدب العام والمقارن، ومنسّق مدرسة الدّكتوراه في الأدب العام والمقارن.

- أشرف على عدّة مشاريع بحث مثل: معجم الأساطير الأدبية (ترجمة)، وموسوعة الأساطير الأدبية عند العرب.
- أشرف على مشاريع تكوين في الماجستير مثل: مشروع الأساطير الأدبية، ومشروع الأدب المقارن.
- أشرف على العشرات من رسائل الماجستير والدّكتوراه، جلّها في الأدب العام والمقارن.
- ناقش العشرات من رسائل الماجستير والدّكتوراه في جامعة عنّابة، والعديد من الجامعات الجزائرية.
- شارك في العديد من الملتقيات العلمية داخل الوطن وخارجه.
- نشر العديد من المقالات في الأدب المقارن، في مجلّات جزائرية أو عربية.
- أصدر كتابين، وله عدد من الكتب قيد النّشر.
- عضو الجمعية الدّولية للأدب المقارن

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة الجزائرية
بمناسبة الذكرى الخمسين لعيد الاستقلال



ISBN 9931-322-48-1



BAHAEDDINE EDITIONS

دار بهاء الدين للنشر والتوزيع